العلامة الفقيه المفسّر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مختصر الأمثل

في

تفسير كتاب الله المنزل

الجزء الثالث

اختصره: أحمد علي بابائي

النمل - الروم

دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مختصر الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

الجزء الثالث

النحل - الروم

العلامة الفقيه المفسّر
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

إعداد: احمد علی بابائی

فهرستنویسی پیش از انتشار: توسط مدرسة الامام علی بن ابی‌طالب علیه السلام.

مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -
مختصرالامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / مکارم الشیرازی؛ اعداد احمد علی‌بابائی. قم: مدرسة الامام علی بن ابی‌طالب علیه السلام، ۱۴۲۸ ق.: ۱۳۸۶.
۵ج.
ISBN: 964-533-53-X (دوره)
ISBN: 964-533-050-5 (ج. ۳)
کتاب حاضر برگزیده «الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل» که خود نیز ترجمه و تلخیص «تفسیر نمونه» مؤلف است، می‌باشد
کتابنامه به صورت زیرنویس.
۱. تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴. الف. علی بابائی، احمد، ۱۳۴۴ - ، گردآورنده. ب. مدرسة الامام علی بن ابی‌طالب علیه السلام. ج. عنوان. د. عنوان: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل. برگزیده. هـ. عنوان: تفسیر نمونه. برگزیده
BP۹۸ / ۷۰۴۴۷ ت ۷ م
۲۹۷/۱۷۹

الناشر الأفضل لعام ۲۰۰۵ - ۲۰۰۶م

مختصر الامثل
في تفسير كتاب الله المنزل
الجزء الثالث

المؤلف: العلّامة الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
اعداد: احمد علي‌بابائي
الكمية: ۲۰۰۰ نسخة
الطبعة: الاولى
تاريخ النشر: ۱۴۲۸ ق
عدد الصّفحات: ۵۹۲ صفحة
حجم الغلاف: كبير
المطبعة: سليمانزاده
النّاشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
ردمك: ۵-۰۵۰-۵۳۳-۹۶۴
ردمك الدورة: X-۵۳-۵۳۳-۹۶۴

کتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شماره ثبت: ۰۱۷۹۰۹
تاریخ ثبت :

ايران - قم - شارع شهدا - فرع ۲۲
تلفكس: ۷۷۳۲۴۷۸-۲۵۱-۹۸+
www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ۲۰/۰۰۰ تومان

١٦
سورة النّحل
وهي مائة وثمان وعشرون آية

مكية

محتوى السورة: من خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تتناوله الآيات المكية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة الشرك وعبادة الأصنام، وتارة أُخرى ما تتناوله الآيات المدنية مثل: الأحكام الاجتماعية ومسائل الجهاد والهجرة.

ويمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية وإحكام بما يلي:

١ـ ذكر النعم الإلهية، وتفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذي حس حي، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم وواهبها.

ومن النعم المذكورة في السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات والثمار، المواد الغذائية الأُخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات ومنافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة وحتى نعمة الولد والزوجة، وبعبارة شاملة (أنواع الطيبات).

ولهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

وعرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعاني الجليلة والعجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهية الواسعة، وبخصوص اعتبار النحل مصدراً لغذاء مهم من أغذية الإنسان، وباعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد الله.

٢ـ الحديث عن أدلة التوحيد، عظمة ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين والمجرمين.

٣ـ تناول الأحكام الإسلامية المختلفة.

٤ـ الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حيّة.

٥ـ وأخيراً تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي ﷺ أنّه قال: «من قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التي أنعمها عليه من دار الدنيا».

فقراءة الآيات بتدبّر وتفكّر مع وجود العزم على العمل والسير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلًا لأن يستعمل الإنسان كل نعمة بما ينبغي عليه أن يستعمل، فلا يحبس ولا يهمل، ويكون من الشاكرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

أتى أمر الله: ذكرنا سابقاً أنّ قسماً مهمّاً من الآيات التي جاءت في أوّل السورة هي آيات مكية نزلت حينما كان النبي ﷺ يخوض صراعاً مشتداً مع المشركين وعبدة الأصنام، وما يمرّ يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهة جديدة ضد الدعوة الإسلامية المباركة، لأنّها تريد بناء صرح الحرية، بل كل الحياة من جديد.

ومن جملة مواجهاتهم اليائسة قولهم للنبي ﷺ حينما يهددهم وينذرهم بعذاب الله: إن كان ذلك حقاً فلِم لا يحلّ العذاب والعقاب بنا إذن؟!

ولعلهم يضيفون: وحتى لو نزل العذاب فسنلتجيء إلى الأصنام لتشفع لنا عند الله في رفع العذاب... ولِم لا يكون ذلك، أوَ لسن شفيعات؟!

وأوّل آية من السورة تُبطل أوهام أُولئك بقوله تعالى: **﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾**. وإن اعتقدتم أنّ الأصنام شافعة لكم عند الله فقد أخطأتم الظن **﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**.

وبما أنّ مستلزمات العدل الإلهي اقتضت عدم العقاب إلّا بعد البيان الكافي والحجة التامة، فقد أضاف سبحانه: **﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾**. بناء على هذا الإنذار والتذكير **﴿فَاتَّقُونِ﴾**.

أمّا المقصود من «الروح» في الآية هو: الوحي والقرآن والنبوة، والتي هي مصدر الحياة المعنوية للبشرية.

إنّ كلمة «الروح» في هذا الموضوع ذات جانب معنوي وإشارة إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب وتهذيب النفس وهداية العقول.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نفي الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، وتوجّه الإنسان نحو خالقه بطريقين:

الأوّل: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم ومحاولة استيعاب ما في الخلائق من نظام عجيب.

الثاني: عن طريق العاطفة ببيان نعم الله الواسعة على الإنسان، عسى أن يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: ﴿**خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ**﴾. وتتّضح حقانية السماوات والأرض من نظامها المحكم وخلقها المنظم وكذلك من هدف خلقها وما فيها من منافع.

ثم يضيف: ﴿**تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾. فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده الله؟!

بل هل تستطيع أن تخلق بعوضة صغيرة أو ذرة تراب؟!

فكيف إذن جعلوها شريكة الله سبحانه!

وبعد الإشارة إلى خلق السماوات والأرض وما فيها من أسرار لا متناهية يعرّج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول: ﴿**خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾.

«النطفة»: في الأصل بمعنى الماء القليل، أو الماء الصافي، ثم أطلقت على قطرات الماء التي تكون سبباً لوجود الإنسان بعد تلقيحها.

وحقيقة التعبير يراد به تبيان عظمة وقدرة الله عزّ وجل، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة وتكريم وشرف بين باقي المخلوقات وعند الله أيضاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى نعمة خلق الحيوانات وما تدر من فوائد كثيرة للإنسان فيقول: ﴿وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. فخلق الأنعام الدال على علم وقدرة الباري سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان.

ولم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسية والمعنوية كذلك حين قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

«تريحون»: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل إستراحتها، ولهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح).

و«تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحاً إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمة «جمال» عن تلك الحركة الجماعية للأنعام حين تسرح إلى مراعيها وتعود إلى مراحها.

فـ«الجمال» جمال استغناء واكتفاء ذاتي، وجمال إنتاج وتأمين متطلبات أُمّة كاملة، وبعبارة أوضح: جمال الإستقلال الاقتصادي وقطع كل تبعيّة للغير.

ثم يشير تعالى في الآية التي تليها إلى إحدى المنافع المهمة الأُخرى فيقول: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾. وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله عزّ وجلّ ورأفته حيث سخّر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدرة وقوّة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فالأنعام إذن: تعطي للإنسان ما يلبسه ويدفع عنه الحر والبرد. وكذلك تعطيه الألبان واللحوم ليتقوّت بها. وتترك في نفس الإنسان آثاراً نفسية طيبة. وأخيراً تحمل أثقاله.

ثم يعرج على نوع آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها في تنقلاته، فيقول: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

وتأتي الإشارة في ذيل الآية إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان في الحصول على الوسائط

النقلية المدنية من غير الحيوانات، فيقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المراكب ووسائل النقل.

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

بعد ذكر مختلف النعم في الآيات السابقة، تشير هذه الآيات إلى نعم أُخرى... فتشير أوّلاً إلى نعمة معنوية عالية في مرماها: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾. أي: عليه سبحانه سلامة الصراط المستقيم وهو الحافظ له من كل انحراف، وقد وضعه في متناول الإنسان.

ولكن أيّ النحوين من الصراط المستقيم هو المراد، التكويني أم التشريعي؟

اختلف المفسرون في ذلك، إلاّ أنّه لا مانع من قصد الجانبين معاً.

فقد هدى الله الإنسان بالعقل والقدرة وبقية القوى التكوينية التي تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء والوحي السماوي وأعطاه التعليمات الكافية والقوانين اللازمة للمضي بهدى التشريع الرباني في تكملة مشوار المسيرة، وترك باقي السبل المنحرفة.

ثم يحذّر الباري جلّ شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة كثيرة: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾.

وبما أنّ نعمة الإرادة وحرية الاختيار في الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآية بجملة قصيرة: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولا تستطيعون عندها غير ما يريد الله.

إلاّ أنّه سبحانه لم يفعل ذلك، لأنّ الهداية الجبرية لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل والفخر.

وفي الآية التالية يعود إلى الجانب المادي بما يثير حس الشكر للمنعم عند الناس، ويوقد نار عشق الله في قلوبهم بدعوتهم للتقرّب أكثر وأكثر لمعرفة المنعم الحق، فيقول: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً**﴾. ماء فيه سبب الحياة، وزلالاً شفافاً خال من أيّ تلوّث ﴿**لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ**﴾. وتخرج به النباتات والأشجار فترعى أنعامكم ﴿**وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾.

«تسيمون»: من مادة «الإسامة» بمعنى رعي الحيوانات.

ومما لا شك فيه أيضاً أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان وإرواء النباتات، بل ومن فوائده أيضاً: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان وتنفّسه براحة، وما شابه ذلك.. فالمذكور من فوائده في هذه الآية ليس حصراً وإنّما من باب الأهم.

ويكمّل الموضوع بقوله: ﴿**يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ**﴾.

ولا شك أنّ خلق هذه الثمار المتنوعة وكل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآية للمتفكرين ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

ثم يشير إلى نعمة تسخير الموجودات المختلفة في العالم للإنسان بقوله: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ**﴾. على عظمة وقدرة الله وعظمة ما خلق.

وإضافة لكل ما تقدم: ﴿**وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ من مخلوقات سخرّها لكم و﴿**مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ**﴾ من الأغطية والملابس والأغذية والزوجات العفيفات ووسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن وكنوز الأرض وسائر النعم الأخرى ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمًا طَرِيًّا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةً
تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن
لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

نعمة الجبال والبحار والنجوم: تبيّن هذه الآيات قسماً آخر من النعم الإلهية غير المحدودة التي تفضّل بها الله عزّ وجل على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوي للحياة، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾.

وكما هو معلوم أنّ البحار تشكّل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأنّ الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار تعتبر المنبع المهم في إدامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار في خدمة الإنسان...

ثم يشير الباري سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحار: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾. فقد جعل الله في البحار لحماً ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد في تربيته، بل أوجدته ونمّته يد القدرة الإلهية.

ومن فوائد البحار أيضاً تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

الحس الجمالي من الأمور الفطرية التي فطر الإنسان عليها وهو الباعث على إثارة الشعر والفن الأصيل وما شاكلها عنده.

وينبغي العمل على إشباعه بشكل صحيح وسالم بعيداً عن أيّ نوع من الإفراط والتفريط.

ولهذا أوصى الإسلام كثيراً بالتزيّن المعقول الخالي من أي إسراف مثل: لبس اللباس الجيّد، التطيّب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة... الخ.

ثم يتطرق القرآن إلى الفائدة الثالثة في البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمة لتنقل الإنسان ونقل ما يحتاجه، فيقول: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

وأعطاكم الله هذه النعمة لتستفيدوا منها في التجارة أيضاً ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وبعد ذكر هذه النعم التي تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتي في ذيل الآية: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ثم يأتي الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

ثم يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال والأنهار من علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: ﴿وَأَنْهَارًا﴾.

ثم يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أنّ الجبال حاجز بين إرتباط الأراضي فيما بينها بالإضافة لكونها مانعاً رهيباً أمام حركة النقل، فيقول: ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ثم يضيف قائلًا: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾. لأنّ الطرق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة ومميزات شاخصة يستهدي بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، ولذا ذكر هذه النعمة.

ومن تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الإرتفاع والإنخفاض، لون الأرض والجبال وحتى طبيعة حركة الهواء.

وأمّا في حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل في أيّ من سفر البر أو البحر، فقد جعل الله تعالى علامات في السماء تعوّض عن علامات الأرض.

وقد فسّرت «النجم» برسول الله ﷺ و«العلامات» بالأئمة عليهم السلام في روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفي بعضها فسّر «النجم» و«العلامات» كلاهما بالأئمة عليهم السلام وكل ذلك يشير إلى التفسير المعنوي لهذه الآيات.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «النجم رسول الله ﷺ، والعلامات الأئمة عليهم السلام».

وبعد أن بيّن القرآن كل هذه النعم الجليلة والألطاف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنساني للحكم في ذلك ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وكما اعتدنا عليه من القرآن في أُسلوبه التربوي الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاججة بصيغة سؤال يترك الجواب عنه في عهدة الوجدان الحي للإنسان.

وفي نهاية المطاف، يفنّد الباري سبحانه مسألة حصر النعم الإلهية بما ذكر، بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

ونواجه في هذا المقام سؤالاً وإستفساراً: كيف إذن نؤدّي حق الشكر لله؟ و.. ألسنا مع ما نحن فيه، في زمرة الجاحدين؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ خير جواب لذلك السؤال.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة في أداء أتمّ الشكر على نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين في حال اعتذرنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتتبع ونحصي النعم الربانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفة لله، وعلماً بعالم الخليقة، وآفاق التوحيد الرحبة، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه في أعماق قلوبنا، وكذا يحرّك فينا الشعور المتحسس بضرورة ووجوب شكر المنعم جلّ وعلا.

ولهذا نجد أنّ الأئمة ﷺ يتطرقون في أقوالهم وأدعيتهم ومناجاتهم إلى النعم الإلهية ويعدّون جوانب منها، عبادة لله وتذكيراً ودرساً للآخرين.

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾
إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾
لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

آلهة لا تشعر: تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أيّة منها على الأصنام، أمّا الآية الأُولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثالثه للمعبود الحقيق (وهي العلم) فتقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. فلماذا تسجدون للأصنام التي لم تكن هي الخالقة لكم، ولم تمنّ عليكم بأيّة نعمة، ولا تعرف عن علانيتكم شيئاً فضلاً عن سرّكم؟!

ثم يعود القرآن إلى مسألة الخالقية بأُفق أوسع من الآية السابقة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

وقد بحث لحدّ الآن في عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنّها ليست خالقة، ومع

ذلك كله، فإنّها ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾.

ثم يضيف قائلاً عنها: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

فإذا كان الثواب والعقاب بيد الأصنام، فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهنّ، ومع جهلها بيوم البعث والحساب كيف تكون لائقة للعبادة؟!

وهذه هي الصفة الخامسة التي يجب توفرها في المعبود الحقيقي وتفتقدها الأصنام.

إنّ مفهوم الصنم وعبادة الأصنام في المنطق القرآني أوسع من أنّ يحدد بالآلهة المصنوعة، فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل الله عزّ وجل، ونسلّم له أمر مصائرنا، فهو صنم وإن كان بشراً.

ولهذا فكل ما جاء في الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون الله بألسنتهم، ولكن في واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، وقد تبعوه لكونه المخلص لهم من دون الله، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

وبعد هذه الإستدلالات الحيّة والواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

وبما أنّ العلاقة بين المبدأ والمعاد مترابطة ربطاً لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. فأدلة التوحيد والمعاد قائمة لمن أراد الحق وطلب الحقيقة، إلّا أنّ سبب عدم قبول الحق وإنكاره يرجع إلى حالة الإستكبار وعدم التسليم له، ويصبح ملكة في وجود المنكرين.

ثم تتطرق الآية الأخيرة إلى علم الله في الغيب والشهادة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

والآية في واقعها تهديد للكفار وأعداء الحق، بأنّ الله عزّ وجل ليس بغافل عنهم.

فهم مستكبرون و﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾. والإستكبار على الحق من علامات الجهل بالله عزّ وجل.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: يروى أنّها نزلت في المقتسمين وهم ستة عشر رجلاً خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس على كل عقبة أربعة منهم ليصدّوا الناس عن النبي ﷺ وإذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

التّفسير

حمل أوزار الآخرين: دار الحديث في الآيات السابقة حول عناد المستكبرين واستكبارهم أمام الحق، وسعيهم الحثيث في التنصّل عن المسؤولية وعدم التسليم للحق. أمّا في هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم، فيقول القرآن: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾**. فليس هو وحي إلهي، بل أكاذيب القدماء.

«الأساطير»: جمع أسطورة، وتطلق على الحكايات والقصص الخرافية والكاذبة، وقد وردت هذه الكلمة تسع مرّات في القرآن الكريم نقلاً عن لسان الكفار ضدّ الأنبياء تبريراً لمخالفتهم الدعوة إلى الله عزّ وجل.

وفي جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأوّلين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديدة وأنّ الأيام ستتجاوزها حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن لسانهم في الآية (٣١) من

سورة الأنفال: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾.

والملاحظ على مستكبري يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروباً من الحق وإضلالاً للآخرين، ووصلت بهم الحماقة لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشري، وما الآراء الدينية إلّا أساطير وخرافات، حتى أنّهم اثبتوا ذلك في كتب (علم الاجتماع ودوّنوه بصياغة (علمية) كما يدّعون).

أمّا لو نفذنا في أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة أُخرى: فهم لم يحاربوا الأديان والمذاهب الخرافية المجعولة أبداً، فهم مؤسسوها والداعون لنشرها، إنّما محاربتهم للأصالة والدين الحق الذي يوقظ الفكر الإنساني ويحطّم الأغلال الاستعمارية ويقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.

توضّح الآية الأخرى أعمالهم بالقول: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

ثم تتحرك الآية الأُخرى لتقرر أنّ تهمة وصف الوحي الإلهي بأساطير الأوّلين ليست بالأمر المستجد: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ومن لطيف دقّة العبارة القرآنية، أنّ الآية أشارت إلى أنّ الله عزّ وجل لا يدمرّ البناء العلوي للمستكبرين فحسب، بل سيدمّره من القواعد لينهار بكله عليهم.

وقد يكون تخريب القواعد وإسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل والصواعق لتنهار على رؤوسهم، وقد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم وأحزابهم بأمر الله عزّ وجل، بل لا مانع من شمول الأمرين معاً.

وعذابهم في الحياة الدنيا لا يعني تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾.

فيسألهم الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾. أي تجادلون وتعادون فيهم، فلا يتمكنون من الإجابة، ولكن: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وهو نوع من العذاب الروحي، ويصف ذيل الآية السابقة حال الكافرين بالقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾.

لأنّ ممارسة الظلم في حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانية، ويهتك حرمة الصفات الفطرية الكامنة فيه.

أمّا حين تحين ساعة الموت ويزول حجاب الغفلة عن العيون **﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾**.

لماذا ينكرون عملهم القبيح؟ فهل إنّهم يكذبون وقد أصبح الكذب صفة ذاتية لهم من كثرة تكراره، أم يريدون القول: إنّنا نعلم سوء أعمالنا، ولكننا اخطأنا ولم تكن لدينا نوايا سيئة فيه.

يمكن القول بإرادة كلا الأمرين.

ولكن الجواب يأتيهم فوراً: إنّكم تكذبون فقد ارتكبتم ذنوباً كثيرة: **﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** حتى بنيّاتكم.

وليس المقام محلًّا للإنكار أو التبرير... **﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾**.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

عاقبة المتقين والمحسنين: قرأنا في الآيات السابقة أقوال المشركين حول القرآن وعاقبة ذلك، والآن ندخل مع المؤمنين في اعتقادهم وعاقبته.. فيقول القرآن: **﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾**.

ما أجمل هذا التعبير وأكمله «خيراً» خير مطلق يشمل كل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادي ومعنوي، خير للدنيا والآخرة، خير للإنسان الفرد والمجتمع.

وتبيّن الآية مورد البحث نتيجة وعاقبة ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت

الآيات السابقة عاقبة ما قاله المشركين من عقاب دنيوي وأخروي، ومادي ومعنوي مضاعف: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

وقد أطلق الجزاء بالـ«حسنة» كما أطلقوا القول «خيراً»، ليشمل كل أنواع الحسنات والنعم في الحياة الدنيا، بالإضافة إلى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

ثم تصف الآية التالية ـ بشكل عام ـ محل المتقين في الآخرة بالقول: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾.

وقلنا أنّ الآيات مورد البحث توضّح كيفية حياة وموت المتقين مقارنة مع ما ورد في الآيات السابقة حول المشركين والمستكبرين، وقد مرّ علينا هناك أنّ الملائكة عندما تقبض أرواحهم يكون موتهم بداية لمرحلة جديدة من العذاب والمشقة، ثم يقال لهم: «ادخلوا أبواب جهنم...».

وأمّا عن المتقين: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من كل تلوّثات الشرك والظلم والإستكبار، ومخلصين من كل ذنب: ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾. السلام الذي هو رمز الأمن والنجاة.

ثم يقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والتعبير عن موتهم بـ﴿تَتَوَفَّاهُمُ﴾ يحمل بين طيّاته اللطف، ويشير إلى أنّ الموت لا يعني الفناء والعدم أو نهاية كل شيء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم آخر.

وفي تفسير الميزان: أنّ في هذه الآية ثلاثة مسائل:

١ـ طهارة المؤمنين من خبث الظلم.

٢ـ يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ وهو تأمين قولي لهم.

٣ـ ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو هداية لهم إليها.

وهذه المواهب الثلاث هي التي ذكرت في الآية (٨٢) من سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ
سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ
لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ
مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَ
لَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم
مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي
مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يعود القرآن الكريم مرّة أُخرى ليعرض لنا واقع وأفكار المشركين والمستكبرين ويقول بلهجة وعيد وتهديد: ماذا ينتظرون؟ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾. أي: ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال.

أو هل ينتظرون أن يأتي أمر الله بعذابهم: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ حيث تغلق أبواب التوبة أيضاً ولا سبيل عندها للإصلاح.

ثم يضيف: إنّ هؤلاء ليس أوّل مَن كانوا على هذه الحال والصفة وإنّما ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

وسوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

ثم يذكر عاقبة أمرهم بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

فتعبير الآية بـ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ يؤكّد مرّة أُخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء في الدنيا أو في الآخرة، وتتجسم له بصور شتى، وتعذّبه وتؤلمه ولا شيء غر هذه الأعمال في عذابه.

وتشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ

شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾.

إنّ قولهم ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التي حرّم لحومها المشركون في عصر الجاهلية، والتي أنكرها رسول الله ﷺ بشدة.

وكأنّهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضي الله تعالى فلماذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عما نقوم به، فسكوته وعدم منعه ما كنا نعمل دليل على رضاه.

ولهذا يقول تعالى مباشرة: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وهذا هو خط جميع دعاة الحق (من الأنبياء وغيرهم).. فهم: لا يداهنون في دعوتهم أبداً ولا يجاملون الباطل وأهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة والقاطعية.

وبعد ذكر وظيفة الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾.

«الأمّة»: من «الأم» بمعنى الوالدة، أو بمعنى كل ما يتضمن شيئاً آخر في داخله؛ ومن هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معينة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «أُمّة».

ويبيّن القرآن محتوى دعوة الأنبياء ﷺ بالقول: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾. لأنّ أُسس التوحيد إذا لم تحكم ولم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أي برنامج إصلاحي.

«الطاغوت»: صيغة مبالغة للطغيان.. أي التجاوز والتعدي وعبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سبباً لتجاوز الحد المعقول، ولهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر وعلى كل مسير يؤدّي إلى غير طريق الحق.

ونعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء ﷺ إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

والآية (٧٩) من سورة النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

وفي نهاية الآية يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين وتقوية روحية المهتدين، بالقول: ﴿فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

فالآية دليل ناطق على حرية إرادة الإنسان، فإنْ كانت الهداية والضلال أمرين

إجباريين، لم يكن هناك معنىً للسير في الأرض والنظر إلى عاقبة المكذبين.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تؤكّد التسلية لقلب النبي ﷺ بتبيان ما وصلت إليه حال الضالين: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

«تحرص»: من مادة (حرص)، وهو طلب الشيء بجديّة وسعي شديد.

بديهي، أنّ الآية لا تشمل كل المنحرفين، لأنّ الشمول يتعارض مع وظيفة النبي (هداية وتبليغ).

فعليه... تكون الجملة المتقدمة خاصة بمجموعة معينة من الضالين الذين وصل بهم العناد واللجاجة في الباطل لأقصى درجات الضلال، وأصبحوا غرقىً في بحر الإستكبار والغرور والغفلة والمعصية فأُغلقت أمامهم أبواب الهداية.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين، فتقاضاه فوقع في كلامه والذي أرجوه بعد الموت أنّه لكذا. فقال المشرك: وإنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله الآية.

التّفسير

المعاد ونهاية الإختلافات: تعرض الآيات أعلاه جانباً من موضوع «المعاد» تكميلاً لما بحث في الآيات السابقة ضمن موضوع التوحيد ورسالة الأنبياء. فتقول الآية الأُولى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

وهذا الإنكار الخالي من الدليل والذي ابتدؤوه بالقسم المؤكّد، ليؤكّد بكل وضوح على جهلهم ولهذا يجيبهم القرآن بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد وقدرة الله عزّ وجل على ذلك، ليردّ الإشتباه القائل بعدم إعادة الحياة بعد الموت، أو بعبثية المعاد... فيقول: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي

﴿يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في إنكارهم للمعاد وبأنّ الله لا يبعث من يموت.

فالرجوع إلى الوحدة وانتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد وقد أشارت إليه الآية مورد البحث.

ثم يشير القرآن إلى الفقرة الثانية من بيان حقيقة المعاد، للرد على من يرى عدم إمكان إعادة الإنسان من جديد إلى الحياة من بعد موته: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

إنّ «كن» إنّما ذكرت لضرورة اللفظ، وإلّا لا حاجة في أمر الله لـ«كن» أيضاً، فإرادته سبحانه وتعالى كافية في تحقيق ما يريد.

فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنّه لا يُروّي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق، فإرادة الله تعالى هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف كذلك كما أنّه بلا كيف.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الأُولى نزلت في المعذبين بمكة مثل صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، وغيرهم مكّنهم الله بالمدينة، وذكر أنّ صهيباً قال لأهل مكة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم وإن كنت عليكم لم يضرّكم فخذوا مالي ودعوني. فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله ﷺ فقال له أبوبكر: ربح البيع يا صهيب.

التّفسير

ثواب المهاجرين: نرى في الآيات السابقة الحديث عن المشركين ومنكري يوم القيامة، وينتقل الحديث في الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصين، ليقارن بين المجموعتين ويبيّن طبيعتها فيقول أوّلاً: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾. أمّا في الآخرة: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم يصف في الآية التالية المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

إنّ للمسلمين هجرتين: الأولى: كانت محدودة نسبياً (هجرة جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة)، والثانية: الهجرة العامة للنبي ﷺ والمسلمين من مكة إلى المدينة. وظاهر الآية يشير إلى الهجرة الثانية، كما يؤيّد ذلك شأن النزول.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

اسألوا إن كنتم لا تعلمون: هذه الآية يعود إلى بيان المسائل السابقة فيما يتعلق بأصول الدين من خلال إجابته لأحد الإشكالات المعروفة؛ حين يتقوّل المشركون: لماذا لم ينزل الله ملائكة لابلاغ رسالته؟ أو يقولون: لِمَ لم يجهّز النبي ﷺ بقدرة خارقة ليجبرنا على ترك أعمالنا؟ فيجيبهم الله عزّ وجل بقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ**﴾.

نعم. فإنّ أنبياء الله جميعهم من البشر، وبكل ما يحمل البشر من غرائز وعواطف إنسانية، حتى يحس بالألم ويدرك الحاجة كما يحس ويدرك الآخرون. في حين أنّ الملائكة لا تتمكن من إدراك هذه الأمور جيّداً.

ثم يضيف القول (تأكيداً لهذه الحقيقة): ﴿**فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

«الذكر»: بمعنى العلم والإطلاع؛ و«أهل الذكر»: له من شمولية المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين والعارفين في كافة المجالات.

فالآية مبيّنة لأصل إسلامي يتعيّن الأخذ به في كل مجالات الحياة المادية والمعنوية، وتؤكّد على المسلمين ضرورة السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، وأن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

وعلى هذا فإنّ «مسألة التخصص» لم يقررها القرآن الكريم ويحصرها في المسائل الدينية بل هي شاملة لكل المواضيع والعلوم المختلفة، ويجب أن يكون من بين المسلمين علماء في كافة التخصصات للرجوع إليهم.

ثم تقول الآية التالية: ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾.

«البيّنات»: جمع بيّنة، بمعنى الدلائل الواضحة، ويمكن أن تكون هنا إشارة إلى معاجز وأدلة إثبات صدق الأنبياء في دعوتهم؛ و«الزبر»: جمع زبور، بمعنى الكتاب.

فالبيّنات تتحدث عن دلائل إثبات النبوة، والزّبر إشارة إلى الكتب التي جمعت فيها تعليمات الأنبياء.

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، ليبيّن للناس مسؤوليتهم تجاه آيات ربّهم الحق.

فدعوتك ورسالتك ليست بجديدة من الناحية الأساسية، وكما أنزلنا على الذين من قبلك من الرسل كتباً ليعلّموا الناس تكاليفهم الشرعية، فقد أنزلنا عليك القرآن لتبيّن تعاليمه ومفاهيمه، وتوقظ به الفكر الإنساني ليسيروا في طريق الحق.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

لكل ذنب عقابه: ثمّة ربط في كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلالية والمسائل الوجدانية بشكل مؤثّر في نفوس السامعين، والآيات أعلاه نموذج لهذا الأسلوب. فالآيات السابقة عبارة عن بحث منطقي مع المشركين في شأن النبوة والمعاد، في حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابرة والطغاة والمذنبين. فتبتدأ القول: ﴿**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ**﴾ من الذين حاكوا الدسائس المتعددة لإطفاء نور الحق والإيمان ﴿**أَن يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ**﴾.

فهل ببعيد (بعد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتنشق القشرة الأرضية لتبتلعهم وما يملكون، كما حصل مراراً لأقوام سابقة؟!

«مكروا السيئات»: بمعنى وضعوا الدسائس والخطط وصولاً لأهدافهم المشؤمة السيئة، كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن ومحاولة قتل النبي ﷺ.

«يخسف»: من مادة «خسف» بمعنى الإختفاء، ولهذا يطلق على اختفاء نور القمر في ظل الأرض اسم (الخسوف).

ثم يضيف: ﴿**أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ**﴾. أي: عند ذهابهم ومجيئهم وحركتهم في اكتساب الأموال وجمع الثروات. ﴿**فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ**﴾.

إنّ «معجزين» من الإعجاز بمعنى إزالة قدرة الطرف الآخر، وهي هنا بمعنى الفرار من العذاب ومقاومته.

أو أنّ العذاب الإلهي لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجي ومقروناً بالإنذار المتكرر: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾.

فاليوم مثلًا، يصاب جارهم ببلاء، وغداً يصاب أحد أقربائهم، وفي يوم آخر تتلف بعض أموالهم... والخلاصة، تأتيهم تنبيهات وتذكيرات الواحدة تلو الأُخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، وإلّا فسيصيبهم العقاب الإلهي ويهلكهم.

إنّ العذاب التدريجي في هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدي هذه المجموعة، والله عزّ وجل لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

سجود الكائنات لله عزّ وجل: تعود هذه الآيات مرّة أُخرى إلى التوحيد بادئةً بـ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾[١].

أي: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات الله يميناً وشمالًا لتعبّر عن خضوعها وسجودها له سبحانه؟

وهنا... يعرض الباري سبحانه حركة ظلال الأجسام يميناً وشمالًا بعنوانها مظهراً لعظمته جلّ وعلا واصفاً حركتها بالسجود والخضوع.

وجاء في الآية أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أمّا في الآية التالية فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجاً عامّاً شاملًا لكل الموجودات المادية وغير المادية، وفي أيّ مكان، فتقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، مسلمين لله ولأوامره تسليماً كاملًا.

وحقيقة السجود نهاية الخضوع والتواضع والعبادة، وما نؤدّيه من سجود على الأعضاء السبعة ما هو إلّا مصداق لهذا المفهوم العام ولا ينحصر به.

وبما أنّ جميع مخلوقات الله في عالم التكوين والخلق مسلّمة للقوانين العامة لعالم الوجود،

١. «داخر»: في الأصل من مادة (دخور) أي: التواضع.

التي أفاضتها الإرادة الإلهية فإنّ جميع المخلوقات في حالة سجود له جلّ وعلا، ولا ينبغي لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، وكلها مظهرة لعظمة وعلم وقدرة الباري عزّ وجل، ولتدلل على أنّها آية على غناه وجلاله... والخلاصة: كلها دليل على ذاته المقدسة.

«الدابة»: بمعنىٰ الموجودات الحيّة، ويستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحيّة في السماوات والأرض على وجود كائنات حيّة في الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما موجود على الأرض.

أمّا جملة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فإشارة لحال وشأن الملائكة التي لا يداخلها أيّ استكبار عند سجودها وخضوعها لله عزّ وجل.

ولهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرةً وتأكيداً لنفي حالة الإستكبار عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ويستفاد من هذه الآية بوضوح أنّ علامة نفي الإستكبار شيئان:

أ) الشعور بالمسؤولية وإطاعة الأوامر الإلهية من دون أي اعتراض.

ب) ممارسة الأوامر الإلهية بما ينبغي والعمل وفق القوانين المعدّة لذلك.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

دين حق ومعبود واحد: تتناول هذه الآيات موضوع نفي الشرك تعقيباً لبحث التوحيد ومعرفة الله عن طريق نظام الخلق الذي ورد في الآيات السابقة، لتتّضح الحقيقة من خلال المقارنة بين الموضوع، ويبتدأ بـ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

ثم يوضّح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن ثلاث آيات... فيقول أوّلاً ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهل ينبغي السجود للأصنام التي لا تملك شيئاً، أم لمن له ما في السماوات والأرض؟

ثم يضيف: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾.

ثم يقول في نهاية الآية: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها وتواظبوا على عبادتها؟!

هذا... ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

فهذه الآية تحمل البيان الثالث بخصوص لزوم عبادة الله الواحد جلّ وعلا، وأنّ عبادة الأصنام إن كانت شكراً على نعمة فهي ليست بنعمة.

وعلاوة على ذلك... ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾.

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعاً للضر وحلًّا للمعضلات، فهذا من الله.

وهذا البيان الرابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

«تجئرون»: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات والوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثم استعملت كناية في كل الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

نعم. فالله سبحانه يسمع نداءكم في كل الحالات ويغيثكم ويرفع عنكم البلاء ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بالعود إلى الأصنام.

فالقرآن في الآية يشير إلى فطرة التوحيد في جميع الناس، إلّا أنّ حجب الغفلة والغرور والجهل والتعصب والخرافات تغطّيها في الأحوال الاعتيادية.

وفي آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتي التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ
وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ
وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثاً استدلالية في نفي الشرك وعبادة الأصنام، تأتي هذه الآيات لتتناول قسماً من بدع المشركين وصوراً من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلاً آخراً على بطلان الشرك وعبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع وعادات المشركين: وتقول أوّلاً: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

وكان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقية من المواشي بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، وهو ما تشير إليه الآية (١٣٦) من سورة الأنعام.

ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

وعليه فما تقومون به له ضرر مادي من خلال ما تعملونه بلا فائدة، وله عقاب أخروي لأنّكم أسأتم الظن بالله واتجهتم إلى غيره.

أمّا البدعة الثانية فكانت: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ من التجسّم ومن هذه النسبة. ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾. أي: إنّهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوه إلى الله، ويعتبرون البنات عاراً وسبباً للشقاء.

وإكمالاً للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثالثة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

ولا ينتهي الأمر إلى هذا الحد بل ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾.

ولم ينته المطاف بعد، ويغوص في فكر عميق: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾.

وفي ذيل الآية، يستنكر الباري حكمهم الظالم الشقي بقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وأخيراً يشير تعالى إلى السبب الحقيقي وراء تلك التلوّثات، ألا هو عدم الإيمان بالآخرة: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فالسبب الرئيسي لكل انحراف وقبح وخرافة هو الغفلة عن ذكر الله وعن محكمته العادلة في الآخرة.

دور الإسلام في إعادة اعتبار المرأة: لم يكن احتقار المرأة مختصاً بعرب الجاهلية، فلم تلق المرأة أدنى درجات الإحترام والتقدير حتى في أكثر الأمم تمدّناً في ذلك الزمان، وكانت المرأة غالباً ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة وليست إنساناً محترماً، ولكن عرب الجاهلية جسّدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحة ووحشية من غيرهم.

وعندما ظهر الإسلام حارب بشدة هذه المهانة من كافة أبعادها.

وأولى النبيﷺ ابنته فاطمة الزهراءﷺ من الإحترام ما جعل الناس في عجب من أمره، حيث كانﷺ مع ما يحظى به من شرف ومقام، كان يقبّل يد الزهراءﷺ وعندما يعود من السفر يذهب إليها قبل أيّ أحد.

فالإحترام الذي أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصيتها الضائعة بين حوالك الجاهلية، وحررها من العادات البالية، وأنهى عصر تحقيرها.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن جرائم المشركين البشعة في وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالي: لماذا لم يعذّب الله المذنبين بسرعة نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح وظلم فجيع؟ والآية الأولى (٦١) تجيب بالقول: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾**. أي: إنّ الله لو يؤاخذ الناس على ما إرتكبوه من ظلم لما بقي إنسان على سطح البسيطة.

فعندما يذهب الإنسان فسينتفي سبب وجود الكائنات الأُخرى وينقطع نسلها.

ويضيف القرآن الكريم قائلاً: **﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾**. بل يدركهم الموت في نفس اللحظة المقررة.

ويعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين وخرافاتهم في الجاهلية (حول كراهية المولود الأنثى والإعتقاد بأنّ الملائكة إناثاً) فيقول: **﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾**.

فهذا تناقض عجيب، فإن كانت الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى فينبغي أن تكون البنت أمراً حسناً فلماذا تكرهون ولادتها؟ وإن كانت شيئاً سيّئاً فلماذا تنسبونها إلى الله؟

ومع كل ذلك... **﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾**.

فبأي عمل تنتظرون حسنى الثواب؟

ولهذا يقول القرآن: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾. أي: أنّهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبة فقط، بل و«لهم النار» ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي: من المتقدمين في دخول النار.

والمفرط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

وربّما يراود البعض منّا الإستغراب عند سماعه لقصة عرب الجاهلية في وأدهم للبنات، ويسأل: كيف يصدّق أن نسمع عن إنسان ما يدفن فلذة كبده بيده وهي على قيد الحياة؟!

وكأنّ الآية التالية تجيب على ذلك: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ثم يضيف القرآن: إنّ مشركي اليوم على سنّة من سبقهم من الماضين من الذين زيّنوا أعمالهم بزخرف ما أوحىٰ لهم الشيطان ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾، يستفيدون مما يعطيهم إيّاه.

ولهذا... ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وتبيّن آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، ولتؤكّد حقيقة أنّ الأقوام والأمم لو اتبعت الأنبياء وتخلّت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقي أثر لأي خرافة وانحراف، ولزالت تناقضات الأعمال، فتقول: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا
لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

المياه، الثمار، الأنعام: مرّة أخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم والعطايا الإلهية الكثيرة، تأكيداً لمسألة التوحيد ومعرفة الله، وإشارة إلى مسألة المعاد، وتحريكاً لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، ومن خلال هذا التوجيه الرباني تتّضح علاقة الربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات. فيقول: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

وهذا المظهر من مظاهر قدرة وعظمة الخالق عزّ وجل يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد.

وإنّ نعمة الأمطار دليل آخر على قدرة وعظمة الخالق سبحانه.

وبعد ذكر نعمة الماء (الذي يعتبر الخطوة الأُولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، وبخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾.

وأيّة عبرة أكثر من أن: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

«الفرث»: لغة بمعنى الأغذية المهضومة في المعدة والتي بمجرد وصولها إلى الامعاء تزوّد البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج.. فما يهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثاً» وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

ونعلم بأنّ جدار المعدة لا يمتص إلّا مقداراً قليلًا من الغذاء (كبعض المواد السكّرية) والقسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كي يمتص الدم ما يحتاجه منه.

وكما نعلم أيضاً بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصه داخل ثدي الإناث، ومادته الأصلية تؤخذ من الدم والغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البياض ذات القوة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، ومن الدم.

والعجب يكمن في استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوّثة.

وبعد حديثه عن الأنعام وألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾: انتقل الأسلوب القرآني بهاتين الآيتين من عرض النعم الالهية المختلفة وبيان أسرار الخليقة إلى الحديث عن «النحل» وما يدرّه من منتوج (العسل) ورمز إلى ذلك الالهام الخفي بالوحي الالهي إلى النحل: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

إنّ الوحي في هذا المورد يعني الأمر الغريزي والباعث الباطني الذي أودعه الله في الكائنات الحية.

وأوّل مهمة أمر بها النحل في هذه الآية هي: بناء البيت، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ اتخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأوّل للحياة، ومن ثم القيام ببقية الفعاليات.

ويذكر القرآن الكريم في الآية التالية المهمة الثانية للنحل: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾.

وأخيراً يعرض القرآن المهمة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة): ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. في طبيعة حياتها وما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء)، وهو دليل على عظمة وقدرة الباري عزّ وجل.

كما نعلم بأنّ للنباتات والأوراد استعمالات علاجية فعّالة لكثير من الأمراض، والشيء المهم في موضوعنا ما توصّل إليه العلماء من خلال تجاربهم التي أكّدت على أنّ للنحل من المهارة بحيث إنّه في علمية صنعه للعسل لم يبذّر فيما تحويه النباتات والأوراد من خواص علاجية، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل ويجعلها في العسل.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

سبب اختلاف الأرزاق: بيّنت الآيات السابقة قسماً من النعم الإلهية المجعولة في عالمي النبات والحيوان، لتكون دليلاً حسيّاً لمعرفته جلّ شأنه، وتواصل هذه الآيات مسألة إثبات الخالق جلّ وعلا بأسلوب آخر، وذلك بأنّ تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، وذلك كاشف بقليل من الدقّة والتأمل على وجود المقدّر لذلك. فيبتدأ القول بـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾. فمنه الممات كما كانت الحياة منه، ولتعلموا بأنّكم لستم خالقين لأيّ من الطرفين (الحياة والموت).

ومقدار عمركم ليس باختياركم أيضاً، فمنكم مَن يموت في شبابه أو في كهولته ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾[١].

ونتيجة هذا العمر الموغل في سني الحياة ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

فيكون كما كان في مرحلة الطفولة من الغفلة والنسيان وعدم الفهم... نعم فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. فكل القدرات بيده جلّ وعلا، وعطاؤه بما يوافق الحكمة والمصلحة، وكذا أخذه لا يكون إلّا عندما يلزم ذلك.

ويواصل القرآن الكريم استدلاله في الآية التالية من خلال بيان أنّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان وإنّما... ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾. فاصحاب الثروة والطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها ومشاركتهم فيها خوفاً أن يكونوا معهم على قدم المساواة: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

والذي نستفيده من الآية المبحوثة أنّ الإسلام يوصي بمراعاة المساواة كبرنامج أخلاقي بين أفراد العائلة الواحدة ومن يكون تحت التكفّل قدر الإمكان، وأن لا يجعلوا لأنفسهم فضلًا عليهم.

فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالإستعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلهية أيضاً، وإن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابي قطعاً. فإذن وجود التفاوت في الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الاقتصادية، ويتمّ ذلك حتى داخل المجتمعات السليمة، إلّا أنّ أساس النجاح يكمن في السعي والمثابرة والجد، وينبغي أن لا يكون وجود التفاوت والاختلاف في الإستعدادات وفي الدخل اليومي للأفراد دافعاً لسوء الاستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقي.

ولهذا يقول القرآن الكريم في ذيل الآية مورد البحث: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وذلك إشارة إلى أنّ هذه الاختلافات في حالتها الطبيعية (وليست الظالمة المصطنعة) إنّما هي من النعم الإلهية التي أوجدها لحفظ النظام الاجتماعي البشري.

وتبدأ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث بلفظ الجلالة «الله» كما كان في الآيتين السابقتين، ولتتحدث عن النعم الإلهية في إيجاد القوى البشرية، ولتتحدث عن الأرزاق الطيبة أيضاً تكميلًا للحلقات الثلاثة من النعم المذكورة في آخر ثلاث آيات، حيث استهلّت

---

١. «أرذل»: من «رذل» بمعنى الحقارة وعدم المرغوبية؛ والمقصود من «أرذل العمر»: السنين المتقدمة جداً من عمر الإنسان حيث الضعف والنسيان، ولا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، ولهذا سماها القرآن بأرذل العمر.

البحث بنظام الحياة والموت، ثم التفاوت في الأرزاق والإستعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياة) لتنتهي بالآية مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشري و... الأرزاق الطيبة.

وتقول الآية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتكون سكناً لأرواحكم وأجسادكم وسبباً لبقاء النسل البشري.

ولهذا تقول وبلافاصلة: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

«الحفدة»: بمعنى (حافد) وهي في الأصل بمعنى الإنسان الذي يعمل بسرعة ونشاط دون انتظار أجر وجزاء، أمّا في هذه الآية فالمقصود منها أولاد الأولاد.

ثم يقول القرآن الكريم: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

وبعد كل العرض القرآني لآثار وعظمة قدرة الله، ومع كل ما أفاض على البشرية من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام ويتركون السبيل التي توصلهم إلى جادة الحق ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

تواصل هاتان الآيتان بحوث التوحيد السابقة، وتشير إلى موضوع الشرك، وتقول بلهجة شديدة ملؤها اللوم والتوبيخ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾.

وليس لا يملك شيئاً فقط، بل ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يخلقوا شيئاً.

وهذه إشارة إلى المشركين بأن لا أمل لكم في عبادتكم للأصنام.

ثمّ تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾. وذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إنّ عبارة ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ تشير إلى منطق المشركين في عصر الجاهلية (ولا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه أُولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إنّما نعبد الأصنام لأنّنا لا نمتلك الأهلية لعبادة الله، فنعبدها لتقرّبنا إلى الله! وإنّ الله مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلّا الوزراء والخواص، وما على عوام الناس إلّا أن تتقرب للحاشية والخواص لتصل إلى خدمة الله!

ولذا يجيبهم القرآن الكريم قائلًا: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ التي هي من صنع أفكاركم المحدودة ومن صنع موجودات (ممكنة الوجود) ومليئة بالنواقص.

فالله الذي دعاكم لأن تدعوه وتناجوه، وفتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لاينبغي أن تشبّهوه بجبار مستكبر لا يتمكن أي أحد من الوصول إليه ودخول قصره إلّا بعض الخواص ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

مثلان للمؤمن والكافر: ضمن التعقيب على الآيات السابقة التي تحدثت عن: الايمان، الكفر، المؤمنين، الكافرين والمشركين، تشخّص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين والكافرين) بضرب مثلين حيّين وواضحين.

يشبّه المثال الأوّل المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأيّة خدمة لمولاه، ويشبّه المؤمنين بإنسان غني، يستفيد الجميع من إمكانياته... ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

أمّا ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذي يتمتع بأنواع المواهب والرزق الحسن: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ والإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة ﴿وَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾. فاحكموا: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾.

قطعاً، لا... فإذن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي يكون عبده حرّ وقادر ومنفق، وليس الأصنام التي يكون عبّادها أسرى وعديمو القدرة ومحددون ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم يضرب مثلًا آخر لعبدة الأصنام والمؤمنين والصادقين، فيشبّه الأوّل بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شيء، ويشبّه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾. ولهذا.. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

وعلى هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

ـ أبكم (لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر منذ الولادة).

ـ وعاجز لا يقدر على شيء.

ـ وكَلٌّ على مولاه.

ـ وأينما يوجّهه لا يأت بخير.

كما رأينا من ربط القرآن في بحوثه المتعلقة بالتوحيد ومحاربة الشرك مع بحث المعاد ومحكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: ﴿لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ثم يضيف قائلًا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

فالعبارتان إشارة حيّة لقدرة الله عزّ وجل المطلقة، وبخصوص مسألتي المعاد والقيامة، ولهذا يقول الباري في ذيل الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ
الْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ
فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ
أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ
كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ
الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

أنواع النعم المادية والمعنوية: يعود القرآن الكريم مرّة أُخرى بعرض جملة أُخرى من النعم الإلهية كدرس في التوحيد ومعرفة الله، وأوّل ما يشير في هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم والمعرفة ووسائل تحصيله... ويقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾. فمن الطبيعي أنّكم في ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شيء، ولكن عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زوّدكم الباري سبحانه بوسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. لكي يتحرك حس الشكر للمنعم في أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وتستمر الآية التالية في بيان أسرار عظمة الله عزّ وجل في علم الوجود، وتقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وبما أنّ الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور في الهواء بالتسخير.

ويضيف قائلًا: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

صحيح أنّ ثمّة أُمور مجتمعة تعطي للطيور إمكانية التحليق والطيران، مثل: الخاصية الطبيعية للأجنحة، قدرة عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة... ولكن، من الذي خلق هذه الهيئة وتلك الخواص؟

وفي نهاية الآية، يأتي قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. أي: إنّهم ينظرون إلى هذه الأُمور بعين باصرة وأذن سميعة ويتفكرون فيما يرون ويسمعون، وبذلك يقوىٰ إيمانهم ويرسخ أكثر فأكثر.

وتستمر الآيات في الإشارة إلى النعم الإلهية حتى نصل إلى الآية الثالثه (مورد البحث) لتقول: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

وحقاً إنّ هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من «البيتوتة» وهي في الأصل بمعنىٰ التوقف ليلًا، وأُطلقت كلمة «بيت» على الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منها للسكن ليلًا.

وبعد أن تطرّق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عرّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾.

وهي من الخفّة بحيث ﴿تستخفونها يوم ظعنكم﴾ - أي: رحيلكم - ﴿ويوم إقامتكم﴾.

بل وجعل لكم: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين﴾.

فاستعمال المصطلحين ﴿أثاثا ومتاعا﴾ على التوالي يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنّكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

الظلال، المساكن، الأغطية: ويشير القرآن الكريم إلى نعمة أُخرى بقوله: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾.

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية والحفظ، ولهذا فقد أُطلقت على المغارات وأماكن الإختفاء وفي الجبال.

وكأنّ ذكر نعمة «الظلال» و«أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و«الخيام» في الآية السابقة، للإشارة إلى أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة... واحدة تعيش في المدن والقرىٰ وتستفيد من بناء البيوت لسكناها، وأُخرى تعيش الترحال والتنقل فتحمل معها الخيام، وثالثة أُولئك الذين يسافرون وليس معهم مستلزمات المأوى... ولم يترك الباري جلّ شأنه المجموعة الثالثه تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل في طريقهم الظلال والمغارات لتقيهم.

وبعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية والصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾، وثمّة ألبسة أُخرى تستعمل لحفظ أبدانكم في الحروب ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾.

«السرابيل»: جمع «سربال» بمعنىٰ الثوب من أيّ جنس كان.

فإنّ فائدة الألبسة لا تنحصر في حفظ الإنسان من الحر والبرد، بل تُلبس الإنسان ثوب الكرامة وتقي بدنه من الأخطار الموجّهة إليه.

وفي ذيل الآية يقول القرآن مذكراً: ﴿كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾. أي: تطيعون أمره.

وطبيعي جداً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تنبّهه للنعم المختلفة التي تحيط بوجوده.

وبعد ذكر هذه النعم الجليلة، يقول عزّ وجلّ أنّهم لو اعرضوا ولم يسلموا للحق فلا تحزن ولا تقلق، لأنّ وظيفتك ابلاغهم: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾.

والمراد من هذا المقطع القرآني هو مواساة النبيﷺ وتسليته.

وتكميلاً للحديث... يضيف القرآن الكريم القول: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

فعلّة كفرهم ليست في عدم معرفتهم بالنعم الإلهية وإنّما بحملهم تلك الصفات القبيحة التي تمنعهم من الايمان كالتعصب الأعمى والعناد في معاداة الحق.

ولعل ما جاء في آخر الآية ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

إنّ أكثرية الكفار هم من أهل التعصب والعناد، والذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم، فهم القلّة قياساً إلى أولئك.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ
كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا
إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا
عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ
نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَ
نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

عندما تغلق الأبواب أمام المجرمين: بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة جحود منكري الحق وعدم اعترافهم بالنعم الإلهية، يتطرق في هذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهي الشديد الذي ينتظر أولئك في عالم الآخرة، لينبّه الغافل من سباته، فعسىٰ أن يعيد النظر في مواقفه المنحرفة قبل فوات الأوان، فيقول أوّلاً: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

وبخصوص تلك المحكمة، تأتي الآية لتقول: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وهل من الممكن أن لا يأذن الله للمجرمين في الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، وذلك لعدم الحاجة للسان في ذلك اليوم العظيم، لأنّ الجوارح من رجل وأذن وعين

وكذلك الجلد، بل وحتى الأرض التي أطاع الإنسان عليها أو عصى، كلها ستشهد عليه، بل ويزاد على عدم السماح لهم بالكلام بـ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

لأنّ هناك محل مواجهة نتائج الأعمال وليس يوم العمل والإصلاح.

وتشرح الآية التالية حال الظالمين بعد انتهاء مرحلة حسابهم ودخولهم في العذاب، وكيف أنّهم يطلبون تخفيف شدة العذاب تارةً، ويطلبون إمهالهم مدّة تارةً أُخرى، فتقول: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

وفي الآية التالية يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، وكيف أنّهم سيحشرون في جهنم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية والبشرية، فتقول الآية المباركة واصفة حالهم: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾، فهذه المعبودات هي التي وسوست لنا للوقوع في درك العمل القبيح، وهي شريكتنا في الجرم أيضاً، فارفع عنّا بعض العذاب واجعله لها.

وعندها.. تبدأ تلك الأصنام بالتكلم (بإذن الله): ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فلم نكن شركاء لله، ومهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

وتأتي الآية التالية لتبين أنّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، ويسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة أُخرى... ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ مسلمين لله، مذعنين لعظمته جلّ وعلا، لأنّ غرور وتعصب الجاهلين قد أُزيل برؤية الحق الذي لا مفرّ من تصديقه والإذعان إليه.

وفي هذه الأثناء، وحيث كل شيء جليّ كوضوح الشمس.. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. فتبطل كذبتهم بوجود شريك لله، وكذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعة الأصنام لهم عند الله، عندما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأيّ عمل، بل ويرونها محشورة معهم في نار جهنم.

وبهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبّاً حول انحراف المشركين الضالين وغرقهم في درك الشرك، دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه.. وبعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، وإنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

لأنّهم كانوا عاملًا مؤثّراً للفساد على الأرض وإضلال خلق الله بالصدّ عن سبيله.

والحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح: «**من استن بسنّة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ومن استن سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء**».

وتتناول الآية أيضاً مسألة وجود الشهيد في كل أُمّة (والذي ذكر قبل آيات معدودة)، ولمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾.

ومع أنّ عموم الحكم في هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامي والنبيﷺ إلّا أنّ القرآن الكريم في مقام التأكيد قال: ﴿**وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ**﴾.

وبما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل وجامع للناس بما تتم فيه الحجة عليهم، ويصح فيه مفهوم النظارة والمراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾.

إنّ الآية أعلاه ذكرت أربعة تعابير متلازمة حسب تسلسلها لتوضيح الهدف من نزول القرآن: ١ـ تبياناً لكل شيء. ٢ـ هدى. ٣ـ رحمة. ٤ـ بشرى للمسلمين.

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

أكمل برنامج إجتماعي: بعد أن ذكرت الآيات السابقة أنّ القرآن فيه تبيان لكل شيء، جاءت هذه الآية لتقدّم نموذجاً من التعليمات الإسلامية في شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، فتقول في البدء: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ**﴾.

فالعدل هو القانون الذي تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود.

والمعنى الواقعي للعدل يتجسد في جعل كل شيء في مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدّي على حقوق الآخرين، ما هي إلّا صور لخلاف أصل العدل.

ومع ما للعدالة من قدرة وجلال وتأثير عميق في كل الأوقات ـ الطبيعية والاستثنائية ـ

في عملية بناء المجتمع السليم، إلّا أنّها ليست العامل الوحيد الذي يقوم بهذه المهمّة، ولذلك جاء الأمر بـ«الإحسان» بعد «العدل» مباشرة ومن غير فاصلة.

في نهج البلاغة عن علي عليه السلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل».

وبعد ذكر القرآن الكريم للأُصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للأُصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.

إنّ «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفيّة؛ و«المنكر»: إشارة إلى الذنوب العلنية؛ و«البغي»: إشارة إلى كل تجاوز عن حق الإنسان، وظلم الآخرين والإستعلاء عليهم.

وفي آخر الآية المباركة يأتي التأكيد مجدداً على أهمية هذه الأصول الستة: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

فإحياء الأُصول الثلاثة «العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى» ومكافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء والمنكر، والبغي» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرة بالخير، وهادئة من كل اضطراب، وخالية من أيّ سوء وفساد، وإذا روي عن ابن مسعود (الصحابي المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية في كتاب الله للخير والشر) فهو للسبب الذي ذكرناه.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ
اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ
أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَ
لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الأُولى نزلت في الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله على الإسلام فقال

سبحانه للمسلمين الذين بايعوه: لا يحملنّكم قلة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة فإنّ الله حافظكم. أي: اثبتوا على ما عاهدتم عليه الرسول وأكدتموه بالأيمان.

التّفسير

الوفاء بالعهد دليل الإيمان: في هذه الآيات قسماً آخر من تعاليم الإسلام المهمة (الوفاء بالعهد والأيمان). يقول أوّلاً: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾. ثم يضيف: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

إنّ معنى «عهد الله» هو: العهود التي يبرمها الناس مع الله تعالى (وبديهي أنّ العهد مع النبي عهد مع الله أيضاً)، وعليه فهو يشمل كل عهد إلٰهي وبيعة في طريق الايمان والجهاد وغير ذلك.

أمّا مسألة «الأيمان» (جمع يمين، أي: القسم) التي وردت في الآية ـ والتي عرض فيها المفسرون آراء كثيرة ـ فلها معنى واسع، ويتّضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث إنّه يشمل العهود التي يعقدها الإنسان مع الله عزّ وجل، بالإضافة إلى ما يستعمله من أيمان في تعامله مع خلق الله.

وحيث إنّ الوفاء بالعهد أهم الأُسس في ثبات أيّ مجتمع كان، تواصل الآية التالية ذكره بأُسلوب يتّسم بنوع من اللوم والتوبيخ، فتقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[١].

والآية تشير إلى (رايطة) تلك المرأة التي عاشت في قريش زمن الجاهلية، وكانت هي وعاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار في غزل ما عندهن من الصوف والشعر، وبعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن، ولهذا عرفت بين قومها بـ(الحمقاء).

ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾[٢]. أي: لا تنقضوا عهودكم مع الله بسبب أنّ تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا في الخيانة والفساد.

واعلموا: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾.

---

١. «أنكاث»: جمع (نكث) على وزن (قسط) بمعنىٰ حلّ خيوط الصوف والشعر بعد برمها، وتطلق أيضاً على اللباس الذي يصنع من الصوف والشعر.

٢. «الدّخل»: (على وزن الدغل)، بمعنىٰ الفساد والتقلب ومنها أُخذ معنىٰ (الداخل).

وستتّضح النتيجة في الآخرة ليلاقي كل فرد جزاءه العادل: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من هذا الأمر وغيره.

والآية التالية تجيب على توهّم، غالباً ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهي والتأكيد على الإلتزام بالعهود والوظائف، وخلاصته: هل أنّ الله لا يقدر على إجبار الناس جميعاً على قبول الحق؟ فتقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

«أمّة واحدة» من حيث الإيمان والعمل على الحق بشكل إجباري، ولكن ذلك سوف لا يكون خطوة نحو التكامل والتسامي ولا فيه أفضلية للإنسان في قبوله الحق، وعليه فقد جرت سُنّة الله بترك الناس أحراراً ليسيروا على طريق الحق مختارين.

ولا تعني هذه الحرية بأنّ الله سيترك عباده ولا يعينهم في سيرهم، وإنّما بقدر ما يقدمون على السير والمجاهدة سيحصلون على التوفيق والهداية والسداد منه جلّ شأنه، حتى يصلوا لهدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هذه النعمة الربانية، فتراهم كلّما طال المقام بهم ازدادوا ضلالاً.

ولهذا يواصل القرآن الكريم القول بـ: ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ولكن الهداية الإلهية أو الإضلال لا تسلب المسؤولية عنكم، حيث إنّ الخطوات الأُولى على عواتقكم، ولهذا يأتي النداء الرباني: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وتشير هذه العبارة إلى نسبة أعمال البشر إلى أنفسهم، وتؤكّد على تحميلهم مسؤولية تلك الأعمال، وتعتبر من القرائن الواضحة في تفسير مفهوم الهداية والإضلال الإلهيين وأنّ أيّاً منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبداً.

وقد بحثنا هذا الموضوع سابقاً (راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة).

وتأكيداً على مسألة الوفاء بالعهد والثبات في الإيمان (باعتبار ذلك من العوامل المهمة في ثبات المجتمع) يقول القرآن: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾. أي: وسيلة للخداع والنفاق، لأنّ في ذلك خطرين كبيرين:

الأوّل: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

الثاني: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في هذه الدنيا ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

من الآثار السلبية لنقض العهود والأيمان شياع سوء ظن الناس وتنفّرهم من الدين

الحق، وتشتت الصفوف وفقدان الثقة حتى لا يرغب الناس في الإسلام، وإن عقدوا معكم عهداً فسوف لا يجدون أنفسهم ملزمين بالوفاء به، وهذا ما يؤدّي لمساوي ومفاسد كثيرة، وبروز حالة التخلف في الحياة الدنيا.

وأمّا على صعيد الحياة الأُخرى فإنّه سيكون سبباً للعقاب والعذاب الإلهي.

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنّ رجلاً من حضر موت يقال له عبدان الأشرع قال: يا رسول الله، إنّ امرأ القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي فذهب بها منّي. فسأل رسول الله ﷺ امرأ القيس عنه، فقال: لا أدري ما يقول. فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنّه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه. فلمّا قام ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الآيتان. فلمّا قرأهما رسول الله ﷺ قال امرؤ القيس: أمّا ما عندي فينفد، وهو صادق فيما يقول. لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء، ومثلها معها، بما أكلت من ثمرها. فنزل فيه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية.

التّفسير

جاءت الآية الأُولى من هذه الآيات لتؤكّد على قبح نقض العهد مرّة أُخرى ولتبيّن عذراً آخراً من أعذار نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقة إلى عذر الخوف من كثرة الأعداء تأتي هذه الآية لتطرح ما للمصلحة الشخصية (المادية) من أثر سلبي على حياة الإنسان. ولهذا تقول: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنّ قيمة الوفاء بعهد الله لا تدانيها قيمة، ولو استلمتم زمام ملك الدنيا بأسرها فإنّه

لا يساوي قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد الله.

وتضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ويبيّن القرآن في الآية التالية سبب الأفضلية بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

ثم يضيف قائلاً: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم﴾ ـ وعلى الأخص في الثبات على العهد والأيمان ـ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

إنّ التعبير بـ«أحسن» دليل على أنّ أعمالهم الحسنة ليست بدرجة واحدة، فبعضها حسن والبعض الآخر أحسن، ولكن الله تعالى يجزي الجميع بأحسن ما كانوا يعملون، وهو ذروة اللطف والرحمة الربانية.

ثم يبيّن القرآن الكريم بعد ذلك ـ على صورة قانون عام ـ نتائج الأعمال الصالحة المرافقة للإيمان في هذه الدنيا وفي الآخرة، فيقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وعليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحة الناتجة عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانة الإجتماعية أو ما شابه ذلك.

الحياة الطيبة، تعني الحياة الطيبة بجميع جهاتها، وخالية من التلوّثات والظلم والخيانة والعداوة والذل وكل ألوان الآلام والهموم، وفيها ما يجعل حياة الإنسان صافية كماء زلال.

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

تبيّن الآيات مورد البحث طريقة الاستفادة من القرآن وتتطرق إلى كيفية تلاوته، فكثافة المحتوى القرآني لا تكفي وحدها لتوجيهنا، ولابد من رفع الحجب المخيّمة على وجودنا وإزالتها عن محيط فكرنا وروحنا، كي نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثرّ الغني.

ولهذا يقول القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

ولا يقصد من الإستعاذة الاكتفاء بالذكر، بل ينبغي لها أن تكون مقدمة لتحقيق وإيجاد الحالة الروحية المطلوبة. حالة: التوجه إلى الله عزّ وجل، الإنفصال عن هوى النفس والعناد

المانع للفهم والدرك الصحيح للإنسان، وعندما نقرأ آية، نستعيذ بالله من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا، وتحول بيننا وبين كلام الله جلّ وعلا.

وإن لم تتحقق للإنسان هذه الحالة فسيتعذر عليه إدراك الحقائق القرآنية.

وتأتي الآية التالية لتكون دليلًا على ما جاء في الآية التي قبلها: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، لأنّهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعة دون أمر الله.

فالآية تؤكّد حقيقة أنّ سلطة الشيطان ليست إجبارية على الإنسان، ولا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أن يمهّد الإنسان السبيل لدخول الشيطان في نفسه، ويعطيه إجازة المرور من بوّابة قلبه.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: كانوا يقولون: يسخر محمّد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر، وإنّه لكاذب، يأتيهم بما يقول من عند نفسه.

التّفسير

تحدثت الآيات السابقة عن أُسلوب الاستفادة من القرآن الكريم، وتتناول الآيات

مورد البحث جوانب أُخرى من المسائل المرتبطة بالقرآن، وتبتدىء ببعض الشبهات التي كانت عالقة في أذهان المشركين حول الآيات القرآنية المباركة، فتقول: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾. فهذا التغيير والتبديل يخضع لحكمة الله، فهو أعلم بما ينزل، وكيف ينزل، ولكن المشركين لجهلهم ﴿قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ المشركين لم يدخل في تصوراتهم وأذهانهم أنّ القرآن في صدد بناء مجتمع إنساني جديد يسوده التطوّر والتقدم والحريّة والمعنوية العالية.

فبديهي والحال هذه أن يطرأ على التغيير والتبديل تدرّجاً مع ما يعيشونه، فغفلة المشركين عن هذه الحقائق وابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للإعتقاد بأنّ أقوال النبي ﷺ تحمل بين ثناياها التناقض أو الإفتراء على الله عزّ وجل وإلّا لعلموا أنّ النسخ في الأحكام جزء من أوامر وآيات القرآن المنظّمة على شكل برنامج تربوي دقيق لا يمكن الوصول للهدف النهائي لنيل التكامل إلّا به.

وتستمر الآية التالية بنفس الموضوع، وللتأكيد عليه تأمر النبي ﷺ أن: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

«روح القدس» أو (الروح المقدسة) هو أمين الوحي الإلهي «جبرائيل الأمين» وبواسطته كانت الآيات القرآنية تتنزّل بأمر الله تعالى على النبي الأكرم ﷺ سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق، وهدفها واحد يتركّز في توجيه الإنسان ضمن التربية الربانية له، وظروف وتركيبة الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخة والمنسوخة في العملية التربوية.

ولهذا، جاء في تكملة الآية المباركة: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

يقول صاحب تفسير الميزان: إنّ تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين إنّما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب، ونصيبه التثبيت في العلم والإذعان، والإسلام في ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الإهتداء إلى واجب العمل والبشرى بأنّ الغاية هي الجنة والسعادة.

وعلى أيّة حال، فلأجل تقوية الروح الايمانية والسير في طريق الهدى والبشرى لابدّ من برامج قصيرة الأمد ومؤقتة، وبالتدريج يحلّ البرنامج النهائي الثابت محلها، وهو سبب وجود الناسخ والمنسوخ في الآيات الإلهية.

وبعد أن فنّد القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهة أُخرى، أو على الأصح لذكر إفتراء آخر لمخالفي نبي الرحمة ﷺ فيقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾.

فالقرآن أجابهم بقوة وأبطل كل ما كانوا يفترونه، بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[١].

فالآية المباركة دليل الإعجاز القرآني من حيث اللفظ والمضمون، فحلاوة القرآن وبلاغته وجاذبيته والتناسق الخاص في ألفاظه وعباراته ما يفوق قدرة أيّ إنسان.

وبلهجة المهدّد المتوعّد يبيّن القرآن الكريم أنّ حقيقة هذه الإتهامات والانحرافات ناشئة من عدم انطباع الايمان في نفوس هؤلاء، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. لأنّهم غير لائقين للهداية ولا يناسبهم إلّا العذاب الإلهي، لما باتوا عليه من التعصب والعناد والعداء للحق.

وفي آخر آية يقول: إنّ الأشخاص الذين يتّهمون أولياء الله هم الكفار: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾. فأيّة أكاذيب أكبر من تلك التي تطلق على رجال الحق لتحول بينهم وبين المتعطشين للحقائق.

قبح الكذب في المنظور الإسلامي: الآية الأخيرة بحثت مسألة قبح الكذب بشكل عنيف، وقد جعلت الكاذبين بدرجة الكافرين والمنكرين للآيات الإلهية.

ولأهمية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصه لمسألة الصدق والنهي عن الكذب.

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب.

فعن علي عليه السلام أنّه قال: **«الصدق يهدي إلى البرّ والبرّ يدعو إلى الجنة»**[٢].

---

١. «يلحدون»: من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، وقد يطلق على أيّ انحراف، والمراد هنا: إنّ الكاذبين يريدون نسبة القرآن إلى إنسان ويدعون بأنّه معلم النبي ﷺ.

«الإعجام» و«العجمة» لغةً: بمعنى الإبهام، ويطلق الأعجمي على الذي في بيانه لحن (نقص) سواء كان من العرب أو من غيرهم، وباعتبار أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغة غيرهم فقد استعملوا اسم (العجم) على غير العرب.

٢. مشكاة الأنوار للطبرسي / ٣٠٠.

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الأُولى نزلت في جماعة أُكرهوا وهم: عمار، وياسر أبوه وأُمّه سمية، وصهيب، وبلال، وخباب، عُذّبوا وقُتل أبو عمار وأمّه، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه. ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ﷺ فقال قوم: كفر عمار. فقال ﷺ: «كلّا، إنّ عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال ﷺ: «ما وراءك»؟ فقال: شرّ يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت». فنزلت الآية.

التّفسير

المرتدون عن الإسلام: تكمل هذه الآيات ما شرعت به الآيات السابقة من الحديث عن المشركين والكفار وما كانوا يقومون به، فتتناول الآيات فئة أُخرى من الكفرة وهم المرتدون. حيث تقول الآية الأُولى: **﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾**.

تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

النوع الأوّل: هم الذين يقعون في قبضة العدو الغاشم ويتحملون أذاه وتعذيبه، ولكنّهم لا يصبرون تحت ضغط ما يلاقوه من أعداء الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام وولاءهم للكفر، على أنّ ما يعلنوه لا يتعدى حركة اللسان، وأمّا قلوبهم فتبق ممتلئة بالإيمان.

فهذا النوع يكون مشمولاً بالعفو الإلهي بلا ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنّهم قد مارسوا التقية التي أحلّها الإسلام لحفظ النفس وحفظ الطاقات للاستفادة منها في طريق خدمة دين الله عزّ وجل.

النوع الثاني: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقةً، ويغيّرون مسيرتهم ويتخلّون عن إيمانهم، فهؤلاء يشملهم غضب الله عزّ وجل وعذابه العظيم.

وتتطرق الآية التالية إلى أسباب ارتداد هؤلاء، فتقول: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾** الذين يصرّون على كفرهم وعنادهم.

وخلاصة المقال: حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم المادية وتعرضت للخطر المؤقت، فندموا على إسلامهم لشدة حبّهم لدنياهم، وعادوا خاسئين إلى كفرهم.

وبديهي أنّ من لا يرغب في الإيمان ولا يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهداية الإلهية.

وتأتي الآية الأخرى لتبيّن سبب عدم هدايتهم، فتقول: **﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾** بحيث إنّهم حُرموا من نعمة الرؤية والسمع وإدراك الحقائق: **﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾**.

إنّ ارتكاب الذنوب وفعل القبائح يترك أثره السلبي على إدراك الإنسان للحقائق، وتغلق أبواب روحه من تقبّل أيّة حقيقة.

ثم تعرض الآية التالية عاقبة أمرهم، فتقول: **﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾**.

وهل هناك من هو أتعس حالاً من هذا الإنسان الذي خسر جميع طاقاته وإمكاناته لنيل السعادة الدائمة بإتباعه هوى النفس.

وبعد ذكر الفئتين السابقتين، أي الذين يتلفظون بكلمات الكفر وقلوبهم ملأى بالإيمان، والذين ينقلبون إلى الكفر مرّة أُخرى بكامل اختيارهم ورغبتهم، فبعد ذلك تتطرق الآية التالية إلى فئة ثالثة وهم البسطاء المخدوعون في دينهم، فتقول: **﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.

فالآية دليل واضح على قبول توبة المرتد.

وتأتي الآية الأخيرة لتقدّم تذكيراً عاماً بقولها: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ لتنقذها من العقاب والعذاب.

ولكن... لا فائدة من كل ذلك... ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

الذين كفروا فأصابهم العذاب: قلنا مراراً: إنّ هذه السورة هي سورة النِعم، النعم المادية والمعنوية وعلى كافة الأصعدة، وقد مرّ ذكر ذلك في آيات متعددة من هذه السورة المباركة، وتصوّر لنا الآيات أعلاه عاقبة الكفر بالنعم الإلهية على شكل مثل واقعي.

ويبتدأ التصوير القرآني بضرب مثل لمن لم يشكر نعمة الله عليه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ لا تضطر إلى هجرة إجبارية، بل تعيش في أمن وأمان (مطمئنة) ومضافاً إلى ذلك ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

ولكن حالها قد تبدّل في النهاية ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وإضافة لاستكمال نعم الله المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم في الدنيا، ويدام لهم ذلك في الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل وأنبياء وأرسلت إليهم التعاليم السماوية ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾.

فكانت النتيجة أن: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

وإنّكم حين تطّلعون على هذه النماذج الواقعية من الأمم السابقة، فاعتبروا بها ولا تنهجوا طريق أُولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم الله ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

يحتمل حدثت هذه القصّة لجمع من بني إسرائيل في منطقة ما، وأنّهم أُبتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم الله.

ومما يؤيد ذلك ما روي ـ في العياشي ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ قوماً كان في بني

إسرائيل يؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت في بلادهم يستنجون بها فلم يزل الله بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلون منها وهو قول الله: ضرب الله مثلاً».

وثمّة احتمال آخر وهو أنّ الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا في اليمن، وقد ذكر القرآن الكريم قصّتهم في الآيات (١٥ ـ ١٩) من سورة سبأ، وكيف أنّهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار والخيرات في أمن وسلام، حتى أصابهم الغرور والطغيان والإستكبار وكفران النعم الإلهية، فأهلكهم الله وشتّت جمعهم وجعلهم عبرة للآخرين.

فالتعبير إشارة إلى أنّ القحط والخوف كانا من الشدة وكأنّهما لباس قد أحاط بأبدانهم من كل الجهات، وأبدانهم في تماس معه.

وعرض الحادثة ما هو إلّا تنبيه للناس ولكل الأمم الغارقة بالنعم الإلهية، على أنّ الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع.

وهو تنبيه أيضاً للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) في أكياس الأوساخ دائماً.

وهو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية في بيوتهم لاستعمالهم الخاص، ويملؤون مخازنهم إنتظاراً لارتفاع سعرها في الأسواق حتى يفسد ويذهب هباءً من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فساده.

نعم، فلا يخلو أي عمل مما ذكر من عقوبة إلهية، وأقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ
فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ
أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

لا يفلح الكاذبون: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الإلهية ومسألة شكر النعمة، تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع وتطرح مسألة المحرمات الواقعية وغير الواقعية لتفصل بين الدين الحق وبين البدع التي أُحدثت في دين الله، وتشرع بالقول: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾[1].

إنّ تلوّث هذه المواد الثلاث بات اليوم ليس خافياً على أحد، فالميتة مصدر لأنواع الجراثيم، والدم من أكثر مكوّنات البدن تقبلًا للتلوّث بالجراثيم، وأمّا لحم الخنزير فيعتبر سبباً للإصابة بالكثير من الأمراض الخطرة.

أمّا فلسفة تحريم ما يذبح لغير الله فليست صحية، بل هي أخلاقية ومعنوية.

فمن جهة يكون التحريم حرباً على الشرك وعبادة الأصنام، ومن جهة أُخرى يكون دعوة إلى خالق هذه النعم.

ويستفاد من المحتوى العام للآية والآيات التالية أنّ الإسلام يوصي بالإعتدال في تناول اللحوم، فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم واكتفوا بالأغذية النباتية، ولا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحوم أيّاً كانت كأهل الجاهلية والبعض ممن يدّعي التمدّن في عصرنا الحاضر ممن يجيزون أكل كل لحم (كالسحالي والسرطان وأنواع الديدان).

وفي نهاية الآية سياقاً مع الأسلوب القرآني، ذُكرت الحالات والموارد الاستثنائية، يقول: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ**﴾. كأن يكون في صحراء ولا يملك غذاء؛ ﴿**غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

«باغ» أو الباغي: (من البغي) بمعنى «الطلب» ويأتي هنا بمعنى طلب اللذة أو تحليل ما حرّم الله. و«عاد» أو العادي: (من العدو) أي «التجاوز» ويأتي هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حد الضرورة.

وتأتي الآية التالية لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، والذي تطرّق القرآن إليه سابقاً بشكل غير مباشر، فتأتي الآية لتطرحه صراحة حيث

---

١. «أُهِلَّ»: من الإهلال، مأخوذٌ من الهلال، بمعنى إعلاء الصوت عند رؤية الهلال، وباعتبار أنّ المشركين كانوا إذا ذبحوا حيواناتهم للأصنام صرخوا عالياً بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه بـ«أُهِلَّ».

تقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾. أي: إنّ ما جئتم به ليس إلّا كذبة صريحة أطلقتها ألسنتكم في تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، وتحريمكم لأخرى! (إشارة إلى الأنعام التي حرّمها البعض على نفسه، والبعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسماً منها لأصنامه).

فهل أعطاكم الله حقّ سنّ القوانين؟ أم أنّ أفكاركم المنحرفة وتقاليدكم العمياء هي التي دفعتكم لإحداث هذه البدع؟... أوَ ليس هذا كذباً وافتراءاً على الله؟

ويحذّر القرآن في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾. لأنّ من مسببات الشقاء الأساسية الكذب والإفتراء على أي إنسان، فكيف به إذا كان على الله عزّ وجل؟ فلا أقل والحال هذه من مضاعفة آثاره السيئة.

وتوضّح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويمكن أن تكون ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ إشارة إلى أجنّة الحيوانات الميتة التي كانوا يحللونها لأنفسهم ويأكلون لحومها.

ويطرح السؤال التالي: لماذا حرّمت على اليهود محرّمات إضافية؟

الآية التالية كأنّها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾.

وهو إشارة إلى ما ذكر في الآية (١٤٦) من سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

وحقيقة هذه المحرمات الإضافية العقاب والجزاء لليهود جرّاء ظلمهم، ولذلك يقول القرآن الكريم في آخر الآيات مورد البحث: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وفي آخر آية من الآيات مورد البحث، وتمشّياً مع الأسلوب القرآني، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعين من الناس والنادمين من ضلالهم، فيقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي هذه الآية ملاحظتان:

أوّلاً: اعتبرت علة ارتكاب الذنب «الجهالة» والجاهل المذنب يعود إلى طريق الحق بعد ارتفاع حالة الجهل.

ثانياً: إنّ الآية لا تحدّد الموضوع بالتوبة القلبية والندم، بل تؤكّد على أثر التوبة من الناحية العملية وتعتبر الإصلاح مكمّلاً للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر الله».

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ
ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

كان إبراهيم لوحده أمّة: كما قلنا مراراً بأنّ هذه السورة هي سورة النعم، وهدفها تحريك حس الشكر لدى الإنسان بشكل يدفعه لمعرفة خالق وواهب هذه النعم، والآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور لله، ألا وهو «إبراهيم» بطل التوحيد، وأوّل قدوة للمسلمين عامة وللعرب خاصة، والآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميدة التي كان يتحلّى بها إبراهيمﷺ.

١ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾. إنّ «أمّة» اسم مفعول يطلق على الذي تقتدي به الناس وتنصاع له. كان إبراهيمﷺ منبعاً لوجود أمّة ولهذا أطلق القرآن عليه كلمة «أمّة».

نعم فقد كان إبراهيم أمّة وكان إماماً عظيماً، وكان رجلاً صانع أمّة، وكان منادياً بالتوحيد وسط بيئة اجتماعية خالية من أيّ موحّد.

٢ـ صفته الثانية في هذه الآيات: أنّه كان ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

٣ـ وكان دائماً على الصراط المستقيم سائراً على طريق الله، طريق الحق ﴿حَنِيفًا﴾.

٤ـ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان نور الله يملأ كل حياته وفكره، ويشغل كل زوايا قلبه.

٥ـ وبعد كل هذه الصفات، فقد كان ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾.

وبعد عرض الصفات الخمسة يبيّن القرآن الكريم النتائج المهمة لها، فيقول:

١ـ ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ للنبوة وإبلاغ دعوته.

٢ـ ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وحفظه من كل انحراف، لأنّ الهداية لا تأتي لأحد عبثاً، بل لابدّ من توفّر الإستعداد والأهلية لذلك.

٣ـ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾. «الحسنة»: في معناها العام كل خير وإحسان، فتشمل منح مقام النبوة، مروراً بالنعم المادية حتى نعمة الأولاد وما شابهها.

٤ـ ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ومع أنّ إبراهيم كان على رأس الصالحين في الدنيا، فإنّه سيكون منهم في الآخرة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، وهذه دلالة على عظمة مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السلام على ما له من مقام سام كأحدهم في دار الآخرة، ولم لا يكون ذلك وقد طلب إبراهيم عليه السلام ذلك من ربّه حين قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٥ـ وختمت عطايا الله عزّ وجل لإبراهيم عليه السلام لما ظهر منه من صفات متكاملة، بأن جعل دينه عامّاً وشاملًا لما ما سيأتي بعده من أزمان ـ وخصوصاً للمسلمين ـ ولم يجعل دينه مختصاً بعصر أهل زمانه، فقال الله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾[١].

ويأتي التأكيد مرّة أُخرى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

وبملاحظة الآيات السابقة يبدو لنا هذا السؤال: إن كان دين الإسلام هو نفس دين إبراهيم وأنّ المسلمين يتّبعون سنن إبراهيم عليه السلام في كثير من المسائل ومنها إحترام يوم الجمعة، فلماذا اتّخذ اليهود يوم السبت عيداً لهم بدلاً من الجمعة ويعطلون فيه أعمالهم؟

إنّ آخر آية من الآيات مورد البحث تجيب على السؤال المذكور حين تقول: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾. أي: إنّ السبت وما حرّم في السبت كان عقوبة لليهود، وقد اختلفوا فيه أيضاً، فنهم مَن قبله ومنهم مَن أهمله.

وتقول بعض الروايات: أنّ موسى عليه السلام دعا قومه ـ بني اسرائيل ـ لاحترام يوم الجمعة وتعطيل أعمالهم فيه، وهو دين إبراهيم عليه السلام إلّا إنّهم تعللوا، واختاروا يوم السبت، فجعله الله عطلة لهم ولكن بضيق وشدّة، ولهذا لا ينبغي الإعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنّه إنّما كان استثنائياً وذا طابع جزائي، وأفضل دليل على هذا الأمر أنّ اليهود أنفسهم اختلفوا في يومهم

---

١. «الحنيف»: بمعنى الذي يترك الإنحراف ويتّجه إلى الإستقامة والصلاح. وبعبارة أُخرى: يغضّ نظره عن الأديان والأوضاع المنحرفة ويتوجّه نحو صراط الله المستقيم، الدين الموافق للفطرة، ولهذا يسمى الصراط المستقيم، فالتعبير بالحنيف يحمل بين طيّاته إشارة خفيّة إلى أنّ التوحيد هو دين الفطرة.

المنتخب هذا، فبعض إحترمه وبعض آخر خالف ذلك وأدام العمل والكسب فيه حتى أصابهم عذاب الله.

ويقول القرآن الكريم في آخر الآية: **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾**.

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ
وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

عشرة قواعد أخلاقية.. سلاح داعية الحق: حملت آيات السورة بين طيّاتها أحاديث كثيرة ومتنوعة، فقد تناولت المشركين واليهود وأصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة ليّنة وأُخرى بأُسلوب تقريع وشدّة، وخصوصاً الآيات السابقة لما لها من عمق وشدّة أكثر مما سبقها من الآيات المباركات. أمّا الآيات أعلاه والتي تمثّل خاتمة بحوث وأحاديث سورة النحل، فتبيّن أهم الأوامر الأخلاقية الأساسية التي ينبغي التحصّن بها عند مواجهة المخالفين على أساس منطقي، كما وتبيّن كيفية العقاب والعفو وأُسلوب الصمود أمام مؤامراتهم وما شابه ذلك.

ويمكن تسمية ذلك بالأصول التكتيكية ومنهج المواجهة في الإسلام ضد المخالفين، كما وينبغي العمل به كقانون كلّي شامل لكل زمان ومكان.

ويتلخص هذا البرنامج الرباني بعشرة أُصول، تمّ ترتيبها وفقاً لتسلسل الآيات مورد البحث:

١ـ **﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾**: فأوّل خطوة على طريق الدعوة إلى الحق هي التمكّن من الاستدلال وفق المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس ومحاولة تحريك وإيقاظ عقولهم، كخطوة أُولى في هذا الطريق.

٢ـ **﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾**: وهي الخطوة الثانية في طريق الدعوة إلى الله، بالاستفادة من

عملية تحريك الوجدان الإنساني، وذلك لما للموعظة الحسنة من أثر دقيق وفاعل على عاطفة الإنسان وأحاسيسه، وتوجيه مختلف طبقات الناس نحو الحق.

٣ـ ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: الخطوة الثالثه تختص بتخلية أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فيه والأفكار المغلوطة ليكون مستعداً لتلقي الحق عند المناظرة.

وفي ذيل الآية الأولى، يقول القرآن: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

فالآية تشير إلى أنّ وظيفتكم هي الدعوة إلى طريق الحق بالطرق الثلاثة المتقدمة، أمّا مسألة من الذي سيهتدي ومن سيبيق على ضلاله، فعلم ذلك عند الله وحده سبحانه.

٤ـ إنصبّ الحديث في الأصول الثلاثة حول البحث المنطقي والأسلوب العاطفي والمناقشة المعقولة مع المخالفين، وإذا حصلت المواجهة معهم ولم يتقبّلوا الحق وراحوا يعتدون، فهنا يأتي الأصل الرابع: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾.

٥ـ ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾. في تفسير العياشي: إنّ الآية نزلت يوم أُحد لمّا رأى رسول الله ﷺ ما صنع بحمزة بن عبد المطلب (فشقوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة كبده فجعلت تلوكه وجدعوا أنفه وأذنه) قال: «اللّهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان على ما أرى». ثم قال: «لئن ظفرت لأمثلن ولأمثلن». ـ وعن ابن عباس قال قال رسول الله: «لأمثلن بسبعين رجلًا منهم». ـ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾. قال فقال رسول الله ﷺ: «أصبر أصبر».

ربّما كانت تلك اللحظة من أشد لحظات حياة النبي ﷺ ولكنّه تمالك زمام أُمور نفسه واختار الطريق الثاني، طريق العفو والصبر.

٦ـ ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: والصبر إنّما يكون مؤثّراً وفاعلًا إذا قصد به رضوانه تعالى ولا يلحظ فيه أيّ شيء دون ذلك.

٧ـ وإذا لم ينفع الصبر في التبليغ والدعوة إلى الله، ولا العفو والتسامح، فلا ينبغي أن يحلّ اليأس في قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار في التبليغ بسعة صدر وهدوء أعصاب أكثر، ولهذا يقول القرآن الكريم في الأصل السابع: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

٨ـ ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: فمها كانت دسائس العدو العنيد واسعة ودقيقة وخطرة فلا ينبغي لك ترك الميدان، لظنّك أن قد وقعت في زاوية ضيّقة وحصار محكم، بل

لابد من التوكل على الله، وسوف تفشل كل الدسائس وتبطل مفعولها بقوة الإيمان والثبات والمثابرة والعقل والحكمة.

وآخر آية من سورة النحل تعرض الأمرين التاسع والعاشر حيث تقول:

٩ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾: التقوى في جميع أبعادها وبمفهومها الواسع، ومنها: التقوى في مواجهة المخالفين بمراعاة أُصول الأخلاق الإسلامية عند المواجهة، فمع الأسير لابد من مراعاة أصول المعاملة الإسلامية، ومع المنحرف ينبغي مراعاة الإنصاف والأدب والتورّع عن الكذب والإتهام، وفي ميدان القتال لابد من التعامل على ضوء التعليمات العسكرية وفق الموازين والضوابط الإسلامية، فمثلاً: ينبغي عدم الهجوم على العزّل من الأعداء، وعدم التعرض للأطفال والنساء والعجزة، ولا التعرض للمواشي والمزارع لأجل إتلافها، ولا يقطع الماء على العدو... وخلاصة القول: تجب مراعاة أُصول العدل مع العدو والصديق (وطبيعي أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم إستثناءاً وليس قاعدة).

١٠ـ ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾. وإذا عمل بالإحسان في محله المناسب، فإنّه أفضل أُسلوب للمواجهة، والتاريخ الإسلامي يرفدنا بعيّنات رائعة في هذا المجال... منها: موقف معاملة النبي ﷺ مع مشركي مكة بعد الفتح.

وبنظرة تأملية ممعنة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبيّن لنا جميع الخطوط الأصلية والفرعية لأُسلوب مواجهة المخالفين، وأنّ هذه الأُصول إنّما إحتوت كل الأُسس المنطقية والعاطفية والنفسية والتكتيكية، وكل ما يؤدّي للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الايجابي فيها.

ولو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.

«نهاية تفسير سورة النحل»

١٧

سورة الإسراء

وهي مائة وإحدى عشرة آية

مكية

أسماء السورة: بالرغم من أنّ الإسم المشهور لهذه السورة هو «بني إسرائيل» إلّا أنّ لها أسماء أُخرى مثل «الإسراء» و«سبحان».

ومن الواضح أنّ ثمة علاقة بين أي اسم من أسماء السورة وبين محتواها ومضمونها، فهي «بني إسرائيل» لأنّ هناك قسماً مهماً في بداية السورة ونهايتها يرتبط بالحديث عن بني إسرائيل.

وإذا قلنا أنّها سورة «الإسراء» فإنّ ذلك يعود إلى الآية الأُولى فيها التي تتحدث عن إسراء (ومعراج) النبي الأكرم ﷺ.

وأمّا تسميتها بـ«سبحان» فإنّ ذلك يعود إلى الكلمة الأُولى في السورة المباركة.

محتوى السورة: هذه السورة مكية وفق القول المشهور بين المفسرين، لذا فإنّ محتوى السورة يوافق خصوصيات السور المكية.

وبالامكان فرز المحاور المهمة الآتية التي يدور حولها مضمون السورة:

١ـ الإشارة إلى أدلة النبوة الخاتمة وبراهينها، وفي مقدمتها معجزة القرآن وقضية المعراج.

٢ـ ثمة بحوث في السورة ترتبط بقضية المعاد.

٣ـ تتحدّث السورة في بدايتها ونهايتها عن قسم من تاريخ بني إسرائيل المليء بالأحداث.

٤ـ تتعرض السورة إلى حرية الاختيار لدى الإنسان وأنّ الإنسان غير مجبر في أعماله، وبالتالي فإنّ على الإنسان أن يتحمّل مسؤولية تلك الحريّة من خلال تحمّله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.

٥ـ تبحث السورة قضية الحساب والكتاب في هذه الدنيا، لكي يعي الإنسان قضية الحساب والكتاب على أعماله وأقواله في اليوم الآخر.

٦ـ تشير إلى الحقوق في المستويات المختلفة، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، وبالأخص منهم الأم والأب.

٧ـ تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و«التبذير»، و«البخل»، و«قتل الأبناء»، و«الزنا»، و«أكل مال اليتيم»، و«البخس في المكيال»، و«التكبر»، و«إراقة الدماء».

٨ـ في السورة بحوث حول التوحيد ومعرفة الله تعالى

٩ـ تواجه السورة مواقف العناد والمكابرة إزاء الحق، وأنّ الذنوب تتحوّل إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.

١٠ـ تركّز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.

١١ـ تؤكّد السورة على تأثير القرآن الكريم في معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية والاجتماعية.

١٢ـ تبحث السورة في المعجزة القرآنية وعدم تمكن الخصوم وعجزهم عن مواجهة هذه المعجزة.

١٣ـ تحذّر السورة المؤمنين من وساوس الشيطان وإغواءاته، وتنبههم إلى المسالك التي ينفذ من خلالها إلى شخصية المؤمن.

١٤ـ تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا والمفاهيم والتعاليم الأخلاقية.

١٥ـ أخيراً تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس والعبر من هذه القصص.

في كل الأحوال تعكس سورة الإسراء في مضمونها ومحتواها العقائدي والأخلاقي والإجتماعي لوحة متكاملة ومتناسقة لسمو وتكامل البشر في المجالات المختلفة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم ويكون من أصحابه».

وينبغي أن يلاحظ أنّ التلاوة ينبغي أن تقترن بالتفكر في معانيها والتأمل في مفاهيمها، وأن يعقب ذلك جميعاً العمل بها، وتحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم في سلوكه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

معراج النبي ﷺ: الآية الأولى في سورة الإسراء تتحدّث عن إسراء النبي ﷺ أي سفره ليلاً من المسجد الحرام في مكّة المكرمة إلى المسجد الأقصىٰ (في القدس الشريف). وقد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجه ﷺ إلى السماء. وقد لوحظ في هذا السفر أنّه تمّ في زمن قياسي حيث إنّه لم يستغرق سوى ليلة واحدة بالنسبة إلى وسائل نقل ذلك الزمن ولهذا كان أمراً اعجازياً وخارقاً للعادة.

السورة المباركة تبدأ بالقول: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾.

وقد كان القصد من هذا السفر الليلي الإعجازي هو ﴿**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾.

وبالرغم من أنّ الرسول ﷺ كان عارفاً بعظمة الله سبحانه، وكان عارفاً أيضاً بعظمة خلقه، لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازي أن تمتلىء روح رسول الله ﷺ أكثر بدلائل العظمة الربانية، وآيات الله في السماوات، ولتجد روحه السامية في هذه الآيات زخماً إضافياً يوظّفه ﷺ في هداية الناس إلى ربّ السماوات والأرض.

ثم خُتمت الآية بالقول: ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾. وهذه إشارة إلى أنّ الله تبارك وتعالى لم يختر رسوله ولم يصطفه لشرف الإسراء والمعراج، إلّا بعد أن اختبر استعداده لهذا الشرف ولياقته لهذا المقام، فالله تبارك وتعالى سمع قول رسوله ورأى عمله وسلوكه فاصطفاه للمقام السامي الذي اختاره له في الإسراء والمعراج[١].

---

١. من المشهور بين علماء الإسلام أنّ رسول الله ﷺ عندما كان في مكة أسري به الله تبارك وتعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك صعد به إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الربانية وآيات الله الكبرى في فضاء السماوات، ثم عاد ﷺ في نفس الليلة إلى مكة المكرمة.

والمعروف أيضاً أنّ سفر الرسول ﷺ في الإسراء والمعراج قد تمّ بجسم رسول الله وروحه معاً.

إنّ تعبير «أسرى» في الآية يشير إلى وقوع السفر ليلاً.

وبالرغم من أنّ كلمة «ليلاً» جاءت في الآية تأكيداً لكلمة «أسرى» إلّا أنّها تريد أن تبيّن أنّ سفر الرسول ﷺ قد تمّ في ليلة واحدة فقط على الرغم من أنّ المسافة بين المسجد الحرام وبيت المقدس تقدّر بأكثر من مائة فرسخ، هذا السفر يقع في ليلة واحدة فقط.

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

بعد أن أشارت الآية الأُولى في السورة إلى معجزة إسراء النبي ﷺ كشفت آيات السورة الأُخرى عن موقف المشركين والمعارضين لمثل هذه الأحداث، وأبانت استنكارهم لها، وعنادهم إزاء الحق. في هذا الإتجاه انعطفت الآية الأُولى ـ من الآيات مورد البحث ـ على قوم موسى، لتقول لرسول الله ﷺ: إنّ تأريخ النبوّات واحد، وإنّ موقف المعاندين واحد أيضاً، وأنّه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشي موقفه هذا منك، وبين يديك الآن تأريخ بني إسرائيل في موقفهم من موسى ﷺ. تقول الآية أوّلاً: ﴿**وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ**﴾.

وصفة هذا الكتاب أنّه: ﴿**وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**﴾. والكتاب الذي تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذي نزل على موسى ﷺ هدى لبني إسرائيل.

ثم تشير الآية إلى الهدف من بعثة الأنبياء بما فيهم موسى ﷺ فتقول: ﴿**أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا**﴾.

إنّ التوحيد في العمل هو واحدٌ من معالم أصل التوحيد، وهو علامة على التوحيد العقائدي. الآية تقول: لا تتكىء على أحد سوى الله.

ومن أجل أن تحرّك الآية التالية عواطف بني إسرائيل وتحفّزهم لشكر النعم الإلهية عليهم، خصوصاً نعمة نزول الكتاب السماوي، فإنّها تضع لهم نموذجاً للعبد الشكور فتقول: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾. ولا تنسوا: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

والآية تخاطب بني إسرائيل بأنّهم أولاد من كان مع نوح، وعليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم وآبائهم في الشكر لأنعم الله.

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بني إسرائيل المليء بالأحداث، فتقول: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

والمقصود من «الأرض» في الآية ـ بقرينة الآيات الأخرى ـ هي أرض فلسطين المقدسة التي يقع المسجد الأقصى المبارك في ربوعها.

الآية التي تليها تفصّل ما أجملته من إشارة إلى الإفسادين الكبيرين لبني إسرائيل والحوادث التي تلي ذلك على أنّها عقوبة إلهية فتقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ وإرتكبتم ألوان الفساد والظلم والعدوان ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

وهؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾. وهذا الأمر لا مناص منه: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

ثم تشير بعد ذلك إلى أنّ الألطاف الإلهية ستعود لتشملكم، وسوف تعينكم في النصر على أعدائكم، فتقول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

وهذه المنّة واللطف الإلهي بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم وتصلحوا أعمالكم وتتركوا القبائح والذنوب لأنّه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

إنّ الآية تعبّر عن سنّة ثابتة، إذ إنّ محصلة ما يعمله الإنسان من سوء أو خير تعود لنفسه.

تقول الآية في وصف المشهد الثاني أنّه حين يحين الوعد الإلهي سوف تغطّيكم جحافل من المحاربين ويحيق بكم البلاء إلى درجة أنّ آثار الحزن والغم تظهر على وجوهكم: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾. بل ويأخذون منكم حتى بيت المقدس: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وسوف لا يكتفون بذلك بل سيحتلّون جميع بلادكم ويدمّرونها عن آخرها: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾. وفي هذه الحالة فإنّ أبواب التوبة الإلهية مفتوحة: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾.

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾. أي: إن عدتم لنا بالتوبة فسوف نعود عليكم بالرحمة، وإن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبة. وإذا كان هذا جزاؤكم في الدنيا ففي الآخرة مصيركم جهنم: ﴿وجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[1].

الإفسادان التأريخيان لبني إسرائيل: تحدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبني إسرائيل، يقود كل منهما إلى الطغيان والعلو، وقد لاحظنا أنّ الله سلّط على بني إسرائيل عقب كل فساد، رجالاً أشدّاءَ شُجعاناً يذيقونهم جزاء فسادهم وعلوّهم وطغيانهم، هذا مع استثناء الجزاء الأخروي الذي أعدّه الله لهم.

يستفاد من تاريخ بني إسرائيل بأنّ أوّل من هجم على بيت المقدس وخرّبه هو ملك بابل «نبوخذ نصر» حيث بقي الخراب ضارباً فيه لسبعين عاماً، إلى أنّ نهض اليهود بعد ذلك لإعماره وبنائه، أمّا الهجوم الثاني الذي تعرّض له، فقد كان من قبل قيصر الروم «أسبيانوس» الذي أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل. وقد تمّ ذلك في حدود مائة سنة قبل الميلاد.

وبذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتي «نبوخذ نصر» و«أسبيانوس».

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّٰلِحَٰتِ
أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ الْإِنسَٰنُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ
ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَ
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

١. «حصير»: مشتقة من «حصر» بمعنى الحبس، وكل شيء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم «حصير» ويقال للحصير العادية حصيراً لأنّ خيوطها وموادها نسجت إلى بعضها البعض.

أقصر الطرق للهداية والسعادة: الآيات السابقة تحدّثت عن بني إسرائيل وكتابهم السماوي «التوراة» وكيف تخلّفوا عن برنامج الهداية الإلهية ليلقوا بعض جزائهم في هذه الحياة الدنيا، والباقي مدّخر ليوم القيامة. وفي هذا المقطع من الآيات، إنتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب السماوي للمسلمين، وآخر حلقة في الكتب السماوية، فقال تعالى أوّلاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

إنّ معنى الآية أعلاه، هو أنّ القرآن الكريم يمثّل أقصر وأفضل طرق الإستقامة والثبات والهداية.

وبهذا فإنّ الطريق القويم من وجهة نظر العقائد والأفكار.

العقيدة الأقوم من هذه الزاوية، هي التي توافق بين الإعتقاد والعمل، والظاهر والباطن، الفكر والمنهج، وتدفع الإنسان والجميع نحو الله.

أمّا الأقوم من وجهة نظر القوانين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، التي تسود المجتمع.

وأخيراً فإنّ المنهج الأقوم بالنسبة للنظم والسلطات الحاكمة، هو كل ما يدفعها إلى إقامة العدل، والدعوة إلى إشاعة الإنصاف، ومواجهة الظلم والظالمين.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس في مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذي ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالأولى يكون حالها كما يقول تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

أمّا الفئة الثانية فيكون مصيرها تبعاً لموقفها كما يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وإذا كان استخدام «بشارة» واضح هنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية والإستهزاء.

الآية التي بعدها تنساق في نفس اتجاه البحث وتشير إلى احدى العلل المهمة لعدم الإيمان وتقول بأنّ عجلة الإنسان وتسرّعه وعدم اطلاعه على الأمور وإحاطته بها تسوقه إلى أن يساوي في جهده بين دعائه بالخير وطلبه، وبين دعائه بالشر وطلبه له.

تقول الآية: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾. لماذا؟: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

إنّ استعجال الإنسان واندفاعه في سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية للأمور بحيث إنّه لا يحيط الأشياء بالدراسة الشاملة مما يفوّت عليه تشخيص

منفعته الواقعية، وهكذا بنتيجة تعجّله واندفاعه المضطرب يَضيع عليه وجه الحقيقة، ويتغير مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر والأعمال السيئة الضارّة.

وهكذا ينتهي الإنسان ـ نتيجة سوء تشخيصه واضطراب مقياسه في رؤية الخير والحقيقة ـ إلى أن يطلب من الله الشر، تماماً كما يطلب منه الخير، وأن يسعى وراء الأعمال السيئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة، وهذا الإضطراب وفقدان الموازين هو أسوأ بلاء يصاب به الإنسان ويحول بينه وبين السعادة الحقيقية.

في محاسن البرقي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنّما أهلك الناس العجلة، ولو أنّ الناس تثبّتوا لم يهلك أحد**».

طبعاً هناك باب في الروايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» في الكافي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إنّ الله يحبّ من الخير ما يعجّل**».

إنّ العجلة المذمومة هي التي تكون أثناء البحث والدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة والعجلة الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، والتصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ في الروايات: «**سارعوا في عمل الخير**». أي: بعد أن يثبت أنّ هذا العمل خير فلا مجال للتأخير والتسويف.

الآية التي بعدها تتحدث عن تعاقب الليل والنهار ومنافع هذا التعاقب، لتجعل من هذا الشاهد مثالاً على معرفة الله والتمعّن بآياته، والمثال أيضاً يفيد معنى التأمل والهدوء ويدعو إلى محاذرة التعجّل والتسرّع. الآية تقول أوّلاً: ﴿**وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ**﴾. ثم: ﴿**فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾. ولنا في ذلك هدفان: الأوّل: ﴿**لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ حيث تنطلقون نهاراً في الكسب والعمل والمعاش مستثمرين العطايا الإلهية، وتنعمون ليلاً بالراحة والهدوء والإستقرار. والهدف الثاني فهو: ﴿**وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ لكي لا تبق شبهة لأحد ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا**﴾.

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا
﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَ
مَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾

لقد تحدّثت الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التي تتصل بالمعاد والحساب، لذلك فإنّ الآيات التي نبحثها الآن تتحدّث عن قضية «حساب الأعمال» التي يتعرض لها البشر، وكيفية ومراحل إنجاز ذلك في يوم المعاد والقيامة حيث يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾. «الطائر»: يعني الطير، ولكن الكلمة هنا تشير إلى معنى آخر كان سائداً ومعروفاً بين العرب؛ إذ كانوا يتفألون بواسطة الطير؛ وكانوا يعتمدون في ذلك على طبيعة الحركة التي يقوم بها الطير. فمثلًا إذا تحرّك الطير من الجهة اليمنى، فهم يعتبرون ذلك فألًا حسناً وجميلًا، أمّا إذا تحرّك الطير من اليُسرى فإنّ ذلك في عُرفهم وعاداتهم علامة الفأل السيّء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطيّر.

إنّ القرآن يبيّن أنّ التفؤل الحسن والسيّء أو الحظ النحس والجميل، إنّما هي أعمالكم لا غير، والتي ترجع عهدتها إليكم وتتحملون على عاتقكم مسؤولياتها، وهذه الأعمال لا تنفصل عنكم في الدنيا ولا في الآخرة.

يقول القرآن بعد ذلك: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾.

والمقصود من «الكتاب» في الآية الكريمة هي صحيفة الأعمال لا غير، وهي نفس الصحيفة الموجودة في هذه الدنيا والتي تثبّت فيها الأعمال، ولكنها هنا (في الدنيا) مخفية عنّا ومكتومة، بينما في الآخرة مكشوفة ومعروفة.

في هذه اللحظة يقال للإنسان: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

يعني أنّ المسألة ـ مسألة المصير ـ بدرجة من الوضوح والعلنية والإنكشاف، بحيث لا مجال لانكارها.

وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ﴾ قال: «**يذكر العبد جميع ما عمل، وما كتب عليه، حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها**».

الآية التي بعدها توضّح أربعة أحكام أساسية فيما يخص مسألة الحساب والجزاء على الأعمال، وهذه الأحكام هي:

١ـ أوّلًا تُقرر أنّ ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ حيث تعود النتيجة عليه.

٢ـ ثم تُقرر أيضاً أنّ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

وقرأنا نظير هذين الحكمين في الآية السابعة من هذه السورة في قوله تعالى: ﴿إِنْ

أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

٣ـ ثم تنتقل الآية لتقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. «الوزر»: بمعنى الحمل الثقيل؛ وأيضاً تأتي بمعنى المسؤولية، لأنّ المسؤولية ـ أيضاً ـ حمل معنوي ثقيل على عاتق الإنسان.

طبعاً هذا القانون الكلي الذي تُقرره آية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا يتنافى مع ما جاء في الآية (٢٥) من سورة النحل التي تقول: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ لأنّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين يكونون فاعلين للذنب أيضاً، أو يُعتبرون بحكم الفاعلين له، ولذلك فهم في واقع الأمر يتحملون أوزارهم وذنوبهم.

٤ـ الحكم الرابع يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يقوم ببيان التكليف وإلقاء الحجة.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

مراحل العقاب الإلهي: إنّ موضوع البحث في هذه الآيات يُكمل ما كنّا بصدد بحثه في نهاية الآيات السابقة، ولكن بصورة أُخرى، إذ تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[١].

إنّ الآيات التي كنّا قبل قليل بصدد بحثها، كانت تتحدّث عن أنّ العقاب الإلهي لا يمكن أن ينزل بساحة شخص أو مجموعة أو أُمّة، من دون أن تكون هناك حجة وبيان للتكليف من قبل الرسل والأنبياء عليهم السلام والآية التي نحن بصددها الآن، تتحدث عن نفس هذا الأصل ولكن بطريقة أُخرى.

إنّ الله لا يُعاقب أو يؤاخذ أحداً بالعذاب، قبل أن يتمّ الحجة عليه، وقبل أن يتّضح ويستبين تكليفه، في البداية يضع الله تعليماته وأوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها وأطاعوا فستنالهم سعادة الدنيا والآخرة. أمّا إذا عصوا وخالفوا ولم يلتزموا الأوامر والنواهي الربانية، فسيحيق بهم العذاب، ويؤدّي إلى هلاكهم.

---

١. بالرغم من أنّ كلمة «قول» لها معنىً واسع ولكنّها هنا تعني إعطاء الأمر بالعذاب.

إضافة إلى ذلك، فإنّ التعبير في الآية الكريمة ينطوي على إشارة مهمة، هي أنّ أغلب المفاسد الاجتماعية تنبع من المترفين، أصحاب الأموال، البعيدين عن الله تعالى، والذين يعيشون حياةً مترفة بعيدة عن الشرع مملوءة بالأهواء والمفاسد.

الآية التي بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنّها أصل عام، وقاعدة سارية، إذ تقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ وفقاً لهذه القاعدة والسنّة، ثم تضيف بعد ذلك: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾. أي: إنّ ظلم وذنوب فرد أو مجموعة لا يمكنها أن تكون خافية على العين البصيرة التي لا تنام لرب العالمين.

أمّا لماذا أكّدت الآية على القرون من بعد نوح؟ فقد يكون ذلك بسبب أنّ الحياة قبل نوح كانت حياة بسيطة، والاختلافات التي تقسّم المجتمعات إلى مُترف ومستضعف، كانت بسيطة وضئيلة، لذلك فالعذاب الإلهي لم يشملهم بكثرة.

مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

طلاب الدنيا والآخرة: لقد تحدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر الله تعالى، وكيفية هلاكهم، لذا فإنّ هذه الآيات ـ التي نحن بصددها الآن ـ تشير إلى سبب التمرّد على شريعة الله، والعصيان لأوامره، وهذا السبب هو حبّ الدنيا، إذ يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

«العاجلة»: تعني النعم الزائلة، أو الحياة الزائلة.

والظريف في الآية، أنّها لا تقول: إنّ من يسعى وراء الدنيا، ويجعلها كل همّه، يحصل على كل ما يريد، بل قيّدت ذلك بشرطين هما:

أوّلاً: سيحصل على جزء مما يريده؛ وأنّ هذا الجزء هو المقدار الذي نريده نحن، أي ﴿مَا نَشَاءُ﴾.

ثانياً: إنّ جميع الأشخاص ـ رغم سعيهم الدنيوي ـ لا يحصلون على هذا المقدار، وإنّما قسم منهم سيحصل على جزء من متاع الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿**لِمَن نُّرِيدُ**﴾.

وبناءاً على ذلك، فلا كل طلّاب الدنيا يحصلون عليها، ولا أُولئك الذين يحصلون على شيء منها، يحصلون على ما يريدون. ومسار الحياة اليومية يوضّح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكدّون ليلاً ونهاراً ولكنهم لا يحصلون على شيء.

وما أكثر الذين لهم أُمنيات كبيرة وطموحات متعددة ومشاريع بعيدة، ولكن لا يحصلون إلّا على القليل منها.

والجدير بالإنتباه هنا، أنّ عاقبة هذه المجموعة من الناس، والتي هي نار جهنّم، قد تمّ تأكيدها في الآية، بكلمتي ﴿**مَذْمُومًا**﴾ و﴿**مَّدْحُورًا**﴾ إذ التعبير الأوّل يأتي بمعنى اللوم، بينما الثاني يعني الإبتعاد عن رحمة الخالق، وإنّ نار جهنّم تمثّل العقاب الجسدي لهم، أما «مذموم» و«مدحور» فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح وللجسد، والجزاء والعقاب يكون للإثنين معاً.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثانية ومصيرها، وبقرينة المقابلة ـ وهي أسلوب قرآني مميّز ـ يتوضّح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾.

بناءاً على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هي:

أوّلاً: إرادة الإنسان: وهي الإرادة التي ترتبط بالحياة الأبدية، ولا تكون مرتبطة باللذّات الزائلة والنعم غير الثابتة، والأهداف المادية.

ثانياً: هذه الإرادة يجب أن لا تكون ضعيفة وقاصرة في المجال الفكري والروحي للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنساني، وتدفعه للحركة، ويبذل كل ما يستطيع من السعي في هذا المجال.

ثالثاً: إنّ كل ما سبق من حديث عن الإرادة في النقطتين السابقتين، ينبغي أن يقترن بالإيمان: الإيمان الثابت القوي. لأنّ أيّ تصميم وجهد، إذا أُريد له أن يُثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، ومصدر هذه الأهداف هو الإيمان بالله لا غير.

وقد يتوهم البعض ويلتبس عليه الأمر، ظانّاً أنّ نعم الدنيا هي من نصيب عبيدها وطلّابها فقط، وأنّ طلّاب الآخرة وأهلها محرومون منها، لذلك فإنّ الآية التي بعدها تقف

أمام هذا اللبس، وتمنع هذا الظن، عندما تقول: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ لتضيف بعدها بقليل: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

هذه النعم هي تعبير عن مقام الرحمانية الإلهية التي تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن والكافر ولكن هناك نعم لا تحصى وراء ذلك تختص بالمؤمنين والمحسنين دون غيرهم.

الآية التي بعدها تشير إلى أصل مهم في هذا الخصوص وتقول: كما أنّ السعي في هذه الدنيا متفاوت، وتتفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر في الآخرة، ولكن التفاوت الدنيوي محدود، لأنّ الدنيا هي نفسها محدودة، وأمّا الآخرة ـ ولكونها غير محدودة ـ فإنّ تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

هل الدنيا والآخرة تقعان على طرفي نقيض؟ إنّنا نرى في كثير من الآيات القرآنية مدحاً وتمجيداً للدنيا وبإمكاناتها المادية، ولكن، وبرغم الأهمية الكبرى التي تختص بها النعم المادية، فإنّ القرآن الكريم استخدم تعابير أُخرى تحقّرها وتحطّ منها بقوة.

هذه المعاني المزدوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً في الأحاديث والروايات الإسلامية.

إنّه إذا تمّت الاستفادة من مواهب الدنيا وعطاياها التي تُعتبر من النعم الإلهية؛ ويعتبر وجودها ضرورياً في نظام الخلق والوجود، وتمّت الاستفادة في سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوي، فإنّ ذلك يعتبر أمراً جيّداً، وتمتدح معه الدنيا، أمّا إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سيُصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغي والظلم.

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل
لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ
إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

أحكام إسلامية مهمة: الآيات التي نحن بصدد بحثها هي بداية لسلسلة من الأحكام الإسلامية الأساسية، والتي تبدأ بالدعوة إلى التوحيد والإيمان؛ التوحيد الذي يعتبر الأساس والأصل لكل النشاطات الإيمانية، والأعمال الحسنة والبنّاءة. في البداية تبدأ هذه الآيات بالتوحيد وتقول: ﴿**لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ**﴾.

إنّها لم تقل: لا تعبد مع الله إلهاً آخر، بل تقول: ﴿**لَّا تَجْعَلْ**﴾ هذا اللفظ أشمل وأوسع، إذ هو يعني: لا تجعل معبوداً آخر مع الله لا في العقيدة، ولا في العمل، ولا في الدعاء، ولا في العبودية. بعد ذلك توضّح الآية النتيجة القاتلة للشرك: ﴿**فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا**﴾.

إنّ استعمال كلمة «القعود» تدل على الضعف والعجز. ومن هذا التعبير يمكن أن نستفيد أنّ للشرك ثلاثة آثار سيئة جداً في وجود الإنسان، هي:

١ـ الشرك يؤدّي إلى الضعف والعجز والذلة.

٢ـ الشرك موجب للذم واللوم، لأنّه خط انحرافي واضح في قبال منطق العقل، ويعتبر كفراً واضحاً بالنعم الإلهية.

٣ـ الشرك يكون سبباً في أن يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى الأشياء التي يعبدها، فإنّهم يصبحون «مخذولين» أي بدون ناصر ومعين.

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدي، تشير الآيات إلى واحدة من أهم توجيهات الأنبياء عليهم السلام للإنسان، فالآية ـ بعد أن تؤكّد مرّة أُخرى على التوحيد ـ تقول: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا**﴾.

كلمة «قضاء» لها مفهوم توكيدي أكثر من كلمة «أمر» وهي تعني القرار والأمر المحكم الذي لا نقاش فيه، وهذا أوّل تأكيد في هذه القضية. أمّا التأكيد الثاني الذي يدل على أهمية هذا القانون الإسلامي، فهو ربط التوحيد الذي يعتبر أهم أصل إسلامي، مع الإحسان إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثالث والرابع فهما يتمثلان في معنى الإطلاق الذي تفيده كلمة «إحسان» والتي تشمل كل أنواع الإحسان. وكذلك معنى الإطلاق الذي تفيده كلمة «والدين» إذ هي تشمل الأم والأب، سواء كانا مسلمين أم كافرين.

أمّا التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجيء كلمة «إحساناً» نكرة، لتأكيد أهميتها وعظمتها.

ثم تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلًا بالإحسان إلى الوالدين فتقول: ﴿**إِمَّا**

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ بحيث يحتاجان إلى الرعاية والإهتمام الدائم، فلا تبخل عليهما بأي شكل من إشكال المحبة واللطف ولا تؤذيهما أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «أف»: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ[١] وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾. بل: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. وكن أمامهما في غاية التواضع ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

إضافة إلى ما ذكرناه، فثمّة ملاحظة لطيفة أُخرى يطويها التعبير القرآني، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مسنّين وضعيفين وكهلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنّك عندما كُنت صغيراً كُنت على هذه الشاكلة أيضاً، ولكن والديك لم يقصّرا في مداراتك والعناية بك، لذا فلا تقصّر أنت في مداراتهم ومحبتهم.

وقد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين واحترامهم والتواضع لهم، وقد يصدر هذا العقوق عن جهل في بعض الأحيان، وعن قصد وعلم في أحيان أُخرى، لذا فإنّ الآية الأخيرة في بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾. وهذه إشارة إلى أنّ علم الله ثابت وأزلي وأبدي وبعيد عن الإشتباهات، بينما علمكم أيّها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان وعصى أوامر خالقه في مجال احترام الوالدين والإحسان إليهم، ولكن بدون قصد وعن جهل، ثم تاب بعد ذلك وأناب، وندم على ما فعل وأصلح، فإنّه سيكون مشمولاً لعفو الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

إحترام الوالدين في المنطق الإسلامي: إنّ الإسلام يُعطي التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين ورعاية حقوقهما، إلّا في قضايا نادرة أُخرى.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

أ) في أربع سور قرآنية ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مباشرة، وهذا الإقتران يدل على مدى الأهمية التي يوليها الإسلام للوالدين.

ب) إنّ مسألة إحترام الوالدين ورعاية حقهما من المنزلة بمكان، حتى أنّ القرآن

---

١. إنّ هذه الكلمة مأخوذ من «الصوت» الذي يخرج من الفم عندما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه من الغبار الموجود عليها. إنّ الآية تريد أن تقول لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة «أف» من معنى.

والأحاديث والروايات الإسلامية، تؤكّدان معاً على الإحسان للوالدين حتى ولو كانا مشركين.

ج) رفع القرآن الكريم منزلة شكر الوالدين إلى منزلة شكر الله تعالى.

د) القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانة للوالدين، ولا يجيز ذلك.

هـ) بالرغم من أنّ الجهاد يعتبر من أهم التعاليم الإسلامية، إلّا أنّ رعاية الوالدين تعتبر أهم منه، بل لا يجوز إذا أدّى الأمر إلى أذية الوالدين.

و) في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إيّاكم وعقوق الوالدين فإنّ ريح الجنة توجد من ميسرة ألف عام ولا يجدها عاقّ**».

وفي الكافي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: «**سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله ما حق الوالد على ولده؟ قال: لا يسمّيه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسبّ له**». (أي: لا يفعل شيئاً يؤدّي إلى أن يسبّ الناس والديه).

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

رعاية الإعتدال في الإنفاق والهبات: مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر من سلسلة الأحكام الإسلامية الأساسية، التي لها علاقة بحقوق القربى والفقراء والمساكين، والإنفاق بشكل عام ينبغي أن يكون بعيداً عن كل نوع من أنواع الإسراف والتبذير، حيث تقول الآية: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.

إنّ كلمة ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لها مفهوم عام وتشمل كل الأرحام والمقربين، الّا أنّ أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله هم من أوضح مصاديق القربى له والرسول في طليعة المخاطبين بالآية الكريمة.

إنّ «التبذير» هو هدر المال في غير موقعه ولو كان قليلاً. بينما إذا صُرف في محلّه فلا يعتبر تبذيراً ولو كان كثيراً.

الآية التي بعدها هي لتأكيد النهي عن التبذير: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

لأنّ الله أعطاه قدرةً وقوّةً وإستعداداً وذكاءاً خارقاً للعادة، ولكن الشيطان استفاد من هذه الأمور في غير محلّها، أي في طريق إغواء الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

ثم إنّ استخدام «إخوان» تعني أنّ أعمالهم متطابقة ومتناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالها متشابهة، أو أنّهم قرناء وجلساء للشيطان في الجحيم.

ثم أنّ الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحياناً، وفي هذه الحالة ترسم الآية الكريمة طريقة التصرف بالنحو الآتي: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

«ميسور»: مشتقة من «يسر» وهي بمعنى الراحة والسهولة، أمّا هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالإحترام والمحبة.

الإعتدال هو شرط في كل الأُمور بما فيها الإنفاق ومساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآية للقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. وهذا تعبير جميل يفيد أنّ الإنسان ينبغي أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء وكأنّ أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بُخلاً وخشية من الإنفاق، ولكن في نفس الوقت تقرّر الآية أنّ بسط اليد لا ينبغي أن يتجاوز الحد المقرر والمعقول في الصرف والبذل والعطاء، حتى لا ينتهي المصير إلى الملامة والإبتعاد عن الناس: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

سؤال: لماذا يجب أن يكون هناك مساكين وفقراء ومحرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الافضل أن يعطيهم الله ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآية الأخيرة بمثابة جواب على هذا السؤال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾. إنّه اختبار لنا، فالله قادر على كل شيء، ولكنه يريد بهذا الطريق تربيتنا على روح السخاء والتضحية والعطاء، إضافة إلى ذلك، إذا أصبح أكثر الناس في حالة الكفاية وعدم الحاجة فإنّ ذلك يقود إلى الطغيان والتمرّد ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾؛ لذلك من المفيد أن يبقوا في حد معين من الحاجة. هذا الحد لا يسبب الفقر ولا الطغيان، من ناحية أُخرى يرتبط التقدير والبسط في رزق الإنسان بمقدار السعي وبذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبيل العجزة والمعلولين)، وهكذا تقتضي

المشيئة الإلهية يبسط الرزق وتقديره لمن يشاء، وهذا دليل الحكمة، إذ تقضي الحكمة بزيادة رزق من يسعىٰ ويبذل الجهد، بينما تقضي بتضييقه لمن هو أقل جهداً وسعياً.

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا
﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى
ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ
بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

ستة أحكام مهمة: في متابعة للأحكام الإسلامية التي أثارتها الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات عن ستة أحكام إسلامية أُخرى وردت في ست آيات.

أوّلاً: تشير الآية إلى عمل قبيح وجاهلي هو من أعظم الذنوب، فتنهى عنه: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ**﴾. فرزق هؤلاء ليس عليكم ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾. أمّا علّة الحكم فهي: ﴿**إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾.

هذه الآية تفيد أنّ الوضع الاقتصادي للعرب في الجاهلية كان صعباً وسيّئاً. بحيث إنّهم كانوا يقتلون أبناءهم في بعض الأحيان خوف العيلة والفقر، وهناك كلام بين المفسرين فيما إذا كان العرب في الجاهلية يدفنون البنات أحياء وحسب، أو أنّهم كانوا يقتلون الأبناء أيضاً خوفاً من الفقر.

وفي الوقت الذي نستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحق النوع البشري، فإنّ عصرنا الحاضر ـ وفي أكثر مجتمعاته رُقيّاً وتقدّماً ـ يعيد تكرار هذه الجريمة ولكن بأسلوب آخر، إذ أنّ العمليات الواسعة في إسقاط الجنين وقتله خوفاً من الضائقة المالية وازدياد عدد السكان، هي نموذج آخر للقتل.

ثانياً: الآية التي بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾.

لم تقل الآية: لا تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، وهذا الأُسلوب في النهي فضلًا عمّا يحمله من تأكيد، فإنّه يوضّح أنّ هناك مقدمات تجر إلى الزنا ينبغي تجنّبها وعدم مقاربتها، فخيانة العين تعتبر واحدة من المقدمات، والسفور والتعرّي مقدمة أُخرى، الكتب السيئة والأفلام الملوّثة والمجلات الفاسدة ومراكز الفساد كل واحدة منها تعتبر مقدمة لهذا العمل.

كذلك فإنّ الخلوة بالأجنبية (يعني خلوة المرأة والرجل الأجنبي في مكان واحد ولوحدهما) يعتبر عاملًا في إثارة الشهوة.

وأخيراً فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصة مع ملاحظة الصعوبات الموضوعة أمام الطرفين، هي من العوامل التي قد تودّي إلى الزنا. والآية نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر، ولكنّا نرى في الأحاديث والروايات نهياً مفصّلاً عن كل واحدة من هذه المقدمات.

فلسفة تحريم الزنا: يمكن الإشارة إلى ثلاثة عوامل في فلسفة تحريم الزنا، هي:

١ـ شياع حالة الفوضىٰ في النظام العائلي، وانقطاع العلاقة بين الأبناء والآباء، هذه الرابطة التي تختص بكونها سبباً للتعارف الاجتماعي، بل إنّها تكون سبباً لصيانة الأبناء.

إنّ العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس العلاقات العائلية ستتعرض للانهيار والتصدّع إذا شاع وجود الابناء غير الشرعيين «أبناء الزنا».

وعلاوة على ذلك، فإنّهم سيحرمون من الحبّ الأُسري الذي يعتبر عاملًا في الحدّ من الجريمة في المجتمع الإسلامي، وحينئذ يتحوّل المجتمع الإنساني بالزنا إلى مجتمع حيواني تغزوه الجريمة والقساوة من كل جانب.

٢ـ لقد أثبت العلم ودلّت التجارب على أنّ إشاعة الزنا سبب لكثير من الأمراض والمآسي الصحية وكل المعطيات تشير إلى فشل مكافحة هذه الأمراض من دون مكافحة الزنا. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الايدز في المجتمعات المعاصرة، ونتائجها الصحية والنفسية المدمّرة).

٣ـ يجب أن لا تنسى أنّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية وحسب، بل المشاركة في تأسيس الحياة على أساس تحقيق الإستقرار الفكري والأنس الروحي للزوجين. وأمّا تربية الأبناء والتعامل مع قضايا الحياة، فهي آثار طبيعية للزواج، وكل هذه الأُمور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل، وقطع دابر الزنا وأشكال المشاعيّة الجنسية.

ثالثاً: الحكم الآخر الذي تشير إليه الآية التي بعدها، هو احترام دماء البشر، وتحريم قتل النفس حيث تقول: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾**.

إنّ الإسلام يحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضية القتل وإراقة الدماء؟! وهنا نستطيع أن نقول ـ باطمئنان ـ: إنّنا لا نرى أيّ شريعة غير الإسلام أعطت هذه الحرمة الاستثنائية لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات ينتفي معها إحترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبة به، لذلك فإنّ الآية بعد أن تُثبت حرمة الدم كأصل، تشير للإستثناء بالقول: **﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾**.

إنّ حرمة دم الإنسان في الإسلام لا تختص بالمسلمين وحسب، بل تشمل غير المسلمين أيضاً من غير المحاربين، والذين يعيشون مع المسلمين عيشة مُسالمة، فإنّ دماءهم ـ أيضاً ـ وأعراضهم وأرواحهم مصونة ويحرم التجاوز عليها.

تشير الآية بعد ذلك إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولي القتيل فتقول: **﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾**. ولكن في نفس الوقت ينبغي لولي المقتول أن يلتزم حدّ الإعتدال ولا يسرف **﴿فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾**. إذ ما دام ولي الدم يتحرّك في الحدود الشرعية فإنّه سيكون مورداً لنصرة الله تعالى.

والنهي عن الإسراف تشير إلى واقع كان سائداً في الجاهلية، واليوم أيضاً يمكن مشاهدة نماذج لها، فحين يُقتل فرد من قبيلة معينة، فإنّها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

رابعاً: الآية التي بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، والملاحظ أنّ الآية استخدمت نفس أُسلوب الآية التي سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم وحسب، وإنّما قالت: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾**.

وفي هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. ولكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يُهدر ويكون عرضة للحوادث بدون أن يكون عليه قيّم، لذلك استثنت بقوله: **﴿إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾**. وبناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، وتنميتها وتكثيرها. وهذا الوضع يستمر إلى أن يبلغ اليتيم سن الرشد ويستطيع فكرياً واقتصادياً أن يكون قيّماً على نفسه وأمواله **﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾**.

خامساً: تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾. إنّ الكثير من العلاقات الاجتماعية وخطوط النظام الاقتصادي والمسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور وانهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام الاجتماعي وستحل الفوضى.

سادساً: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل في الوزن والكيل ورعاية حقوق الناس في ذلك ومحاربة التطفيف في الميزان حيث تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

وعادة، فإنّ الحق والعدل والنظام والحساب، كل هذه الأمور تعتبر أصولاً أساسية للحياة، بل وتدخل في نظام الوجود والخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل ـ خصوصاً بالنسبة لبخس الكيل والتطفيف في الميزان ـ يؤدّي إلى إنزال ضربة شديدة بالثقة التي تعتبر جوهر استقرار التعامل الإقتصادي بين الناس.

«قسطاس»: بكسر القاف أو ضمّها على وزن «مقياس» وأحياناً تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «الميزان» والبعض يعتبرها كلمة رومية، بينما البعض يرى بأنّها كلمة عربية. وهناك من يقول بأنّها مركبة من كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و«طاس» بمعنى كفّة الميزان.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا
﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾
كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم
بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

الإنقياد للعلم: في الآيات السابقة وقفنا على مجموعة من الاصول والأحكام الإسلامية وفي الآيات التي نبحثها الآن نلتقي مع آخر مجموعة من سلسلة هذه الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه إلى عدّة أحكام مهمة:

أوّلاً: في البداية ينبغي للإنسان المسلم أن يلتزم الدقة في كل الأمور ويجعل العلم رائده

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وفي النهاية تعلّل الآية عدم اتباع ما دون العمل، فتقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

والسؤال الذي تواجه به الأعضاء المذكورة يعود إلى مسؤولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسؤول عن الكلام المشكوك غير الموثق، والبصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهدة والرؤية مع أنّه لم يشاهد أو يرى، والفؤاد يُسأل عن الأفكار الخاطئة التي تدخل في الأحكام الخاطئة.

ثانياً: الكبر والغرور: الآية التي بعدها تدعو إلى محاربة الكبر والغرور، وتنهي المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث تخاطب النبي ﷺ بالقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[1]. وهذه إشارة إلى سلوك المتكبرين والمغرورين الذي يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكي يلتفت الناس إليهم، ويرفعون رؤوسهم في السماء علامة على أفضليتهم المزعومة بين الناس، لهؤلاء تقول الآية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾. إذ مثل هؤلاء كالنملة التي تمشي على صخرة كبيرة وتضرب برجلها عليها، إلاّ أن الصخرة تسخر من حماقتها.

ويمكن أن نفهم من خلال هذه الآية، وما ذكر في القرآن الكريم أنّ التكبر والغرور مرفوضان بشكل عام. لماذا؟ لأنّ الغرور هو مصدر الغربة عن الله وعن النفس السليمة، وهو سبب الخطأ في الحكم والقضاء، وسبيل ضياع الحق والإرتباط بخط الشيطان والتلوث بأنواع الذنوب.

البرنامج الحياتي العملي لقادة الإسلام يعتبر درساً مفيداً لكل مسلم حقيقي في هذا المجال.

ففي سيرة الرسول ﷺ نرى أنّه لم يكن يسمح لأحد أن يمشي بين يديه وهو راكب.

ونقرأ ـ أيضاً ـ أنّ رسول الله ﷺ كان يجلس على التراب تواضعاً، ويأكل الطعام كما يأكله العبيد، وكان يحلب الماعز بنفسه، ويركب الدابة دون غطاء. وقد كان الرسول ﷺ يلتزم هذا السلوك في كل مواقفه حتى عند فتح مكة.

وفي سيرة الإمام علي عليه السلام نقرأ أنّه كان يجلب الماء إلى البيت، وفي بعض الأحيان كان ينظّف البيت.

أمّا في سيرة الإمام الحسن عليه السلام فنقرأ أنّه عليه السلام حج إلى بيت الله عشرين مرّة مشياً على

---

١. «مَرَح»: على وزن فَرَح، وهي تعني الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

الأقدام، والنجائب (الحامل والدواب) تقاد بين يديه، وكانﷺ يبيّن أنّ هذا العمل تواضع لله تعالى.

أمّا الآية التي بعدها فهي تؤكّد على ما تمّ تحريمه في الآيات السابقة كالشرك وقتل النفس والزنا وقتل الأولاد والتصرف في مال اليتيم وإيذاء الوالدين وما شابه ذلك، حيث تقول الآية: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

ومن هذا التعبير يتّضح أنّ الله سبحانه وتعالى ليس فقط لا يجبر الإنسان على الذنب، وإنّما لا يريد له (بمعنى لا يرغب ولا يود) أن يرتكب الذنب أيضاً، وإلّا لو كان الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر، لما أكد الله سبحانه وتعالى على كراهيه هذه الذنوب.

ثالثاً: لا تكن مشركاً، من أجل التأكيد أكثر على أنّ كل هذه التعليمات إنّما تصدر من الوحي وتتسم بالحكمة، تقول الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

إنّ هذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هي ثابتة عن طريق الوحي الإلهي. وعادة ما تكون جميع الأحكام الإلهية على هذه الشاكلة، بالرغم من أنّ الإنسان لا يستطيع في كثير من الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهية مع العقل بحكم عدم كماله، ويبقى بعد ذلك الوحي هو المجال الوحيد لمصداقية دركها والايمان بها.

بعد ذلك ينتهي الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البداية التي انطلق منها، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. لماذا؟ لأنّ المصير سيكون ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾. إنّ الشرك هو أساس جميع الإنحرافات والجرائم والذنوب، لذلك فإنّ هذه المجموعة من الأحكام بدأت بالشرك وانتهت به.

آخر آية ـ من الآيات التي نبحثها ـ تشير إلى واحدة من الأفكار الخرافية للمشركين، إذ الكثير منهم كان يعتقد بأنّ الملائكة هم بنات الله، في حين أنّهم كانوا يعتبرون البنت عاراً وشناراً، وولادتها في بيت يؤدّي إلى سوء الحظ. القرآن يُساير هذا المنطق فيقول لهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾.

إنّ البنات ـ بدون شك ـ كالبنين، هم عطايا الإله ومواهبه، ولا يوجد أي تفاوت بينهم في القيمة الإنسانية. هدف القرآن هو مقابلتهم بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربّكم ما تحسبوه عاراً لكم؟

بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾. إذ هذا الكلام لا

يتلاءم مع أي منطق ويعتبر ضعيفاً من عدّة جهات، هي:

١ـ إنّ الإعتقاد بوجود ابن لله يعتبر إهانة عظيمة لحضره المقدّس، لأنّه سبحانه وتعالى ليس بجسم، وليست فيه الصفات الجسمانية، ولا يحتاج في بقائه إلى النسل. لذا فالإعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفة بالصفات الإلهية.

٢ـ كيف تعتقدون بأنّ أولاد الله كلّهم بنات، في حين أنّكم ترون البنات أدنى مكانة واحتراماً من الأولاد؟ هذا الإعتقاد السفيه يعتبر إهانة أُخرى إلى مقام الله تبارك وتعالى.

٣ـ هذا الإعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة الله الذين يعتبرون من المقرّبين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرد سماع كلمة «بنت»، في حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثاً؟

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

كيف يفرّون من الحق! كان الحديث في الآيات السابقة يتعلق بقضيتي التوحيد والشرك، لذا فإنّ هذه الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح وقاطعية أكبر، ففي البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين وعنادهم في قبال أدلة التوحيد فتقول: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا**﴾.

«صرّف»: مشتقّة من «تصريف» وتعني التغيير والتحويل، وكونها على وزن «تفعيل» يؤكّد معنى الكثرة، وبما أنّ القرآن يستخدم تعابير متنوعة وفنوناً كلامية مختلفة من أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلي المنطقي والفطري أو التهديد والترغيب، لذا فإنّ كلمة «صرّفنا» تناسب هذا التنوع في هذا المقام.

وهنا قد يطرح هذا السؤال: إذاً ما الفائدة من ذكر كل ذلك، إذا كانت النتائج معكوسة؟

إنّ جواب هذا السؤال واضح، إذ أنّ القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصه، ولكنه للمجتمع كافة، وطبيعي أنّ جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هناك الكثير ممن يتّبع

طريق الحق إذا استبانت له أدلته كما في هذا النوع من الأدلة القرآنية. بالرغم من أنّها تؤدّي بمجموعة أُخرى من فاقدي بصيرة القلب إلى المزيد من العناد.

الآية التي بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد والذي يعرف بين العلماء والفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنبيﷺ: قل لهم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

وبما أنّ كل صاحب قدرة يسعى لمدّ قدرته وتكميلها، لذا فإنّ وجود عدّة آلهة يؤدّي إلى التنازع والتمانع فيما بينهم حول الحكم والسلطة في عالم الوجود.

وبما أنّ كلام المشركين وعباراتهم توحي بأنّهم نزلوا في إدراكهم لله عزّ وجلّ إلى مستوى أن يكون طرفاً للنزاع، لذا فإنّ الآية تقول بعد ذلك مباشرة: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

ثم لأجل إثبات عظمة الخالق وأنّه منزّه عن خيالات واعتقادات وأوهام المشركين، تتحدث الآية التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدّسة إذ تقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾. ثم تتطرق الآية إلى أنّ التسبيح لا يقتصر على ما هو موجود في السماوات والأرض، وإنّما ليس هناك موجود إلّا ويسبّح ويحمد الله، ولكن لا تدركون تسبيحهم: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. ومع ذلك: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. أي: لا يؤاخذكم ولا يعاقبكم بسبب كفركم وشرككم مباشرة، ولكن يمهلكم بالقدر الكافي، ويفتح لكم أبواب التوبة ويتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا
﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ
وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ
نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ
ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزل قوله ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية في قوم كانوا يؤذون

النبي ﷺ بالليل إذا تلا القرآن وصلّى عند الكعبة، وكانوا يرمونه بالحجارة ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين، فحال الله سبحانه بينه وبينهم حتى لا يؤذوه.

وروي ـ في تفسير الكبير ـ عن ابن عباس، أنّ أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي ﷺ ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدري ما يقول محمّد غير أنّي أرى شفتيه تتحركان بشيء. وقال أبو سفيان: إنّي لأرى بعض ما يقوله حقّاً. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر. فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ...﴾.

التّفسير

المغرورون وموانع المعرفة: بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث إنّ جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلماذا ـ إذن ـ لا يقبل المشركون هذه الحقيقة ولا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم من سماعهم لها؟

الآيات التي نبحثها يمكن أن تكون جواباً على هذا السؤال، إذ تقول الآية الأولى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾. وهذا الحجاب والساتر هو نفسه التعصب واللجاجة والغرور والجهل، حيث تقوم هذه الصفات بصدّ حقائق القرآن عن أفكارهم وعقولهم ولا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مثل التوحيد والمعاد وصدق الرسول في دعوته وغير ذلك.

أمّا الآية التي بعدها فتقول: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾. أي: إنّنا غطّينا قلوبهم بأستار لكي لا يفهموا معناه، وجعلنا في آذانهم ثقلًا. لذلك فإنّهم: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

ثم يضيف الله تبارك وتعالى مرّة أُخرى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. أي: إنّ الله تعالى يعلم الغرض من استماعهم لكلامك وحضورهم في مجلسك و﴿إِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ يتشاورون ويتناجون ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. إذ إنّهم لا يأتون إليك من أجل سماع كلامك بقلوبهم وأرواحهم، بل هدفهم هو التخريب، وتصيّد الأخطاء.

الآية الأخيرة خطاب للنبي ﷺ وبالرغم من أنّ عبارة الآية قصيرة، إلّا أنّها كانت قاضية بالنسبة لهذه المجموعة حيث قالت: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾. والآية لا تعني أنّ الطريق غير واضح والحق خاف، بل على أبصارهم غشاوة، وقلوبهم مغلقة دون الإستجابة للحق، وعقولهم معطلة عن الهدى بسبب الجهل والحقد والتعصب والعناد.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا
﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ
أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا
﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾

حتمية البعث ويوم الحساب: الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد وحاربت الشرك، أمّا الآيات التي نبحثها الآن فتتحدّث عن المعاد والذي يعتبر مكمّلًا للتوحيد. الآيات التي نحن بصددها أجابت على ثلاثة أسئلة ـ أو شكوك ـ يثيرها منكرو المعاد، في البداية تحكي الآيات على لسان المنكرين استفهامهم: ﴿**وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا**﴾[١].

إنّ التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة يدلل على أنّ الرسول ﷺ كان يبيّن في دعوته «المعاد الجسماني» بعد موت الإنسان، إذ لو كان الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمّة سبب لإيراد مثل هذه الإشكالات من قبل المعارضين والمنكرين.

القرآن في إجابته على هؤلاء يبيّن أنّ قضية بعث عظام الإنسان سهلة وممكنة، بل وأكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديداً: ﴿**قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا**﴾. وحتى لو كنتم أشدّ من الحجر والحديد وأبعد منهما من الحياة: ﴿**أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ**﴾. فإنّ البعث سيكون مصيركم.

السؤال التشكيكي الآخر الذي يثيره منكرو المعاد هو: إذا سلّمنا بأنّ هذه العظام المندثرة المتلاشية يمكن أن تعود إلى الحياة، فمن يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، ومن الذي له قدرة القيام بهذه العملية المعقّدة للغاية؟

هذا السؤال تصوغه الآية بالقول على لسان المنكرين: ﴿**فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا**﴾.

القرآن يجيب على هذا السؤال حيث يقول: ﴿**قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ**﴾.

بعد الانتهاء من الشك الأوّل والثاني الذي يطلقه المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى الشك الثالث الذي تصوغه على لسانهم بهذا السؤال: ﴿**فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ**﴾. «سينغضون»: مشتقة من مادة «إنغاض» بمعنى مدّ الرأس نحو الطرف المقابل بسبب التعجب.

---

١. «رُفات»: على وزن «كُرات» وهو معنى يطلق على كل شيء قديم ومتلاش.

ما يقصده هؤلاء من سؤالهم هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان من التراب من جديد، فإنّ هذا يبقىٰ مجرّد وعد لا ندري متى يتحقق، إذا كان سيحصل هذا في آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره في يومنا هذا... إنّ المهم أن نتحدّث عن الحاضر لا عن المستقبل!

ويجيب القرآن بقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾. إنّ يوم المعاد ـ طبعاً ـ قريب، لأنّ عمر العالم والحياة على الأرض، مهما طالت، فإنّها في قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شيء، إذ هي مجرّد لحظات سريعة وعابرة وسرعان ما تنتهي.

إضافة إلى ذلك، فإنّ القيامة إذا كانت في تصوراتنا المحدودة بعيدة فإنّ مقدمة القيامة والتي هي الموت، تعتبر قريبة منا جميعاً، لأنّ الموت هو القيامة الصغرى (إذا مات الإنسان قامت قيامته)، صحيح أنّ الموت لا يمثل القيامة الكبرى، ولكنه علامة عليها ومذكّر بها.

في الآية التي بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾. أي: إنّ بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمتثلون لأمره طوعاً أو كرهاً، والآية ـ بالطبع ـ تتحدث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

في ذلك اليوم ستظنون أنّكم لبثتم قليلًا في عالم ما بعد الموت (البرزخ) وهو قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. إنّ هذا الإحساس سيطغىٰ على الإنسان في يوم القيامة، وهو يظن أنّه لم يلبث في عالم البرزخ إلّا قليلًا، بالرغم من طول الفترة التي قضاها هناك، وهذه إشارة إلى أنّ حياة البرزخ لا تعتبر في مدتها شيئاً في قبال عالم الخلود الأُخروي.

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ
فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ
فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ
إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

التعامل المنطقي مع المعارضين: الآيات السابقة تعرّضت لقضية المبدأ والمعاد، أمّا الآيات التي نحن بصددها فهي توضّح أسلوب المحادثة والاستدلال مع المعارضين وخصوصاً المشركين، لأنّه مهما كان المذهب عالي المستوى، والمنطق قويّاً، فإنّ ذلك لا تأثير له ما دام لا يتزامن مع أُسلوب صحيح للبحث والمجادلة مرفقاً بالمحبة بدلاً من الخشونة، لذا فإنّ أوّل آية من هذه المجموعة تقول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

الأحسن من حيث المحتوى والبيان، والأحسن من حيث التلازم بين الدليل ومكارم الأخلاق والأساليب الإنسانية، ولكن لماذا يستعمل هذا الأُسلوب مع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن واتبعوا الخشونة في الكلام والمجادلة فـ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ ويثير بينهم الفتنة والفساد، فلا تنسوا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

وكلمة «عبادي» خطاب للمؤمنين، حيث تعلّمهم الآية أُسلوب النقاش مع الأعداء، فقد يحدث في بعض الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجدد بخشونة مع معارضي عقيدتهم ويقولون لهم بأنّهم من أهل النار والعذاب، وأنّهم ضالون، قد يكون هذا الموقف سبباً في أن يقف المعارضون موقفاً سلبياً إزاء دعوة الرسول ﷺ.

اضافة لذلك، فإنّ الإتهامات التي يطلقها المشركون ضد شخص رسول الله ﷺ ويتهمونه فيها بالسحر والجنون والكهانة والشعر، قد تكون سبباً في أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسهم ويبدأوا بالتشاجر مع المشركين ويستخدموا الألفاظ الخشنة ضدّهم... القرآن يمنع المؤمنين من هذا العمل ويدعوهم إلى التزام اللين والتلطّف بالكلام واختيار أفضل الكلمات في أُسلوب التخاطب، حتى يأمنوا من إفساد الشيطان.

الآية التي بعدها تضيف: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾.

وفي آخر الآية مواساة للرسول ﷺ الذي كان يتأذى ويتألم من عدم إيمان المشركين، إذ يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

إنّ مسؤوليتك ـ يا رسول الله ـ هي الابلاغ الواضح، والدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذا آمنوا فهو الأفضل، وإن لم يؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر.

الآية التالية ذهبت أكثر من الآية السابقة في التعبير عن إحاطة الله تبارك وتعالى وعلمه بأعمال ونيات عباده، فقالت: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثم أضافت:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

هذا التعبير القرآني جواب على أحد أسئلة المشركين وشكوكهم، حيث كانوا يقولون ـ بأُسلوب استهزائي ـ لماذا انتخب الله للنبوة محمّد اليتيم، ثم ما الذي حصل حتى أصبح هذا اليتيم ليس نبياً وحسب، وإنّما خاتم الأنبياء.

القرآن يقول لهؤلاء: لا تعجبوا من ذلك، لأنّ الله عليم بقيمة كل إنسان، وهو سبحانه وتعالى ينتخب أنبياءه من بين عامّة الناس، ويفضّل بعضهم على بعض، إذ جعل أحدهم (خليل الله) والآخر (كليم الله) والثالث (روح الله)، أمّا نبينا فقد أنتخبه بعنوان (حبيب الله). وباختصار: لقد فضّل الله بعض النبيين على بعض لموازين يعلمها هو وتختص بها حكمته جلّ وعلا.

بالرغم من أنّ داود عليه السلام كان له حكم عظيم ودولة كبيرة وملك واسع، إلّا أنّ الله سبحانه لم يجعل هذه الأُمور سبباً لإفتخاره، بل اعتبر كتاب الزبور فخره، حتى يدرك المشركون أنّ عظمة الإنسان، ليس لها علاقة بالمال والثروة ووجود الحكومة والسلطة، كما أنّ اليتم والفقر ليس مدعاةً للذل أو دليلًا على الحقارة.

الآية التي تليها تستمر في اتجاه الآيات السابقة، إذ تقول للرسول صلى الله عليه وآله أن يخاطب المشركين بقوله تعالى: **﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾**.

إنّ هذه الآية ـ كما في آيات أُخرى كثيرة ـ تبطل منطق المشركين وتضرب صميم عقيدتهم من هذا الطريق، وهو أنّ عبادة الآلهة من دون الله، إمّا بسبب جلب المنفعة أو دفع الضرر، في حين أنّ الآلهة التي يعبدونها ليس لها القدرة على حل مشكلة معينة أو حتى تحريكها؛ أي نقل المشكلة من مستوى معين إلى مستوى أقل.

إنّ استخدام تعبير «الذين» في هذه الآية لا يشمل جميع المعبودات التي يشركها الإنسان مع الله (كالأصنام وغيرها) بل يشمل الملائكة والمسيح وأمثالهم.

بعد ذلك تؤكّد الآية التالية على ما ذكرناه في الآية السابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا يستطيع الذين تدعونهم من دون الله أن يحلّوا مشاكلكم، أو أن يجيبوا لكم طلباتكم بدون إذن الله سبحانه وتعالى؟ الآية تجيب على ذلك بأنّ هؤلاء أنفسهم يذهبون إلى بيت الله، ويلجأون للتقرب من الذات الإلهية المقدسة لقضاء حوائجهم وحلّ مشاكلهم وتحقيق ما

يريدونه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

إنّ كلمة «الوسيلة» يشمل كل عمل جميل ولائق، وتدخل في مفهومها كل صفة بارزة أُخرى، لأنّ كل هذه الأُمور تكون سبباً في التقرب من الله.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا
كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ
بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا
﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

بعد أن تحدثت الآيات السابقة مع المشركين في قضايا التوحيد والمعاد، تبدأ أوّل آية من هذه الآيات بكلام على شكل نصيحة لتوعيتهم، حيث تجسم هذه الآية النهاية الفانية لهذه الدنيا أمام عقولهم حتى يعرفوا أنّ هذه الدنيا دار زوال وأنّ البقاء الأبدي في مكان آخر، لذلك ما عليهم إلّا تهيئة أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيث تقول الآية: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾. فالطغاة والظالمون نبيدهم بواسطة العذاب، أمّا الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

وأخيراً، فإنّ هذه الدنيا زائلة والكل يسلك طريق الفناء: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾. و«الكتاب» هنا هو نفس اللوح المحفوظ وهو العلم اللامتناهي للخالق جلّ وعلا، ومجموعة القوانين الإلهية التي لا يمكن التخلف عنها في عالم الوجود هذا.

وهنا قد يقول المشركون: نحن لا مانع لدينا من الإيمان ولكن بشرط أن يقوم الرسول ﷺ بجميع المعجزات التي نقترحها عليه، أي أن يستسلم لحججنا، القرآن يجيب أمثال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾.

الآية تشير إلى أنّ الله تبارك وتعالى أرسل معجزات كثيرة وكافية للدلالة على صدق الرسول ﷺ، أمّا ما تقترحونه من معجزات فهي غير مقبولة، لأنّكم بعد وقوعها ومشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أنّ الأمم السابقة والتي كانت أوضاعها وحالاتها

مماثلة لأوضاعكم وحالاتكم، اقترحت نفس الإقتراحات ثم لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلى نموذج واضح لهذه الحالة فتقول: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾.

لقد طلب قوم صالح الناقة فاخرجها الله لهم من الجبل، وأجيبت بذلك المعجزة التي طلبوها، وقد كانت معجزة واضحة وموضّحة!

ولكن بالرغم من كل ذلك ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

وعادة فإنّه ليس من مقتضيات البرنامج الإلهي أن يستجيب لأيّ معجزة يقترحها إنسان، أو ينصاع إلى تنفيذها الرسول، ولكن الهدف هو: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

ثم يواسي الله تبارك وتعالى نبيّه ﷺ في مقابل عناد المشركين وإلحاحهم بالباطل، إذ يبيّن له أن ليس هذا بالشيء الجديد: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾. ففي قبال دعوة الأنبياء ﷺ هناك دائماً مجموعة مؤمنة نظيفة القلب نقيّة السريرة، صافية الفطرة، في مقابل مجموعة أُخرى معاندة مكابرة لجوجة تتحجج وتجد لنفسها المعاذير في معاداة الدعوات وإيذاء الأنبياء، وهكذا يتشابه الحال بين الأمس واليوم.

ثم يضيف تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. وامتحاناً لهم، وكذلك الشجرة الملعونة هي أيضاً امتحان وفتنة للناس: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

وفي الختام يأتي قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾. لماذا؟ لأنّه ما دام قلب الإنسان غير مستعد لقبول الحق والتسليم له، فإنّ الكلام ليس لا يؤثّر فيه وحسب، بل إنّ له آثاراً معكوسة، حيث يزيد في ضلال هؤلاء وعنادهم بسبب تعصبهم ومقاومتهم السلبية وانغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمّل ذلك).

رؤيا النبي ﷺ والشجرة الملعونة: مجموعة من المفسرين الشيعة والسنّة، نقلوا أنّ هذه الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة والتي رأى فيها النبي ﷺ في المنام أنّ عدداً من القرود تصعد منبره وتنزل منه (تنزو على منبره ﷺ)، وقد حزن ﷺ كثيراً لهذا الأمر بحيث لم ير ضاحكاً من بعدها إلّا قليلاً (وقد تمّ تفسير هذه القرود التي تنزو على منبر رسول الله ﷺ ببني أمية الذين جلسوا مكان النبي ﷺ الواحد تلو الآخر، يقلّد بعضهم بعضاً، وكانوا ممسوخي الشخصية، وقد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، وخلافة رسول الله ﷺ).

ومن الممكن أن تكون (الشجرة الملعونة) في القرآن إشارة إلى أي مجموعة منافقة وخبيثة

ومطرودة من رحمة الله تعالى ومقام الربوبية، خصوصاً تلك الجاميع مثل بني أمية واليهود قساة القلب، والمعاندين وكل الذين يسيرون على خطاهم. وشجرة الزقوم في القيامة تمثّل الأشجار الخبيثة في العالم الآخر، وكل هذه الأشجار الخبيثة (الجاميع المعنيّة) هي لاختبار وتمحيص المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

هذه الآيات تشير إلى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر الله في السجود لآدمعليه السلام، والعاقبة السيئة التي انتهى إليها.

إنّ طرح هذه القضية بعد ما ذكر عن المشركين المعاندين هو إشارة إلى أنّ الشيطان يعتبر نموذجاً كاملاً للإستكبار والكفر والعصيان. ثمّ انظروا إلى أين وصلت عاقبته، لذا فإنّ من يتبعه سيصير إلى نفس العاقبة. الآية تقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾.

إنّ هذه السجدة التي أمر الله تعالى بها هي نوع من الخضوع والتواضع بسبب عظمة خلق آدمعليه السلام وتميّزه عن سائر الموجودات، أو هي سجود للخالق جلّ وعلا في قبال خلقه هذا المخلوق المتميز.

فقد سيطر الكبر والغرور على إبليس وتحكّمت الأنانية في عقله، ظنّاً منه بأنّ التراب والطين اللذان يعتبران مصدراً لكل الخيرات ومنبعاً للحياة أقل شأناً وأهمية من النار، لذا اعترض على الخالق جلّ وعلا وقال: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

ولكنه عندما طرد ـ إلى الأبد ـ من حضرة الساحة الإلهية بسبب استكباره وطغيانه في مقابل أمر الله له، قال: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

«أحتنكن»: مشتقة من «احتناك» وهي تعني قطع جذور شيء ما. لذا فإنّ هذا القول يشير إلى أنّ إبليس سيحرف كل بني آدم عن طريق الله وطاعته، إلّا القليل منهم.

ويحتمل أن تكون كلمة «أحتنكن» مشتقة من «حنك» وهي المنطقة التي تحت البلعوم؛ وفي الواقع، فإنّ الشيطان يريد أن يقول بأنّه سيضع حبل الوسوسة في أعناق الناس ويجرهم إلى طريق الغواية والضلال.

وهكذا كان، فقد أعطي الشيطان إمكانية البقاء والفعالية حتى يتحقق الاختبار للجميع، ويكون وجوده سبباً لتحيص واختبار المؤمنين الحقيقيين لأنّ الإنسان يشتدّ عزمه عندما تهاجمه الحوادث ويقوىٰ عوده في مواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾. وبهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل من الناجح في الامتحان الإلهي الكبير.

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك ـ بأسلوب جميل ـ الطرق التي ينفذ منها الشيطان والأساليب التي يستخدمها في الوسوسة والإغواء فقالت:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ...﴾.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ...﴾.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ...﴾.

﴿وَعِدْهُمْ...﴾.

ثم يجيء التحذير الإلهي: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا...﴾.

ثم اعلم أيّها الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ...﴾. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

«إستفزز»: مشتقة من «استفزاز» وهي تعني الإثارة؛ الإثارة السريعة والعادية، ولكن الكلمة في الأصل تعني قطع شيءٍ ما. واستعمال هذه الكلمة هنا للدلالة على تحريك الشخص وإثارته لينقطع عن الحق ويتوجه نحو الباطل.

«أجلب»: مأخوذ من «إجلاب» وفي الأصل من «جلبة» وهي تعني الصرخة الشديدة، والإجلاب تعني الطرد مع الأصوات والصرخات. وأمّا النهي عن «الجلب» الوارد في

الروايات فهو إمّا أن يعني أنّ الذي يذهب إلى المزارع لجمع الزكاة يجب عليه أن لا يصيح ويصرخ بحيث يخيف الأحياء، أو أنّه يعني أنّ على المتسابقين عند سباق الخيل أن لا يصرخوا في وجوه الخيل الأخرى لتكون لهم الأسبقية.

«خيل»: لها معنيان، فهي تعني «الخيول» وأيضاً تعني (الخيالة). أمّا في هذه الآية فقد وردت للتدليل على المعنى الثاني.

أمّا «رَجِل»: فهي تعني معكوس (الخيالة) أي (جيش الرجّالة والمشاة) وبهذا يتكوّن جيش الشيطان من (الخيالة والرجّالة) من جنسه أو من غير جنسه، وهذا يعني أنّ البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطان ويصبح من أعوانه ومساعديه فهؤلاء كالخيّالة. أمّا البعض الآخر فيتأثر ببطء وعلى مهل كالمشاة والرجّالة.

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

لماذا الكفران مع كل هذه النعم! هذه الآيات تابعت البحوث السابقة في مجال التوحيد ومحاربة الشرك، ودخلت في البحث من خلال طريقين مختلفين، هما: طريق الاستدلال والبرهان، وطريق الوجدان ومخاطبة الإنسان من الداخل. في البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالي فتقول: ﴿**رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ**﴾.

طبعاً هناك أنظمة لأجل حركة الفلك في البحار.

تعلمون ـ طبعاً ـ بأنّ السفن تعتبر أضخم وسيلة لحمل الإنسان، واليوم فإنّ هناك من السفن العملاقة ما يكون بعضها بمساحة مدينة صغيرة.

ثم يضيف تعالى: ﴿**لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ**﴾. حتى تساعدكم في أسفاركم ونقل أموالكم

وتجارتكم وتعينكم في كل ما يخصّ أُمور دنياكم ودينكم. أمّا لماذا؟ فلأنّ الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

من هذا التوحيد الاستدلالي والذي يعكس جانباً صغيراً من نظام الخلق، وعلم وقدرة وحكمة الخالق جلّ وعلا، تنتقل الآية إلى أُسلوب الاستدلال الفطري فتقول: لا تنسوا ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

حيث يضل أي شيء من دون الله، لأنّ ضرر البحر إذا وقع، كالطوفان وغيره يذهب بكل الحواجز وأستار التقليد والتعصب اللاصقة على صفاء الفطرة الإنسانية، لينكشف نور الفطرة الذي هو نور التوحيد والإيمان والعبودية لله دون غيره.

إنّ الآية تعبّر عن قانون عام، عرفه كل من جرّب ذلك، حيث تؤدّي المشاكل والصعوبات الحادّة التي يمرّ بها الإنسان - ويصل السكين العظم - إلى الغاء كل الأسباب الظاهرية التي كان يتعلق بها الإنسان، وتنعدم فاعلية العلل المادية التي كان يتشبث بها، وتنقطع كل الأسباب، إلّا السبب الذي يصل الإنسان بمصدر العلم والقدرة المطلقتين، والذي هو - لوحده سبحانه وتعالى - قادر على حلّ أعقد المشكلات.

ثم تضيف الآية: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾.

مرّة أُخرى تغطّي حجب الغرور والغفلة والتعصّب هذا النور الإلهي، ويغطّي غبار العصيان والذنوب وملاهي الحياة المادية فطرة الإنسان ووجدانه.

ولكن هل تظنون أنّ الله لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد وأنتم على اليابسة وفي قلب الصحاري والبراري؟

لذلك تقول الآية: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾. ثم أضافت: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

بعد ذلك تضيف الآية مذكّرة أمثال هؤلاء بأنّكم هل تظنون أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي تحتاجون فيها إلى السفر في البحر: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[1]. أي: لا أحد حينئذٍ

---

١. «حاصب»: تعني الهواء الذي يحرّك معه الأحجار الصغيرة.

«قاصف»: بمعنى المحطّم، وهي هنا تشير إلى العاصفة الشديدة التي تقلع كل شيء من مكانه.

«تبيع»: بمعنى تابع، وهي تشير هنا إلى الشخص الذي ينهض للمطالبة بالدم، وثمن الدم والثأر ويستمر في ذلك.

يطالب بدمكم ويثأر لكم منّا.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

الإنسان سيد الموجودات: إنّ واحدة من أبرز طرق الهداية والتربية، هي التنويه بشخصية الإنسان ومكانته ومواهبه، لذا فإنّ القرآن الكريم وبعد بحوثه عن المشركين والمنحرفين في الآيات السابقة، يقوم هنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان والمواهب التي منحها إيّاها رب العالمين، لكي لا يلوّث الإنسان جوهره الثمين، ولا يبيع نفسه بثمن بخس، حيث يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ**﴾.

ثم تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية التي حباها الله لبني البشر، هذه المواهب هي أوّلًا: ﴿**وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ**﴾.

ثم قوله تعالى: ﴿**وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ**﴾ ومع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذي يشمل كل موجود طيّب وطاهر تتّضح عظمة وشمولية هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

أمّا القسم الثالث من المواهب فينص عليه قوله تعالى: ﴿**وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾.

لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟ إنّا نعلم أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتكوّن من قوىً مختلفة، مادية ومعنوية؛ جسمية وروحية، وينمو وسط المتضادات، وله استعدادات غير محدودة للتكامل والتقدم.

في كتاب علل الشرايع عن الإمام علي عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجل ركّب في الملائكة عقلًا بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم**».

الآية التي بعدها تشير إلى موهبة أُخرى من المواهب الإلهية التي حباها الله للإنسان، ورتّبت عليه المسؤوليات الثقيلة بسبب هذه المواهب. في البداية تشير الآية إلى قضية

القيادة ودورها في مستقبل البشر فتقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾. يعني أنّ الذين اعتقدوا بقيادة الأنبياء وأوصيائهم ومن ينوب عنهم في كل زمان وعصر، سوف يكونون مع قادتهم ويحشرون معهم، أمّا الذين انتخبوا الشيطان وأئمة الضلال والظالمين والمستكبرين قادة لهم، فإنّهم سيكونون معهم ويحشرون معهم.

هذا التعبير والإشارة إلى دور الإمامة وكونها من أسباب تكامل الإنسان، يعتبر في نفس الوقت تحذيراً لكل البشرية كي تدقق في انتخاب القيادة، ولا تعطي أزمّة وجودها الفكري والحياتي بيد أيّ شخص كان.

ثم تقسّم الآية الناس يوم القيامة إلى قسمين: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[١]. أمّا القسم الآخر فهو: من كان في الدنيا أعمى القلب: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾. وطبيعي أن يكون هؤلاء العميان القلوب أضلّ من جميع المخلوقات ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وفي كتاب التوحيد للصدوق عن الإمام الباقر ﷺ في قول الله عزّ وجلّ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ قال: «من لم يدله خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودوران الفلك والشمس والقمر والآيات العجيبات، على أنّ وراء ذلك أمر أعظم منه، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلًا».

لذلك نقرأ في الآيات (١٢٤ ـ ١٢٦) من سورة طه، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

دور القيادة في الإسلام: في الكافي عن الإمام محمّد بن علي الباقر ﷺ ينقل أنّه عندما كان يتحدّث عن الأركان الأساسية في الإسلام ذكر (الولاية) كخامس وأهم ركن، في حين أنّ الصلاة التي توضّح العلاقه بين الخالق والخلق، والصيام الذي هو رمز محاربة الشهوات، والزكاة التي تحدّد العلاقة بين الخلق والخالق، والحج الذي يكشف الجانب الاجتماعي في

---

١. «فتيل»: تعني الخيط الرقيق الموجود في شق نوى التمر، وفي المقابل فإنّ «نقير» تعني مؤخرة نوى التمر، بينما تعني «قطمير» الطبقة الرقيقة التي تغطّي نوى التمر. وكل هذه التعابير كناية عن الشيء الصغير جداً والحقير.

الإسلام، اعتبرت الأركان الأربعة الأساسية الأُخرى. ثم يضيف الإمام الباقرعليه السلام: «ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية» لماذا؟ لأنّ تنفيذ الأركان الأُخرى لن يتحقق إلّا في ظل هذا الأصل، أي في ظل الولاية[١].

وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «لا تترك الأرض بغير إمام يحلّ حلال الله ويحرّم حرامه وهو قول الله: (يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم).» ثم قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من مات بغير إمام مات ميتة جاهليّة».

التاريخ يشهد أنّ بعض الأمم تكون في الصف الأوّل بين دول العالم وأُممه بسبب قيادتها العظيمة والكفوءة، ولكن نفس الأُمّة تنهار وتسقط في الهاوية، برغم امتلاكها لنفس القوى البشرية والمصادر الأُخرى، إذا كانت قيادتها ضعيفة وغير كفوءة.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

بما أنّ الآيات السابقة كانت تبحث حول الشرك والمشركين، لذا فإنّ الآيات التي نبحثها تحذّر الرسول صلى الله عليه وآله من وساوس وإغواءات هذه المجموعة، حيث لا يجوز أن يبدي أدنى ضعف في محاربة الشرك وعبادة الأصنام، بل يجب الاستمرار بصلابة أكبر. في البداية تقول الآية أنّ وساوس المشركين كادت أن تؤثّر فيك: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾.

ثم بعد ذلك تضيف أنّه لولا نور العصمة وأنّ الله تعالى ثبّتك على الحق: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾.

وأخيراً لو أنّك ركنت اليهم فسوف يكون جزاءك ضعف عذاب المشركين في الحياة الدنيا، وضعف عذابهم في الآخرة: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

---

١. في الكافي عن الإمام الباقرعليه السلام قال: «بني الإسلام على خمس، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يُناد بشيء كما نودي بالولاية».

إن كلّما زاد مقام الإنسان من حيث العلم والوعي والمعرفة والإيمان، ازدادت قيمة وعمق الأعمال الخيّرة التي يقوم بها، وبالتالي سيكون ثوابها أكثر. أمّا الثواب والعقاب فسوف يزداد تبعاً لهذه النسبة.

إلهي لا تكلني إلى نفسي: في تفسير مجمع البيان قال ابن عباس إنّه لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ: «**اللّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً**».

وهذا الدعاء المهم لرسول الهدى ﷺ يعطينا درساً مهمّاً، وهو أنّه يجب أن نذكر الله دائماً ونلتجيء إليه، ونعتمد على لطفه، حيث إنّ الأنبياء المعصومين لم يسلموا من المزالق بدون نصرة الله وتثبيته لهم، إذن فكيف بنا نحن مع كل ما يحيطنا من أشكال الوسوسة والإغواء الشيطاني.

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

سبب النّزول

نزلت في أهل مكة لمّا همّوا بإخراج النبي ﷺ من مكة.

التّفسير

مؤامرة خبيثة أخرى: في الآيات السابقة رأينا كيف أنّ المشركين أرادوا من خلال مكائدهم المختلفة أن يحرفوا رسول الله ﷺ عن الطريق المستقيم، لكن الله أنجاه بلطفه له ورعايته إيّاه، وبذلك فشلت خطط المشركين.

بعد تلك الأحداث، وطبقاً للآيات التي بين أيدينا، وضع المشركون خطّة أُخرى للقضاء على دعوة الرسول ﷺ، وهذه الخطّة تقضي بإبعاد الرسول ﷺ عن مسقط رأسه (مكة) إلى مكان آخر قد يكون مجهولاً وبعيداً عن الأنظار، إلّا أنّ هذه الخطّة فشلت أيضاً بلطف الله أيضاً.

الآية الأُولى تقول: ﴿**وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا**﴾. بخطة دقيقة.

ثم يحذّرهم القرآن بعد ذلك بقوله: ﴿**وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾. فهؤلاء سيبادون بسرعة بسبب ذنبهم العظيم في إخراج القائد الكفوء ـ الذي تذهب نفسه حسرات على

العباد ـ من البلد، إذ يعتبر ذلك أوضح مداليل كفران النعمة، ومثل هؤلاء القوم لا يستحقون الحياة ويستحقون العذاب الإلهي.

إنّ هذا الأمر لا يخص مشركي العرب وحسب، بل هو ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا**﴾. وهذه السنة تنبع من منطق واضح، حيث إنّ هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، ويحطّمون مصباح هدايتهم ومنبع النور إليهم بأيديهم، إنّ مثل هؤلاء الأقوام لا يستحقون رحمة الخالق، وإنّ العقاب سيشملهم، ونعلم هنا أنّ الله تبارك وتعالى لا يفرّق بين عباده، وبذلك فإنّ الأعمال المتشابهة في الظروف المتشابهة لها عقاب متشابه، وهذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلّ وعلا.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

بعد سلسلة الآيات التي تحدثت عن التوحيد والشرك وعن مكائد المشركين ومؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة والدعاء والإرتباط بالله والتي تعتبر عوامل مؤثّرة في مجاهدة الشرك، ووسيلة لطرد إغواءات الشيطان من قلب وروح الإنسان، إذ تقول الآيات في البداية: ﴿**أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾.

في الروايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام توضّح لنا أنّ معنى «دلوك» هو زوال الشمس؛ وأمّا «غسق الليل» فإنّها تعني منتصف الليل، حيث إنّ «غسق» تعني الظلمة الشديدة، وأكثر ما يكون الليل ظلمةً في منتصفه.

أمّا «قرآن» فهي تعني كلاماً يقرأ، و«قرآن الفجر» هنا تعني صلاة الفجر.

وبهذا الدليل تعتبر هذه الآية من الآيات التي تشير بشكل إجمالي إلى أوقات الصلوات الخمس، ومع أخذ الآيات القرآنية الأخرى بنظر الاعتبار في مجال وقت الصلوات والروايات الكثيرة الواردة في هذا الشأن، يمكن تحديد أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق.

الآية بعد ذلك تقول: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. والرّوايات الواردة في تفسير هذه الآية تقول إنّ ملائكة الليل والنهار هي التي تشاهد، لأنّه في بداية الصباح تأتي ملائكة النهار لتحل محل ملائكة الليل التي كانت تراقب العباد، وحيث إنّ صلاة الصبح هي في أوّل وقت الطلوع، لذلك فإنّ المجموعتين من الملائكة تشاهدها وتشهد عليها.

وبعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التي بعدها إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾. المفسرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التي وردت روايات عديدة في فضيلتها.

ثم تقول الآية: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾. أي: برنامج إضافي علاوة على الفرائض اليومية.

وهذا التعبير اعتبره الكثير بأنّه دليل على وجوب صلاة الليل على الرسولﷺ، حيث إنّ هذه (النافلة) والتي هي بمعنى (زيادة في الفريضة) تخصّك أنت دون غيرك يا رسول اللهﷺ.

في ختام الآية تتوضّح نتيجة هذا البرنامج الإلهي الروحاني الرفيع حيث تقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

ولا ريب فإنّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جداً يستثير الحمد، وبما أنّ هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أنّ حمد الأوّلين والآخرين يشملك.

الروايات الإسلامية تشير إلى أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنبيﷺ هو أكبر الشفعاء في ذلك العالم، وشفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أمّا الآية التي بعدها فإنّها تشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية والذي ينبع من روح التوحيد والإيمان: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[١]. فأيّ عمل فردي أو اجتماعي لا أبدؤه إلّا بالصدق ولا أُنهيه إلّا بالصدق، فالصدق والإخلاص والأمانة هي الخط الأساس لبداية ونهاية مسيرتي.

وفي الحقيقة فإنّ سرّ الانتصار يكمن هنا، وهذا هو طريق الأنبياء والأولياء الربانيين حيث كانوا يتجنّبون كل غش وخداع وحيلة في أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم وكل ما يتعارض مع الصدق.

وعادة فإنّ المصائب التي نشاهدها اليوم والتي تصيب الأفراد والمجتمعات والأقوام

---

١. «مدخل» و«مخرج»: هي تعني الإدخال والإخراج، تؤدّي هنا المعنى المصدري.

والشعوب، إنّما هي بسبب الانحرافات عن هذا الأساس، ففي بعض الأحيان يكون أساس عملهم قائماً على الكذب والغش والحيلة، وفي بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معين بصدق ولكنهم لا يستمرون على صدقهم حتى النهاية. وهذا هو سبب الفشل والهزيمة.

أمّا الأصل الثاني الذي يعتبر من ناحية ثمرة لشجرة التوحيد، ومن ناحية أُخرى نتيجة للدخول والخروج الصادق في الأعمال، فهو ما ذكرته الآية في نهايتها: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾.

وبعد أن ذكرت الآيات (الصدق) و(التوكل) جاء بعدها الأمل بالنصر النهائي، والذي يعتبر بحد ذاته عاملًا للتوفيق في الأعمال، إذ خاطبت الآية الرسولﷺ بوعد الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[١]، لأنّ طبيعة الباطل الفناء والدمار: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. فللباطل جولة، إلّا أنّه لا يدوم والعاقبة تكون لانتصار الحق وأصحابه وأنصاره.

وفي الآيات أعلاه تمّت الإشارة إلى ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التي ابتعد عنها مسلمو اليوم، ولهذا السبب نرىٰ هزائمهم المتكررة في مقابل الأعداء والمستكبرين.

والعوامل الثلاثة هي: الدخول الصادق والخالص في الأعمال، والاستمرار على هذه الحالة الصادقة حتى النهاية ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. ثمّ الإعتماد على قدرة الخالق جلّ وعلا، والاعتماد على النفس، وترك أيّ إعتماد أو تبعية للأجانب ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾.

وفي بعض الروايات تمّ تفسير قوله ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بقيام دولة المهديﷺ فالإمام الباقرﷺ يبيّن أنّ مفهوم الكلام الإلهي هو: «إذا قام القائمﷺ ذهبت دولة الباطل».

وفي تفسير نور الثقلين عن الخرايج والجرايح عن حكيمة خبر طويل وفيه لمّا ولد القائمﷺ كان نظيفاً مفروغاً منه وعلى ذراعه الأيمن مكتوب: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

إنّ مفهوم هذه الأحاديث لا يحصر المعنى الواسع للآية بهذا المصداق، بل إنّ ثورة المهديﷺ ونهضته هي من أوضح المصاديق حيث تكون نتيجتها الإنتصار النهائي للحق على الباطل في كل العالم.

---

١. «زهق»: من مادة «زهوق» بمعنىٰ الإضمحلال والهلاك والإبادة، و«زهوق»: على وزن «قبول» صيغة مبالغة وهي تعني الشيء الذي تمّت إبادته بالكامل.

وخلاصة القول: إنّ حقيقة إنتصار الحق وانهزام الباطل هي تعبير عن قانون عام يجري في مختلف العصور، وإنتصار الرسول ﷺ على الشرك والأصنام، ونهضة المهدي عليه السلام الموعودة وانتصاره على الظالمين في العالم، هما من أوضح المصاديق لهذا القانون العام.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾

القرآن وصفة للشفاء: الآية التي نبحثها الآن تشير إلى التأثير الكبير للقرآن الكريم ودوره البنّاء في هذا المجال حيث تقول: **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**.

إنّ «الشفاء» هو في مقابل الأمراض والعيوب والنواقص، لذا فإنّ أوّل عمل يقوم به القرآن في وجود الإنسان هو تطهيره من أنواع الأمراض الفكرية والأخلاقية الفردية منها والاجتماعية.

ثم تأتي بعدها مرحلة «الرحمة» وهي مرحلة التخلّق بأخلاق الله، وتفتّح براعم الفضائل الإنسانية في أعماق الأفراد الذين يخضعون للتربية القرآنية.

أمّا الظالمون فإنّهم بدلاً من أن يستفيدوا من هذا الكتاب العظيم، فإنّهم يتمسكون بما لا ينتج لهم سوى الذل والهوان **﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾**.

لا ريب أنّ القرآن قادر على هداية الضالين، ولكن بشرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، أمّا واقع المعاندين وأعداء الحق فإنّه يكشف عن تعامل هؤلاء سلبياً مع القرآن، ولذلك لا يستفيدون من القرآن، بل يزداد عنادهم وكفرهم، لأنّ تكرار الذنب يكرّس في روح الإنسان حالة الكفر والعناد.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)﴾

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن شفاء القرآن، تشير الآية التي بين أيدينا إلى أحد أكثر الأمراض تجذّراً فتقول: **﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾**. ولكن عندما نسلب منه النعمة ويتضرر من ذلك ولو قليلاً: **﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾**.

«أعرض»: مشتقة من «إعراض» وهي تعني عدم الإلتفات، والمقصود منها هنا هو عدم الإلتفات للخالق عزّ وجل، وإعراض الوجه عنه وعن الحق.

«نأى»: مشتقة من «نأي» وهي على وزن «رأي» وهي بمعنى الإبتعاد، وعند إضافة كلمة «بجانبه» إليها يكون المعنى التكبر والغرور والتزام المواقف المعادية. ويمكن الاستفادة من مجموع هذه الجملة أنّ الأشخاص الدنيويين يصابون بالغرور عند مجيء النعم، بحيث إنّهم ينسون واهب ومعطي هذه النعم، ولا يقتصر الأمر على النسيان وحسب، بل ينتقل إلى الإعتراض والتكبّر وعدم الإلتفات للخالق.

جملة ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ تشير إلى أدنى سوء يصيب الإنسان. والمعنى أنّ هؤلاء من الضعف وعدم التحمل بحيث إنّهم ينسون أنفسهم ويغرقون في دوّامة اليأس بمجرد أن تصيبهم أبسط مشكلة.

الآية الثانية تخاطب الرسول ﷺ فتقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾. فالمؤمنون يطلبون الرحمة والشفاء من آيات القرآن الكريم، والظالمون لا يستفيدون من القرآن سوى مزيد من الخسران، أمّا الأفراد الضعفاء فيصابون بالغرور في حال النعمة، ويصابون باليأس في حال ظهور المشاكل... هؤلاء جميعاً يتصرفون وفق أمزجتهم، هذه الأمزجة التي تتغير وفق التربية والتعليم والأعمال المتكررة للإنسان نفسه.

وفي هذه الأحوال جميعاً فإنّ هناك علم الله الشاهد والمحيط بالجميع وخاصه بالأشخاص المهتدين: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

«شاكلة»: في الأصل مشتقة من «شكل» وهي تعني وضع الزمام والرباط للحيوان. و(شكال) تقال لنفس الزمام؛ وبما أنّ طبائع وعادات كل إنسان تقيّده بصفات معيّنة لذا يقال لذلك «شاكلة».

إنّ الشاكلة تطلق على كل عادة وطريقة ومذهب وأسلوب يعطي للإنسان اتجاهاً معيناً. لذا فإنّ العادات والصفات التي يكتسبها الإنسان بتكرار الأعمال اختيارياً وإرادياً، وكذلك الإعتقادات التي يقتنع بها ويعتمدها بسبب الاستدلال أو التعصب لرأي معين يطلق عليها كلها كلمة «شاكلة».

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

ما هي الروح؟ تبدأ هذه الآية في الإجابة على بعض الأسئلة المهمة للمشركين ولأهل الكتاب، إذ تقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يمكن أن نستفيد من مجموع القرائن الموجودة في الآية أنّ المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التي تميّز الإنسان عن الحيوان، وقد شرّفتنا بأفضل الشرف، حيث تنبع كل نشاطاتنا وفعالياتنا منها، وبمساعدتها نكتشف أسرار العلوم.

ولأنّ الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، ولها أُصول تحكمها تختلف عن الأُصول التي تحكم المادة في خواصها الفيزيائية والكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلى الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء في جملة قصيرة قاطعة: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. ولكي لا يتعجب هؤلاء أو يندهشوا من هذا الجواب فقد أضافت الآية: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. حيث لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم من أنّها أقرب شيء إليكم.

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عن قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قالا: «إنّ الله تبارك وتعالى أحد صمد، والصمد الشيء الذي ليس له جوف، فإنّما الروح خلق من خلقه، له بصر وقوّة وتأييد يجعله في قلوب الرسل والمؤمنين».

إنّ الروح الإنسانية لها مراتب ودرجات، فتلك المرتبة من الروح الموجودة عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هي في مرتبة ودرجة عالية جدّاً، ومن آثارها العصمة من الخطأ والذنب وكذلك يترتب عليها العلم الخارق. وبالطبع فإنّ روحاً مثل هذه هي أفضل من الملائكة بما في ذلك جبرئيل وميكائيل. (فتدبر)

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

ما عندك هو من رحمته وبركته: تحدثت الآيات السابقة عن القرآن، أمّا الآيتان اللتان نبحثها الآن فهما أيضاً ينصبّان في نفس الإتجاه. ففي البداية تقول الآية: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾. وبعد ذلك: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾. إنّنا نحن الذين أعطيناك هذه العلوم حتى تكون قائداً وهادياً للناس، ونحن الذين إذا شئنا استرجعناها منك، وليس لأحد أن يعترض على ذلك.

الآية التي بعدها جاءت لتستثني، فهي تبيّن أنّنا إذا لم نأخذ ما أعطيناك، فليس ذلك سوى رحمة من عندنا، حيث يقول تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. وهذه الرحمة لأجل هدايتك وإنقاذك، وكذلك لهداية وإنقاذ العالم البشري، وهذه الرحمة مكمّلة لرحمة الخلق.

وفي نهاية الآية ولأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

إنّ وجود القابلية لهذا الفضل في قلبك الكبير بجهادك وعبادتك من جهة، وحاجة العباد إلى مثل قيادتك من جهة أُخرى، جعلا فضل الله عليك كبيراً للغاية فقد فتح الله أمامك أبواب العلم، وأنبأك بأسرار هداية الإنسان، وعصمك من الخطأ، حتى تكون أسوة وقدوة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

معجزة القرآن: الآيات التي بين أيدينا تتحدّث عن إعجاز القرآن، ولأنّ الآيات اللاحقة تتحدّث عن حجج المشركين في مجال المعجزات، فإنّ الآية التي بين أيدينا مقدمة للبحث القادم حول المعجزات. إنّ الله يخاطب رسولهﷺ ويقول له: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

إنّ هذه الآية دعت ـ بصراحة ـ العالمين جميعهم، صغاراً وكباراً، عرباً وغير عرب، الإنسان أو أيّ كائن عاقل آخر، العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخين والنوابغ وغيرهم لقد دعتهم جميعاً لمواجهة القرآن، وتحدّيه الكبير لهم، وقالت لهم: إذا كنتم تظنون أنّ هذا الكلام ليس من الخالق وأنّه من صنع الإنسان، فأنتم أيضاً بشر، فأتوا إذاً بمثله، وإذا لم تستطيعوا ذلك بأجمعكم، فهذا العجز أفضل دليل على إعجاز القرآن.

إنّ هذه الدعوة للمقابلة والتي يصطلح عليها علماء العقائد بـ«التحدّي» هي أحد أركان المعجزة، وعندما يرد هذا التعبير في أيّ مكان، نفهم بوضوح أنّ هذا الموضوع هو من المعجزات.

و تتحرك الآية التي بعدها لتوضيح جانب من جوانب الإعجاز القرآني، متمثلًا في شموليته وإحاطته بكل شيء، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾. ولكن بالرغم من ذلك: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

حقاً إنّ التنوع الذي يتضمّنه القرآن الكريم تنوع عجيب، خاصه وأنّه صدر من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، ففي هذا الكتاب وردت الأدلة العقلية بجزئياتها الخاصة حول قضايا العقائد، وذكرت ـ أيضاً ـ الأحكام المتعلقة بحاجات البشر في المجالات كافة. وتعرّض القرآن ـ أيضاً ـ إلى قضايا وأحداث تأريخية تعتبر فريدة في نوعها ومثيرة في بابها، وخالية من الخرافات.

وتعرّض إلى البحوث الأخلاقية التي تؤثّر في القلوب المستعدة كتأثير المطر في الأرض الميتة.

القضايا العلمية ورد ذكرها في القرآن الكريم، إذ ذكرت بعض الحقائق التي لم تكن تعرف في ذلك الزمان من قبل أيّ عالم.

والخلاصة: إنّ القرآن سلك كل وادٍ وتناول في آياته أفضل النماذج.

ولهذا السبب إذا اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنّ جماعة من قريش ـ وفيهم الوليد بن المغيرة وأبو سفيان وأبوجهل ـ اجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلّموه وخاصموه، فبعثوا إليه إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر ﷺ إليهم ظنّاً منه أنّهم بدا لهم في أمره، وكان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمّد إنّا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين وسفّهت الأحكام، وفرّقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً أعطيناك، وإن كنت

تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كانت علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء.

فقال ﷺ: «ليس شيء من ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر حتى يحكم الله بيننا».

قالوا: فإذن ليس أحد أضيق بلداً منّا فاسأل ربّك أن يسيّر هذه الجبال، ويجري لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق....

فقال ﷺ: «ما بهذا بعثت»....

قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت إنّ ربّك إن شاء فعل ذلك.

قال ﷺ: «ذاك إلى الله إن شاء فعل».

وقال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا. فقام النبي ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن عمّته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله... فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سُلّماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر، ويأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك، وكتاب يشهد لك....

فانصرف رسول الله ﷺ حزيناً لما رأى من قومه، فأنزل الله سبحانه الآيات.

التفسير

بعد الآيات السابقة التي تحدثت عن عظمة وإعجاز القرآن، جاءت هذه الآيات تشير إلى ذرائع المشركين، هذه الطلبات وردت على ستة أقسام هي:

١ـ في البداية يقولون: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾.

٢ـ قولهم كما في الآية: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَارَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾.

٣ـ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾.

٤ـ ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾.

٥ـ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾.

٦ـ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

ثم يصدر الأمر من الخالق جلّ وعلا لرسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء في مقابل اقتراحاتهم هذه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

ذريعة عامة: الآيات السابقة تحدّثت عن تذرّع المشركين ـ أو قسم منهم ـ في قضية التوحيد، أمّا الآيات التي نبحثها فإنّها تشير إلى ذريعة عامة في مقابل دعوة الأنبياء، حيث تقول: **﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾**.

هل يمكن التصديق بأنّ هذه المهمة والمنزلة الرفيعة تقع على عاتق الإنسان، ثم ـ والكلام للمشركين ـ ألم يكن الأولى والأجدر أن تقع هذه المهمة وهذه المسؤولية على عاتق مخلوق أفضل كالملائكة ـ مثلًا ـ كي يستطيعوا أداء هذه المهمة بجدارة... إذ أين الإنسان الترابي والرسالة الإلهية؟!

إنّ هذا المنطق الواهي الذي تحكيه الآية على لسان المشركين لا يخصّ مجموعة أو مجموعتين من الناس، بل إنّ أكثر الناس وفي امتداد تأريخ النبوات قد تذرّعوا به في مقابل الأنبياء والرسل.

القرآن الكريم أجاب هؤلاء جميعاً في جملةٍ قصيرة واحدة مليئة بالمعاني والدلالات، قال تعالى: **﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾**. يعني أنّ القائد يجب أن يكون من سنخ من بعث إليه، ومن جنس أتباعه، فالإنسان لجماعة البشر، والملك لجماعة الملائكة.

ودليل هذا التجانس والتطابق بين القائد وأتباعه واضح؛ فمن جانب يعتبر التبليغ العملي أهم وظيفة في عمل القائد من خلال كونه قدوة واسوة، وهذا لا يتمّ إلّا أن يكون القائد من جنسهم، يمتلك نفس الغرائز والأحاسيس، ونفس مكوّنات البناء الجسمي والروحي الذي يملكه كل فرد من أفراد جماعته.

من جانب آخر ينبغي للقائد أن يدرك جميع احتياجات ومشاكل أتباعه كي يكون قادراً على علاجهم، والإجابة على أسئلتهم، لهذا السبب نرى أنّ الأنبياء برزوا من بين عامة الناس.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

بعد أن قطعت الآيات السابقة أشواطاً في مجال التوحيد والنبوة وعرض حديث المعارضين والمشركين، فإنّ هذه الآيات عبارة عن خاتمة المطاف في هذا الحديث، إذ تضع النتيجة الأخيرة لكل ذلك. ففي البداية تقول الآية إذا لم يقبل أُولئك أدلتك الواضحة حول التوحيد والنبوة والمعاد فقل لهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

إنّ هذه الآية تستهدف أمرين فهي أوّلاً: تهدّد المعارضين المتعصبين والمعاندين، بأنّ الله خبير وبصير ويشهد أعمالنا وأعمالكم، فلا تظنّوا بأنّكم خارجون عن محيط قدرته أو أنّ شيئاً من أعمالكم خاف عنه.

الأمر الثاني هو أنّ الرسول ﷺ أظهر إيمانه القاطع بما قال، حيث إنّ ايمان المتحدّث القوي بما يقول، له أثر نفسي عميق في المستمع، وعسى أن يكون هذا التعبير القاطع والحاسم المقرون بنوع من التهديد مؤثّراً فيهم، ويهزّ وجودهم، ويوقظ فكرهم ووجدانهم ويهديهم إلى الطريق الصحيح.

الآية التالية تؤكّد على أنّ الشخص المهتدي هو الذي قذف الله تعالى نور الايمان في قلبه: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾. أمّا من أضلّه الله بسوء أعماله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾. فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه ويطلبوا نور الهداية منه.

هاتان الجملتان تثبتان أنّ الدليل القوي والقاطع لا يكفي للإيمان، فما لم يكن هناك توفيق إلهي لا يستقر الايمان أبداً.

أمّا عن سبب مجيء «أولياء» بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدد الآلهة

الوهمية أو تنوع الوسائل التي يلجأون إليها، فيكون المقصود أنّ جميع هذه الوسائل وجميع البشر وغير البشر، وكل ما تؤلّهون من آلهة من دون الله، لا يستطيع أن ينقذكم من الضلالة وسوء العاقبة.

ثم تذكر الآيات ـ بصيغة التهديد القاطع ـ جانباً من مصيرهم بسبب أعمالهم في يوم القيامة فتقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾. فبدلاً من الدخول بشكل عادي وبقامة منتصبة، فإنّ الملائكة الموكلين بهم يسحبونهم إلى جهنم على وجوههم تعذيباً لهم.

أو يزحفون كالزواحف على وجوههم وصدورهم بشكل ذليل ومؤلم.

ثم هم يحشرون: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾.

إنّ مراحل ومواقف يوم القيامة متعددة، ففي بعض المراحل والمواقف يكون هؤلاء صماً وبكماً وعمياً، وهذا نوع من العقاب لهم، إلّا أنّ عيونهم في مراحل لاحقة تبدأ بالنظر، وآذانهم بالسماع، وألسنتهم بالنطق حتى يروا منظر العذاب ويسمعون كلام الشامتين، ويبدأون بالتأوّه والصراخ وإظهار ضعفهم، حيث إنّ كل هذه الأمور هي نوع آخر من العقاب لهم.

إنّ المجرمين وأهل النار محرومون من رؤية ما هو سارّ ومن سماع أمور تبعث على الفرح، ومن قول وكلام يستوجب نجاتهم، بل على العكس من ذلك، فهم لا ينظرون ولا يسمعون ولا يقولون إلّا ما يؤذي ويؤلم.

في الختام تقول الآية: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾. لكن لا تظنّوا أنّ نارها كنار الدنيا تنطفي في النهاية، بل هي: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ
أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

كيف يكون المعاد ممكناً؟ في الآيات السابقة رأينا كيف أنّ يوماً سيّئاً ينتظر المجرمين في العالم الآخر، هذه العاقبة التي تجعل أيّ عاقل يفكّر في هذا المصير، لذلك فإنّ الآيات التي بين

أيدينا تقف على هذا الموضوع بشكل آخر. في البداية تقول: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

وبعد تعجّبهم من المعاد الجسماني واعتبارهم ذلك أمراً غير ممكن، يقول القرآن بأسلوب واضح ومباشر وبلا فصل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾. وعلى هؤلاء أن لا يعجّلوا فإنّ القيامة وإن تأخّرت، إلّا أنّها سوف تتحقق بلا ريب: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ولكن هؤلاء الظالمين والمعادين مستمرون على ما هم فيه رغم سماعهم هذه الآيات: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

وحيث إنّهم كانوا يصرخون ويصرّون على أن لا يكون النبي من البشر حسداً من عند أنفسهم وجهلًا وضلالًا، وقد منعهم هذا الحسد والجهل من التصديق بإمكانية أن يعطي الله كل هذه المواهب لإنسان، لذا فإنّ الخالق جلّ وعلا يخاطبهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾. ثم يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾.

«قتور»: من «قَتَرَ» على وزن «قتل» وهي تعني الإمساك في الصرف، وبما أنّ (قتور) صيغة مبالغة فإنّها تعني شدّة الإمساك وضيق النظر.

المعاد الجسماني: الآيات أعلاه من أوضح الآيات المرتبطة بإثبات المعاد الجسماني، فالمشركين كانوا يعجبون من إمكانية عودة الحياة إلى العظام النخرة، والقرآن يجيبهم بأنّ القادر على خلق السماوات والأرض، لديه القدرة على جمع الأجزاء المتناثرة للإنسان وأن يهبها الحياة مرّة أُخرى.

كما إنّ الإستدلال بالقدرة الكلية للخالق عزّ وجل في إثبات المعاد، هو واحد من الأدلة التي يذكرها القرآن مراراً ويعتمد عليها كثيراً.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

لم يؤمنوا رغم الآيات: قبل بضعة آيات عرفنا كيف أنّ المشركين طلبوا أُموراً عجيبة غريبة من الرسولﷺ، وهذه الآيات ـ التي نبحثها ـ تقف على نماذج للأُمم السابقة ممن شاهدوا أنواع المعاجز والأعمال غير العادية، إلّا أنّهم استمروا في الإنكار وعدم الإيمان. في البدء يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾.

والآيات التسع هي: العصا، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الجفاف، ونقص الثمرات.

ولأجل التأكيد على الموضوع اسأل ـ والخطاب موجّه إلى رسول اللهﷺ ـ بني إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين والمنكرين: ﴿**فَسْئَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ**﴾.

إلّا أنّ الطاغية الجبار فرعون ـ برغم الآيات ـ لم يستسلم للحق، بل أكثر من ذلك إتّهم موسى ﴿**فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا**﴾.

إنّ التعبير القرآني يكشف عن الأُسلوب الدعائي التحريضي الذي يستخدمه المستكبرون ويتّهمون فيه الرجال الإلهيين بسبب حركتهم الإصلاحية الربانية ضد الفساد والظلم، إذ يصف الظالمون والطغاة معجزاتهم بالسحر أو ينعتونهم بالجنون كي يؤثّروا من هذا الطريق في قلوب الناس ويفرّقوهم عن الأنبياء.

ولكن موسىؑ لم يسكت أمام اتّهام فرعون له، بل أجابه بلغة قاطعة يعرف فرعون مغزاها الدقيق، إذ قال له: ﴿**قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ**﴾.

لذا فإنّك ـ يا فرعون ـ تعلم بوضوح أنّك تتنكّر للحقائق، برغم علمك بأنّها من الله! فهذه «بصائر» أي أدلة واضحة للناس كي يتعرفوا بواسطتها على طريق الحق، وعندها سيسلكون طريق السعادة، وبما أنّك ـ يا فرعون ـ تعرف الحق وتنكره، لذا: ﴿**وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**﴾. «مثبور»: من «ثبور» وتعني الهلاك.

ولأنّ فرعون لم يستطع أن يقف بوجه استدلالات موسى القوية، فإنّه سلك طريقاً يسلكه جميع الطواغيت عديمي المنطق في جميع القرون وكافّة الأعصار، وذاك قوله تعالى: ﴿**فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا**﴾.

«يستفز»: من «استفزاز» وتعني الإخراج بقوة وعنف.

ومن بعد هذا النصر العظيم: ﴿**وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ**

﴿الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾. فتأتون بمجموعات يوم القيامة للحساب.

«لفيف»: من مادة «لفّ» وهنا تعني المجموعة المتداخلة المعقّدة بحيث لا يعرف الأشخاص، ولا من أيّ قبيلة هم.

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

مرّة أُخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمية وعظمة هذا الكتاب السماوي ويجيب على بعض ذرائع المعارضين. في البداية تقول الآيات: **﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾**. ثم تضيف: **﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾**. ثم تقول: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾**. إذ ليس لك الحق في تغيير محتوى القرآن.

والفرق بين الجملة الأُولى: **﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾** والجملة الثانية: **﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾** هو أنّ الإنسان قد يبدأ في بعض الأحيان بعمل ما، ولكنه لا يستطيع اتمامه بشكل صحيح وذلك بسبب من ضعفه، أمّا بالنسبة للشخص الذي يعلم بكل شيء ويقدر على كل شيء، فإنّه يبدأ بداية صحيحة، وينهي العمل نهاية صحيحة. وكمثال على ذلك: الشخص الذي يخرج ماءً صافياً من أحد العيون، ولكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يحافظ على صفاء هذا الماء ونظافته ويمنعه من التلوّث، فيصل الماء في هذه الحالة إلى الآخرين وهو ملوّث، إلّا أنّ الشخص القادر والمحيط بالأُمور، يحافظ على بقاء الماء صافياً وبعيداً عن عوامل التلوّث حتى يصل إلى العطاشى والمحتاجين له.

القرآن كتاب نزل بالحق من قبل الخالق، وهو محفوظ في جميع مراحله سواء في المرحلة التي كان الوسيط فيها جبرائيل الأمين، أو المرحلة التي كان الرسول فيها هو المتلقي، وبمرور الزمن لاتستطيع يد التحريف والتزوير أن تمتد إليه بمقتضى قوله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** فالله هو الذي يتكفّل حمايته وحراسته.

لذا فإنّ هذا الماء النقي الصافي الوحي الإلهي القويم لم تناله يد التحريف والتبديل منذ عصر الرسول ﷺ وحتى نهاية العالم.

الآية التي تليها تردّ على واحدة من ذرائع المعارضين وحججهم، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة على الرسول ﷺ، ولماذا كان نزوله تدريجياً؟ كما تشير إلى ذلك الآية (٣٢) من سورة الفرقان التي تقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾. فيقول الله في جواب هؤلاء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾. حتى يدخل القلوب والأفكار ويترجم عملياً بشكل كامل.

ومن أجل التأكيد أكثر تبيّن الآية ـ بشكل قاطع ـ أنّ جميع هذا القرآن أنزلناه نحن: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

إنّ القرآن له إرتباط دقيق بعصره، أيّ، ارتباط بـ(٢٣) سنة، هي عصر نبوة نبي الخاتم بكل ما كانت تتمخض به من حوادث وقضايا.

هل يمكن جمع حوادث (٢٣) سنة نفسها في يوم واحد، حتى ينزل القرآن في يوم واحد؟

النزول التدريجي يعني الإرتباط الدائمي للرسول ﷺ مع مصدر الوحي، إلّا أنّ النزول الدفعي يتمّ بمرحلة واحدة لا يتسنّى للرسول ﷺ الإرتباط بمصدر الوحي لأكثر من مرّة واحدة.

الآية التي تليها استهدفت غرور المعارضين الجهلة حيث تقول: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

إنّ المقصود من ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ هم مجموعة من علماء اليهود والنصارى من الذين آمنوا بعد أن سمعوا آيات القرآن، وشاهدوا العلائم التي قرأوها في التوراة والإنجيل، والتحقوا بصف المؤمنين الحقيقيين، وأصبحوا من علماء الإسلام.

«يخرّون»: بمعنى يسقطون على الأرض بدون إرادتهم، واستخدام هذه الكلمة بدلاً من السجود ينطوي على إشارة لطيفة، هي أنّ الواعين وذوي القلوب اليقظة عندما يسمعون آيات القرآن وكلام الخالق عزّ وجل ينجذبون إليه ويولهون به إلى درجة أنّهم يسقطون على الأرض ويسجدون خشية بدون وعي واختيار[١].

---

١. يقول الراغب في (المفردات): «يخرون» من مادة «خرير» ويقال لصوت الماء والريح وغير ذلك ممّا

«أذقان»: جمع «ذقن» ومن المعلوم أنّ ذقن الإنسان عند السجود لا يلمس الأرض، إلّا أنّ تعبير الآية إشارة إلى أنّ هؤلاء يضعون كامل وجههم على الأرض قبال خالقهم حتى أنّ ذقنهم قد يلمس الأرض عند السجود.

الآية التي بعدها توضّح قولهم عندما يسجدون: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. هؤلاء يعبرون بهذا الكلام عن عمق إيمانهم واعتقادهم بالله وبصفاته وبوعده.

والكلام على هذا الأساس يجمع أُصول الدين في جملة واحدة.

وللتأكيد ـ أكثر ـ على تأثّر هؤلاء بآيات ربّهم، وعلى سجدة الحب التي يسجدونها تقول الآية التي بعدها: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾. «الخشوع»: هو حالة من التواضع والأدب الجسدي والروحي للإنسان في مقابل شخصية معينة أو حقيقة معينة.

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ النبي ﷺ كان ساجداً ذات ليلة بمكة يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنّ له إلهاً واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى.

التّفسير

آخر الذرائع والأعذار: بعد سلسلة من الذرائع التي تشبّث بها المشركون امام دعوة الرسول ﷺ، نصل مع الآيات التي بين أيدينا إلى آخر ذريعة لهم، وهي قولهم: لماذا يذكر رسول الله ﷺ الخالق بأسماء متعددة بالرغم من أنّه يدّعي التوحيد. القرآن ردّ على هؤلاء بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

إنّ هؤلاء عميان البصيرة والقلب، غافلون عن أحداث ووقائع حياتهم اليومية حيث كانوا يذكرون أسماء مختلفة لشخص واحد أو لمكان واحد، وكل اسم من هذه الأسماء كان

يسقط من علو. وقوله تعالى: ﴿خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبيح، والتنبيه أنّ ذلك الخرير كان صوت تسبيحهم بحمد الله لا بشيء آخر، ودليله قوله تعالى فيما بعد: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

يعرّف بشطر أو بصفة من صفات ذلك الشخص أو المكان.

بعد ذلك، هل من العجيب أن تكون للخالق أسماء متعددة تتناسب مع افعاله وكمالاته وهو المطلق في وجوده وفي صفاته والمنبع لكل صفات الكمال وجميع النعم، وهو وحده عزّ وجلّ الذي يدير دفة هذا العالم والوجود؟

في نهاية الآية التي نبحثها نرى المشركين يتحدّثون عن صلاة رسول الله ﷺ ويقولون: إنّه يؤذينا بصوته المرتفع في صلاته وعبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعليمات لرسول الله ﷺ عبر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

إنّ الآية أعلاه تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل من الحد الطبيعي بحيث تكون حركة شفاه وحسب ولا صوت فيها.

هذا الحكم الإسلامي في الدعوة إلى الإعتدال بين الجهر والإخفات يعطينا فهماً وإدراكاً من جهتين:

الأولى: لا تؤدّوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء والتحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونة بالوقار والهدوء والأدب.

الثانية: يجب أن يكون هذ التوجيه مبدأ لنا في جميع أعمالنا وبرامجنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتكون جميع هذه الأمور بعيدة عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

أخيراً نصل إلى الآية الأخيرة من سورة الإسراء، هذه الآية تنهي السورة المباركة بحمد الله، كما افتتحت بتسبيحه وتنزيه ذاته عزّ وجل. إنّ هذه الآية هي خلاصة أخيرة لكل البحوث التوحيدية التي وردت في السورة، وهي ثمرة لمفاهيمها جميعاً، إذ هي تخاطب الرسول ﷺ بالقول: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾.

ومثل هذا الرب في مثل هذه الصفات، هو أفضل من كل ما تفكّر به: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

روى العلّامة الطبرسي رحمه الله في تفسير مجمع البيان: إنّ في هذه الآية ردّاً على اليهود والنصارى، حين قالوا اتّخذ الله الولد، وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك، إلّا شريكاً هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء الله لذل الله.

«نهاية تفسير سورة الإسراء»

١٨

سورة الكهف

وهي مائة وعشر آيات

مكية

محتوى السورة: تبدأ السورة بحمد الخالق جلّ وعلا، وتنتهي بالتوحيد والايمان والعمل الصالح.

يشير محتوى السورة ـ كما في أغلب السور المكية ـ إلى قضية المبدأ والمعاد والترغيب والإنذار. وتشير أيضاً إلى قضية مهمة كان المسلمون يحتاجونها في تلك الأيام بشدة، وهي عدم استسلام الأقلية ـ مهما كانت صغيرة ـ إلى الأكثرية مهما كانت قوية في المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعة الصغيرة القليلة من أصحاب الكهف، أن يبتعدوا عن المحيط الفاسد ويتحركوا ضدّه.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهة، فعليهم خوض الجهاد والصراع، وإن عجزوا عن المواجهة فعليهم بالهجرة.

إنّ السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين) حيث إنّ هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنية لم تتكرّر في مكان آخر من القرآن (أشارت الآية ٩٦ من سورة الأنبياء إلى يأجوج ومأجوج دون ذكر ذي القرنين). وهذه الإشارة تعتبر واحدة من خصائص هذه السورة المباركة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبيﷺ قال: «ألا أدلّكم على سورة

شيّعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض»؟ قالوا: بلى. قال: «سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الأُخرى، وزيادة ثلاثة أيام، وأُعطي نوراً يبلغ السماء، ووُقي فتنة الدجّال».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلّا شهيداً، وبعثه الله مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مع الشهداء».

إنّ عظمة السور القرآنية وتأثيرها المعنوي، وبركاتها الأخلاقية، إنّما يكون بسبب الايمان بها والعمل وفقاً لمضامينها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

البداية باسم الله، والقرآن: تبدأ سورة الكهف ـ كما في بعض السور الأُخرى ـ بحمد الله، وبما أنّ الحمد يكون لأجل عمل أو صفة معينة مهمة ومطلوبة، لذا فإنّ الحمد هنا لأجل نزول القرآن الخالي من كل اعوجاج، فتقول الآية: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا**﴾.

هذا الكتاب هو كتاب ثابت ومحكم ومعتدل ومستقيم، وهو يحفظ المجتمع الإنساني ويحمي سائر الكتب السماوية.

﴿**قَيِّمًا**﴾. وينذر الظالمين من عذاب شديد: ﴿**لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ**﴾. وفي نفس الوقت فهو: ﴿**وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا**﴾. وهؤلاء في نعيمهم ﴿**مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا**﴾.

ثم تشير الآيات إلى واحدة من انحرافات المعارضين، سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين، حيث تنذرهم هذا الأمر فتقول: ﴿**وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا**﴾. فهي تحذّر النصارى بسبب اعتقادهم بأنّ المسيح ابن الله، وتحذّر اليهود لأنّهم اعتقدوا بأنّ عزير ابن الله، وتحذّر المشركين لظنّهم بأنّ الملائكة بنات الله.

ثم تشير الآيات إلى أصل أساسي في إبطال هذه الإدعاءات الفارغة فتقول: إنّ هؤلاء لا علم لهم ولا يقين بهذا الكلام، وإنّما هم مقلدون فيه للآباء، وإنّ آباءهم على شاكلتهم في الجهل وعدم العلم: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾. ومع ذلك فإنّهم يتفوّهون بكلام رهيب ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾. فهل يعقل أن يكون الله جسماً أو يكون له ولد، أو أن يحتاج إلى الصفات المادية وأن يكون محدوداً... إنّه كلام رهيب، ومثل هؤلاء الذين يتفوّهون به لا ينطقون إلّا كذباً: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

«قيّم»: على وزن كلمة «سيّد» مشتقة من مصدر الكلمة «قيام» وهنا تأتي بمعنى (الثبات والصمود) إضافة إلى أنّها هي وصف للقرآن في عدم وجود أي اعوجاج في آياته، بل إنّ في مضمونها تأكيد على استقامة واعتدال القرآن، وخلوّه من أيّ شكل من أشكال التناقض، وإشارة إلى أبدية وخلود هذا الكتاب السماوي العظيم، وكونه أسوة لحفظ الأصالة، وإصلاح الخلل، وحفظ الأحكام الإلهية والعدل والفضائل البشرية.

صفة «القيّم»: مشتقة من «قيومة» الباري عزّ وجل التي تعني اهتمام الباري عزّ وجل وحفظه جميع الكائنات، والقرآن الذي هو كلام الله له نفس الصفة أيضاً.

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

العالم ساحة اختبار: الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الرسالة وقيادة النبي ﷺ، لذا فإنّ أوّل آية نبحثها الآن، تشير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا وهي الإشفاق على الأمّة فتقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وهنا يجب الإنتباه إلى بعض الملاحظات:

«باخع»: من «بخع» على وزن «نخل» وهي بمعنى إهلاك النفس من شدّة الحزن والغم.

استخدام كلمة «حديث» للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة في هذا الكتاب السماوي الكبير.

الآية التي بعدها تجسّد وضع هذا العالم وتكشف عن أنّه ساحة للاختبار والتمحيص

والبلاء، وتوضّح الخط الذي ينبغي أن يسلكه الإنسان: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾.

لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث إنّ كل جانب فيه يذهب بالقلب، ويحيّر الأبصار، ويثير الدوافع الداخلية في الإنسان، كما يتسنّىٰ امتحانه في ظلّ هذه الإحساسات والمشاعر ووسط أنواع الزينة وأشكالها، لتظهر قدرته الإيمانية، ومؤهّلاته المعنوية.

لذلك تضيف الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

إنّ هنا إنذار لكل الناس، لكل المسلمين كي لا ينخدعوا في ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، وبدلاً من ذلك عليهم أن يفكّروا بتحسين أعمالهم.

ثم يبيّن تعالى أنّ أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة ولا دائمة، بل مصيرها إلى المحو والزوال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

«صعيد»: مشتقة من «صعود» وهي هنا تعني وجه الأرض، الوجه الذي يتّضح فيه التراب؛ و«جرز»: تطلق على الأرض الموات بسبب الجفاف وقلّة المطر.

إنّ المنظر الذي نشاهده في الربيع في الصحاري والجبال لا تبقى إذ لابدّ أن يأتي الخريف، وتسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان المادية تشبه هذا التحوّل، فلا بدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي يضع نهاية للقصور التي تناطح السماء، وللملابس الباذخة والنعم الكثيرة التي يرفل بها الإنسان، كذلك تنتهي المناصب والمواقع والإعتبارات، وسوف لن يبقىٰ شيء من المجتمعات البشرية سوى القبور الساكنة اليابسة، وهذا درس عظيم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

أسباب النّزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ النضر بن الحرث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط

أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد وصِفا لهم صفته، وخبّراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النبي ﷺ وقالا لهم ما قالت قريش. فقال لهما أحبار اليهود: إسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فرأوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان من أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟

وفي رواية أخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبي.

فانصرفا إلى مكة فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد وقصّا عليهم القصّة. فجاؤوا إلى النبي ﷺ فسألوه، فقال ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكة وتكلّموا في ذلك. فشقّ على رسول الله ﷺ ما يتكلم به أهل مكة عليه، ثم جاءه جبرائيل ﷺ عن الله سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه عن أمر الفتية والرجل الطوّاف، وأنزل عليه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية.

التفسير

بداية قصة أصحاب الكهف: في الآيات السابقة كانت هناك صورة للحياة الدنيا، وكيفية اختبار الناس فيها، ومسير حياتهم عليها، ولأنّ القرآن غالباً ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحساسة، أو أنّه يذكر نماذج من التاريخ لتجسيد الوعي بالقضية، لذا قام في هذه السورة بتوضيح قصة أصحاب الكهف، وعبّرت عنهم الآيات بأنّهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنّهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون في ظل حياة مترفة بالزينة وأنواع النعم، إلّا أنّهم انسلخوا من كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم وللصراع ضدّ الطاغوت ـ طاغوت زمانهم ـ وذهبوا إلى غار خال من جميع أشكال الزينة والنعم، وقد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم في سبيل الإيمان والثبات عليه.

في البداية يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾.

إنّ لنا آيات أكثر عجباً في السماوات والأرض، وإنّ كل واحد منها نموذج لعظمة الخالق جلّ وعلا، وفي حياتكم ـ أيضاً ـ أسرار عجيبة تعتبر كل واحدة منها علامة على صدق دعوتك، وفي كتابك السماوي الكبير آيات عجيبة كثيرة، وبالطبع فإنّ قصة أصحاب الكهف ليست بأعجب منها.

«الرقيم»: في الأصل مأخوذة من «رقم» وتعني الكتابة، وهو اسم ثان لأصحاب الكهف، لأنّه في النهاية تمّت كتابة أسمائهم على لوحة وضعت على باب الغار.

البعض يرى أنّ «الرقيم» اسم الجبل الذي كان فيه الغار.

ثم تقول الآيات بعد ذلك: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ وعندما انقطعوا عن كل أمل توجّهوا نحو خالقهم: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾. ثم: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. أي: أرشدنا إلى طريق ينقذنا من هذا الضيق ويقرّبنا من مرضاتك وسعادتك، الطريق الذي فيه الخير والسعادة وإطاعة أوامر الله تعالى. وقد إستجيبت دعوتهم: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

بحوث

١ـ جملة ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ من مادة (مأوى) وتعني المكان الآمن، وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء الفتية الهاربين من بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسّوا بالأمن عندما وصلوا إلى الغار.

٢ـ «فتية»: جمع «فتى» وهو الشاب الحدث، ولكنها تطلق أحياناً على الأشخاص الكبار والمسنّين الذين يملكون روحية شابّة، وقد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة والمدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة والشهامة والتسليم في مقابل الحق.

٣ـ جملة ﴿ضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنّما يوضع ستار على أذن الشخص بحيث لا يسمع أيّ شيء، وهو ستار النوم.

٤ـ جملة ﴿لِنَعْلَمَ...﴾ لا تعني أنّ الله يريد أن يعلم شيئاً جديداً، ويكثر استخدام هذا التعبير في القرآن، والغرض منه هو تحقق العلم الالهي، بمعنى نحن أيقظناهم من المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أي حتى يسأل كل واحد الآخر عن مقدار نومهم.

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن
دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً
لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن
رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

القصة المفصلة لأصحاب الكهف: بعد أن ذكرت الآيات بشكل مختصر قصة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصل لها ضمن (١٤) آية وكان المنطلق في ذلك قوله تعالى: ﴿**نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ**﴾. كلام خال من أيّ شكل من أشكال الخرافة والتزوير. ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى**﴾.

وتشير الآيات القرآنية ـ وما هو ثابت في التاريخ ـ إلى أنّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون في بيئة فاسدة وزمان شاعت فيه عبادة الأصنام والكفر، وكانت هناك حكومة ظالمة تحمي مظاهر الشرك والكفر والإنحراف.

مجموعة أهل الكهف أحسّوا بالفساد وقرروا القيام ضدّ هذا المجتمع، وفي حال عدم تمكنهم من المواجهة والتغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: ﴿**وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا**﴾.

فإذا عبدنا غيره: ﴿**لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا**﴾.

«شطط»: على وزن (وسط) تعني الخروج عن الحد والإفراط في الإبتعاد لذا فإنّ (شطط) تقال للكلام البعيد عن الحق، ويقال لحواشي وضفاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، وكونها ذات جدران مرتفعة.

إنّ هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلًا واضحاً لإثبات التوحيد ونفي الآلهة، وهو قولهم: إنّنا نرى وبوضوح أنّ لهذه السماوات والأرض خالقاً واحداً، وأنّ نظام الخلق دليل على وجوده، وما نحن إلّا جزء من هذا الوجود، لذا فإنّ ربّنا هو نفسه ربّ السماوات والأرض.

ثم ذكروا دليلًا آخر وهو: ﴿**هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً**﴾.

فهل يمكن الإعتقاد بشيء بدون دليل وبرهان؟: ﴿**لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ**﴾.

وهل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلًا على مثل هذا الإعتقاد؟ ما هذا الظلم الفاحش والإنحراف الكبير: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾.

وهذا الإفتراء هو ظلم للنفس، لأنّ الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط والشقاء، وهو أيضاً ظلم بحق المجتمع الذي تسري فيه هذه الانحرافات، وأخيراً هو ظلم لله وتعرّض لمقامه العظيم سبحانه وتعالى.

هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدأ الشرك عن قلوب الناس،

وزرع غرسة التوحيد في مكانها، إلّا أنّ ضجة عبادة الأصنام في ذلك المحيط الفاسد، وظلم الحاكم الجبار كانتا من الشدّة بحيث حبستا أنفاس عبادة الله في صدورهم وانكمشت همهمات التوحيد في حناجرهم.

وهكذا اضطروا للهجرة لانقاذ أنفسهم والحصول على محيط أكثر استعداداً وقد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذي سيذهبون إليه ثم كان قرارهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾. حتى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

«يهيّىء»: مشتقة من «تهيئة» بمعنى الإعداد.

«مرفق»: تعني الوسيلة التي تكون سبباً للطف والرفق والراحة.

وليس من المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد في الجملة الأُولى إشارة إلى الألطاف المعنوية لله تبارك وتعالى، في حين أنّ الجملة الثانية تشير إلى الجوانب المادية التي تؤدّي إلى خلاصهم ونجاتهم.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

مكان أصحاب الكهف: يشير القرآن في الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف في الغار، وكأنّها تحكى على لسان شخص جالس في مقابل الغار ينظر إليهم. في هاتين الآيتين إشارة إلى ستّ خصوصيات هي:

أوّلاً: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، ولكونه في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، فإنّ ضوء الشمس كان لا يدخل الغار بشكلٍ مباشر، فالقرآن يقول إنّك إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنّها تطلع من جهة يمين الغار، وتغرب من جهة الشمال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا

طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

وعلى هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، وهو أمر لو حصل فقد يؤدّي إلى تلف أجسادهم، ولكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إنّ عبارة (تزاور) التي تعني (التمايل) تؤكّد على هذا المعنى، وكأنّ الشمس كانت مأمورة بأن تمرّ من اليمين (يمين الغار). وكلمة «تقرض»: التي تعني (القطع) تؤكّد نفس مفهوم السابق.

ثانياً: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾.

لقد كان أُولئك في مكان واسع من الغار، وهذا يدل على أنّهم لم يأخذوا مستقرّهم في فتحة الغار التي تتسم بالضيق عادة، بل إنّهم انتخبوا وسط الغار مستقراً لهم كي يكونوا بعيدين عن الأنظار، وبعيدين أيضاً عن الأشعة المباشرة لضوء الشمس.

وهنا يقطع القرآن تسلسل الكلام ويستنتج نتيجة معنوية، حيث يبيّن أنّ الهدف من ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

نعم، إنّ الذين يضعون أقدامهم في طريق الله، ويجاهدون لأجله فإنّ الله سيشملهم بلطفه في كل خطوة وليس في بداية العمل فقط. إنّ الله يرعىٰ هؤلاء حتى في أدق التفاصيل.

ثالثاً: إنّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

هذه الحالة الاستثنائية لكي لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التي تخاف الإنسان اليقظ، أو لكي يكون شكلهم مرعباً كي لا يتجرأ إنسان على الاقتراب منهم، وهذا بنفسه أُسلوب للحفاظ عليهم.

رابعاً: وحتى لا تتهرأ أجسامهم بسبب السنين الطويلة التي مكثوا فيها نياماً في الكهف، فإنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

حتى لا يتركز الدم في مكان معين، ولا تكون هناك آثار سيئة على العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدة طويلة.

خامساً: في وصفٍ جديد يقول تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾.

«وصيد»: كما يقول الراغب في المفردات، تعني في الأصل الغرفة أو المخزن الذي يتمّ إيجاده في الجبال لأجل خزن الأموال، إلّا أنّ المقصود به هنا هو فتحة الغار.

سادساً: قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

اليقظة بعد نوم طويل: سوف نقرأ في الآيات القادمة أنّ نوم أصحاب الكهف كان طويلاً للغاية بحيث استمر (٣٠٩) سنة، وعلى هذا الأساس كان نومهم أشبه بالموت، ويقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإنّ القرآن يقول في الآيات التي نبحثها: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

يعني مثلما كنّا قادرين على إنامتهم نوماً طويلاً فإنّنا أيضاً قادرون على إيقاظهم. لقد أيقظناهم من النوم، ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾.

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وأخيراً، بسبب عدم معرفتهم لمقدار نومهم، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

ولكنّهم كانوا يحسّون بالجوع وبالحاجة الشديدة إلى الطعام، لأنّ المخزون الحيوي في جسمهم انتهى أو كاد، لذا فأوّل اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود ومسكوكات فضّية لشراء الغذاء: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾. ثم أردفوا: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾. لماذا هذا التلطّف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾. ثم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وتوصيتهم هي توصية لكافة أنصار الحق، في أن لا يفكروا بطهارة غذائهم المعنوي وحسب، بل عليهم أيضاً الإهتمام بطهارة طعام الأجسام كي يكون زكيّاً نقيّاً من جميع الأرجاس والشبهات.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ
إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا
﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ
مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

نهاية قصة أصحاب الكهف: لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة من الرجال المتشخّصين إلى كل مكان وأغاظت بشدّة الملك الظالم. لقد أصدر الحاكم تعلياته إلى جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف في كل مكان، وعليهم أن يتّبعوا آثارهم حتى إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم.

وقد يكون هذا الأمر ـ وهو قيام مجموعة من ذوي المناصب في الدولة بترك مواقعهم العالية في الدولة وتعريض أنفسهم للخطر ـ هو بحدّ ذاته سبباً ليقظة الناس ومصدراً لوعيهم، أو لوعي قسم منهم على الأقل.

إنّ قصة هؤلاء النفر قد استقرّت في صفحات التاريخ وأخذت الأجيال والأقوام تتناقلها عبر مئات السنين.

والآن لنعد إلى الشخص المكلّف بشراء الطعام ولننظر ماذا جرى له.

لقد دخل المدينة ولكنه فغر فاه من شدّة التعجب، فالشكل العام للبناء قد تغيّر، هندام الجميع ولباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحوّلت إلى قصور، وقصور الأمس تحوّلت إلى خرائب.

إنّه لا يزال يعتقد بأنّ نومهم في الغار كان ليوم أو بعض يوم.

لقد انتهى عجبه عندما مدّ يده إلى جيبه ليسدّد مبلغ الطعام الذي اشتراه، فالبائع وقع

نظره على قطعة نقود ترجع في قدمها إلى (٣٠٠) سنة، وقد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبار مكتوباً عليها، وعندما طلب منه توضيحاً قال له بأنّه حصل عليها حديثاً.

وهنا أحسّ الشخص بأنّه وأصحابه كانوا في نوم عميق وطويل.

هذه القضية كان لها صدى كالقنبلة في المدينة، وقد انتقلت عبر الألسن إلى جميع الأماكن. فقسم منهم لم يكن قادراً على التصديق بأنّ الإنسان يمكن أن يعود للحياة بعد الموت، إلّا أنّ قصة أصحاب الكهف أصبحت دليلًا قاطعاً لأُولئك الذين يعتقدون بالمعاد الجسماني. ولذا فإنّ القرآن يبيّن أنّنا كما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإيقاظهم حتى ينتبه الناس: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾**. ثم أضاف تعالى: **﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾**.

إنّ هذه الإنامة والإيقاظ هي أكثر إثارة للعجب من الموت والحياة في بعض جوانبها، فمن جهة قد مرّت عليهم مئات السنين وهم نيام وأجسامهم لم تفن أو تتأثّر، وقد بقوا طوال هذه المدّة بدون طعام أو شراب، إذن كيف بقوا أحياءً طيلة هذه المدّة؟

أليس هذا دليلًا قاطعاً على قدرة الله على كل شيء؟ فالحياة بعد الموت، بعد مشاهدة هذه القضية ممكنة حتماً.

بعض المؤرخين كتب يقول: إنّ الشخص الذي أرسل لتهيئة الطعام وشرائه، عاد بسرعة إلى الكهف وأخبر رفقاءه بما جرى، وقد تعجّب كل منهم، فطلبوا من الخالق جلّ وعلا أن يميتهم، وينتقلون بذلك إلى جوار رحمته، وهذا ما حدث.

لقد ماتوا ومضوا إلى رحمة ربّهم، وبقيت أجسادهم في الكهف عندما وصله الناس.

وهنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسماني وبين من لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يريدون أن تنسىٰ قضية نوم ويقظة أصحاب الكهف بسرعة، كي يسلبوا أنصار المعاد الجسماني هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تغلق فتحة الغار، حتى يكون الكهف خافياً إلى الأبد عن أنظار الناس. قال تعالى: **﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾**.

ولأجل إسكات الناس عن قصّتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيراً، إنّ قضيتهم معقّدة ومصيرهم محاط بالألغاز. لذلك فإنّ: **﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾**. أي: اتركوهم وشأنهم واتركوا الحديث عن قصّتهم.

أمّا المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر واعتبروه دليلاً حيّاً لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جهدوا على أن لا تنسىٰ القصة أبداً لذلك اقترحوا أن يتّخذوا قرب مكانهم مسجداً، وبقرينة وجود المسجد فإنّ الناس سوف لن ينسوهم أبداً، بالإضافة إلى ما يتبرّك به الناس من آثارهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

الآية التي بعدها تشير إلى بعض الاختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلاً تتحدّث الآية عن اختلافهم في عددهم فتقول: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. وبعضهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. وذلك منهم ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾. وبعضهم ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. أمّا الحقيقة فهي: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾. ولذلك ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

إنّ عدد أصحاب الكهف الحقيقي هو سبعة، حيث إنّ القرآن بعد ذكر الأقوال الباطلة، أبان في الأخير العدد الحقيقي لهم.

إنّ الآية تنتهي بنصيحة تحثّ على عدم الجدال حولهم إلّا الجدل القائم على أساس المنطق والدليل: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾. بمعنى قل لهم قولاً منطقيّاً بحيث تتوضّح رجحان منطقك.

إنّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدث معهم بالاعتماد على الوحي الإلهي، لأنّ أقوى الأدلة هو ما يصدر عن الوحي دون غيره: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

الآية التي بعدها تعطي توجيهاً عاماً لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. يعني يجب أن تقول (إن شاء الله) لكل ما يخصّ أخبار المستقبل وأحداثه ولكل تصميم تتخذه، لأنّك أولاً غير مستقل في اتّخاذ القرارات، وإذا لم يشأ الله فإنّ كائناً من كان لا يستطيع القيام بأيّ عمل.

ثانياً: لا يصح للإنسان ـ من الوجهة المنطقية ـ أن يقطع في أخباره المستقبلية ومواقفه وتصميماته، لأنّ قدرته محدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة، لذلك الأفضل له ذكر جملة (إن شاء الله) مع كل تصميم لفعل شيء.

وبعد ذلك يقول القرآن: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وهذه إشارة إلى أنّ الإنسان إذا نسي قول (إن شاء الله) وهو يتحدث عن أمر مستقبلي، فعليه أن يقولها فور تذكّره، حيث يعوّض بذلك عما مضى منه.

وبعد ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

نوم أصحاب الكهف: من القرائن الموجودة في الآيات السابقة نفهم إجمالاً أنّ نوم أصحاب الكهف كان طويلاً جداً. هذا الموضوع يثير غريزة الاستطلاع عند كل مستمع، إذ يريد أن يعرف كم سنة بالضبط استمرّ نومهم؟

في المقطع الأخير من مجموعة الآيات التي تتحدث عن أصحاب الكهف، تبعد الآيات الشك عن المستمع وتقول له: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

ووفقاً للآية فإنّ مجموع نومهم وبقائهم في الكهف هو (٣٠٩) سنة.

ومن أجل وضع حدّ لأقاويل الناس حول مكثهم في الكهف تؤكّد الآية: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾. لماذا؟ لأنّ: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والذي يعرف خفايا وظواهر عالم الوجود ويحيط بها جميعاً، كيف لا يعرف مدّة بقاء أصحاب الكهف: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾[١]. ولهذا السبب فإنّ سكّان السماوات والأرض: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾.

وفي نهاية الآية يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾. هذا الكلام هو تأكيد على الولاية المطلقة للخالق جلّ وعلا.

وفي آخر آية يتوجّه الخطاب إلى الرسول ﷺ ويقول الله له: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾. أي: لا تعر أيّة أهمية إلى أقوال الآخرين المخلوطة بالكذب والخرافة والوضع، يجب أن يكون اعتمادك في هذه الأمور على الوحي الإلهي فقط، لأنّه لا يوجد شيء يستطيع أن يغيّر كلامه تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾. فكلام الله تعالى وعلمه ليس من سنخ علم

---

١. جملة ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ هي صيغة تعجب، تبيّن لنا عظمة علم الخالق جلّ وعلا، والمعنى أنّه بصير سميع بحيث إنّ الإنسان يعجب من ذلك.

الإنسان الذي يخضع يومياً للتغيّر والتبديل بسبب الإكتشافات الجديدة والمعرفة الحديثة، لذلك لا يمكن الإعتماد عليه والركون إليه مائة في المائة، ولهذه الأسباب: ﴿**وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾. «ملتحد»: مشتقة من «لحد» على وزن «مهد» وهي الحفرة التي يميل وسطها إلى أحد الأطراف (كاللّحد الذي يحفر لقبر الإنسان).

الجوانب التربوية لقصّة أهل الكهف: هذه القصّة التأريخية العجيبة التي يذكرها القرآن خالية من أيّ خرافة أو وضع، وفيها العديد من الدروس التربوية البنّاءة، تماماً كما في قصص القرآن الأُخرى.

أ) إنّ أوّل دروس هذه القصة هو تحطيم حاجز التقليد، والإبتعاد عن التلوّن بلون المجتمع الفاسد.

ب) الهجرة من الأوساط المنحرفة درس آخر في هذه القصة ذات العبر.

ج) التقية بمعناها البنّاء درس آخر نستفيده من هذه القصة.

ونحن نعرف أنّ التقية ليست سوى أن يتكتّم الإنسان على حقيقة أمره في الأماكن والمواقف التي لا يرتجي منها فائدة في ذكر الحقيقة، بل تكون سبباً للضرر، والتقية وقاية للنفس واحتفاظ بقوة الإنسان لوقت جهاد العدو حيث لا تقية.

د) عدم وجود تفاوت بين الناس وهم في طريق الله، فالوزير كان إلى جانب الراعي، بل كان الاثنان إلى جانب الكلب الذي كان يقوم بالحراسة، وهذا درس آخر يتّضح من خلاله أنّ إمتيازات الدنيا المادية، والمناصب المختلفة ليس لها أدنى نصيب أو تأثير على تصنيف الناس من أهل الحق وسالكيه، إذ الكل فيه سواء... إنّ طريق الحق هو طريق التوحيد، وطريق التوحيد هو طرق وحدة جميع الناس.

هـ) الإمدادات الإلهية العجيبة عند ظهور المشاكل، هي نتيجة أُخرى يجب الاعتبار بها.

و) لقد تعلّمنا من أصحاب الكهف قيمة (طهارة الطعام) حتى في أصعب الظروف وأدقّها، لأنّ طعام الإنسان له آثار عميقة في روحه وفكره وقلبه، وعندما يختلط الطعام بالحرام والنجاسة، يبتعد الإنسان عن طريق الله: طريق التقوى.

ز) ضرورة الاعتماد على مشيئة الله وطلب العون من لطفه تعالى: وقول (إن شاء الله) في كل ما يتعلق بأُمور المستقبل... درس آخر نتعلّمه من قصة أصحاب الكهف.

ح) ضرورة النقاش المنطقي مع المعارضين درسٌ آخر نستفيده من قصة أصحاب الكهف.

ط) وأخيراً، فإنّ إمكانية المعاد الجسماني وعودة الناس إلى الحياة مرّة أُخرى عند البعث، يعتبر عاشر وآخر درس نستفيده من هذه القصّة.

إنّ هدف القرآن ليس قصّ القصص لغرض التسلية، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، وأحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التاريخ البشري المليء بالحوادث والمواقف.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: نـزلت الآيـة الأولى في سلمان، وأبي ذر، وصهيب، وعمار، وخباب، وغيرهم من فقراء أصحاب النبي ﷺ وذلك أنّ مؤلفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إن جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء روائح صنانهم وكانت عليهم جبات الصوف، جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء.

فلمّا نزلت الآية قام النبي ﷺ يلتمسهم فأصابهم في مؤخّر المسجد يذكرون الله عزّ وجل، فقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات».

التّفسير

الحفاة الأطهار: من الدروس التي نستفيدها من قصة أصحاب الكهف أنّ مقياس قيمة البشر ليست بالمنصب الظاهري أو بالثروة، بل عندما يكون المسير في سبيل الله يتساوى الوزير والراعي، والآيات التي نبحثها تؤكّد هذه الحقيقة المهمة وتعطي للرسول ﷺ هذا الأمر: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ثم تستمر الآيات مؤكّدة خطابها للرسول ﷺ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا وزخارفها.

ثم من أجل التأكيد مجدداً، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ والمطيع لأهوائه النفسية، والمفرط في أفعاله دائماً ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [١].

إنّ الموضوع أعلاه من الأهمية بمكان، بحيث إنّ القرآن يقول للرسول ﷺ ـ بصراحة ـ في الآية التي بعدها: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ولكن اعلموا أنّ هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التي يرتديها أمثال سلمان وأبي ذر خاصة، والذين يعيشون حياة مرفّهة باذخة ومليئة بالزينة، ستنتهي عاقبتهم إلى سوء وظلام وعذاب: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

نعم، إنّهم كانوا إذا عطشوا في هذه الدنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنّهم عندما يطلبون الماء في جهنم يؤتى إليهم بماء كالمهل: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [٢]. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾. ثم ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [٣].

وفي هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التي تحضر بين أيديهم بمجرد مناداة الساقي، وفي جهنم يوجد أيضاً ساقٍ وأشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنّه ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى وآهات المستضعفين والفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء. نعم، إنّ كل ما هو موجود هناك (في الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (في الدنيا).

وبما أنّ أسلوب القرآن أسلوب تربوي وتطبيقي، فإنّه بعدما بيّن أوصاف وجزاء عبيد

---

١. «فرط»: تعني التجاوز عن الحد، وكل شيء يخرج عن حدّه ويتحول إلى إسراف يقال له (فُرط).

٢. «مُهل»: على وزن «قفل» وهي تعني أي معدن مُذاب.

٣. «مُرتفق»: من كلمة «رَفق ورفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التي تنتظرهم جزاء ما فعلوا. لقد أجملت الآية كل ذلك بشكلٍ مختصر، ثم بشكلٍ تفصيلي نوعاً مّا. في البدء قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾. أي: إنّنا لا نضيع أعمال العاملين قليلة كانت أو كثيرة، كلية أو جزئية، ومن أي شخص وفي أي عمرٍ كان:

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾. (الجنات الخالدة).

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾. (من تحت الأشجار والقصور).

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [1].

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾. (من حرير ناعم وسميك).

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [2].

﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾.

﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. (وحسنت مجمعاً للأحبّة).

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا
﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

تجسيد لموقف المستكبرين من المستضعفين: في الآيات السابقة رأينا كيف أنّ عبيد الدنيا كانوا يحاولون الابتعاد في كل شيء عن رجال الحق وأهله المستضعفين، ثم عرّفتنا الآيات جزاءهم في الحياة الأخرى. الآيات التي نبحثها تشير إلى حادثة اثنين من الأصدقاء أو الإخوة الذين يعتبر كل واحدٍ منهم نموذجاً لإحدى المجموعتين، ويوضّحان طريقة تفكير وقول وعمل هاتين المجموعتين. في البداية تخاطب الآيات الرسول ﷺ

١. «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهي بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) و(كتاب) وهي في الأصل مأخوذة من كلمة فارسية عُرّبت واشتقت منها الأفعال العربية.

٢. «أرائك»: جمع «أريكة» وتطلق على السرير الذي تكون جوانبه جميعاً مغطاة.

فتقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

البستان والمزرعة كان فيها كل شيء: العنب والتمر والحنطة وباقي الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة ومكفية من كل شيء: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾.

والأهم من ذلك هو توفّر الماء الذي يعتبر سرّ الحياة، وأمراً مهماً لا غنى للبستان والمزرعة عنه، وقد كان الماء بقدر كاف: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾.

على هذا الأساس كانت لصاحب البستان كل أنواع الثمار: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾.

ولأنّ الدنيا قد استهوته فقد أُصيب بالغرور لضعف شخصيته وشعر بالأفضلية والتعالي على الآخرين، حيث إلتفت وهو بهذه الحالة إلى صاحبه: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

لقد تضخّم هذا الإحساس ونما تدريجياً ـ كما هو حاله ـ ووصل صاحب البستان إلى حالة بدأ يظن معها أنّ هذه الثروة والمال والجاه والنفوذ إنّما هي أُمور أبدية، فدخل بغرور إلى بستانه (في حين أنّه لا يعلم بأنّه يظلم نفسه) ونظر إلى أشجاره الخضراء التي كادت أغصانها أن تنحني من شدّة ثقل الثمر، وسمع صوت الماء الذي يجري في النهر القريب من البستان والذي كان يسقي أشجاره، وبغفلة قال: لا أظن أن يفنى هذا البستان، وبلسان الآية وتصوير القرآن الكريم: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾.

بل عمد إلى ما هو أكثر من هذا، إذ بما أنّ الخلود في هذا العالم يتعارض مع البعث والمعاد، لذا فقد فكّر في إنكار القيامة وقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾. وهذا كلام يعكس وهم قائله وتمنّياته.

ثم أضاف: حتى لو فرضنا وجود القيامة فإنّي بموقعي ووجاهتي سأحصل عند ربي ـ إذا ذهبت إليه ـ على مقام وموقع أفضل، لقد كان غارقاً في أوهامه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التي يعيشها والتي صوّرها القرآن الكريم، يضيف إلى نفسه في كل فترة وهماً بعد آخر من أمثال ما حكت عنه الآيات آنفاً، وعند هذا الحد انبرى له صديقه المؤمن وأجابه بكلمات يشرحها لنا القرآن الكريم.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ
رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ
رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

جواب المؤمن: هذه الآيات هي ردّ على ما نسجه من أوهام ذلك الغني المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجري على لسان صاحبه المؤمن. لقد بدأ الكلام بعد أن ظلّ صامتاً يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذي الأفق الضيّق والفكر المحدود، حتى ينتهي من كلامه، ثم قال له: **﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾**.

ثم عمد الرجل الموحد المؤمن إلى تحطيم كفر وغرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: **﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾**.

إنّك تتباهى بدنياك وأنا أفتخر بعقيدتي وإيماني وتوحيدي: **﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾**.

وبعد أن أشار إلى قضية التوحيد والشرك اللذين يعتبران من أهم المسائل المصيرية، جدّد لومه لصاحبه قائلاً: **﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾**.

وقد وضع سبحانه وتعالى الوسائل والإمكانات تحت تصرفك، حيث إنّك لا تملك شيئاً من عندك، وبدونه تكون لا شيء.

ثم يقول له: ليس من المهم أن أكون أقل منك مالاً وولداً: **﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾**.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾. وليس فقط أن يعطيني أفضل مما عندك، بل ويرسل صاعقة من السماء على بستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء: **﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾**.

أو أنّه سبحانه وتعالى يعطي أوامره إلى الأرض كي تمنعك الماء: **﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾**.

«حُسبان»: على وزن «لقمان» وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «حساب»، ثم وردت

بعد ذلك بمعنى السهام التي تحسب عند رميها، وتأتي أيضاً بمعنى الجزاء المرتبط بحساب الأشخاص، وهذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد»: تعني القشرة التي فوق الأرض، وهي في الأصل مأخوذة من كلمة صعود.

«زلق»: بمعنى الأرض الملساء بدون أي نباتات بحيث إنّ قدم الإنسان تنزلق عليها.

في الواقع، إنّ الرجل المؤمن والموحد حذّر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنّها جميعاً في طريقها إلى الزوال وهي غير قابلة للإعتماد.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

العاقبة السوداء: أخيراً انتهىٰ الحوار بين الرجلين دون أن يؤثّر الشخص الموحد المؤمن في أعماق الغني المغرور، الذي رجع إلى بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أنّ الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضراء، وأنّه وجب أن ينال جزاء غروره وشركه في هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

ويحتمل أنّ العذاب الإلهي قد نزل في تلك اللحظة من الليل عندما خيّم الظلام، على شكل صاعقة مميتة أو عاصفة هوجاء مخيفة، أو على شكل زلزال مخرّب ومدمّر. وأيّاً كان فقد دمّرت هذه البساتين الجميلة والأشجار العالية والزرع المثمر، حيث أحاط العذاب الإلهي بتلك المحصولات من كل جانب: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾.

«أحيط»: مشتقة من «إحاطة» وهي في هذه الموارد تأتي بمعنى (العذاب الشامل) الذي تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

وعند الصباح جاء صاحب البستان وتدور في رأسه الأحلام العديدة ليتفقد ويستفيد من محصولات البستان، ولكنّه قبل أن يقترب منه واجهه منظر مدهش وموحش، يبس الماء في فمه، وتحطّم الكبرياء والغرور اللذان كانا يثقلان نفسه وعقله. كأنّه صحا من نوم عميق: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

وفي هذه اللحظة ندم على أقواله وأفكاره الباطلة: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

والأكثر حزناً وأسفاً بالنسبة له هو ما أصبح عليه من الوحدة في مقابل كل هذه المصائب والابتلاءات: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ولأنّه فقد ما كان يملكه من رأس المال ولم يبق لديه شيء آخر، فإنّ مصيره: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

وهكذا انتهى كل شيء ولا ينفع الندم، لأنّ مثل هذه اليقظة الإجبارية التي تحدث عند نزول الابتلاءات العظيمة يمكن ملاحظتها حتى عند أمثال فرعون ونمرود، وهي بلا قيمة، لهذا فإنّها لا تؤثّر على حال من ينتبه.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾. نعم، لقد إتضح أنّ جميع النعم منه تعالى، وأنّ كل ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، وأنّه بدون الاعتماد على لطفه لا يمكن إنجاز عمل: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

إذن، لو أراد الإنسان أن يحبّ أحداً ويعتمد على شيء ما، أو يأمل بهديّة من شخص ما، فمن الأفضل أن يكون الله سبحانه محطّ أنظاره، وموقع آماله، ومن الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى وإحسانه.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

بداية ونهاية الحياة في لوحة حيّة: الآيات السابقة تحدثت عن عدم دوام نعم الدنيا، ولأنّ إدراك هذه الحقيقة في عمر (٦٠ ـ ٨٠) سنة يعتبر أمراً صعباً بالنسبة للأفراد العاديين، لذا فإنّ القرآن قد جسّد هذه الحقيقة من خلال مثال حي ومعبّر كي يستيقظ الغافلون المغرورون من غفلتهم ونومهم عندما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدة مرّات خلال عمرهم. يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. هذه القطرات الواهبة للحياة تسقط على الجبال والصحراء، وتعيد الحياة للبذور المستعدة الكامنة في الأرض المستعدة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إنّ الطبقة الخارجية السميكة للبذور تلين قبال المطر، وتسمح للبراعم في الخروج منها، وأخيراً تشقّ هذه البراعم التراب وتخترقه، الشمس تشع، النسيم يهب، المواد الغذائية في الأرض تقدّم ما تستطيع، تتقوى البراعم بسبب عوامل الحياة هذه ثم تواصل نموّها، بحيث

ـ بعد فترة ـ نرى أنّ نباتات الأرض تتشابك فيما بينها: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾.

الجبل والصحراء يتحوّلان إلى قوّة حياتية دافعة، أمّا البراعم والفواكه والأوراد فإنّها تزيّن الأغصان، وكأنّ الجميع يضحك، يصرخون صراخ الفرح؛ يرقصون فرحاً.

لكن هذا الواقع الجذّاب لا يدوم طويلاً، حيث تهب رياح الخريف وتلقي بغبار الموت على النباتات، يبرد الهواء، وتشح المياه، ولا تمضي مدّة حتى يمسيٰ ذلك الزرع الجميل الأخضر ذو الأغصان المورقة، ميتاً ويابساً: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾[١].

تلك الأوراق التي لم تتمكن العواصف الهوجاء من فصلها عن الأغصان في فصل الربيع، قد أصبحت ضعيفة بدون روح بحيث إنّ أي نسيم يهب عليها يستطيع فصلها عن الأغصان ويرسلها إلى أيّ مكان شاء: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[٢].

نعم: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

الآية التي بعدها تذكر وضع المال والثروة والقوة الإنسانية اللذين يعتبران ركنين أساسيين في الحياة الدنيا، حيث تقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

إنّ هذه الآية تشير إلى أهم قسمين في رأسمال الحياة حيث ترتبط الأشياء الأُخرى بهما، إنّها تشير إلى (القوة الاقتصادية) و(القوة الإنسانية).

ثم يضيف القرآن: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

إنّ مفهوم (الباقيات الصالحات) يشمل كل فكره وقول وعمل صالح تدوم وتبقى آثاره وبركاته بين الأفراد والمجتمعات.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

---

١. «هشيم»: من «هشم» بمعنى محطّم، وهي هنا تطلق على النباتات المتيبسة والمتحطّمة.

٢. «تذروه»: من «ذرو» وتعني التشتيت.

يا ويلتاه من هذا الكتاب: تعقيباً لما كانت تتحدّث به الآيات السابقة عن غرور الإنسان وإعجابه بنفسه، وما تؤدّي إليه هذه الصفات من إنكار للبعث والمعاد، ينصب المقطع الراهن من الآيات التي بين أيدينا على تبيان المراحل الممهدة للقيامة وفق الترتيب الآتي:

١ـ مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

٢ـ مرحلة البعث.

٣ـ قسم من مرحلة ما بعد البعث.

الآية الأولى تذكّر الإنسان بمقدمات البعث والقيامة فتقول: إنّ إنهيار معالم الشكل الراهن للعالم هي أوّل مقدمات البعث، وسيتمّ هذا التغيير لشكل العالم من خلال مجموعة مظاهر، في الطليعة منها تسيير الجبال الرواسي وكل ما يمسك الأرض ويبرز عليها، حتى تبدو الأرض خالية من أيّ من المظاهر السابقة: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

هذه الآية تشير إلى حوادث قبيل البعث، وهي حوادث كثيرة جدّاً. والملاحظ أنّ السور القصار تتحدث عنها بشكل بارز في إطار حديثها عما بات يعرف اصطلاحاً بـ«أشراط الساعة».

إنّ المستفاد من مجموعة تلك السور أنّ وجه العالم الراهن يتغيّر بشكل كلي حيث تتلاشى الجبال، وعلى حطام كل ذلك تظهر إلى الوجود سماء جديدة، وأرض جديدة، ليبدأ الإنسان حينئذ حياته الأُخرى في مرحلة البعث والحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

«نغادر»: من «غدر» بمعنى الترك. ولذلك يقال للذي يخلف الوعد والميثاق ويتركه بأنّه «غدر» ويقال لمياه الامطار المتجمعة في مكان واحد بـ«الغدير» لأنّها قد تركت هناك.

تؤكّد الآية الآنفة الذكر على أنّ المعاد هو حالة عامة لا يستثنى منها أحد.

الآية التي بعدها تتحدث عن كيفية بعث الناس فتقول: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾. إنّ استخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشر كل مجموعة من الناس تتشابه في أعمالها في صف واحد؛ أو أنّ الجميع سيكونون في صف واحد دون أيّة إمتيازات أو تفاوت، وسوف يقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فليس ثمّة كلام عن الأموال والثروات، ولا الذهب والزينة، ولا الإمتيازات والمناصب

المادية، ولا الملابس المختلفة، وليس هناك ناصر أو معين، ستعودون كمثل الحالة التي خلقناكم فيها أوّل مرّة، بالرغم من أنّكم كنتم تتوهمون عدم امكان ذلك: ﴿**بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا**﴾.

وذلك في وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما أوتيتم من إمكانات مادية غفلتم معها عن الآخرة، وأصبحتم تفكّرون في حياتكم الدنيا وخلودها، وغفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثم تشير الآيات إلى مراحل أُخرى من يوم البعث والمعاد فتقول: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ**﴾. هذا الكتاب الذي يحتوي على أحوال الناس بكل تفصيلاتها: ﴿**فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ**﴾. وذلك عندما يطّلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف والوحشة على وجوههم.

في هذه الأثناء يصرخون: ﴿**وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾.

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمة دليل آخر: ﴿**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا**﴾. وجدوا الحسنات والسيئات، الظلم والعدل، السلبيات والخيانات، كل هذه وغيرها وجدوها متجسّدة أمامهم.

في الواقع إنّهم يلاقون مصير أعمالهم: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾. الذي سيشملهم هناك هو ـ لا محالة ـ ما قاموا به في هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحداً سوى أنفسهم.

ترى ما مقدار ما يعكسه الايمان بهذا اليوم ـ بهذه المحكمة بكلّ ما تتخلله من مشاهد ومواقف ـ على قضية تربية الإنسان ودفعه ليتحرك في خط الرسالة والاستقامة والابتعاد عن الشهوات. فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، وبين إيمانه ويقينه بهذا اليوم؟!

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا
(٥٠) مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ
الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا
وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)

لا تتخذوا الشياطين أولياء: لقد تحدّثت الآيات مرّات عدّة عن خلق آدم وسجود الملائكة له، وعدم انصياع إبليس. وقد قلنا: إنّ هذا التكرار يتضمن دروساً متعددة، وفي كل مقطع مكرّر هناك دروس وعبر جديدة.

ولأنّ الآيات السابقة ذكرت مثالاً واقعياً عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين والمغرورين في مقابل الفقراء المستضعفين وتجسّد عاقبة عملهم، ولأنّ الغرور كان هو السبب الأصلي لإنحراف هؤلاء وانجرارهم إلى الكفر والطغيان، لذا فإنّ الآيات تعطف الكلام على قصة إبليس وكيف أبى السجود لآدم غروراً منه وعلوّاً، وكيف قاده هذا الغرور والعلو إلى الكفر والطغيان.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه القصة توضّح أنّ الانحرافات تنبع من وساوس الشيطان.

في البداية تقول الآيات: تذكّروا ذلك اليوم الذي فيه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأنّ إبليس كان من جنس الملائكة، في حين أنّ الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس ـ إذاً ـ طريق الطغيان والكفر إذا كان من جملتهم؟! لذلك فإنّ الآيات ـ منعاً لهذا الوهم ـ تقول مباشرة إنّه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

إنّه إذاً لم يكن من الملائكة، لكنه ـ بسبب عبوديته وطاعته للخالق جلّ وعلا ـ قرّب وكان في صف الملائكة، إلّا أنّه ـ بسبب لحظة من الغرور والكبر ـ سقط وأصبح أكثر الموجودات نفرة وابتعاداً عن الله تبارك وتعالى.

ثم تقول الآية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾.

والعجب أنّهم: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾. وهذا العدو، هو عدوّ صعب مصمّم على ضلالكم وأن يوردكم سوء العاقبة، وقد أظهر عدوانه منذ اليوم الأوّل لأبيكم آدم عليه السلام.

فاتّخاذ الشيطان وأولاده بدلاً من الخالق المتعال أمر قبيح: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

الآية التي بعدها هي دليل آخر على إبطال هذا التصور الخاطيء، إذ تقول: عن إبليس وابنائه أنّهم لم يكن لهم وجود حين خلق السماوات والأرض، بل لم يشهدوا حتى خلق أنفسهم: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾. حتى تطلب العون منهم في خلق العالم، أو نطلعهم على أسرار الخلق.

لذا فإنّ الشخص الذي ليس له أيّ دور في خلق العالم، وحتى في خلق من يقع على شاكلته ومن هو من نوعه، ولا يعرف شيئاً من أسرار الخلق، كيف يكون مستحقاً للولاية، أو العبادة، وأيّ قدرة أو دور يملك؟

ثم تقول: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

يعني أنّ الخلق قائم على أساس الصدق والصحة والهداية، أمّا الكائن الذي يقوم منهج حياته على الإضلال والإفساد، فليس له مكان في إدارة هذا النظام.

آخر آية من الآيات التي نبحثها، تحذّر مرّة أُخرى، وتقول: تذكّروا يوماً يأتي فيه النداء الإلهي: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾.

لقد كنتم تنادونهم عمراً كاملاً، وكنتم تسجدون لهم، واليوم وبعد أن أحاطت بكم أمواج العذاب في ساحة الجزاء، نادوهم ليأتوا لمساعدتكم ولو لساعة واحدة فقط.

هناك ينادي الأشخاص الذين لا تزال ترسّبات أفكار الدنيا في عقولهم: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. فلم يجيبوا على ندائهم، فكيف بمساعدتهم وانقاذهم!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾[١].

ثم تقول الآية التي بعدها موضحة عاقبة الذين اتبعوا الشيطان والمشركين: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾.

لقد انكشفت لهم النّار التي لم يكونوا يصدّقون بها أبداً، وظهرت أمام أعينهم، وحينئذ يشعرون بأخطائهم، ويتيقّنون بأنّهم سيدخلون النار: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾.

ثم يتيقّنون أيضاً أن لا منقذ لهم منها: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

فلا تنقذهم اليوم منها لا معبوداتهم ولا شفاعة الشفعاء، ولا الكذب أو التوسل بالذهب والقوة، إنّها النار التي يزداد سعيرها بسبب أعمالهم.

«مواقعوها»: مشتقة من «مواقعة» بمعنى الوقوع على الآخرين، وهي إشارة إلى أنّهم يقعون على النّار، وأنّ النّار تقع عليهم، فالنّار تنفذ فيهم وهم ينفذون في النار؛ وقد قرأنا في الآية (٢٤) من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

---

١. «موبق»: من «وبوق» على وزن «نبوغ» وهي تعني الهلاك، و«موبق» تقال للمهلكة.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

في انتظار العقاب: تنطوي هذه الآيات على تلخيص واستنتاج لما ورد في الآيات السابقة، وهي تشير ـ أيضاً ـ إلى بحوث قادمة. الآية الأُولى تقول: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾.

لقد ذكرنا نماذج من تأريخ الماضين المليء بالإثارة، وقد أوضحنا للناس الحوادث المرّة للحياة واللحظات الحلوة في التاريخ، وقد فصّلنا بيان هذه الأُمور بحيث تتقبلها القلوب المستعدّة للحق، وتكون الحجة على الآخرين تامّة، ولا يبق ثمّة مجال للشك.

ولكن بالرغم من هذا فإنّ مجموعة عصاة لم يؤمنوا أبداً: ﴿**وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾.

الآية التي بعدها تقول: إنّه بالرغم من كل هذه الأمثلة المختلفة والتوضيحات المثيرة والأساليب المختلفة التي ينبغي أن تنفذ إلى داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإنّ هناك مجموعة كبيرة من الناس لم تؤمن: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ**﴾. أي مصير الأمم السالفة: ﴿**أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا**﴾[1]. فيرونه بأمّ أعينهم.

إنّ هذه الآية إشارة إلى أنّ هذه المجموعة المعاندة والمغرورة لا تؤمن بإرادتها وبشكل طبيعي أبداً، بل هم يؤمنون في حالتين فقط:

أوّلاً: عندما يصيبهم العذاب الأليم الذي نزل مثله في الأقوام والأُمم السابقة.

ثانياً: عندما يشاهدون العذاب الإلهي بأعينهم، وقد أشرنا مراراً إلى أنّ مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

---

١. «قبل»: تعني التقابل، بمعنى مشاهدة العذاب الإلهي بالعين.

ومن أجل طمأنة الرسول ﷺ في مقابل صلافة وعناد أمثال هؤلاء، تقول الآية: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

ثم تقول الآية: إنّ هذه القضية ليست جديدة، بل إنّ من واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة والاستهزاء بآيات الله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾[1].

وهذه الآية تشبه الآيات (٤٢ ـ ٤٥) من سورة الحج التي تقول: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ الآيات.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

لا استعجال في العقاب الإلهي: الآيات السابقة كانت تتحدث عن مجموعة من الكافرين المتعصبين والمظلمة قلوبهم؛ والآيات التي بين أيدينا تستمر في نفس البحث. في البداية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

إنّ استخدام تعبير (ذكّر) يوحي إلى أنّ تعليمات الأنبياء عليهم السلام هي بمثابة التذكير بالحقائق الموجودة بشكل فطري في أعماق الإنسان، وإنّ مهمة الأنبياء هي رفع الحجب عن نقاء وشفافية هذه الفطرة.

الطريف في الأمر أنّ الآية الكريمة رسمت ثلاثة مسالك ليقظة هؤلاء وإعادتهم إلى نور الهداية، هي:

---

١. «يدحضوا»: مشتقة من «إدحاض» بمعنى الإبطال والإزالة، وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «دحض» بمعنى الإنزلاق.

أوّلاً: إنّ هذه الحقائق تلائم بشكل كامل ما هو مكنون في فطرتكم ووجدانكم وأرواحكم.

ثانياً: إنّها جاءت من قبل خالقكم.

ثالثاً: عليكم أن لا تنسوا أنّكم اقترفتم الذنوب، وأنّ منهاج عمل الأنبياء هو فتح باب التوبة من الذنوب والهداية للصواب.

لكن هذه الفئة من الناس لم تؤمن برغم كل ذلك: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾. وبذلك لا تنفع معهم دعوتك: ﴿**وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾.

إنّ البرنامج التربوي للخالق جلّ وعلا هو أن يعطي لعباده الفرصة بعد الأُخرى، وهو جلّ وعلا لا يعاقب بشكل فوري مثل الجبّارين والظالمين، بل إنّ رحمته الواسعة تقتضي دوماً إعطاء أوسع الفرص للمذنبين، لذا فإنّ الآية التي بعدها تقول: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾.

﴿**لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ**﴾. فاذا كانت الإرادة الإلهية تقتضي انزال العذاب بسبب إرتكابهم للذنوب لتحقّق ذلك فوراً.

﴿**بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا**﴾[1].

فغفرانه تعالى يقضي أن يرحم التوابين، ورحمته تقضي أن لا يعجّل عذاب غيرهم، إذ من المحتمل أن يلتحق بعضهم بصفوف التوابين، إلّا أنّ عدالته تعالى تقتضي مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عندما يصل طغيانهم وتمرّدهم إلى أقصى درجاته.

وأخيراً تنتهي هذه المجموعة من الآيات إلى توجيه التحذير الأخير من خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرّة لمن ظلم من السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إنّ هذه المدن والقرى أمامكم، ولكم أن تشاهدوا خرائبها والدمار الذي حلّ فيها، وقد أهلكنا أهلها بما إرتكبوا من ظلم، في نفس الوقت الذي لم نعجّل فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعداً لمهلكهم: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾.

---

١. «موئل»: من كلمة «وئل» وتعني الملجأ ووسيلة النجاة.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾

لقاء موسى والخضر: ذكر علي بن إبراهيم في تفسيره: لمّا أخبر رسول الله ﷺ قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبرنا عن العالم الذي أمر الله موسى أن يتبعه، من هو؟ كيف تبعه؟ وما قصّته؟ فأنزل الله تعالى.

لقد ذكرت في سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة وهذه القصص هي: قصة أصحاب الكهف التي إنتهينا منها؛ وقصة موسى والخضر؛ وقصة ذي القرنين التي سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأفق المحدود في حياتنا وما تعوّدنا عليه وألفناه، وتبيّن لنا أنّ حدود العالم لا تنحصر في نطاق ما نرى وما نشاهد، وأنّ الشكل العام للحوادث والأحداث ليس هو ما نفهمه من خلال النظرة الأولى.

فإنّ قصة موسى والخضر لها أبعاد عجيبة أُخرى. ففي القصة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّاً من أولي العزم بكل وعيه ومكانته في زمانه يعيش محدودية في علمه ومعرفته من بعض النواحي، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلّم على يديه.

في أوّل آية نقرأ قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾**.

إنّ المعني بالآية هو بلا شك موسى بن عمران النبي المعروف من أولي العزم.

أمّا المعني من (فتاه) فهو يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن من بني اسرائيل.

«مجمع البحرين»: بمعنى محل التقاء البحرين، والمقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليج العقبة» مع «خليج السويس»، وهذان الخليجان يتصلان بالبحر الأحمر.

«حقب»: تعني المدة الطويلة والتي فسّرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسى من هذه الكلمة، هو أنّني سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضيّعته ولو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي السمكة التي كانت معهما، أمّا العجيب في الأمر فإنّ الحوت ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

هذه السمك الذي كان معدّاً للغذاء كانت سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازي وقفزت إلى الماء وغاصت فيه، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجه من الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد في هذه الفترة إلى الماء.

وفي تتمة القصة نقرأ أنّ موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفي هذه الأثناء تذكّر موسى عليه السلام أنّه قد جلب معه طعاماً، وعند ذلك قال لصاحبه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

إنّ هذه الجملة تظهر أنّ موسى ويوشع قد سلكا طريقاً يمكن أن نسمّيه بالسفر، إلّا أنّ نفس هذه التعابير تفيد أنّ هذا السفر لم يكن طويلاً.

وفي هذه الأثناء قال له صاحبه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

ولأنّ هذا الحادث والموضوع ـ بشكل عام ـ كان علامة لموسى عليه السلام، لكي يصل من خلاله إلى موقع (العالم) الذي خرج يبحث عنه، لذا فقد قال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

وهنا رجعا في نفس الطريق: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

وهنا قد يطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبي مثل موسى عليه السلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن فـ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾.

في الجواب نقول: إنّه لا يوجد ثمة مانع من الإصابة بالنسيان في المسائل والموارد التي لا ترتبط بالأحكام الإلهية والامور التبليغية، أي في مسائل الحياة العادية.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾
قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ
لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

رؤية المعلم الكبير: عندما رجع موسى عليه السلام وصاحبه إلى المكان الأوّل، أي قرب الصخرة وقرب (مجمع البحرين)، فجأة: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾.

إنّ استخدام كلمة «وجدا» تفيد أنّهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، وقد وجداه أخيراً.

أمّا استخدام عبارة ﴿**عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا**﴾ فهي تبيّن أنّ أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبداً حقيقياً للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سبباً في شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، وفتح أبواب المعرفة والعلم في قلبه.

كما أنّ استخدام عبارة ﴿**مِن لَّدُنَّا**﴾ تبيّن أنّ علم ذلك العالم لم يكن علماً عادياً، بل كان يعرف جزءاً من أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التي لا يعلمها سوى الله تعالى.

والمقصود من عبارة ﴿**رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا**﴾ هو الإستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التي وهبها الله تعالى لهذا الرجل كي يكون قادراً على استقبال العلم الإلهي.

في هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام وبأدب كبير: ﴿**قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾.

في معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم يجيب موسى عليه السلام بكلام عجيب: ﴿**قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا**﴾.

ثم بيّن سبب ذلك مباشرة وقال: ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا**﴾.

إنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التي تخصّ أسرار وبواطن الأحداث، في حين أنّ موسى عليه السلام لم يكن مأموراً بمعرفة البواطن، وبالتالي لم يكن يعرف عنها الكثير.

في مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذي ينظر إلى الظاهر صبره وتماسكه فيقوم بالإعتراض وحتى بالتشاجر.

وقد يكون موسى عليه السلام اضطرب عندما سمع هذا الكلام وخشي أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهّد بأن يصبر على جميع الحوادث و﴿**قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا**﴾.

مرّة أُخرى كشف موسى عليه السلام عن قمّة أدبه في هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّي صابر، بل قال: إن شاء الله ستجدني صابراً.

ولأنّ الصبر على حوادث غريبة وسيّئة في الظاهر والتي لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السلام أن يتعهد له مرّة أخرى، وحذّره: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1]. وقد أعطى موسى العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ
شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ
نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
(٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا
فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ
هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾

المعلم الإلهي والأفعال المنكرة: نعم، لقد ذهب موسى وصاحبه وركبا السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾.

«خرق»: (كما يقول الراغب في المفردات) الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر ولا تفكّر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالم على هذا المنوال.

وبحكم كوْن موسى عليه السلام نبيّاً إلهيّاً فقد كان من جانب يرى أنّ من واجبه الحفاظ على أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن جانب آخر كان وجدانه الإنساني يضغط عليه ولا يدعه يسكت أمام أعمال الرجل العالم التي يبدو ظاهرها سيّئاً قبيحاً، لذا فقد نسي العهد الذي قطعه للخضر (العالم) فاعترض و﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

---

١. إنّ عبارة ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يكون مفهومها بعد الأخذ بنظر الإعتبار كلمة «أحدث» هو: إنّي أنا الذي أبدأ بالكلام وأكشف للمرّة الأولى؛ أمّا أنت فلا تتكلم.

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾.

وفي هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السلام نظرة خاصة وخاطبه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

أمّا موسى الذي ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذي قطعه لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلًا: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. يعني لقد أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذني بهذا الإشتباه.

«ترهقني»: مشتقة من «إرهاق» وتعني تغطية شيء ما بالقهر والغلبة، وتأتي في بعض الأحيان بمعنى التكليف، وفي الآية ـ أعلاه ـ يكون معناها: لا تصعّب الأمور عليّ، ولا تقطع فيضك عنّي بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية وترجّلوا من السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾، وقد تمّ ذلك بدون أي مقدمات.

وهنا ثار موسى عليه السلام مرّة أُخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفلٍ بريء بدون أي سبب، وظهرت آثار الغضب على وجهه وملأ الحزن وعدم الرضا عينيه ونسي وعده مرّة أُخرى، فقام للإعتراض، وكان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه في المرّة الأولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الأُولى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. أي إنّك قتلت انساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

ومرّة أُخرى كرّر العالم الكبير جملته السابقة التي إتّسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

تذكّر موسى تعهده فانتبه إلى ذلك وهو خجل، حيث أخلّ بالعهد مرتين ـ ولو بسبب النسيان ـ وبدأ تدريجياً يشعر بصدق عبارة الأستاذ في أنّ موسى لا يستطيع تحمل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قال له عندما عرض عليه موسى الرفقة، لذا فقد بادر إلى الاعتذار وقال: إذا اعترضت عليك مرّة أُخرى فلا تصاحبني وأنت في حلّ منّي: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

صيغة العذر هنا تدل على انصاف موسى عليه السلام ورؤيته البعيدة للأمور، وتبيّن أنّه عليه السلام كان

يستسلم للحقائق ولو كانت مرّة.

بعد هذا الكلام والعهد الجديد: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾. والمقصود من كلمة قرية هو مدينة (الناصرة) أو ميناء (أيلة).

المهم في الأمر، أنّنا نستنتج من خلال ما جرى لموسى عليه السلام وصاحبه من أهل هذه المدينة أنّهم كانوا لئاماً دنيئي الهمّة. في مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «كانوا أهل قرية لئام».

ثم يضيف القرآن: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾. وقد كان موسى عليه السلام شاهد كيف أنّ الخضر قام بترميم الجدار بالرغم من سلوك أهل القرية القبيح إزاءهما، وكأنّه بذلك أراد أن يجازي أهل القرية بفعالهم السيّئة؛ وكان موسى يعتقد بأنّ على صاحبه أن يطالب بالأجر على هذا العمل حتى يستطيعا أن يعدّا لأنفسهما طعاماً.

لذا فقد نسي موسى عليه السلام عهده مرّة أُخرى وبدأ بالإعتراض، إلّا أنّ اعتراضه هذه المرّة بدا خفيفاً فـ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وفي الواقع فإنّ موسى يعتقد بأنّ قيام الإنسان بالتضحية في سبيل أناس سيئين عمل مجاف لروح العدالة.

وهنا قال الرجل العالم كلامه الأخير لموسى، بأنّك ومن خلال حوادث مختلفة، لا تستطيع معي صبراً، لذلك قرّر العالم قراره الأخير: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. «تأويل»: من «أول» على وزن «قول» وتعني الإرجاع، لذا فإنّ أي عمل أو كلام يرجعنا إلى الهدف الأصلي يسمّى «تأويل» كما أنّ رفع الحجب عن أسرار شيء هو نوع من التأويل.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغاية، لكن على موسى عليه السلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المرّة.

المفسر المعروف أبو الفتوح الرازي يقول: ورد في الخبر، أنّ موسى عليه السلام عندما سئل عن أصعب ما لاقىٰ من مشكلات في طول حياته، أجاب قائلًا: لقد واجهت الكثير من المشاكل والصعوبات (إشارة إلى ما لاقاه عليه السلام من فرعون، وما عاناه من بني إسرائيل) ولكن لم يكن أيّاً منها أصعب وأكثر ألماً على قلبي من قرار الخضر في فراق إيّاه.

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ
يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾
وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا
فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث: بعد أن أصبح الفراق بين موسى والخضر عليه السلام أمراً حتمياً، كان من اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهي بتوضيح أسرار أعماله التي لم يستطع موسى أن يصبر عليها، وفي الواقع فإنّ استفادة موسى من صحبته تتمثل في معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتي يمكن أن تكون مفتاحاً للعديد من المسائل، وجواباً لكثير من الأسئلة. ففي البداية ذكر قصة السفينة وقال: ﴿**أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾.

وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيّر وراء ثقب السفينة الذي بدأ في حينه عملاً مشيناً سيّئاً، والهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذاً خلاصة المقصود في الحادثة الأولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعني هنا الجانب المكاني، وإنّما هي كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أنّ الإنسان لا يحيط بالحوادث التي سوف تصيبه لاحقاً، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثانية التي قتل فيها الفتى، فيقول: ﴿**وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا**﴾.

إنّ تعبير (خشينا) جاء هنا بمعنى: لم نكن نرغب، وإلّا لا معنىً للخوف في هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم والوعي والقدرة.

وبعبارة اخرى: فإنّ الهدف هو الإتّقاء من حادث سيء نرغب أن نقي الأبوين منه على أساس المودة لهما.

ثم تحكي الآيات على لسان العالم قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾. «زكاة»: هنا بمعنى الطهارة والنظافة، ولها مفهوم واسع حيث تشمل الايمان والعمل الصالح، وتتسع للامور الدينية والمادية، وقد يكون في هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السلام الذي قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً...﴾ فقال له العالم في الجواب: إنّ هذه النفس ليست زكية، وأردنا أن يبدلها ربّها ابناً طاهراً بدلاً عن ذلك.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبيّاً».

في آخر آية من الآيات التي نبحثها، كشف الرجل العالم عن السر الثالث الذي دعاه إلى بناء الجدار فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

وأنا كنت مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوي هذين اليتيمين، كي لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرّضاً للخطر.

وفي خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفي أيّ شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكي يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقاً لخطط وتوجيه غيبي، قال العالم: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ بل بأمر من الله.

وذلك سرّ ما لم يستطع عليه موسى عليه السلام صبراً، إذ قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

دروس قصة خضر وموسى عليه السلام: هناك جملة دروس يمكن أن نستفيدها من القصة، ويمكن لنا أن ندرجها كما يلي:

أ: أهمية العثور على قائد عالم والاستفادة من علمه، بحيث رأينا أنّ نبيّاً من اولي العزم مثل موسى عليه السلام يسلك هذا الطريق الطويل، وقد بذل ما بذل لتحقيقه، وهذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم وفي أيّ عمر كانوا.

ب: جوهرة العلم الإلهي تنبع من العبودية لله تعالى.

ج: يجب تعلّم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السلام لصاحبه ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾. أي: علمني عملاً يقرّبني من هدفي ومقصدي، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الإستعجال في الأعمال، إذ العديد من الأُمور تحتاج إلى الفرص المناسبة.

هـ: الظاهر والباطن من المسائل المهمّة الاخرى التي نتعلّمها من القصة، إذ يجب علينا أن

لا نصدر أحكاماً سريعة تجاه الحوادث التي تقع في مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا، إذ ما أكثر الحوادث التي نكرهها، ولكن يتّضح بعد مدّة أنّ هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألطاف الخفية الإلهية، والقرآن يصرّح بمضمون هذه الحقيقة في الآية (٢١٦) من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

و: من دروس القصة الإعتراف بالحقائق واتخاذ المواقف المطابقة لها، فعندما تخلّف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه لا يستطيع الاستمرار معه في الصحبة.

يجب على الإنسان أن لا يستمر إلى آخر عمره في اختبار نفسه، بحيث تتحوّل حياته إلى مختبر للأمور المستقبلية التي قد لا تحصل أبداً، اذ عليه عندما يختبر موضوعاً ما عدّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الإختبار وأن يقتنع به.

ز: تأثير إيمان الآباء على الأبناء: لقد تحمل الخضر مسؤولية حماية الأبناء بالمقدار الذي كان يستطيعه، وذلك بسبب الأب الصالح الملتزم، بمعنى أنّ الإبن يستطيع أن يسعد في ظل الإيمان وأمانة والتزام الأب، وإنّ نتيجة العمل الصالح الذي يلتزمه الأب تعود على الإبن أيضاً.

ح: قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين: عندما يطال الموت الإبن بسبب ما يلحقه من أذى بوالديه في مستقبل حياته، وبسبب ما يرهقهما به من أذىً وطغيان وكفر، قد يحرفهم عن الطريق الإلهي، كما رأينا ذلك في القصة التي بين أيدينا.

ط: الناس أعداء ما جهلوا: قد يحدث أن يقوم شخص بالإحسان إلينا، إلّا أنّنا نتصوره عدوّاً لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الأمور، ونتسرّع ونفقد الصبر، خصوصاً إزاء الأحداث والأمور التي نجهلها ولا نحيط بأسبابها علماً. من الطبيعي أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علماً من الأحداث والقضايا، إلّا أنّ الدرس المستفاد من القصة هو أن لا نتسرّع في إصدار الأحكام على مثل هذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التي نحيط من خلالها بجوانب وزوايا الموضوع المختلفة.

ي: أدب التلميذ والأستاذ: ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ والأستاذ ظهرت في مقاطع الحديث بين موسى عليه السلام والرجل الرباني العالم، فمن ذلك مثلاً:

١ ـ اعتبار موسى عليه السلام نفسه تابعاً للخضر قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾.

٢ـ وللتواضع فقد اعتبر علم أستاذه كثيراً، وهو يطلب جانباً من هذا العلم، فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ
فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ
وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ
أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

قصة ذو القرنين العجيبة: قلنا في بداية حديثنا عن أصحاب الكهف: إنّ مجموعة من قريش قرّرت اختبار الرسول الأكرم ﷺ، وقامت هذه المجموعة بالتنسيق مع اليهود واستشارتهم بطرح ثلاث قضايا ونحن الآن بصدد ذكر قصة «ذو القرنين»:

إنّ قصة ذو القرنين تدور حول شخصية أثارت اهتمامات الفلاسفة والباحثين منذ القدم. وقد بذلت جهود ومساعي كثيرة للتعرّف على هذه الشخصية.

وسنقوم أوّلاً بتفسير الآيات الست عشرة الخاصّة بذي القرنين، ثم ننتقل إلى بحوث لمعرفة شخصية ذي القرنين نفسه.

بتعبير آخر: إنّ ما يهمنا أوّلاً هو الحديث عن شخصية ذي القرنين، وهو ما فعله القرآن، حيث يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

فيكون الجواب على لسان الرسول المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

إنّ بداية الآية تبيّن لنا أنّ قصة ذو القرنين كانت متداولة ومعروفة بين الناس، ولكنّها كانت محاطة بالغموض والإبهام، لهذا السبب طالبوا الرسول الأكرم ﷺ الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمة.

وفي إستئناف الحديث عن ذي القرنين يقول تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. أي: منحناه سبل القوّة والقدرة والحكم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾. إنّ الله تبارك وتعالى منح «ذو القرنين» أسباب الوصول لكل الأشياء: العقل، العلم الكافي، الإدارة السليمة، القوّة والقدرة، الجيوش والقوى البشرية، بالإضافة إلى الإمكانات المادية، أي إنّه منح كل الأسباب والسبل المادية والمعنوية الكفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة.

ثم يشير القرآن بعد ذلك إلى استفادة ذي القرنين من هذه الأسباب والسبل فيقول: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾. ثم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾. فرأى أنّها تغرب في بحر غامق أو عين ذات ماء آسن: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[١].

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾. أي مجموعة من الناس فيهم الصالح والطالح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب الله ذا القرنين في شأنهم: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

بعد ذلك تحكي الآيات جواب «ذي القرنين» الذي قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾[٢]. أي إنّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوي والأخروي معاً.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾. أي: أنّنا سنتعامل معه بالقول الحسن، فضلاً عن أنّنا سنخفف عنه ولا نجعله يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلى أنّنا سوف لن نجبي منه ضرائب كثيرة.

وعندما إنتهى «ذو القرنين» من سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق حيث يقول القرآن في ذلك: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾. أي استخدم الوسائل والإمكانات التي كانت بحوزته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾. وهنا رأى أنّها: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾. وفي اللفظ كناية عن أنّ حياة هؤلاء الناس بدائية جداً، ولا يملكون سوى القليل من الملابس التي لا تكفي لتغطية أبدانهم من الشمس.

أمّا بعض المفسرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التي تحميهم من الشمس.

---

١. «حمئة»: تعني في الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة، أو الماء الآسن الموجود في المستنقعات. وهذا الوصف يبيّن لنا بأنّ الأرض التي بلغها «ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معه بأنّ الشمس كانت تغرب في هذه المستنقعات، تماماً.

٢. «نكر»: مشتقة من «منكر» بمعنى الشيء المجهول؛ أي العذاب المجهول الذي لم يمكن تصوره.

بالطبع ليس هناك تعارض بين التفاسير هذه، قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾. هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» ونحن نعلم جيّداً بإمكاناته.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا
عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ
نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟
لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

كيف تمّ بناء سدّ ذي القرنين: الآيات أعلاه تشير إلى سفرة أُخرى من أسفار ذي القرنين حيث تقول: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾. أي: بعد هذه الحادثة استفاد من الوسائل المهمة التي كانت تحت تصرفه ومضى في سفره حتى وصل إلى موضع بين جبلين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

والآية تشير إلى أنّه وصل إلى منطقة جبلية، وهناك وجد أُناساً كانوا على مستوى دانٍ من المدنية، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدن لدى البشر.

في هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجيء ذي القرنين، لأنّهم كانوا في عذاب شديد من قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج، لذا فقد طلبوا العون منه قائلين: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

قد يكون كلامهم هذا تمّ عن طريق تبادل العلامات والإشارات، لأنّهم لا يفهمون لغة ذي القرنين.

أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾، وأنّي لا أحتاج إلى مساعدتكم المالية وإنّما: ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

«ردم»: على وزن «طرد» في الأصل تعني ملء الشق بالأحجار، إلّا أنّها فيما بعد أخذت معنىً واسعاً بحيث شمل كل سدّ، بل وشمل حتى ترقيع الملابس.

يعتقد بعض المفسرين أنّ كلمة «ردم» تقال للسدّ القوي.

ثم أمر ذو القرنين فقال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾.

«زُبر»: جمع «زُبرة» على وزن (غرفة)، وتعني القطع الكبيرة والضخمة من الحديد.

وعندما تهيّأت قطع الحديد أعطى أمراً بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطّي بين الجبلين بشكل كامل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾. «صدف»: تعني هنا حافة الجبل.

الأمر الثالث لذي القرنين هو طلبه منهم أن يجلبوا الحطب وما شابهه، ووضعه على جانبي هذا السد، وأشعل النار فيه ثم أمرهم بالنفخ فيه حتى احمرّ الحديد من شدّة النار: ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾.

لقد كان يهدف ذو القرنين من ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدّاً من قطعة واحدة، وعن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذي يقام به اليوم في ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيراً أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لي النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

وبهذا الشكل قام بتغطية هذا السدّ الحديدي بطبقة من النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء ويحفظ من التآكل.

وأخيراً، أصبح هذا السد بقدر من القوة والإحكام بحيث: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾.

لقد كان عمل ذي القرنين عظيماً ومهماً، وكان له وفقاً لمنطق المستكبرين ونهجهم أن يتباهىٰ به أو يمنّ به، إلّا أنّه قال بأدب كامل: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾، لأنّ أخلاقه كانت أخلاقاً إلهية.

إنّه أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتها أن أخطو خطوات مهمّة، فإنّ كل ذلك إنّما كان من قبل الخالق جلّ وعلا.

ثم استطرد قائلاً: لا تظنوا أنّ هذا السد سيكون أبدياً وخالداً: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾.

لقد أشار ذو القرنين في كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا وتحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

بحثان

أوّلاً ـ ملاحظات التربوية في هذه القصة التأريخية: هذه القصة تحوي على دروس تربوية كثيرة وفي الواقع أنّها هي الهدف القرآني من إيرادها.

١ـ إنّ أوّل درس تعلّمنا إيّاه أنّ العمل الدنيوي لا يتمّ دون توفير أسبابه، لذا فإنّ الله تبارك وتعالى وهب الوسائل والأسباب لتقدم وانتصار ذي القرنين في عمله.

٢ـ لا تستطيع أي حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار والأتباع، ومعاقبة المذنبين والمخطئين، وهذا هو نفس الأساس الذي اعتمد عليه ذو القرنين.

والإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بلور هذا المعنى في رسالته إلى مالك الأشتر والتي هي برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السلام: **«ولا يكونن المحسن والمسيىء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة»**[1].

٣ـ التكليف الشاق والتصعّب في الأُمور وتحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الأُمور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبداً.

٤ـ الحكومة الكبيرة ذات الإمكانات الواسعة لا تتغاضىٰ عن التفاوت والإختلاف القائم في حياة الناس وتراعي شرائط حياتهم المختلفة.

٥ـ إنّ «ذو القرنين» لم يستبعد حتى تلك المجموعة التي لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ بل إنّه استمع إلى مشاكلهم، ودأب على رفع احتياجاتهم بأيّ أُسلوب كان.

٦ـ الأمن هو أوّل وأهم شرط من شروط الحياة الإجتماعية السالمة. لهذا السبب تحمل «ذو القرنين» أصعب الأعمال وأشقّها لتأمين أمن القوم من أعدائهم.

٧ـ الدرس الآخر الذي يمكن أن نتعلّمه من هذه القصّة، هو أنّ أصحاب المشكلة الأصليين معنيين بالدرجة الأُولى في الإشتراك في الجهد المبذول لحل مشكلتهم.

وعادة فإنّ العمل الذي يتمّ بمساهمة وحضور الأطراف الأصليين في المشكلة يؤدّي إلى إظهار استعداداتهم ويعطي قيمة خاصة للنتائج الحاصلة منه، وللجهود المبذولة فيه، ومن ثم يحرص الجميع للحفاظ عليه وإدامته بحكم تحمّلهم لجهودات إنشائه.

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

كما يتّضح من هذه النقطة أنّ المجتمع المتخلف والمتأخر يستطيع أن ينجز أعمالاً مهمة وعظيمة إذا تمتّع ببرنامج صحيح وإدارة مخلصة.

٨ـ الزعيم الإلهي والقائد الرباني لا يلتفت إلى الجزاء المادي والنفع المالي وإنّما يقتنع بما حباه الله.

وفي القرآن الكريم نقرأ مراراً في قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاءً لأعمالهم ودعواتهم.

٩ـ إحكام الأمور هو درس آخر نستفيده من هذه القصة.

١٠ـ مهما كان الإنسان قوياً ومتمكناً وصاحب قدرة واستطاعة في إنجاز الأعمال، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وهذا هو درس آخر نتعلّمه من قصة «ذو القرنين».

١١ـ كل شي إلى زوال مهما كان محكماً وصلداً. هذا هو الدرس الأخير في هذه القصة، وهو درس للذين يتمنّون أو يظنون خلود المال أو المنصب والجاه.

ثانيا ـ من هم يأجوج ومأجوج؟ ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج في سورتين، إذ وردت المرّة الأُولى في الآيات التي نبحثها، والثانية في سورة الأنبياء، الآية (٩٦).

الآيات القرآنية تؤيّد بوضوح أنّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان سكّان المناطق المحيطة بهم. حيث طلب أهل القفقاز من «كورش» عند سفره إليهم أن ينقذهم من هجمات هذه القبائل، لذلك أقدم على تأسيس السد المعروف بسدّ ذي القرنين.

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

عاقبة الكافرين: لقد تناولت الآية السابقة سد يأجوج ومأجوج وانهدامه عند البعث، وهذه الآيات تستمر في قضايا القيامة، فتقول أوّلاً: إنّنا سنترك في ذلك اليوم ـ الذي ينتهي فيه العالم ـ بعضهم يموج ببعض: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

إنّ استخدام كلمة «يموج» إمّا بسبب الكثرة الكاثرة للناس في تلك الواقعة، أو بسبب

الإضطراب والخوف الذي يصيب الناس في ذلك اليوم، وكأنّما أجسادهم تهتز كأمواج الماء.

بعد ذلك تضيف الآيات: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

وبلا شك فإنّ كافة الناس سيجمعون في تلك الساحة ولن يستثنىٰ منهم أحد، وتعبير ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة.

من مجموع الآيات نستفيد أنّ ثمّة تحوّلان عظيمان سيحصلان عند نهاية هذا العالم وبداية العالم الجديد:

الأوّل: فناء الموجودات والناس بشكل آني.

والثاني: إحياء الموتىٰ بشكل آني أيضاً.

ولا نعلم مقدار الفاصل بين الحدثين، ولكنّ القرآن يعبّر عن هذين التحوّلين بعنوان (نفخ الصور).

ثم تتناول الآيات تفصيل حال الكافرين، حيث توضّح عاقبة أعمالهم، والصفات التي تقود إلى هذه العاقبة، فتقول: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾.

إنّ جهنّم ستظهر لهم، وتتّضح لهم الأنواع المختلفة من عذابها، وهذا هو بحد ذاته عذاب أليم موجع، فكيف إذا ولجوها؟!

ولكن من هم الكافرون؟ ولماذا يصابون بمثل هذه العاقبة؟ الآية تعرّف هؤلاء بجملة قصيرة واحدة بقولها: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾. وبالرغم من أنّهم يمتكون آذاناً، إلّا أنّهم يفقدون القدرة على السماع: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

فهؤلاء أسقطوا في الواقع أهم وسيلة لمعرفة الحق وإدراكه، وأهملوا الوسيلة الهامة في شقاء أو سعادة الإنسان. يعني أنّهم غطّوا أعينهم وأسماعهم بحجاب وستار بسبب أفكارهم الخاطئة وتعصبهم وحقدهم وصفاتهم القبيحة الأُخرى.

الآية التي بعدها تشير إلى نقطة انحراف فكرية لدى هؤلاء هي أصل انحرافاتهم الأُخرى، فتقول: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

هل يملك هؤلاء المعبودون ـ كالمسيح والملائكة ـ شيئاً للدفاع عن الآخرين بالرغم من مكانتهم العالية، أو أنّ الأمر بالعكس إذ كل ما عند هؤلاء هو من الله، وأنّهم أنفسهم يحتاجون إلى هدايته؟

إنّ هذه حقيقة واضحة، ولكن هؤلاء تناسوها وتورّطوا في شراك الشرك.

في ختام الآية وللمزيد من التأكيد، تقول الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

«نُزُل»: بمعنى الإقامة، وتعني أيضاً الشيء الذي يهيّأ لتقديمه للضيوف.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا
نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي
هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

أخسر الناس: هذه الآيات والآيات اللاحقة ـ إلى نهاية السورة المباركة ـ في الوقت الذي تتحدث فيه عن صفات غير المؤمنين، فإنّها تعتبر نوعاً من التلخيص لكافّة البحوث التي وردت في هذه السورة، خاصة البحوث المتعلقة بقصة أصحاب الكهف وموسى والخضر وذي القرنين، وما بذلوه من جهود إزاء معارضيهم.

فالآيات تكشف أوّلاً عن أخسر الناس، ولكنها ـ بهدف إثارة حب الإستطلاع لدى المستمع إزاء هذه القضية ـ تعمد إلى إثارتها على شكل سؤال موجّه إلى رسول الله ﷺ، فتقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾.

ثم يأتي الجواب بدون أي توقف حتى لا يبق المستمع في حيرة، فتقول: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

مفهوم الخسران لا ينطبق على خسران الأرباح وحسب، بل إنّ الخسران الواقعي هو خسران أصل رأس المال، وهل هناك رأس مال أربح وأفضل وأحسن من العقل والذكاء والطاقات الإلهية الموهوبة للإنسان من عمر وشباب وصحة؟

إنّ نتاج كل هذه المواهب هي أعمال الإنسان، وأعمال الإنسان هي في الواقع انعكاس وتجسيد لطاقاتنا وقدراتنا.

عندما تتحوّل هذه الطاقات إلى أعمال مخرّبة أو غير هادفة، فكأنّها قد فنيت أو ضاعت؛ إلّا أنّ الخسران الحقيقي والمضاعف هو أن يفقد الإنسان رأسماله المادي والمعنوي في مسالك خاطئة ومجالات منحرفة ويظن أنّه أحسن العمل، فهو في هذه الحالة لم يحصل على ثمرة

لعمله، وفي نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيكرّر العمل.

الآيات الأخرى تذكر صفات ومعتقدات هذه المجموعة من الخاسرين، حيث تبدأ بتلك الصفات التي تكون أساساً في مصائبهم فتقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

إنّهم كفروا بالآيات التي تفتح الأبصار والمسامع، الآيات التي ترفع حجب الغرور وتجسّد الحقائق أمام الإنسان، وأخيراً فإنّها آيات النور والضياء التي تخرج الإنسان من ظلمات الأوهام والتصورات الخاطئة وترشده إلى عالم الحقائق.

ثم إنّهم بعد ذلك نسوا الله وكفروا بالمعاد وبلقاء الله ﴿وَلِقَائِهِ﴾.

يعني أنّ الإنسان في يوم القيامة يشاهد آثار الخالق أكثر وأفضل من أي زمان، لذا فإنّه ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعي البصير.

نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، وما لم يحس الإنسان بأنّ هناك قوة تراقب أعماله فإنّ الإنسان سوف لا يعير أهمّية إلى أعماله وسوف لا يصلح نفسه.

ثم تضيف الآية أنّهم بسبب من كفرهم بالمبدأ والمعاد فإنّ أعمالهم قد حبطت وضاعت: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾. وغدت تماماً كالرماد في مقابل العاصفة الهوجاء.

ولأنّهم لا يملكون عملاً قيّماً ثميناً لذا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

لأنّ الوزن يخصّ الأمور الموجودة، أمّا هؤلاء فلا يملكون شيئاً من الأعمال، ولذلك ليس لهم وزن ولا قيمة. روي في تفسير مجمع البيان أنّ النبي ﷺ قال: **«إنّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة»**.

لماذا؟ لأنّ أعمال مثل هؤلاء وأفكارهم وشخصيتهم كانت في الحياة الدنيا عديمة الأهمية والفائدة.

وفي إطار بيان جزاء هؤلاء، تكشف الآية عن ثالث سبب في انحراف وخسران هؤلاء، وهو الاستهزاء بما أنزل الله، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

وبذلك فإنّ هؤلاء انتهوا إلى إنكار الأصول الأساسية الثلاثة في الإعتقاد الديني (المبدأ، والمعاد، ورسالة الأنبياء) والأكثر من الإنكار أنّهم استهزؤوا بهذه الأمور.

والآن بعد أن عرفنا علامات الكفار والأخسرين أعمالاً، وبعد أن انكشفت عاقبة أعمالهم، تتوجّه الآيات إلى المؤمنين فتبيّن عاقبتهم، وبمقايسة بين الاثنين نستطيع تشخيص

كل طرف بشكل كامل. تقول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾. «الفردوس»: البستان الذي يشتمل على كل النعم والمواهب اللازمة، وبذلك فالفردوس هو أفضل وأكمل البساتين في الجنة.

وبما أنّ كمال النعم بدوامها وأن لا تطالها يد الزوال، لذا فإنّ الآية تقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. وبالرغم من أنّ طبع الإنسان قائم على التغيّر والتنوع، إلّا أنّ سكّان الجنة لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبداً: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾. ذلك لأنّهم يجدون كل ما يطلبون حتى التنوع والتكامل كما سيأتي شرح ذلك.

قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: لمّا نزل قوله ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١]، قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، وفيها علم كثير، فأنزل الله هذه الآية ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾.

التّفسير

الذين يأملون لقاء الله: الآيات أعلاه في نفس الوقت الذي تبحث بحثاً مستقلاً، إلّا أنّها متصلة مع بحوث هذه السورة، وكأنّما القرآن يريد أن يقول في هذه الآيات: إنّ الإطلاع على قصة أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وذي القرنين، يعتبر لا شيء إزاء علم الله غير المحدود. القرآن الكريم يخاطب الرسول ﷺ ـ في أوّل آية نبحثها ـ بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

«مداد»: تعني الحبر، أو أي مادة ملوّنة تساعد في الكتابة.

«كلمات»: جمع كلمة، وهي في الأصل تعني الألفاظ التي يتمّ التحدّث بها. أو بعبارة

---

١. سورة الإسراء /٨٥.

أُخرى: «الكلمة» لفظ يدل على المعنى، وبما أنّ كل موجود من موجودات هذا العالم هو دليل على علم وقدرة الخالق، لذا فإنّه يطلق في بعض الأحيان على كل موجود اسم (كلمة الله) ويختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمة العظيمة.

وفي الآية التي نبحثها فإنّ (كلمة) قد استخدمت بهذا المعنى، أي إشارة إلى موجودات عالم الوجود التي تدل كل واحدة فيه على الصفات المختلفة لله تبارك وتعالى.

إنّ القرآن يلفت أنظارنا في هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهي: لا تظنّوا أنّ عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسّونه، بل هو على قدر من السعة والعظمة بحيث لو أنّ البحار تتحوّل إلى حبر، وتكتب صفاته وخصائصه، فإنّها ـ أي البحار ـ ستجف قبل أن تحصي موجودات عالم الوجود.

وينبغي الإنتباه هنا إلى أنّ الآية أعلاه في الوقت الذي تجسّد فيه سعة عالم الوجود اللامتناهية في الماضي والحاضر والمستقبل، فإنّها توضّح ـ أيضاً ـ العلم المطلق وغير المحدود للخالق جلّ وعلا، لأنّنا نعلم أنّ الله سبحانه وتعالى يحيط علمه بما كان موجوداً في عالم الوجود، وبما سيكون موجوداً، وفي الوقت الذي يعتبر فيه علم الله تعالى «علماً حضورياً» فإنّه لا يفترق عن وجود هذه الموجودات (فدقق في ذلك).

إذن نستطيع أن نقول: لو أنّ جميع المحيطات وبحار الأرض تحوّلت إلى حبر ومداد، ولو أنّ كافة الأشجار تحوّلت إلى أقلام، فإنّ ذلك كلّه لا يستطيع الإحاطة بما هو موجود في علم الخالق جلّ وعلا.

العدد الحي هو العدد الذي تنشغل أفكارنا به، ويجسّد الحقائق كما هي ويملك روحاً ولساناً وعظمة.

والقرآن الكريم بدلاً من أن يقول: إنّ مخلوقات عالم الوجود تتجاوز في كثرتها الرقم الذي تقع على يمينه مئات الكيلومترات من الأصفار، يقول: إذا تحوّلت جميع الأشجار إلى أقلام، وكل البحار إلى مواد وحبر، فإنّ الأقلام ستتكسر ومياه البحار ستنتهي، ولا تنتهي أسرار ورموز وحقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التي يحيط بها جميعاً علم الله تعالى.

الآية الثانية في البحث والتي هي آخر آية في سورة الكهف، عبارة عن مجموعة من

الأسس والأصول للإعتقادات الدينية، التي تتركّز في التوحيد والمعاد ورسالة الرّسولﷺ. في البداية تحدّثت السورة عن الله والوحي والجزاء والقيامة، والآية الأخيرة هي خلاصة لمجموع ما ورد في السورة، التي اشتملت في قسم مهم منها على الأصول الثلاثة الآنفة باعتبارها محاور للسورة.

ولأنّ قضية النبوة قد اقترنت مع أشكال من الغلو والمبالغة على طول التاريخ، لذا فإنّ الآية تقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وهذا التعبير القرآني نسف جميع الإمتيازات المقرونة بالشرك التي تخرج الأنبياء من صفة البشرية إلى صفة الألوهية.

ثم تشير الآية إلى قضية التوحيد من بين جميع القضايا الأُخرى في الوحي الإلهي حيث تقول: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

أمّا لماذا تمّت الإشارة إلى هذه القضية؟ فذلك لأنّ التوحيد هو خلاصة جميع المعتقدات، وغاية كل البرامج الفردية والاجتماعية التي تجلب السعادة للإنسان.

وفي مكان آخر، أشرنا إلى أنّ التوحيد ليس أصلاً من أصول الدين وحسب، وإنّما هو خلاصة لجميع أصول وفروع الإسلام.

لهذا السبب نقرأ في حديث عن رسول اللهﷺ قال: «حدثني جبرائيلﷺ قال: سمعت ربّ العزّة سبحانه وتعالى يقول: كلمة لا إله إلّا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي»[1].

الجملة الثالثة في الآية الكريمة تشير إلى قضية البعث وتربطها بالتوحيد بواسطة (فاء التفريع)، حيث تقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

بالرغم من أنّ لقاء الله بمعنى المشاهدة الباطنية ورؤية الذات المقدسة بعين البصيرة هو أمر ممكن في هذه الدنيا بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين، إلّا أنّ هذه القضية تكتسب جانباً عاماً يوم القيامة بسبب مشاهدة الآثار الكبيرة والواضحة والصريحة للخالق تبارك وتعالى. لذا فإنّ القرآن استخدم هذا التعبير في خصوص يوم القيامة.

---

١. بحار الأنوار ١٢٧/٤٩.

وفي آخر جملة ثمّة توضيح للعمل الصالح في جملة قصيرة، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

بعبارة أُخرى: لا يكون العمل صالحاً ما لم تتجلّ فيه حقيقة الإخلاص.

في الحقيقة إنّ العمل الصالح الذي ينبع من أهداف إلهيّة، ويمتزج بالإخلاص ويتفاعل معه، هو الذي يكون جوازاً للقاء الله تبارك وتعالى.

فالعمل الخالص يعتبر مهماً في الإسلام إلى الحد الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «من أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1].

«نهاية تفسير سورة الكهف»

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١. بحار الأنوار ٢٤٩/٦٧.

١٩

سورة مريم

وهي ثمان وتسعون آية

مكية

محتوى السورة: لهذه السورة من جهة المحتوى عدة أقسام مهمّة:

١ـ يشكّل القسم الذي يتحدث عن قصص زكريا ومريم والمسيح عليه السلام ويحيى وإبراهيم عليه السلام بطل التوحيد، وولده إسماعيل، وإدريس وبعض آخر من كبار أنبياء الله ـ الجزء الأهم في هذه السورة ـ ويحتوي على أمور تربوية لها خصوصيات مهمّة.

٢ـ ثم يتحدث عن المسائل المرتبطة بالقيامة، وكيفية البعث، ومصير المجرمين، وثواب المتقين، وأمثال ذلك.

٣ـ القسم الثالث، وهو المواعظ والنصائح التي تكمّل الأقسام السابقة.

٤ـ إنّ آخر قسم عبارة عن الإشارات المرتبطة بالقرآن، ونفي الولد عن الله سبحانه، ومسألة الشفاعة، وتشكّل بمجموعها برنامجاً تربوياً مؤثّراً من أجل دفع النفوس الإنسانية إلى الإيمان والطهارة والتقوى.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه وماله وولده وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام وأُعطي من الأجر في الآخرة ملك سليمان بن داود في الدنيا**».

إنّ هذا الغنى وعدم الإحتياج ـ حتماً ـ قبس من وجود محتوى السورة وسريانها في أعماق روح الإنسان، وانعكاسها من خلال أعماله وأقواله وسلوكه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

دعاء زكريا المستجاب: مرّة أُخرى نواجه الحروف المقطعة في بداية هذه السورة. ولمّا كنّا قد بحثنا تفسير هذه الحروف المقطعة بصورة مفصّلة في بداية ثلاث سور مختلفة فيما سبق ـ سورة البقرة وآل عمران والأعراف ـ فلا نرى حاجة للتكرار هنا.

ولكن ما ينبغي اضافته هنا هو وجود طائفتين من الروايات في المصادر الإسلامية تتعلق بالحروف المقطعة في هذه السورة ﴿كهيعص﴾.

الأُولى: تقول بأنّ كل حرف من هذه الحروف يشير إلى اسم من أسماء الله الحسنى، فالكاف يشير إلى الكافي، وهو من أسماء الله الحسنى، والهاء تشير إلى الهادي، والياء إشارة إلى الولي، والعين إشارة إلى العالم، والصاد إشارة إلى صادق الوعد[1].

الثانية: تفسّر هذه الحروف المقطعة بحادثة ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد إشارة إلى صبره[2].

وكما قلنا مراراً، فإنّ لآيات القرآن أنوار ومعان مختلفة، ومع تنوعها واختلافها فإنّه لا يوجد تناقض بينها.

وبعد ذكر الحروف المقطعة، تشرع الكلمات الأُولى باستعراض قصة زكريا عليه السلام فتقول: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾. وفي ذلك الوقت الذي كان زكريا عليه السلام مغتماً ومتألماً فيه

---

١. تفسير نور الثقلين ٣/ ٣٢٠.

٢. المصدر السابق.

من عدم إنجاب الولد، توجّه إلى رحمة ربّه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ بحيث لم يسمعه أحد. وذكر في دعائه وهن وضعف العظام باعتبارها عمود بدن الإنسان ودعامته وأقوى جزء من اجزائه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

لقد شبّه زكريا نزول الكبر، وبياض كل شعر رأسه باشتعال النار، والرماد الأبيض الذي تتركه، وهذا التشبيه جميل وبليغ جداً.

ثم يضيف: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾. فقد عوّدتني دائماً ـ فيما مضى ـ على استجابة أدعيتي، ولم تحرمني منها أبداً، والآن وقد أصبحت كبيراً وعاجزاً فأجدني أحوج من السابق إلى أن تستجيب دعائي ولا تخيّبني.

إنّ الشقاء هنا بمعنى التعب والأذى أي إنّي لم أتعب ولم أتأذّ في طلباتي منك، لأنّك كنت تقضيها بسرعة.

ثم يبيّن حاجته: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾. أي إنّي أخشى من أقربائي أن يسلكوا سبيل الانحراف والظلم، ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. أي مرضياً عندك.

إنّ للإرث هنا مفهوماً ومعنى واسعاً يشمل إرث الأموال كما يشمل إرث المقامات المعنوية، لأنّ الأشخاص الفاسدين إذا تولّوا أمر هذه الأموال، فإنّهم سيكونون مصدر قلق حقاً، وإذا وقعت زمام الأمور وقيادة الناس المعنوية بيد أناس منحرفين، فإنّ ذلك أيضاً يثير المخاوف، وعلى هذا فإنّ خوف زكريا يمكن توجيهه في كلا الصورتين.

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ
عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ
لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

بلوغ زكريا أمله: تبيّن هذه الآيات استجابة دعاء زكريا ﷺ من قبل الله تعالى استجابة

ممزوجة بلطفه الكريم وعنايته الخاصة، وتبدأ بهذه الجملة: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

أمّا زكريا الذي كان يرى أنّ الأسباب الظاهرية لا تساعد على الوصول إلى مثل هذه الأمنية، فإنّه طلب توضيحاً لهذه الحالة من الله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

«عاقر»: في الأصل من لفظة «عقر» بمعنى الجذر والنهاية، أو بمعنى الحبس، وإنّما يقال للمرأة، عاقر؛ لأنّ قابليتها على الولادة قد انتهت، أو لأنّ إنجاب الأولاد محبوس عنها.

«العتيّ»: تعني الشخص الذي نحل جسمه وضعف هيكله، وهي الحالة التي تظهر على الإنسان عند شيخوخته.

إلّا أنّ زكريا سمع في جواب سؤاله قول الله سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

إنّ هذه ليست بالمسألة العجيبة، أن يولد مولود من رجل طاعن في السن مثلك، وامرأة عقيم ظاهراً ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، فإنّ الله قادر على أن يخلق كل شيء من العدم، فلا عجب أن يتلطّف عليك بولد في هذا السن وفي هذه الظروف.

وقد سرّ زكريا وفرح كثيراً لدى سماعه هذه البشارة، وغمر نور الأمل نفسه، لكن لمّا كان هذا النداء بالنسبة إليه مصيرياً ومهماً جدّاً، فإنّه طلب من ربّه آية على هذا العمل: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾.

لا شك أنّ زكريا كان مؤمناً بوعد الله، وكان مطمئناً لذلك، إلّا أنّه لزيادة الإطمئنان ـ كما أنّ إبراهيم الذي كان مؤمناً بالمعاد طلب مشاهدة صورة وكيفية المعاد في هذه الحياة ليطمئن قلبه ـ طلب من ربّه مثل هذه العلامة والآية، فخاطبه الله: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، واشغل لسانك بذكر الله ومناجاته.

وهذه واقعاً معجزة بيّنة حيث إنّ إنساناً يمتلك لساناً سليماً، وقدرة على كل نحو من المناجاة مع الله، ومع ذلك لا تكون له القدرة على التحدّث أمام الناس.

بعد هذه البشارة والآية الواضحة، خرج زكريا من محراب عبادته إلى الناس، فكلّمهم بالإشارة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، لأنّ النعمة الكبيرة التي منّ الله بها على زكريا قد أخذت بأطراف القوم، وكان لها تأثير على مصير ومستقبل كل هؤلاء.

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ بإمكان هذه الموهبة التي تعتبر إعجازاً أن تحكّم أسس الايمان في قلوب الناس، وكانت هذه أيضاً موهبة أُخرى.

لقد ورد اسم «يحيى» في القرآن الكريم خمس مرات ـ في سور آل عمران، والأنعام، ومريم، والأنبياء ـ فهو واحد من أنبياء الله الكبار، ومن جملة امتيازاته ومختصاته أنّه وصل إلى مقام النبوة في مرحلة الطفولة.

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (۱۲) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (۱۳) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (۱٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (۱٥)﴾

صفات يحيى عليه السلام البارزة: رأينا في الآيات السابقة كيف أنّ الله سبحانه منّ على زكريا عند كبره بيحيى، وبعد ذلك فإنّ أوّل ما نلاحظه في هذه الآيات هو الأمر الإلهي المهم الذي يخاطب يحيى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

إنّ المراد من الكتاب هنا هو التوراة، فإنّ المراد من أخذ الكتاب بقوة هو إجراء وتنفيذ ما جاء في كتاب التوراة السماوي وأن يعمل بكلّ ما فيه، وأن يستعين بكل القوى المادية والمعنوية في سبيل نشره وتعميمه.

ثم أشار القرآن الكريم إلى المواهب العشرة التي منحها الله ليحيى والتي اكتسبها بتوفيق الله:

١ـ ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾. وهو أمر النبوة والعقل والذكاء والدراية.

٢ـ ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾. و«الحنان» في الأصل بمعنى الرحمة والشفقة والمحبة وإظهار العلاقة والمودة للآخرين.

٣ـ ﴿وَزَكَاةً﴾. أي أعطيناه روحاً طاهرة وزكية.

٤ـ ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾. فكان يجتنب كل ما يخالف الأوامر الالهية.

٥ـ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾.

٦ـ ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ فلم يكن رجلاً ظالماً ومتكبّراً وانانياً.

٧ـ ولم يكن ﴿عَصِيًّا﴾ ولم يقترف ذنباً ومعصية.

٨، ٩، ١٠ـ ولمّا كان جامعاً لكل هذه الصفات البارزة، والأوسمة الكبيرة، فإنّ الله سبحانه قد سلّم عليه في ثلاثة مواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

إنّ جملة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ...﴾ يبيّن أنّ في تاريخ حياة الإنسان وانتقاله من عالم إلى عالم آخر ثلاثة أيام صعبة: يوم يضع قدمه في هذه الدنيا: ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ ويوم موته وانتقاله إلى عالم البرزخ ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ ويوم بعثه في العالم الآخر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. ولمّا كان من الطبيعي أن تكون هذه الأيّام مرافقة للإضطرابات والقلق، فإنّ الله سبحانه يكتنف خاصة عباده بلطفه وعافيته، ويجعل هؤلاء في ظلّ حمايته ومنعته في هذه المراحل العسيرة الثلاثة.

شهادة يحيى عليه السلام: لقد أصبح يحيى ضحيّة للعلاقات غير الشرعية لأحد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلّق «هروديس» ملك فلسطين اللاهث وراء شهواته ببنت أخته «هروديا» ولذلك صمم على الزواج منها.

فبلغ هذا الخبر نبي الله العظيم يحيى عليه السلام، فأعلن بصراحة أنّ هذا الزواج غير شرعي ومخالف لتعليمات التوراة، وسأقف أمام مثل هذا العمل.

لقد انتشر صخب وضوضاء هذه المسألة في كل أرجاء المدينة، وسمعت تلك الفتاة (هروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق في طريقها، ولذلك صممت على الإنتقام منه في فرصة مناسبة، فعمّقت علاقتها بخالها ووطّدتها، وجعلت من جمالها مصيدة له، فقالت هروديا: لا أريد منك إلّا رأس يحيى.

فسلّم هيروديس لما أرادت من دون أن يفكّر ويتنبه إلى عاقبة هذا العمل، ولم يمض قليل من الزمن حتى أُحضر رأس يحيى عند تلك المرأة الفاجرة، إلّا أنّ عواقب هذا العمل الشنيع قد أحاطت به، وأخذت بأطرافه في النهاية.

في تفسير مجمع البيان عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عزّ وجل أنّ رأس يحيى بن زكريا أُهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل». أي إنّ ظروفي تشابه من هذه الناحية ظروف وأحوال يحيى، لأنّ أحد أهداف ثورتي محاربة الأعمال المخزية لطاغوت زماني يزيد.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ
دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ
بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا
زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾
قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ
أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

ولادة عيسى عليه السلام: بعد ذكر قصة يحيى عليه السلام، حوّلت الآيات مجرى الحديث إلى قصة عيسى عليه السلام لوجود علاقة قوية وتقارب واضح جداً بين مجريات هاتين الحادثتين.

فإن كانت ولادة يحيى من أب كبير طاعن في السن وأم عقيم عجيبة، فإنّ ولادة عيسى من أمّ دون أب أعجب.

وإن كان الوصول إلى مقام النبوة وبلوغ العقل الكامل ـ في مرحلة الطفولة ـ باعثاً على الحيرة ومعجزاً، فإنّ التحدّث في المهد عن الكتاب والنبوة أبعث على التعجب والحيرة، وأكثر إعجازاً.

وعلى كل حال، فإنّ كلا الأمرين آيتان على قدرة الله الكبير المتعال، إحداهما أكبر من الأُخرى، وقد صادف أن تكون كلتا الآيتين مرتبطتان بشخصين تربطهما أواصر نسب قوية، فكل منهما قريب للآخر من ناحية النسب، حيث إنّ أُمّ يحيى كانت أخت أُمّ مريم، وكانت كلتاهما عقيمتين وتعيشان أمل الولد الصالح.

تقول الآية الأُولى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾.

«انتبذت»: أخذت من مادة «نبذ» وهي تعني إلقاء وإبعاد الأشياء التي لا تسترعي الإنتباه، وربّما كان هذا التعبير في الآية إشارة إلى أنّ مريم قد اعتزلت بصورة متواضعة ومجهولة وخالية من كل ما يجلب الإنتباه، واختارت ذلك المكان من بيت الله للعبادة.

في هذه الأثناء ومن أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها واعتكافها من كل جهة، فإنّها ﴿**فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا**﴾. ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾. والروح هنا جبرئيل ملك الله العظيم حيث تجسّد لمريم على شكل انسان جميل لا عيب فيه ولا نقص.

إنّ الحالة التي اعترت مريم في تلك اللحظة واضحة جداً، كم داخلها من الرعب والإضطراب عند مشاهدة هذا المنظر، وهو دخول رجل أجنبي جميل في محل خلوتها، ولذلك فإنّها مباشرة: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. وكانت هذه أوّل هزّة عمّت كل وجود مريم.

إنّ ذكر اسم الرحمان، ووصفه برحمته العامة من جهة، وترغيب الرجل في التقوى والإمتناع عن المعصية من جهة أُخرى، كان من أجل أن يرتدع هذا الشخص المجهول إن كانت له نيّة سيّئة في إرتكاب المعصية.

لقد كانت مريم تنتظر ردّ فعل ذلك الشخص المجهول بعد أن تفوّهت بهذه الكلمات إنتظاراً مشوباً بالإضطراب والقلق الشديد، إلّا أنّ هذه الحالة لم تطل، فقد كلّمها ذلك الشخص، ووضّح مهمّته ورسالته العظيمة ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾.

لقد كانت هذه الجملة كالماء الذي يلقىٰ على النار، فقد طمأنت قلب مريم الطاهر، إلّا أنّ هذا الإطمئنان لم يدم طويلًا، لأنّه أضاف مباشرة: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

لقد اهتزّ كيان ووجود مريم لدى سماع هذا الكلام، وغاصت مرّة أُخرى في قلق شديد: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

لقد كانت تفكّر في تلك الحالة في الأسباب الطبيعية فقط. إلّا أنّ أمواج هذا القلق المتلاطمة هدأت بسرعة عند سماع كلام آخر من رسول الله إليها، فقد خاطب مريم بصراحة: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. فأنت الواقفة على قدرتي والعالمة بها جيّداً... أنت التي رأيت ثمر الجنّة في فصل لا يوجد شبيه لتلك الفاكهة في الدنيا جنب محراب عبادتك، أنت التي سمعت نداء الملائكة حين شهدت بعفّتك وطهارتك... أنت التي تعلمين أنّ جدّك آدم قد خلق من التراب، فلماذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثم أضاف: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾. فنحن نريد أن نبعثه للناس رحمة من عندنا، ونجعله معجزة، وعلى كل حال، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. فلا مجال بعد ذلك للمناقشة.

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا
تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ
رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى
نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

مريم في عاصفة: وأخيراً حملت مريم، واستقرّ ذلك الولد الموعود في رحمها: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾.

إنّ هذا الأمر قد تسبب في أن تبتعد عن بيت المقدس ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

لقد كانت تعيش في حالة بين الخوف والأمل، حالة من القلق والإضطراب المشوب بالسرور، فهي تفكّر أحياناً بأنّ هذا الحمل سيفتضح أمره في النهاية.

فمن الذي سيقتنع بأنّ إمرأة لا زوج لها تحمل دون أن تكون قد تلوّثت بالرذيلة؟ فماذا سأفعل تجاه هذا الإتهام؟

إلّا أنّها من جهة أُخرى كانت تحسّ أنّ هذا المولود، نبي الله الموعود، تحفة سماوية نفيسة، فإنّ الله الذي بشّرني بمثل هذا الغلام، وخلقه بهذه الصورة الإعجازية كيف سيذرني وحيدة؟

ومهما كان فقد انتهت مدّة الحمل.

ومع أنّ النساء يلجأن عادة في مثل هذه الحالة إلى المعارف والأصدقاء ليساعدوهنّ على الولادة، إلّا أنّ وضع مريم لمّا كان استثنائياً، ولم تكن تريد أن يرى أحد وضع حملها مطلقاً، فإنّها اتّخذت طريق الصحراء بمجرّد أن بدأ ألم الولادة؛ ويقول القرآن في ذلك: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

إنّ التعبير بجذع النخلة، وبملاحظة أنّ الجذع يعني بدن الشجرة، يوحي بأنّه لم يبق من تلك الشجرة إلّا جذعها وبدنها، أي إنّ الشجرة كانت يابسة.

في هذا الحال غمر كل وجود مريم الطاهر سيل من الغم والحزن، لقد كان هذا الإضطراب والصراع صعباً جدّاً، وقد أثقل كاهلها إلى الحد الذي تكلّمت فيه بلا إرادة و﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

إنّ من البديهي أنّ الخوف من التهم في المستقبل لم يكن الشيء الوحيد، وإن كان هذا الموضوع يشغل فكر مريم أكثر من أيّة مسألة أُخرى، إلّا أنّ مشاكل ومصائب أُخرى كوضع الحمل لوحدها بدون قابلة وصديق ومعين في الصحاري الخالية، وعدم وجود مكان للإستراحة، وعدم وجود الماء للشرب، والطعام للأكل، وعدم وجود وسيلة لحفظ المولود الجديد، وغير هذه الأُمور كانت تهزّها من الأعماق بشدة.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلًا، فقد سطعت ومضة الأمل التي كانت موجودة دائماً في

أعماق قلبها، وطرق سمعها صوت، ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾. وانظري إلى الأعلى كيف أنّ هذا الجذع اليابس قد تحوّل إلى نخلة مثمرة، ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ بالمولود الجديد، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. وهذا الصوم هو المعروف بصوم السكوت.

وعلى هذا فليهدأ روعك من كل الجهات، ولا تدعي للهم طريقاً إلى نفسك.

ويظهر من تعبير الآية أنّ نذر صوم السكوت كان أمراً معروفاً في ذلك المجتمع، ولهذا لم يعترضوا على هذا العمل؛ غير أنّ هذا النوع من الصوم غير جائز في شريعتنا.

عن علي بن الحسين عليه السلام (في حديث) قال: «وصوم الصمت حرام»[١].

استفاد المفسرون مما جاء صريحاً في هذه الآيات، أنّ الله سبحانه قد جعل غذاء مريم حين ولادة مولودها الرطب.

في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله ليكن أوّل ما تأكل النفساء الرطب، فإنّ الله عزّ وجل قال لمريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾».

ويستفاد من الروايات أنّ أفضل غذاء ودواء للحامل هو الرطب.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ
مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَ
جَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾
وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

المسيح يتكلّم في المهد: وأخيراً رجعت مريم عليها السلام من الصحراء إلى المدينة وقد احتضنت طفلها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾. فلمّا رأوا طفلاً حديث الولادة بين يديها فغرّوا أفواههم تعجّباً، وتعجّل آخرون في القضاء والحكم، وقالوا: إنّ من المؤسف هذا الإنحدار مع ذلك الماضي المضيء، ومع الأسف على تلوّث سمعة تلك الأسرة الطاهرة، ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ

١. وسائل الشيعة ٧/ ٣٩٠.

﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾.

والبعض الآخر واجهها، بالقول: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

أمّا قولهم لمريم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ لأنّ هارون رجل طاهر صالح إلى الدرجة التي يضرب به المثل بين بني إسرائيل، فإذا أرادوا أن يصفوا شخصاً بالطهارة والنزاهة، كانوا يقولون: إنّه أخو أو أخت هارون.

في هذه الساعة، سكتت مريم بأمر الله، والعمل الوحيد الذي قامت به، هو أنّها أشارت إلى وليدها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾. إلّا أنّ هذا العمل جعل هؤلاء يتعجبون أكثر، ثم غضبوا فقالوا: مع قيامك بهذا العمل تسخرين من قومك أيضاً؟ ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

إنّ الناس قلقوا واضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل وربما غضبوا وقالوا لبعضهم البعض ـ حسب بعض الروايات ـ: إنّ استهزاءها وسخريتها أشدّ علينا من انحرافها عن جادة العفة.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلاً، لأنّ ذلك الطفل الذي ولد حديثاً قد فتح فاه وتكلّم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، ومفيداً من كل الجهات للعباد ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وكذلك جعلني مطيعاً ووفيّاً لأمي ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

وروى ـ في التفسير الكبير ـ أنّ عيسى عليه السلام قال: «قلبي لين وأنا صغير في نفسي»، وهو إشارة إلى أنّ هذين الوصفين يقعان في مقابل الجبار والشقي.

وفي النهاية يقول هذا المولود ـ أي المسيح ـ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

هذه الآية في حق يحيى عليه السلام كما وردت في شأن المسيح عليه السلام، مع الاختلاف بأنّ الله هو الذي قالها في المورد الأوّل، أمّا في المورد الثاني فإنّ المسيح قد طلب ذلك.

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

أيمكن أن يكون لله ولداً! بعد تجسيد القرآن الكريم في الآيات السابقة حادثة ولادة المسيح عليه السلام بصورة حيّة وواضحة جداً، انتقل إلى نفي الخرافات وكلمات الشرك التي قالوها في شأن عيسى، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. خاصّة وأنّه يؤكّد على كونه «ابن مريم» ليكون ذلك مقدمة لنفي بنوّته لله سبحانه. ثم يضيف: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

وتقول الآية التالية بصراحة: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. وهذا إشارة إلى أنّ اتخاذ الولد ـ كما يظن المسيحيون في شأن الله ـ لا يناسب قداسة مقام الألوهية والربوبية، فهو يستلزم من جهة الجسمية، ومن جانب آخر المحدودية، ومن جهة ثالثة الإحتياج.

إنّ تعبير ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ تجسيد حي جداً عن مدى سعة قدرة الله، وتسلطه وحاكميته في أمر الخلقة.

وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

إنّ آخر كلام لعيسى عليه السلام بعد تعريفه لنفسه بالصفات التي ذكرت، هو التأكيد على مسألة التوحيد، وخاصة في مجال العبادة، فيقول: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وعلى هذا فإنّ عيسى عليه السلام بدأ بمحاربة كل أنواع الشرك وعبادة الآلهة المزدوجة والمتعددة منذ بداية حياته.

غير أنّه بالرغم من كل هذه التأكيدات التي أكّد عليها المسيح عليه السلام في مجال التوحيد وعبادة الله، فقد اختلفت الفئات، وأظهروا اعتقادات مختلفة، وخاصة في شأن المسيح: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

إنّ تاريخ المسيحية يشهد بوضوح على مدى الاختلاف الذي حصل بعد المسيح عليه السلام في شأنه، وحول مسألة التوحيد.

فذهب البعض: إنّ المسيح هو الله الذي نزل إلى الأرض! فأحيى جماعة، وأمات أخرى، ثم صعد إلى السماء!

وقال البعض الآخر: إنّه ابن الله!

ورأى آخرون: إنّه أحد الأقانيم الثلاثة ـ الذوات الثلاثة المقدسة ـ الأب والابن وروح القدس، الله الأب، والله الابن وروح القدس.

وآخرون قالوا: إنّه ثالث ثلاثة: فالله معبود، وهو معبود، وأُمّه معبودة!

وأخيراً قال البعض: إنّه عبد الله ورسوله.

ولمّا كان الانحراف عن أصل التوحيد يعتبر أكبر انحراف للمسيحيين، فقد رأينا كيف أنّ الله قد هدّد هؤلاء في ذيل الآية بأنّهم سيكون لهم مصير مؤلم مشؤوم في يوم القيامة، في ذلك المشهد العام، وأمام محكمة الله العادلة.

ثم تبيّن الآية التالية وضع أُولئك في عرصات القيامة، فتقول عندما يقدمون علينا يوم القيامة فسوف تكون لهم اسماع قويّة وابصار حادّة فيسمعون ويرون جميع الحقائق التي كانت خافية عليهم في هذه الدنيا، ولكن الظالمين اليوم، أي في هذه الدنيا غافلون عن هذه العاقبة: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن الطبيعي أن تسلب الحكمة وآثار الأعمال نوم الغفلة من العين والأُذن، وحتى عمي القلوب فإنّهم سيعون الأمر ويعلمون الحق، إلّا أنّ هذا الوعي والعلم لا ينفعهم شيئاً.

ثم تؤكّد الآية التالية مرّة أُخرى على مصير المنحرفين والظالمين في ذلك اليوم، فتقول: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

حيث يتحسّر المؤمنون المحسنون على قلّة عملهم، ويا ليتهم كانوا قد عملوا أكثر، وكذلك يتحسّر المسيئون، لأنّ الحجب تزول، وتتّضح حقائق الأعمال ونتائجها للجميع.

ثم تحذّر الآية الأخيرة ـ من آيات البحث ـ كل الظالمين والجائرين، وتذكّرهم بأنّ هذه الأموال التي تحت تصرفهم الآن ليست خالدة، كما أنّ حياتهم ليست خالدة، بل إنّ الوارث الأخير لكل شيء هو الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ
وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ
وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

إبراهيم ومنطقه المؤثر والقاطع: تزيح هذه الآيات الستار عن جانب من حياة بطل التوحيد إبراهيم الخليل ﷺ، وتؤكّد على أنّ دعوة هذا النبي الكبير ـ كسائر المرشدين الإلهيين ـ تبدأ من نقطة التوحيد، فتقول أوّلاً: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾.

إنّ أبرز صفة يلزم وجودها في كل الانبياء وحملة الوحي الإلهي أن يوصلوا أوامر الله إلى العباد دون زيادة أو نقصان.

ثم تتطرق الآية التي بعدها إلى شرح محاورته مع أبيه آزر ـ والأب هنا إشارة إلى العم، فإنّ كلمة الأب، كما قلنا سابقاً، ترد أحياناً في لغة العرب بمعنى الأب، وأحياناً بمعنى العم ـ فتقول: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾.

إنّ هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلة نفي الشرك وعبادة الأوثان، لأنّ أحد بواعث الإنسان في معرفة الرب هو باعث الربح والخسارة، والضرر والنفع، والذي يعبّر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتّجه إلى معبود ليس عاجزاً عن حل مشكلة من مشاكلك وحسب، بل إنّه لا يملك أصلاً القدرة على السمع والبصر.

بعد ذلك دعاه ـ عن طريق المنطق الواضح ـ إلى اتّباعه، فقال: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾. فإنّي قد وعيت أُموراً كثيرة عن طريق الوحي، وأستطيع أن أقول باطمئنان: إنّي سوف لا أسلك طريق الضلال والخطأ، ولا أدعوك أبداً إلى هذا الطريق المعوج.

ثم يعطف نظره إلى الجانب السلبي من القضية بعد ما ذكر بعدها الايجابي ويشير إلى الآثار التي تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: ﴿**يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا**﴾.

إنّ العبادة هنا بمعنى الطاعة واتباع الأوامر، وهذا بنفسه يعتبر نوعاً من العبادة.

ثم يذكّره وينبّهه مرّة أُخرى بعواقب الشرك وعبادة الأصنام المشؤومة، ويقول: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾.

إنّ تعبير إبراهيم هذا رائع جدّاً، فهو من جانب يخاطب عمّه دائماً بـ﴿**يَا أَبَتِ**﴾ وهذا يدل على الأدب واحترام المخاطب، ومن جانب آخر فإنّ قوله ﴿**أَن يَمَسَّكَ**﴾ توحي بأنّ

إبراهيم كان قلقاً ومتأثراً من وصول أدنى أذى إلى آزر.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

نتيجة البعد عن الشرك والمشركين: مرّت في الآيات السابقة كلمات إبراهيم ﷺ التي كانت ممتزجة باللطف والمحبّة في طريق الهداية، والآن جاء دور ذكر أجوبة آزر، لكي تتّضح الحقيقة والواقع من خلال مقارنة الكلامين مع بعضها. يقول القرآن الكريم: إنّ حرص وتحرّق إبراهيم، وبيانه الغني العميق لم ينفذ إلى قلب آزر، بل إنّه غضب لدى سماعه هذا الكلام، و﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا**﴾.

لكن، ورغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم على أعصابه، كبقية الأنبياء والقادة الإلهيين، ومقابل هذه الغلظة والحدّة وقف بكل سمو وعظمة، و﴿**قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ**﴾.

إنّ هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، وأنّ إبراهيم بقوله: ﴿**سَلَٰمٌ عَلَيْكَ**﴾ وما يأتي بعده من كلام يقصد ترك آزر؛ ويمكن أن يكون سلاماً يقال لفض النزاع.

ثم أضاف: ﴿**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا**﴾. إنّ إبراهيم في الواقع قابل خشونة وتهديد آزر بالعكس، ووعده بالاستغفار وطلب مغفرة الله له.

ثم يقول: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾. أي: الأصنام. ﴿**وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا**﴾.

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم في مقابل آزر، ومن جهة أُخرى فإنّها تبيّن حزمه في عقيدته.

لقد وفى إبراهيم بقوله، وثبت على عقيدته بكلّ صلابة وصمود، وكان دائماً ينادي بالتوحيد، بالرغم من أنّ كل ذلك المجتمع الفاسد في ذلك اليوم قد وقف ضدّه وثار عليه، إلّا أنّه لم يبق وحده في النهاية، فقد وجد أتباعاً كثيرين على مرّ القرون والأعصار، بحيث إنّ كل

الموحدين وعباد الله في العالم يفتخرون بوجوده. يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

إنّ هذه الموهبة العظيمة كانت نتيجة صبر إبراهيم عليه السلام واستقامته التي أظهرها في طريق محاربة الأصنام، واعتزال المنهج الباطل والابتعاد عنه.

وإضافة إلى ذلك: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾. تلك الرحمة الخاصة بالمخلصين، والرجال المجاهدين في سبيل الله. وأخيراً: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

إنّ هذا في الحقيقة إجابة لطلب ودعاء إبراهيم الذي جاء في الآية (٨٤) من سورة الشعراء: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

موسى النبي المخلص: في هذه الآيات الثلاث إشارة قصيرة إلى موسى عليه السلام ـ وهو من ذرّية إبراهيم عليه السلام وموهبة من مواهب ذلك الرجل العظيم ـ حيث سار على خطاه.

وتوجّه الآية الخطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾.

ثم تذكر خمس مواهب وصفات من المواهب التي أعطيت لهذا النبي الكبير:

١ـ إنّه وصل في طاعته وعبوديته لله إلى حدّ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾. ولا ريب أنّ الذي يصل إلى هذه المرتبة سيكون مصوناً من خطر الانحراف والتلوّث، لأنّ الشيطان رغم كل إصراره على إضلال عباد الله، يعترف هو نفسه بعدم قدرته على إضلال المخلصين: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

٢ـ ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾. فحقيقة الرسالة أن تلق مهمّة على عاتق شخص، وهو مسؤول عن أدائها وإبلاغها، وهذا المقام كان لجميع الأنبياء المأمورين بالدعوة.

إنّ ذكر كونه «نبيّاً» هنا إشارة إلى علوّ مقام هذا النبي العظيم، لأنّ هذه اللفظة في الأصل مأخوذة من (النَّبْوَة) وتعني رفعة المقام وعلوّه.

٣ـ وأشارت الآية التالية إلى بداية رسالة موسى، فقالت: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ

---

١. سورة ص /٨٢ و٨٣.

﴿الْأَيْمَنِ﴾. في تلك الليلة المظلمة الموحشة، حيث قطع موسى صحاري مدين متوجّهاً إلى مصر، أخذ زوجته الطلق وألم الولادة، وكان البرد شديداً، فكان يبحث عن شعلة نار، وفجأة سطع نور من بعيد، وسمع نداء يبلغه رسالة الله، وكان هذا أعظم وسام وألذّ لحظة في حياته.

٤ـ إضافة إلى ذلك: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [١] فإنّ النداء كان موهبة، والتكلّم موهبة أُخرى.

٥ـ وأخيراً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ليكون معينه ونصيره.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

إسماعيل نبي صادق الوعد: بعد ذكر إبراهيم عليه السلام وتضحيته، وبعد الإشارة القصيرة إلى حياة موسى عليه السلام المتسامية، يأتي الحديث عن إسماعيل، أكبر ولد إبراهيم، ويكمل ذكر إبراهيم بذكر ولده إسماعيل، ويراجه ببراج ولده، ويبيّن القرآن الكريم خمس صفات من صفاته البارزة التي يمكن أن تكون قدوة للجميع.

ويبدأ الكلام بخطاب الآية الشريفة للنبي صلى الله عليه وآله فتقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾

هؤلاء أنبياء الله، ولكن... في آخر قسم من تذكيرات هذه السورة، جاء الحديث عن

---

١. وهنا ينادي الله موسى من بعيد، ولمّا اقترب ناجاه، ومن المعلوم أنّ الله سبحانه ليس له لسان ولا مكان، بل يوجد الأمواج الصوتية في الفضاء، ويتكلم مع عبد كموسى.

«إدريس» النبي، فقالت الآية أوّلاً: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

«الصديق»: هو الشخص الصادق جدّاً، والمصدق بآيات الله سبحانه، والمذعن للحق والحقيقة.

ثم تشير الآية إلى مقامه العالي وتقول: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. والمراد هو عظمة المقامات المعنوية والدرجات الروحية لهذا النبي الكبير.

ثم تبيّن الآية التالية بصورة جماعية عن كل الإمتيازات والخصائص التي مرّت في الآيات السابقة حول الأنبياء العظام وصفاتهم وحالاتهم والمواهب التي أعطاهم الله إياها، فتقول: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

إنّ المراد من ذرّية آدم في هذه الآية هو إدريس، حيث كان ـ حسب المشهور ـ جدّ النبي نوح.

والمراد من الذرية، هم الذين ركبوا مع نوح في السفينة، لأنّ إبراهيم كان من أولاد سام بن نوح. والمراد من ذرّية إبراهيم: إسحاق وإسماعيل ويعقوب؛ والمراد من ذرّية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

ثم تكمل الآية هذا البحث بذكر الأتباع الحقيقيين لهؤلاء الأنبياء، فتقول: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [1].

ثم تتحدث الآيات عن جماعة انفصلوا عن دين الأنبياء المربي للإنسان، وكانوا خلفاً سيئاً لم ينفّذوا ما أريد منهم، وتعدد الآية قسماً من أعمالهم القبيحة، فتقول: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

«خَلْف» بمعنى الأولاد الطالحين؛ و«خَلَف» بمعنى الأولاد الصالحين.

وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى جماعة من بني إسرائيل ساروا في طريق الضلال، فنسوا الله، ورجّحوا اتباع الشهوات على ذكر الله.

إنّ المراد من (إضاعة الصلاة) هنا القيام بأعمال تضيع الصلاة في المجتمع.

ولمّا كان منهج القرآن في كل موضع هو فتح ابواب الرجوع إلى الايمان والحق دائماً، فإنّه

---

١. «سجد»: جمع ساجد؛ و«بكي»: جمع باك.

يقول هنا أيضاً بعد ذكر مصير الأجيال المنحرفة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وعلى هذا فلا يعني أنّ الإنسان إذا غاص يوماً في الشهوات فسيكتب على جبينه اليأس من رحمة الله.

طبقاً لنقل كثير من المفسرين، فإنّ إدريس جدّ سيدنا نوح ﷺ واسمه في التوراة «أخنوخ» وفي العربية (إدريس)، وذهب البعض أنّه من مادة (درس) لأنّه أوّل من كتب بالقلم، فقد كان إضافة إلى النبوّة عالماً بالنجوم والحساب والهيئة، وكان أوّل من علّم البشر خياطة الملابس.

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

بعض صفات الجنة: وصفت الجنّة ونعمها في هذه الآيات بأنّها ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾.

ثم تشير بعد ذلك إلى نعمة أُخرى من أكبر نعم الجنة فتقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فلا كذب، ولا عداء، لا تهمة ولا جرح لسان، لا سخرية ولا حتى كلام لا فائدة فيه، بل الشيء الوحيد الذي يسمعونه هو السلام ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾.

السلام الذي هو علامة على المحيط الآمن، المحيط المليء بالصفاء والعلاقة الحميمة والطهارة والتقوى والصلح والهدوء والاطمئنان.

وبعد هذه النعمة تشير الآية إلى نعمة أُخرى فتقول: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

وبعد الوصف الإجمالي للجنة ونعمها المادية والمعنوية، تعرّف الآية أهل الجنة في جملة قصيرة، فتقول: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾. وعلى هذا فإنّ مفتاح باب الجنة مع كل تلك النعم التي مرّت ليس إلّا «التقوى».

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: احتبس الوحي أيّاماً، لمّا سئل النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، فشقّ ذلك عليه فلمّا أتاه جبرائيل استبطأه فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية.

التّفسير

الطاعة التامة: بالرغم من أنّ لهذه الآية سبب نزول ذكر أعلاه، إلّا أنّ هذا لا يكون مانعاً من أن يكون لها إرتباطاً منطقياً بالآيات السابقة، لأنّها تأكيد على أنّ كل ما أتى به جبرئيل من الآيات السابقة قد بلّغه عن الله بدون زيادة أو نقصان، ولا شيء من عنده، فتتحدث الآية الأُولى على لسان رسول الوحي فتقول: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، فكل شيء منه، ونحن عباد وضعنا أرواحنا وقلوبنا على الأكف، ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾. والخلاصة: فإنّ الماضي والحاضر والمستقبل، وهنا وهناك وكل مكان، والدنيا والآخرة والبرزخ، كل ذلك متعلق بذات الله المقدسة.

ثم تضيف الآية: إنّ كل ذلك بأمر ربك ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فإذا كان الأمر كذلك، وكل الخطوط تنتهي إليه ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ عبادة مقترنة بالتوحيد والإخلاص.

ولما كان هذا الطريق ـ طريق العبودية والطاعة وعبادة الله الخالصة ـ مليء بالمشاكل والمصاعب، فقد أضافت: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾. وتقول في آخر جملة: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

وهذه الجملة في الواقع، دليل على ما جاء في الجملة السابقة، يعني: هل لذاته المقدسة شريك ومثيل حتى تمدّ يدك إليه وتعبده؟

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان أنّ الآيات الأُولى نزلت في أُبي بن خلف الجمحي، وذلك أنّه أخذ

عظماً بالياً فجعل يَفُتّه بيده ويذريه في الريح ويقول: زعم محمّد أنّ الله يبعثنا بعد أن نموت ونكون عظاماً مثل هذا، إنّ هذا شيء لا يكون أبداً.

التفسير

حال أهل النار: مرّت في الآيات السابقة بحوث عديدة حول القيامة والجنّة والجحيم، وتتحدّث هذه الآيات التي نبحثها حول نفس الموضوع، فتعيد الآية الأُولى أقوال منكري المعاد، فتقول: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾. أي إنّ هذا الشيء غير ممكن.

ثم يجيبهم مباشرة بنفس التعبير: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾.

ثم تهدد الآية التالية منكري المعاد، والمجرمين الكافرين: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

إنّ هذه الآية توحي بأنّ محكمة الأفراد الكافرين والمجرمين قريبة من جهنم.

ولمّا كانت الأولويات تلاحظ في تلك المحكمة العادلة، فإنّ الآية التالية تقول: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا﴾[١]، ونبدأ بحسابهم أوّلاً، فإنّهم عتوا عتواً نسوا معه كل مواهب الله الرحمان، وجنحوا إلى التمرد والعصيان وإظهار الوقاحة أمام ولي نعمتهم.

ثم تؤكّد على هذا المعنى مرّة أُخرى فتقول: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾. فسنختار هؤلاء بدقة، وسوف لا يقع أيّ اشتباه في هذا الإختيار.

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

الجميع يردون جهنم: تستمر الآيات في بحث خصائص القيامة والثواب والعقاب، وأشارت في البداية إلى مسألة يثير سماعها الحيرة والعجب لدى أغلب الناس، فتقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾. فجميع الناس سيدخلون جهنّم بدون استثناء لأنّه أمر حتمي.

---

١. «الشيعة»: في الأصل بمعنى الجماعة التي يتعاون أفرادها للقيام بعمل ما، وانتخاب هذا التعبير في الآية يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ العتاة المردة والضالين الكافرين كانوا يتعاونون في طريق الطغيان، ونحن سنحاسب هؤلاء أوّلاً، لأنّهم أكثر تمرّداً وعصياناً من الجميع.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾. فنتركهم فيها جالسين على الركب من الضعف والذّل.

وهناك بحث مفصّل بين المفسرين في تفسير هاتين الآيتين حول المراد من «الورود» في جملة ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ فاختار أكثر المفسرين، أنّ الورود هنا بمعنى الدخول، وعلى هذا الأساس فإنّ كل الناس بدون استثناء ـ محسنهم ومسيؤهم ـ يدخلون جهنّم، إلّا أنّها ستكون برداً وسلاماً على المحسنين، كحال نار نمرود على إبراهيم ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، لأنّ النار ليست من سنخ هؤلاء الصالحين، فقد تفرّ منهم وتبتعد عنهم، إلّا أنّها تناسب الجهنميين فهم بالنسبة للجحيم كالمادة القابلة للإشتعال، فما أن تمسّهم النار حتى يشتعلوا.

إنّ مشاهدة جهنم وعذابها في الحقيقة، ستكون مقدمة لكي يلتذّ المؤمنون بنعم الجنة بأعلى مراتب اللذة.

إنّ أهل النار أيضاً سيلقون عذاباً أشد من رؤية هذا المشهد.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

هذه الآيات تتابع ما مرّ في الآيات السابقة في الحديث عن الظالمين الذين لا إيمان لهم، وتتعرّض لجانب آخر من منطق هؤلاء الظالمين ومصيرهم.

ومن المعلوم أنّ أوّل جماعة آمنت بالرسول الأعظم ﷺ كانوا من المستضعفين الطاهري القلوب، والذين خلت أيديهم من مال الدنيا ومغرياتها.

ولما كان المعيار في المجتمع الجاهلي في ذلك الزمان ـ وكذا في كل مجتمع جاهلي آخر ـ هو الذهب والزينة والمال والمقام والمنصب والهيئة الظاهرية، فكان الأثرياء الظالمون، كالنضر بن الحارث وأمثاله يفتخرون على المؤمنين الفقراء بذلك ويقولون: إنّ علامة شخصيتنا معنا، وعلامة عدم شخصيتكم فقركم ومحروميتكم، وهذا بنفسه دليل على أحقيّتنا وباطلكم، كما يقول القرآن الكريم في أوّل آية من الآيات مورد البحث: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

إلّا أنّ القرآن الكريم يجيب هؤلاء بجواب منطقي ومستدل تماماً، وفي الوقت نفسه قاطع ومفحم، فيقول: كأنّ هؤلاء قد نسوا تاريخ البشر، ولم ينظروا كم دمّرنا من الأقوام السابقين عند تمرّدهم وعصيانهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾[1]. فهل استطاعت أموالهم وثروتهم، ومجالسهم الفاسقة، وملابسهم الفاخرة، وصورهم الجميلة أن تمنع العذاب الإلهي وتقف أمامه.

ثم تحذّرهم تحذيراً آخر، بأن لا تظنّوا أيّها الظالمون الكافرون أنّ مالكم وثروتكم هذه رحمة، بل كثيراً ما تكون دليلًا على العذاب الإلهي: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾. أي: إمّا العذاب في هذه الدنيا، وإمّا عذاب الآخرة، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

وهذا هو ما ذكر في بعض آيات القرآن بعنوان عقاب «الإستدراج».

هذه عاقبة ومصير الظالمين المخدوعين بزخرف الدنيا وزبرجها، أمّا أُولئك الذين آمنوا واهتدوا، فإنّ الله يزيدهم هدىً وإيماناً ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى﴾.

من البديهي أنّ للهداية درجات، فإذا طوى الإنسان درجاتها الأُولى فإنّ الله يأخذه بيده ويرفعه إلى درجات أعلى.

وفي النهاية تجيب الآية هؤلاء الذين اعتمدوا على زينة الدنيا السريعة الزوال، وجعلوها وسيلة للتفاخر على الآخرين، فتقول: ﴿وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ
ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ
مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

تفكير خرافي ومنحرف: يعتقد بعض الناس أنّ الإيمان والطهارة والتقوى لا تناسبهم،

---

١. «الأثاث»: بمعنى المتاع وزينة الدنيا؛ و«رئي»: بمعنى الهيئة والمنظر.

وأنّها السبب في أن تدبر الدنيا عنهم، أمّا إذا خرجوا من دائرة الايمان والتقوى فإنّ الدنيا ستقبل عليهم، وتزيد ثروتهم وأموالهم.

فقد كان في عصر النبي ـ وكذلك في عصرنا ـ أفراد جاهلون يظنّون هذه الظنون والأوهام، أو كانوا يتظاهرون بها على الأقل، فيتحدّث القرآن ـ كمواصلة للبحث الذي بيّنه سابقاً حول مصير الكفار والظالمين ـ في الآيات مورد البحث عن طريقة التفكير هذه وعاقبتها، فيقول في أوّل آية من هذه الآيات: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

ثم يجيبهم القرآن الكريم: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾. فإنّ الذي يستطيع أن يتكهّن بمثل هذا التكهّن، ويقول بوجود علاقة بين الكفر والغنى وامتلاك الأموال والأولاد، مطّلع على الغيب، لأنّا لا نرى أيّ علاقة بين هاتين المسألتين، أو يكون قد أخذ عهداً من الله سبحانه، وهذا الكلام أيضاً لا معنى له.

ثم يضيف بلهجة حادّة: إنّ الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن يكون الكفر أساساً لزيادة مال وولد أحد مطلقاً: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾.

أجل، فإنّ هذا الكلام الذي لا أساس له قد يكون سبباً في انحراف بعض البسطاء، وسيثبت كل ذلك في صحيفة أعمال هؤلاء، ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾.

إنّ هذه الأموال والأولاد التي هي أساس الغرور والضلال هي بنفسها عذاب مستمر لهؤلاء. ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ من الأموال والأولاد، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

نعم، إنّه سيترك في النهاية كل هذه الإمكانيات والأملاك المادية ويرحل، ويحضر في محكمة العدل الإلهية بأيد خالية، وفي الوقت الذي اسودّت فيه صحيفة أعماله من الذنوب والمعاصي، وخلت من الحسنات... هناك، حيث يرى نتيجة أقواله الجوفاء في دار الدنيا.

وتشير الآية التالية إلى علّة أُخرى في عبادة هؤلاء الأفراد للأصنام، فتقول: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾. وليشفعوا لهم عند الله، ويعينوهم في حلّ مشاكلهم، لكن، أيّ ظن خاطىء وخيال ساذج هذا؟!

ليس الأمر كما يظن هؤلاء أبداً، فليست الأصنام سوف لا تكون لهم عزّاً وحسب، بل ستكون منبعاً لذلّتهم وعذابهم، ولهذا فإنّهم سوف ينكرون عبادتهم لها في يوم القيامة: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

إنّ هذه الجملة إشارة إلى نفس ذلك المطلب الذي نقرؤه في الآية (١٤) من سورة فاطر.

يستفاد هذا التفسير من حديث مروي عن الإمام الصادقعليه السلام حيث قال في تفسير هذه الآية: «يكون هؤلاء الذين اتّخذوهم آلهة من دون الله ضداً يوم القيامة ويتبرؤون منهم ومن عبادتهم إلى يوم القيامة».

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

بملاحظة البحث في الآيات السابقة الذي كان حول المشركين، فإنّ البحث في هذه الآيات، إشارة إلى بعض علل انحراف هؤلاء، ثم تبيّن الآيات في النهاية عاقبتهم المشؤومة، وتثبت هذه الحقيقة، وهي أنّ هذه الآلهة لم تكن سبب عزّتهم بل أصبحت سبب ذلّهم وشقائهم، فتقول أوّلاً: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾.

«الأزّ»: في الأصل يعني غليان القدر، وتقلّب محتواه عند شدة غليانه؛ وهو هنا كناية عن مدى تسلّط الشياطين على هؤلاء، بحيث إنّهم يوجّهونهم بالصورة التي يريدونها، وفي المسير الذي يشاؤون، ويقلّبونهم كيف يشتهون.

ومن البديهي أنّ تسلط الشياطين على بني آدم ليس تسلطاً إجبارياً، بل إنّ الإنسان الذي يسمح للشياطين بالنفوذ إلى قلبه وروحه.

ثم يوجّه القرآن المجيد الخطاب إلى النبيصلى الله عليه وآله وسلم فيقول: ﴿**فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**﴾ وسنسجّل كل شيء لذلك اليوم الذي تشكّل فيه محكمة العدل الإلهي.

وهناك احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أنّ المراد من عدّ أيام عمر ـ بل أنفاس ـ هؤلاء، أنّ مدّة بقائهم قصيرة وداخلة تحت إمكان الحساب والعد.

ثم تبيّن المسير النهائي للمتقين والمجرمين في عبارات موجزة، فتقول: إنّ كل هذه الأعمال جمعناها وإدّخرناها لهم: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا**﴾.

في تفسير علي بن ابراهيم عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «**سأل عليعليه السلام رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: يا علي، الوفد لا يكون إلّا ركباناً، أُولئك رجال اتّقوا الله فأحبّهم واختصهم ورضي أعمالهم فسمّاهم الله المتقين. ثم قال: يا علي أما**

والذي فلق الحبة وبرىء النسمة إنّهم ليخرجون من قبورهم وبياض وجوههم كبياض الثلج، عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن، عليهم نعال الذهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ».

ثم تقول في المقابل: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾. كما تساق الإبل العطشى إلى محل الماء، إلّا أنّه لا ماء هناك، بل نار جهنم.

وإذا كانوا يتصورون أنّهم يستطيعون الخلاص عن طريق الشفاعة، فإنّهم يجب أن يعلموا أنّ هؤلاء الذين يرجونهم ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ فلا أحد يشفع لهؤلاء، فمن طريق أولى أن لا يقدروا على الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فهؤلاء هم الوحيدون الذين تنفعهم وتشملهم شفاعة الشافعين، أو أنّ مقامهم أعلى من هذه الرتبة أيضاً، ولهم القدرة والصلاحية لأن يشفعوا للعاصين الذين يستحقون الشفاعة.

والمراد من العهد في الآية الشريفة كل نوع من أنواع الإرتباط بالله ومعرفته وطاعته، وكذلك الإرتباط بمذهب أولياء الحق، وكل عمل صالح.

وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

لمّا كان الكلام في الآيات السابقة عن الشرك، وعاقبة عمل المشركين، فقد أشارت هذه الآيات في نهاية البحث إلى فرع من فروع الشرك، أي الاعتقاد بوجود ولد لله سبحانه، وتبيّن مرّة أُخرى قبح هذا الكلام بأشدّ وأحدّ بيان، فتقول: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾. فليس المسيحيون لوحدهم كانوا يعتقدون بأنّ «المسيح» هو الإبن الحقيقي لله سبحانه، بل إنّ اليهود كانوا يعتقدون أيضاً مثل هذا الاعتقاد في (عزير)، وكذلك عبدة الأصنام في (الملائكة) فكانوا يظنّون أنّها بنات الله.

عند ذلك قالت الآية بلهجة شديدة: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾. «الإدّ»: معناه في الأصل الصوت القبيح المضطرب الذي يصل الأذن نتيجة الاضطراب الشديد للأمواج الصوتية في

حنجرة البعير، ثم أطلق على الأعمال القبيحة والموحشة جداً.

ولمّا كانت مثل هذه النسبة غير الصحيحة مخالفة لأصل التوحيد فكأنّ كل عالم الوجود، الذي بني على أساس التوحيد، قد اضطرب وتصدّع إثر هذه النسبة الكاذبة، ولذلك تضيف الآية التالية: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾.

ومن أجل تأكيد وبيان أهمية الموضوع فإنّها تقول: إنّ كل ذلك من أجل ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

إنّ هؤلاء لم يعرفوا الله قط، لأنّه: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

فإنّ الإنسان يطلب الولد لواحد من عدّة أشياء:

إمّا لأنّ عمره ينتهي فيحتاج لولد مثله يحمل صفاته ليبقى نسله وذكره.

أو لأنّه يطلب الصديق والرفيق لأنّ قوته محدودة.

لكن أيّاً من هذه المعاني لا ينطبق على الله سبحانه، ولا يصح، فلا قدرته محدودة، ولا حياته تنتهي، ولا يعتريه الضعف والوهن، ولا يحس بالوحدة والحاجة، ولذلك قالت الآية الأُخرى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

فمع أنّ كل العباد مطيعون له، وقد وضعوا أرواحهم وقلوبهم على الأكف طاعة لأمره، فهو غير محتاج لطاعتهم، بل هم المحتاجون.

ثم تقول الآية التالية: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾. أي لا تتصور بأنّ محاسبة كل هؤلاء العباد غير ممكن، وعسير عليه سبحانه.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾. وبناء على هذا فإنّ المسيح وعزير والملائكة وكل البشر يشملهم حكمه ولا يستثنى منه أحد، ومع هذه الحال فما أقبح أن نعتقد ونقول بوجود ولد له، وكم ننقص من قدر ذاته المقدسة وننزلها من أوج العظمة وقمّتها، وننكر صفاته الجلالية والجمالية حينما ندّعي أنّ له ولداً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا
يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

الإيمان والمحبوبية: هذه الآيات الثلاث نهاية سورة مريم، والكلام فيها أيضاً عن المؤمنين، والظالمين الكافرين، وعن القرآن وبشاراته وإنذاراته، وهي ـ في الحقيقة ـ عصارة البحوث السابقة بملاحظات ونكات جديدة. تقول أوّلاً: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾.

إنّ للإيمان والعمل الصالح نوراً وضياء بسعة عالم الوجود، ويعمّ نور المحبة الحاصل منهما كل أرجاء عالم الخلقة، وإنّ الذات الإلهية المقدسة تحب أمثال هذا الفرد، فهم محبوبون عند كل أهل السماء، وتقذف هذه المحبة في قلوب أهل الأرض.

ثم تشير الآية التالية إلى القرآن الذي هو منبع ومصدر تنمية الإيمان والعمل الصالح، فتقول: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾.

«اللُدّ»: ـ بضم اللام وتشديد الدال ـ جمع «ألدّ» بمعنى العدو الشديد العداوة، وتطلق على المتعصب العنود في عداوته، ولا منطق له.

وتقول الآية الأخيرة كتهدئة لخاطر النبي ﷺ والمؤمنين، وتسلية لهم، خاصة مع ملاحظة أنّ هذه السورة نزلت في مكة، وكان المسلمون يومذاك تحت ضغط شديد جداً؛ وكذلك تقول بنبرة التهديد والتحذير لكل الأعداء اللجوجين العنودين: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾.

«الركز»: بمعنى الصوت الهادىء، ويقال للأشياء التي يخفونها تحت الأرض: «ركاز»، أي إنّ هؤلاء الأقوام الظالمين، وأعداء الحق والحقيقة المتعصبين، قد تمّ تدميرهم وسحقهم إلى حدّ لا يسمع صوت خفي منهم.

لقد صدرت روايات عديدة عن النبي ﷺ في سبب نزول قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾. في كثير من كتب الحديث وتفسير السنة والشيعة، وهي تبيّن أنّ هذه الآية نزلت لأوّل مرّة في حق علي عليه السلام.

«نهاية تفسير سورة مريم»

٢٠

سورة طه

وهي مائة وخمس وثلاثون آية

مكية

محتوى السورة: إنّ أكثر ما يتحدث سورة (طه) عن المبدأ والمعاد كسائر السور المكية، ويذكر نتائج التوحيد وتعاسات الشرك.

١ـ تشير هذه السورة إلى عظمة القرآن، وبعض صفات الله الجلالية والجمالية.

٢ـ يتحدث أكثر من ثمانين آية عن قصة موسى عليه السلام من حين بعثته، إلى نهوضه لمقارعة فرعون الجبار وأعوانه.

٣ـ جاءت بعض المسائل حول المعاد.

٤ـ تناول جزء آخر من هذه السورة الحديث عن القرآن وعظمته.

٥ـ واحتوى قسم آخر قصة آدم وحواء في الجنة، ثم حادثة وسوسة إبليس، وأخيراً هبوطهما إلى الأرض.

٦ـ وفي القسم الأخير، تبيّن السورة المواعظ والنصائح، لكل المؤمنين، مع توجيه الخطاب في كثير من الآيات إلى نبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

فضيلة تلاوة السورة: في كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تدعوا قراءة سورة طه، فإنّ الله يحبّها، ويحبّ من قرأها، ومن أدمن قراءتها أعطاه الله يوم القيامة كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما عمل في الإسلام، وأعطي في الآخرة من الأجر حتى يرضى».

والمراد من التلاوة هي أن تكون التلاوة مقدمة للتفكر والتدبر، التفكر الذي تتجلّى آثاره في كل أعمال وأقوال الإنسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

سبب النزول

وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآيات الأُولى من هذه السورة، يستفاد من مجموعها أنّ النبي ﷺ بعد نزول الوحي والقرآن كان يعبد الله كثيراً، وخاصة أنّه كان يكثر القيام والوقوف في العبادة حتى تورّمت قدماه، وكان من شدّة التعب أحياناً يستند في وقوفه على إحدىٰ قدميه، ثم يستند على الأُخرى حيناً آخر، وحيناً على كعب قدمه، وآخر على أصابع رجله، فنزلت الآيات المذكورة وأمرت النبي ﷺ أن لا يحمّل نفسه كل هذا التعب والمشقة.

التّفسير

مرّة أُخرى نواجه الحروف المقطعة في بداية هذه السورة، والتي تثير حبّ الاستطلاع لدى الإنسان: ﴿طه﴾.

في كتاب معاني الأخبار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... وأمّا طه فاسم من أسماء النبي ﷺ ومعناه: يا طالب الحق الهادي إليه». ويظهر من هذا الحديث أنّ طه مركّب من حرفين رمزيين، فالطاء إشارة إلى طالب الحق، والهاء إلى الهادي إليه، ونحن نعلم أنّ استعمال الحروف الرمزية وعلامات الإختصار فيما مضى وفي يومنا هذا أمر طبيعي وكثير الاستعمال، خاصة في عصرنا الحاضر فإنّه كثير التداول والاستعمال جداً.

وآخر كلام في هذا الباب هو أنّ (طه) كـ(يس) قد أصبحت تدريجياً وبمرور الزمان اسماً خاصاً للنبي ﷺ، حتى أنّهم يسمّون آل النبي ﷺ، (آل طه) أيضاً؛ وعبّر عن الإمام المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه ـ في دعاء الندبة بـ(يابن طه).

ثم تقول الآية: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾. «تشقى»: مأخوذة من مادة الشقاء ضدّ السعادة، إلّا أنّ هذه المادة تأتي أحياناً بمعنى المشقّة والتعب، والمراد في الآية هذا المعنى.

ثم تبيّن الآية الأخرى الهدف من نزول القرآن فتقول: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

إنّ التعبير بـ«تذكرة» من جهة، وبـ«من يخشى» من جهة أُخرى يشير إلى واقع لا يمكن إنكاره، وهو: إنّ التذكرة توحي بأنّ أسس ومقومات كل التعليمات الإلهية موجودة في أعماق روح الإنسان وطبيعته، وتعليمات الأنبياء تجعلها مثمرة، وتوصلها إلى حدّ النضج، كما تذكّر أحياناً بمطلب وأمر ما.

إنّ تعبير «من يخشى» يبيّن أنّ نوعاً من الاحساس بـالمسؤولية، والذي سمّاه القـرآن بالخشية، إذا لم يكن موجوداً في الإنسان، فسوف لا يقبل الحقائق.

ثم تتطرق الآيات إلى التعريف بالله تعالى المنزل للقرآن، لتتّضح عظمة القرآن من خلال معرفته، فتقول: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾.

إنّ هذا التعبير إشارة إلى ابتداء وانتهاء نزول القرآن، انتهاؤه إلى الأرض وابتداؤه من السماوات.

ثم تستمر في تعريف الله المنزل للقرآن فتقول: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

إنّ هذا التعبير كناية عن تسلّط الله، وإحاطته الكاملة بعالم الوجود، ونفوذ أمره وتدبيره في جميع أنحاء العالم.

ثم تتحدث عن مالكية الله بعد حاكميته فتقول: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾. «الثرى»: في الأصل بمعنى التراب الرطب، ولمّا كـانت قـشرة الأرض ـ فقط ـ هي التي تجف نتيجة لأشعة الشمس وهبوب الرياح، وتبقى الطبقة السفلى ـ غالباً ـ رطبة، فإنّه يقال لهذه الطبقة: ثرى. وعلى هذا فإنّ ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ تعني أعماق الأرض وجوفها، وكلها مملوكة لمالك الملك وخالق عالم الوجود.

وأشارت الآية التالية إلى الركن الرابع، أي «العالمية»، فقالت: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

وعرف منزل القرآن من مجموع الآيات أعلاه معرفة إجمالية في الأبعاد الأربعة: الخلقة، والحكومة، والمالكية، والعلم.

والآية التالية ربّما تشير إلى ما ذكرنا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

إنّ التعبير بالأسماء الحسنى قد ورد مراراً وتكراراً في الآيات القرآنية، ومن البديهي أنّ كل أسماء الله حسنة، ولكن لمّا كانت لبعض أسماء الله وصفاته أهمية أكبر، فقد سمّيت بالأسماء الحسنى.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ
لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

نار في الجانب الآخر من الصحراء: من هنا تبدأ قصة نبي الله الكبير موسى عليه السلام، وتفصيل الجوانب المهمة من هذه القصة المليئة بالأحداث سيأتي في أكثر من ثمانين آية، لتكون تهدئة ومواساة وتسلية لخاطر النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين الذين كانوا يعانون خلال تلك الفترة في مكة ضغوطاً شديدةً من الأعداء.

ويمكن تقسيم مجموع الآيات في هذه السورة إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن بداية نبوة موسى وبعثته، وأوّل ومضات الوحي.

القسم الثاني: يتحدث عن دعوة موسى وأخيه هارون لفرعون وملئه إلى دين التوحيد، ثم اشتباكهما بالأعداء.

القسم الثالث: يبحث عن خروج موسى وبني إسرائيل من مصر، وكيفية نجاتهم من قبضة فرعون وأتباعه، وغرق هؤلاء وهلاكهم.

القسم الرابع: ويتحدث حول الإتجاهات الانحرافية الشديدة لبني إسرائيل عن دين التوحيد إلى الشرك، وقبول وساوس السامري، ومواجهة موسى الحازمة لهذا الإنحراف.

فهذه الآيات تقول بتعبير رقيق وجذاب: ﴿**وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ**﴾.

إنّ هذا الاستفهام ليس هدفه تحصيل الخبر، بل مقدمة لبيان خبر مهم.

ثم تقول: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

ويستفاد من الآية (٣٠) من سورة القصص، أنّ موسى قد سمع هذا النداء من جهة شجرة كانت هناك: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. إنّ موسى لمّا اقترب شاهد النار في داخل الشجرة، وهذه النار ليست ناراً عادية، بل إنّ هذا النور الإلهي الذي ليس لم يحرق الشجرة وحسب، بل إنّه منسجم معها، ألا وهو نور الحياة.

وقد هام موسى لدى سماعه هذا النداء المحيي للروح: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ وشعر بكل وجوده بلذّة لا يمكن وصفها.

لقد أُمر أن يخلع نعليه، لأنّه قد وضع قدمه في أرض مقدسة... الأرض التي تجلّى فيها النور الإلهي، ويسمع فيها نداء الله، ويتحمل مسؤولية الرسالة، فيجب أن يخطو في الأرض بمنتهى الخضوع والتواضع، وهذا هو سبب خلعه النعل عن رجله.

ثم سمع هذا الكلام من نفس المتكلم: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾. ومن بعدها تلقّى موسى أوّل جملة من الوحي على شكل ثلاثة أُمور: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾. شرعت هذه الآية في بيان أهم أصل لدعوة الأنبياء في هذه الآية، ألا وهو مسألة التوحيد، وبعدها ذكرت موضوع عبادة الله الواحد كثمرة لشجرة الإيمان والتوحيد، ثم أصدرت له أمر الصلاة بعد ذلك، وهي تعني أكبر عبادة وأهم إرتباط بين الخلق والخالق، وأكثر الطرق تأثيراً في عدم الغفلة عن الذات المقدسة.

ولمّا كان المعاد هو الأصل والأساس الثاني، فبعد ذكر التوحيد وأغصانه وفروعه، أضافت الآية التالية: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

إنّ علّة إخفاء تاريخ القيامة حسب الآية، هي: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾. وبتعبير آخر: فإنّ كون الساعة مخفية سيوجد نوعاً من حرية العمل للجميع.

وأشارت الآية الأخيرة إلى أصل اساسي يضمن تنفيذ كل البرامج العقائدية والتربوية، فتقول: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وإلّا فسوف تهلك ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فاصمد في مقابل الكافرين ووساوسهم وعراقيلهم، ولا تدع للخوف من كثرتهم

ومؤامرتهم وخططهم الخبيثة إلى قلبك سبيلاً، ولا تشك مطلقاً في أحقية دعوتك وأصالة دينك نتيجة هذه الضوضاء.

إنّ جملة «يؤمن» وردت هنا بصيغة المضارع، وجملة «واتبع هويه» بصيغة الماضي، وهي أشارت إلى هذه النكتة، وهي أنّ عدم إيمان منكري القيامة ينبع من أتباع هوى النفس، فهم يريدون أن يكونوا أحراراً ويفعلون ما تشتهي أنفسهم.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

عصا موسى واليد البيضاء: لا شك أنّ الأنبياء يحتاجون إلى المعجزة لإثبات إرتباطهم بالله، وإلّا فإنّ أيّ واحد يستطيع أن يدعي النبوة.

إنّ موسى عليه السلام بعد تلقيه أمر النبوة، يجب أن يتلقّ دليلها وسندها أيضاً، وهكذا تلقّ موسى عليه السلام في تلك الليلة المليئة بالذكريات والحوادث معجزتين كبيرتين من الله، ويبيّن القرآن الكريم هذه الحادثة فيقول: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

فأجاب موسى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾. ولمّا كان راغباً في أن يستمر في حديثه مع محبوبه الذي فتح الباب بوجهه لأوّل مرّة، وربّما كان يظن أيضاً أنّ قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ غير كاف، فأراد أن يبيّن آثارها وفوائدها فأضاف: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾[1]. أي أضرب بها على اغصان الشجر فتتساقط اوراقها لتأكلها الأغنام ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[2].

إنّ موسى غطّ في تفكير عميق: أيّ سؤال هذا في هذا المجلس العظيم، وأيّ جواب أعطيه؟ وماذا كانت تلك الأوامر؟ ولماذا هذا السؤال؟

وفجأة: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾. «تسعى»: من مادة السعي أي المشي السريع الذي لا يصل إلى الركض.

---

١. «أهش»: من مادة هشّ ـ بفتح الهاء ـ أي ضرب أوراق الشجر وتساقطها.

٢. «مآرب»: جمع مأربة، أي الحاجة والقصد.

وهنا صدر الأمر لموسى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

ثم أشارت الآية التالية إلى المعجزة المهمة الثانية لموسى، فأمرته: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾.

إنّ موسى كان مأموراً أن يدخل يده في جيبه ويوصلها إلى تحت إبطه.

وجملة ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ إشارة إلى أنّ بياض يدك ليس نتيجة مرض البرص وأمثاله، بدليل أنّ لها لمعاناً وبريقاً خاصاً يظهر في لحظة ويختفي في لحظة أخرى.

وتقول الآية الأخيرة، وكنتيجة لما مرّ بيانه في الآيات السابقة: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾. والمراد من الآيات الكبرى هو تلكما المعجزتان المهمتان اللتان وردتا أعلاه.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

موسى وطلباته القيّمة: إلى هنا وصل موسى إلى مقام النبوة، وتلقّى معاجز مهمّة تسترعي الإنتباه، إلّا أنّه من الآن فصاعداً صدر له أمر الرسالة... رسالة عظيمة وثقيلة جداً... الرسالة التي تبدأ بإبلاغ أعتى وأخطر شخص في ذلك المحيط، فتقول الآية: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

أجل... فمن أجل إصلاح بيئة فاسدة، وإيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد وأئمّة الكفر... أُولئك الذين لهم تأثير في جميع أركان المجتمع.

ومضافاً إلى أنّ موسى ﷺ لم يستوحش ولم يخف من هذه المهمّة الثقيلة الصعبة، ولم يطلب من الله أيّ تخفيف في هذه المهمّة، فإنّه قد تقبّلها بصدر رحب، غاية ما في الأمر أنّه طلب من الله أسباب النصر في هذه المهمّة. ولمّا كان أهم وأوّل أسباب النصر الروح الكبيرة، والفكر الوقّاد، والعقل المقتدر، وبعبارة أُخرى: رحابة الصدر، فقد ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾.

ولمّا كان هذا الطريق مليئاً بالمشاكل والمصاعب التي لا يمكن تجاوزها إلّا بلطف الله، فقد

طلب موسى من الله في المرحلة الثانية أن تيسر له أموره وأعماله، وأن تذلل هذه العقبات التي تعترضه، فقال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾.

ثم طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلى المراتب فقال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾.

خاصة وأنّه بيّن علة هذا الطلب فقال: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾. فهذه الجملة تفسير للآية التي قبلها. أي: أريد أتكلم بدرجة من الفصاحة والبلاغة والتعبير بحيث يدرك أيّ سامع مرادي من الكلام جيّداً.

ولمّا كان إيصال هذا الحمل الثقيل ـ حمل رسالة الله، وقيادة البشر وهدايتهم، ومحاربة الطواغيت والجبابرة ـ إلى المحل المقصود يحتاج إلى معين ومساعد، ولا يمكن أن يقوم بـه إنسان بمفرده، فقد كان الطلب الرابع لموسى من الله هو: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾.

ثم يشير إلى أخيه، فيقول: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾. وهارون كان الأخ الأكبر لموسى، وكان يكبره بثلاث سنين، وكان طويل القامة، جميلاً بليغاً، عالي الإدراك والفهم، وقد رحل عن الدنيا قبل وفاة موسى بثلاث سنين.

وقد كان نبيّاً مرسلاً كما كان نبيّاً وهبه الله لموسى من رحمته.

ثم يبيّن موسى عليه السلام هدفه من تعيين هارون للوزارة والمعونة فيقول: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾.

ويطلب، من أجل تكميل هذا المقصد والمطلب: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾. فيكون شريكاً في مقام الرسالة، وفي إجراء وتنفيذ هذا البرنامج الكبير، إلّا أنّه يتبع موسى على كل حال، فموسى إمامه ومقتداه.

وفي النهاية يبيّن نتيجة هذه المطالب فيقول: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

ولمّا كان موسى لم يهدف من طلباته المخلصة هذه إلّا الخدمة الأكثر والأكمل، فإنّ الله سبحانه قد لبّى طلباته في نفس الوقت: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

إنّ موسى طلب كل ما كان يلزمه في هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التي يجلس فيها لأوّل مرّة على مائدة الضيافة الإلهية ويطأ بساطها، والله سبحانه كان يحبّ ضيفه أيضاً، حيث لبّى كل طلباته وأجابه فيها في جملة قصيرة تبعث الحياة، وبدون قيد وشرط.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى
ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ
مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ
ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾

الربّ الرحيم: يشير الله سبحانه في هذه الآيات إلى فصل آخر من فصول حياة موسى عليه السلام، والذي يرتبط بمرحلة الطفولة ونجاته من قبضة الفراعنة. وهذا الفصل وإن كان من ناحية التسلسل التاريخي قبل فصل الرسالة والنبوّة، إلّا أنّه ذكر كشاهد على شمول عناية الله عزّ وجل لموسى عليه السلام من بداية عمره، وهي في الدرجة الثانية من الأهمية بالنسبة إلى الرسالة، فيقول أوّلاً: **﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾**[١].

وبعد ذكر هذا الإجمال تتطرق الآيات إلى الشرح والتفصيل، فتقول: **﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾**.

وهو إشارة إلى أنّنا قد علّمنا أمّه كل الطرق التي تنتهي إلى نجاة موسى عليه السلام من قبضة الفراعنة، لأنّه يستفاد من سائر آيات القرآن أنّ فرعون شدّد ارهابه على بني إسرائيل للتصدّي لقوّتهم وعصيانهم المحتمل، أو أنّه كان قد أمر بقتل أبنائهم وإبقاء البنات للخدمة، لكي يمنع ولادة ولد من بني إسرائيل كان قد أخبره المنجّمون أنّه يثور عليه ويزيل ملكه.

إنّ هذه الأم أحسّت بأنّ حياة وليدها في خطر، وإخفاؤه مؤقتاً سوف لا يحلّ المشكلة... في هذه الأثناء ألهمها الله ـ الذي رشّح هذا الطفل لثورة كبيرة؛ فألقى في قلب الأمّ: **﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾**. «اليم»: هنا يعني نهر النيل العظيم الذي يطلق عليه

---

١. «المنّة»: في الأصل من المن، وهو يعني الأحجار الكبيرة التي كانوا يزنون بها، ولذلك فإنّ كل نعمة كبيرة ونفيسة يقال عنها: إنّها منّة. والمراد في الآية هو هذا المعنى، وهذا المعنى مفهوم جميل وإيجابي للمنّة، إلّا أنّ الإنسان إذا عظّم عمله الصغير بكلامه، وذكّر الطرف الآخر به، فإنّه مصداق حي للمنّة السلبية المذمومة.

أحياناً اسم البحر لسعته وكثرة مياهه؛ و«التابوت»: تعني الصندوق الخشبي، ولا يعني دائماً الصندوق الذي يوضع فيه الأموات كما يظن البعض، بل إنّ له معنى واسعاً.

ثم تضيف: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾.

إنّ كلمة «عدو» قد تكررت هنا، وهذا تأكيد على عداء فرعون لله، ولموسى وبني إسرائيل، وأشارت إلى أنّ الشخص الذي انغمس إلى هذا الحدّ في العداء هو الذي سيتولّى في النهاية تربية موسى.

ولما كان موسى عليه السلام يجب أن يحفظ في حصن أمين في هذا الطريق المليء بالمخاطر، فقد ألقى الله قبساً من محبّته عليه، إلى الحدّ الذي لم ينظر إليه أحد إلّا ويعشقه، فلا يكف عن قتله وحسب، بل لا يرضى أن تنقص شعرة من رأسه، كما يقول القرآن في بقية هذه الآيات: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

يقولون: إنّ قابلة موسى كانت من الفراعنة، وكانت مصمّمة على رفع خبر ولادته إلى فرعون، إلّا أنّه لمّا وقعت عينها على عين المولود الجديد، فكأنّ ومضة برقت من عينه وأضاءت أعماق قلبها، وطوّقت محبته رقبتها، وابتعدت عن رأسها كل الأفكار السيئة.

وتقول الآية في النهاية: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

وكان قصر فرعون قد بني على جانب شط النيل، وبينما كان فرعون وزوجته على حافّة الماء ينظرون إلى الأمواج، وإذا بهذا الصندوق الغريب يلفت انتباههما، فأمر جنوده أن يخرجوا الصندوق من الماء، فلمّا فتحوا الصندوق شاهدوا بكامل العجب مولوداً جميلًا فيه، وهو شيء لم يكن بالحسبان.

وهنا تنبّه فرعون إلى أنّ هذا الوليد ينبغي أن يكون من بني إسرائيل، وإنّما لاقى هذا المصير خوفاً من جلاوزته، فأمر بقتله، إلّا أنّ زوجته ـ التي كانت عقيماً ـ تعلّقت جدّاً بالطفل، فقد نفذ النور الذي كان ينبعث من عيني الطفل إلى زوايا قلبها، وجذبها إليه، فضربت على يد فرعون وطلبت منه أن يصرف النظر عن قتله، وعبّرت عن هذا الطفل بأنّه (قرّة عين)، بل وتمادت في طلبها، فطلبت منه أن يتخذاه ولداً ليكون مبعث أمل لها، ويكبر في أحضانها، وأصرّت على طلبها حتى أصابت سهامها، وحققت ما تصبو إليه.

غير أنّ الطفل جاع، وأراد لبناً، فأخذ يبكي ويذرف الدموع.

والآن نقرأ بقية القصة على ضوء الآيات الشريفة:

نعم يا موسى، فإنّا كنّا قدّرنا أن تتربى بأعيننا وعلمنا ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ بأمر أمّك

لتراقب مصيرك، فرأت جنود فرعون: ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾. وربّما أضافت بأنّ هذه المرأة لها لبن نظيف، وأنا مطمئنة بأنّ هذا الرضيع سيقبلها.

فاستبشر الجنود على أمل أن يجدوا ضالّتهم عن هذا الطريق، فذهبوا معها، فأطلعت أخت موسى ـ والتي كانت تظهر نفسها بمظهر الشخص الغريب والمجهول ـ أمّها على الأمر، فجاءت أمّه إلى بلاط فرعون، من دون أن تفقد سيطرتها على أعصابها، بالرغم من أنّ أمواجاً من الحب والأمل كانت قد أحاطت بكل قلبها، واحتضنت الطفل، فلما شمّ الطفل رائحة أمّه، وكانت رائحة مألوفة لديه، التقم ثديها كأنّه تضمّن لذة الروح وحلاوتها، واشتغل الطفل بشرب اللبن بلهفة وعشق شديدين، فانطلقت صرخات الفرح من الحاضرين، وبدت آثار الفرح والسرور على زوجة فرعون.

فقد أمرها فرعون بالإهتمام بالطفل، وأكّدت زوجته كثيراً على حفظه وحراسته، وأمرت أن يعرض عليها الطفل بين فترة وأخرى.

هنا تحقق ما قاله القرآن: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

ومرّت السنون والاعوام، وتربّى موسى عليه السلام وسط هالة من لطف الله ومحبته، وفي محيط آمن، وشيئاً فشيئاً أصبح شاباً، وكان ذات يوم يمرّ من طريق فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من بني إسرائيل والآخر من الأقباط ـ وهم المصريون، قوم فرعون ـ ولمّا كان بنو إسرائيل يعيشون دائماً تحت ضغط الأقباط الظالمين وأذاهم، هبّ موسى لمعونة المظلوم الذي كان من بني إسرائيل، ومن أجل الدفاع عنه وجّه ضربة قاتلة إلى ذلك القبطي، فقضت عليه.

إنّ موسى، وحسب إشارة بعض أصدقائه عليه، خرج متخفّياً من مصر، وتوجّه إلى مدين، فوجد محيطاً وجوّاً آمناً في ظل النبي «شعيب»، والذي سيأتي شرح حاله في تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى.

هنا حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾. فبعد حادثة القتل اختبرناك كثيراً والقينا بك في اتون الحوادث والشدائد ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾. وبعد اجتياز هذا الطريق الطويل، والإستعداد الروحي والجسمي، والخروج من دوامة الأحداث بشموخ وانتصار ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾. أي لاستلام مهمة الرسالة في زمان مقدّر إلى هذا المكان.

ثم يضيف: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. فمن أجل مهمّة تلقّي الوحي الصعبة، ومن أجل قبول الرسالة، ومن أجل هداية العباد وإرشادهم ربّيتك واختبرتك في الحوادث الصعبة ومشاقّها، ومنحتك القوة والقدرة، والآن حيث ألقيت هذه المهمة الكبرى على عاتقك، فإنّك مؤهّل من جميع الجوانب.

«اصطناع»: من مادة «صنع» بمعنى الإصرار والاقدام الأكيد على اصلاح شيء. ويعني إنّي قد اصلحتك من كل الجهات.

اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا
لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾
قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ
الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

أوّل لقاء مع فرعون الجبار: الآن وقد أصبح كل شيء مهيّأً، وكل الوسائل قد جعلت تحت تصرّف موسى، فقد خاطب الله سبحانه موسى وهارون بقوله: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾. الآيات التي تشمل المعجزتين الكبيرتين لموسى عليه السلام، كما تشمل كل آيات الله وتعليماته التي هي بذاتها دليل على أحقّية دعوته.

ومن أجل رفع معنوياتهما، والتأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المساعي والجهود، فقد أضاف سبحانه قائلاً: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ وتنفيذ أوامري، لأنّ الضعف واللين وترك الحزم سيذهب بكل جهودكما أدراج الرياح، فأثبتا ولا تخافا من أيّ حادثة، ولا تضعفا أمام أيّ قدرة.

بعد ذلك، يبيّن الهدف الأساس لهذه الحركة، والنقطة التي يجب أن تكون هدفاً لتشخيص المسار، فيقول: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾. فإنّه سبب كل الشقاء والتعاسة في هذه المنطقة الواسعة، وما لم يتمّ إصلاحه فسوف لا ينجح أيّ عمل، لأنّ عامل تقدّم الأمّة أو تخلّفها، سعادتها أو شقائها وبؤسها هو قادتها وحكّامها.

ثم بيّنت الآية طريقة التعامل المؤثرة مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه وتؤثّرا فيه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

ومع هذه الحال، فقد كان موسى وهارون قلقين من أنّ هذا الرجل القوي المتغطرس المستكبر، الذي عمّ رعبه وخشونته كل مكان، قد يقدم على عمل قبل أن يبلّغان الدعوة، ويهلكهما، لذلك ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.

إلّا أنّ الله سبحانه قد أجابهما بحزم: فـ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وبناءً على هذا، فمع وجود الله القادر معكما في كل مكان، الله الذي يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، وهو حاميكما وسندكما، فلا معنى للخوف والرعب.

ثم يبيّن لهما بدقّة كيفية إلقاء دعوتهما في محضر فرعون في خمس جمل قصار قاطعة غنيّة المحتوى، ترتبط أوّلها بأصل المهمة، والثانية ببيان محتوى المهمة، والثالثة بذكر الدليل والسند، والرّابعة بترغيب الذين يقبلونها، وأخيراً فإنّ الخامسة تكفّلت بتهديد المعارضين.

فتقول أوّلاً: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

ثم تقول: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

ثم أشارت إلى دليلهما ووثيقتهما، فتقول: قولا له: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾. وبناءً على هذا، فإنّ العقل يحكم بأن تفكّر في كلامنا على الأقل، وأن تقبله إن كان صحيحاً ومنطقياً.

ثم تضيف الآية من باب ترغيب المؤمنين: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾. وهذه الجملة يمكن أن تشير أيضاً إلى معنى آخر، وهو أنّ السلامة في هذه الدنيا، والعالم الآخر من الآلام والعذاب الإلهي الأليم، ومن مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية، من نصيب أُولئك الذين يتّبعون الهدى الإلهي، وهذه في الحقيقة هي النتيجة النهائية لدعوة موسى.

وأخيراً، فإنّ الله يأمرهما أن يُفهماه العاقبة المشؤومة للتمرد على هذه الدعوة وعصيانها، بقولهما له: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

إنّ هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لفّ ودوران، وبدون أي تغطية وتورية.

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

لقد حذف القرآن المجيد هنا بعض المطالب التي يمكن فهمها بمعونة الأبحاث الآتية، وتوجّه مباشرةً إلى محاورة موسى وهارون مع فرعون، والمبحث في الواقع هكذا:

لمّا أصبح موسى أمام فرعون وجهاً لوجه، أعاد تلك الجمل الدقيقة المؤثرة التي علّمه الله إيّاها أثناء الأمر بالرسالة. فلما سمع فرعون هذا الكلام، كان أوّل ردّ فعله أن ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾. والعجيب أنّ فرعون المغرور والمعجب بنفسه لم يكن مستعداً حتى أن يقول: من ربيّ الذي تدّعيانه؟ بل قال: من ربّكما؟

فأجابه موسى مباشرةً بجواب جامع جدّاً، وقصير في الوقت نفسه، عن الله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. ففي هذه العبارة الموجزة إشارة إلى أصلين أساسيين من الخلقة والوجود، وكل واحد منهما دليل وبرهان مستقل يوصل إلى معرفة الله:

الأوّل: إنّ الله سبحانه قد وهب لكل موجود ما يحتاجه.

والثاني: مسألة هداية وإرشاد الموجودات.

إنّ من الممكن أن يمتلك الإنسان أيّ شيء من أسباب الحياة، إلّا أنّه يجهل كيفية الاستفادة منها، والمهم أن يعرف طريقة استعمالها، وهذا هو الشيء الذي نراه في الموجودات المختلفة بوضوح، وكيف أنّ كلّاً منها يستغلّ طاقته بصورة دقيقة في إدامة حياته، كيف يبني بيتاً، وكيف يتكاثر، وكيف يربّي أولاده ويخفيهم ويبعدهم عن متناول الأعداء، أو يعلّمهم كيف يواجهون الأعداء.

والبشر ـ أيضاً ـ لديهم هذه الهداية التكوينية.

فإنّ الإنسان نتيجة لإمتلاكه العقل والإرادة، فإنّ له واجبات ومسؤوليات، وبعد ذلك مناهج تكاملية ليس للحيوانات مثلها، ولذلك فإنّه إضافة إلى الهداية التكوينية محتاج إلى الهداية التشريعية.

فلما سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالاً آخر ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾.

إنّ موسى قد نبّه بصورة ضمنيّة على إحاطة علم الله بكل شيء، لينتبه فرعون إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ أي شيء من عمله لا يخفى على الله وإن كان بمقدار رأس الإبرة، وسوف ينال عقابه أو ثوابه.

ولما كان جانب من حديث موسى عليه السلام حول مسألة التوحيد ومعرفة الله، فإنّه يبيّن هنا فصلاً آخر في هذا المجال، فيقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾. وفي مجموع هذه الآية إشارة إلى أربعة أنواع من نعم الله الكبرى.

إنّ هذه النعم الأربع الكبرى تشكّل حسب الترتيب الذي ورد في الآية أولويّات حياة الإنسان، فقبل كل شيء يحتاج الإنسان إلى محلّ سكن وهدوء، وبعده إلى طرق المواصلات، ثم الماء، ثم المحاصيل الزراعية.

ثم أشار إلى خامس النعم وآخرها من سلسلة النعم الإلهية هذه، فقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾.

وفي النهاية، وبعد أن أشار إلى كل هذه النعم، قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

«النهى»: جمع «نهية» وهي في الأصل مأخوذة من مادة «نهي» مقابل الأمر، وتعني العقل الذي ينهى الإنسان عن القبائح والسيئات، يعني إنّ العقل والفكر المسؤول هو الذي يستطيع أن يدرك ويطّلع على هذه الحقيقة.

وبما أنّ هذه الآيات دلّت على التوحيد بخلق الأرض ونعمها، فقد بيّنت مسألة المعاد بالإشارة إلى الأرض في آخر آية من هذه الآيات أيضاً فقالت: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ
وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾
فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم
بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا
وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

فرعون يُعِدّ نفسه للجولة الأخيرة: تعكس هذه الآيات مرحلة أُخرى من المواجهة بين موسى وفرعون، ويبدأ القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾. ومن المسلّم أنّ المراد من هذه الآيات هي المعجزات التي أراها فرعون في بداية دعوته، معجزة العصا، واليد البيضاء، ومحتوى دعوته السماوية الجامعة.

والآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغي المستكبر العنود في مقابل موسى ومعجزاته، وكيف اتّهمه كما هي عادة كل المتسلطين والحكّام المتعنّتين؟ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. وهو إشارة إلى أنّنا نعلم أنّ مسألة النبوة والدعوة إلى التوحيد، وإظهار هذه المعجزات تشكّل بمجموعها خطّة منسّقة للإنتصار علينا، وبالتالي إخراجنا مع الأقباط من أرض آبائنا وأجدادنا.

إنّ هذه التهمة هي نفس الحربة التي يستخدمها الطواغيت والمستعمرون على إمتداد التاريخ، ويلوحون بها ويشهرونها كلّما رأوا أنفسهم في خطر، ومن أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسألة تعرّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعني حكومة هؤلاء العتاة، ووجوده يعني وجودهم!

ثم أضاف فرعون بأن لا تظن بأنّنا نعجز عن أن نأتي بمثل هذا السحر: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾. ولكي يظهر حزماً أكثر فإنّه قال: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

إلّا أنّ موسى لم يفقد هدوء أعصابه، ولم يدع للخوف من عنجهيّة فرعون إلى قلبه طريقاً، بل قال بحزم: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[1].

إنّ التعبير بـ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ إشارة إلى يوم عيد إلّا أنّ المهم هو أنّ الناس كانوا يعطّلون أعمالهم فيه.

إنّ فرعون بعد مشاهدة معجزات موسى العجيبة، وتأثيرها النفسي في أنصاره، صمّم على مواجهة موسى ﷺ بالإستعانة بالسّحرة، ولذلك وضع الإتفاق المذكور مع موسى ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

وأخيراً حلّ اليوم الموعود، ووقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم

---

١. «الضحى»: بمعنى زيادة أشعّة الشمس، أو إرتفاع الشمس.

السحرة، وكان عددهم ـ على رأي بعض المفسرين ـ إثنين وسبعين ساحراً، وقال آخرون إنّهم بلغوا أربعمائة، وذكر البعض أعداداً أكبر أيضاً. وكان قسم من ذلك الجمع عبارة عن فرعون وأنصاره وحاشيته، وأخيراً القسم الثالث الذي كان يشكّل الأكثرية، وهم الناس المتفرجون.

هنا توجّه موسى إلى السّحرة، أو إلى الفراعنة والسحرة، و﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾.

وواضح أنّ مراد موسى من الإفتراء على الله سبحانه هو أن يجعلوا شخصاً أو شيئاً شريكاً له، أو ينسبوا معجزات رسول الله إلى السحر، ويظنّوا أنّ فرعون إلههم ومعبودهم.

إنّ كلام موسى المتين الذي لا يشبه كلام السّحرة بوجه، بل إنّ نبرته كانت نبرة دعوة كل الأنبياء الحقيقيين، ونابعة من صميم قلب موسى الطاهر، فأثّرت على بعض القلوب، وأوجدت إختلافاً بين ذلك الحشد من السّحرة، فبعض كان يناصر المواجهة والمبارزة، وبعض تردّد في الأمر، واحتمل أن يكون موسى عليه السلام نبيّاً إلهيّاً، وأثّرت فيهم تهديداته، خاصةً وأنّ لباس موسى وهارون البسيط كان لباس رعاة الأغنام، وعدم مشاهدة الضعف والتراجع على محيّاهما بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلاً آخر على أصالة أقوالهما وصدق نواياهما، ولذلك فإنّ القرآن يقول: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾.

إلّا أنّ أنصار الاستمرار في المواجهة إنتصروا أخيراً وأخذوا زمام المبادرة بيدهم، وشرعوا في تحريك السحرة بطرق مختلفة. فأوّلاً ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾. وبناءً على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنّكم كبار وأساتذة السحر في هذه البلاد العريضة، ولأنّ قوّتكم وقدرتكم أكبر منهما.

ثم إنّهما ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾. الوطن الذي هو أعزّ من أنفسكم. إضافة إلى أنّهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنّهما يريدان أيضاً أن يجعلا مقدساتكم أضحوكة ومحلّاً للسخرية ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾[1].

والآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا تدعوا للتردّد إلى أنفسكم طريقاً مطلقاً، بل

---

١. «الطريقة»: تعني العادة والأسلوب المتبع، والمراد منها هنا المذهب؛ و«مثلى»: من مادّة «مثل» وهي هنا تعني العالي والأفضل، أي الأشبه بالفضيلة.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ لأنّ الوحدة رمز إنتصاركم في هذه المعركة المصيرية الحاسمة ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

موسى عليه السلام ينزل إلى الساحة: لقد اتّحد السّحرة ظاهراً، وعزموا على محاربة موسى عليه السلام ومواجهته، فلمّا نزلوا إلى الميدان ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾.

غير أنّ موسى عليه السلام بدون أن يبدي عجلة، لإطمئنانه بأنّ النصر سوف يكون حليفه، بل وبغضّ النظر عن أنّ الذي يسبق إلى الحلبة في هذه المجابهات هو الذي يفوز ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾.

فقبل السحرة ذلك أيضاً، وألقوا كل ما جلبوه معهم من عصي وحبال للسحر في وسط الساحة دفعة واحدة، وإذا قبلنا الرواية التي تقول: إنّهم كانوا آلاف الأفراد، فإنّ معناها أنّ في لحظة واحدة أُلقيت في وسط الميدان آلاف العصي والحبال التي ملئت أجوافها بمواد خاصة ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

إنّ المشهد كان عجيباً جدّاً، فإنّ السحرة الذين كان عددهم كبيراً، وتمرّسهم وإطلاعهم في هذا الفن عميقاً، وكانوا يعرفون جيّداً طريقة الاستفادة من خواص هذه الأجسام الفيزيائية والكيميائية الخفية، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدّقوا أنّ كل هذه الأشياء الميتة قد ولجتها الروح، فعلت صرخات السرور من الفراعنة، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف والرعب، ويتراجعون إلى الخلف.

في هذه الأثناء ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾. «أوجس»: أخذت من مادة «إيجاس» وفي الأصل من (وجس) على وزن (حبس) بمعنى الصوت الخفي، وبناءً على هذا فإنّ الإيجاس يعني الإحساس الخفي والداخلي، وهذا يوحي بأنّ خوف موسى الداخلي كان سطحياً وخفيفاً. كما نقرأ في خطبة الإمام علي عليه السلام: «**لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل**

أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال»[١].

فقد نزل النصر والمدد الإلهي على موسى في تلك الحال، وبيّن له الوحي الإلهي أنّ النصر حليفه كما يقول القرآن: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

فقد أرجعت لموسى إطمئنانه الذي تزلزل للحظات قصيرة.

وخاطبه الله مرّة أخرى بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وممّا يلفت النظر أنّه لم يقل (ألق عصاك) بل يقول: ﴿أَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ وربّما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الإهتمام بالعصا، وإشارة إلى أنّ العصا ليست مسألة مهمّة، بل المهم إرادة الله وأمره، فإنّه إذا أراد الله شيئاً، فليست العصا فقط، بل أقل وأصغر منها قادر على إظهار مثل هذه القدرة.

فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الإنتصار العظيم لموسىؑ: إنتهينا في الآيات السابقة إلى أنّ موسى أُمر أن يلقي عصاه ليبطل سحر السّاحرين، وقد عُقّبت هذه المسألة في هذه الآية، غاية الأمر أنّ العبارات والجمل التي كانت واضحة قد حذفت، وهي (أنّ موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حيّة

١. لقد قال الإمام عليؑ هذا الكلام في وقت كان قلقاً من انحراف الناس، ويشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ قلقي ليس نابعاً من شكّي في الحق. (نهج البلاغة الخطبة ٤).

عظيمة لقفت كل آلات وأدوات سحر السّحرة، فعلت الصيحة والغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون وإرتبك، وفغر أتباعه أفواههم من العجب.

فأيقن السحرة الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، وكانوا يفرّقون جيّداً بين السحر وغيره، إنّ هذا الأمر ليس إلّا معجزة إلهية، وأنّ هذا الرجل الذي يدعوهم إلى ربّهم هو رسول الله، فاضطربت قلوبهم، وتبيّن التحوّل العظيم في أرواحهم ووجودهم).

والآن نسمع بقيّة الحديث من لسان الآيات:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾. إنّ التعبير بـ(أُلقي) ـ وهو فعل مبني للمجهول ـ ربّما كان إشارة إلى أنّهم قد صدّقوا موسى، وتأثّروا بمعجزته إلى الحد الذي سجدوا معه دون إرادة.

إنّ عمل السّحرة هذا قد وجّه صفعة قويّة إلى فرعون وحكومته الجبارة المستبدة الظالمة، ولذلك لم ير فرعون بدّاً إلّا أن يجمع كيانه ويلملم ما تبقّى من هيبته وسلطانه عن طريق الصراخ والتهديد والوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السحرة و﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

إنّ هذا الجبار المستكبر لم يكن يدّعي الحكومة على أجسام وأرواح الناس وحسب، بل كان يريد أن يقول: إنّ قلوبكم تحت تصرفي أيضاً، ويجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذنني.

إنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّه ألصق بالساحرين التهمة وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

لا شكّ أنّ فرعون كان على يقين ومعرفة تامّة بكذب كلامه وبطلانه، إلّا أنّا نعلم أنّ الطغاة لا يتورّعون عن إلصاق أي كذب وتهمة بخصومهم عندما يرون مركزهم الذي حصلوا عليه بغير حق يتعرّض للخطر.

ثم إنّه لم يكتف بهذا، بل إنّه هدّد السحرة أشدّ تهديد، التهديد بالموت، فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

لكن ترى ماذا كان ردّ فعل السحرة تجاه تهديدات فرعون الشديدة؟ إنّهم لم يخافوا ولم يهربوا من ساحة المواجهة، أثبتوا صمودهم في الميدان بصورة قاطعة، و﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ لكن، ينبغي أن تعلم بأنّك تقدر على

القضاء في هذه الدنيا، أمّا في الآخرة فنحن المنتصرون، وستلاقي أنت أشدّ العقاب ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾.

ثم أضافوا بأنّا قد إرتكبنا ذنوباً كثيرة نتيجة السحر، فـ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾. وخلاصة القول: إنّ هدفنا هو الطهارة من الذنوب الماضية، ومن جملتها محاربة نبي الله الحقيقي، فإذا كنت تهدّدنا بالموت في الدنيا، فإنّنا نتقبّل هذا الضرر القليل في مقابل ذلك الخير العظيم.

ثم واصل السحرة قولهم بأنّنا إذا كنّا قد آمنا فإنّ سبب ذلك واضح فـ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ ومصيبته الكبرى في الجحيم هي أنّه ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ بل إنّه يتقلّب دائماً بين الموت والحياة، تلك الحياة التي هي أمرّ من الموت، وأكثر مشقّة منه.

﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

عندما صمّموا على قبول الحقّ والثبات عليه بعشق، وعلى قول المفسر الكبير العلّامة الطبرسي رحمه الله: «كانوا أوّل النهار كفّاراً سحرة، وآخر النهار شهداء بررة».

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

نجاة بني إسرائيل وغرق الفراعنة: بعد حادثة المجابهة بين موسى والسحرة، وإنتصاره الباهر عليهم، وإيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا موسى عليه السلام ودينه أفكار الناس في مصر، بالرغم من أنّ أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلّا أنّ هذا كان ديدنهم دائماً، وكان بنو إسرائيل تحت قيادة موسى مع قلّة من المصريين في حالة صراع دائم مع الفراعنة، ومرّت أعوام على هذا المنوال، وحدثت حوادث مرّة موحشة وحوادث جميلة مؤنسة، أورد بعضها القرآن الكريم في الآية (١٢٧) وما بعدها من سورة الأعراف.

وتشير الآيات التي نبحثها إلى آخر فصل من هذه القصة، أي خروج بني إسرائيل من مصر، فتقول: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾. فتهيّأ بنو إسرائيل للتوجه إلى

الوطن الموعود (فلسطين)، إلّا أنّهم لمّا وصلوا إلى سواحل النيل علم الفراعنة بهم، فتعقّبهم فرعون في جيش عظيم، فرأى بنو إسرائيل أنفسهم محاصرين بين البحر والعدو، إلّا أنّ الله أمر موسى أن امض بقومك ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾. طريقاً متى ما مضيت فيه فـ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

وبذلك فإنّ موسى وبني إسرائيل قد ساروا في تلك الطرق التي فتحت في أعماق البحر بعد إنحسار المياه عنها، في هذه الأثناء وصل فرعون وجنوده إلى ساحل البحر فدُهشوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقّع، ولذلك أعطى فرعون أمراً لجنوده باتّباعهم، وسار هو أيضاً في نفس الطريق: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾.

إنّ فرعون الذي ركب الغرور والعصبية رأسه، وغرق في بحر العناد والحماقة، لم يهتمّ لهذه المعجزة الكبيرة، وأمر جيشه في المسير في هذه الطرق البحرية المرئية حتى دخل من هذه الجهة آخر جندي فرعوني، في وقت خرج من الجانب الآخر آخر فرد من بني إسرائيل.

في هذه الأثناء صدر الأمر لأمواج المياه أن ترجع إلى حالتها الأُولى، فوقعت عليهم الأمواج كما تسقط البناية الشامخة إذا هدّمت قواعدها ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾. أجل، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾.

صحيح أنّ جملة (أضلّ) وجملة (ما هدى) تعطي معنى واحداً تقريباً إلّا أنّ الظاهر أنّ هناك تفاوتاً فيما بينهما، وهو أنّ (أضلّ) إشارة إلى الإضلال، و(ما هدى) إشارة إلى عدم الهداية بعد وضوح الضلالة.

إنّ فرعون كان عنيداً إلى الحد الذي لم يبيّن لقومه الحقيقة حتى بعد وضوح الضلال ومشاهدته.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

طريق النجاة الوحيد: تعقيباً على البحث السابق في نجاة بني إسرائيل بصورة إعجازية من قبضة الفراعنة، خاطبت هذه الآيات الثلاث بني إسرائيل بصورة عامة، وفي كل عصر وزمان، وذكرتهم بالنعم الكبيرة التي منحها الله إيّاهم، وأوضحت طريق نجاتهم. فقالت أوّلاً: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾.

ثم تشير إلى واحدة من النعم المعنوية المهمة، فتقول: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾. وهذه إشارة إلى حادثة ذهاب موسى ﷺ مع جماعة من بني إسرائيل إلى مكان ميعادهم في الطور، ففي ذلك المكان أنزل الله سبحانه ألواح التوراة على موسى وكلّمه، وشاهدوا جميعاً تجلّي الله سبحانه.

وأخيراً أشارت إلى نعمة ماديّة مهمة من نعم الله الخاصة ببني إسرائيل، فتقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾. ففي تلك الصحراء كنتم حيارى، ولم يكن عندكم شيء من الطعام المناسب، فأدرككم لطف الله، ورزقكم من الطعام الطيّب اللذيذ ما كنتم بأمسّ الحاجة إليه.

و«المنّ» نوعاً من العسل الطبيعي كان موجوداً في الجبال المجاورة لتلك الصحراء؛ و«السلوى» نوع من الطيور المحللة اللحم شبيهاً بالحمام.

ثم تخاطبهم الآية التالية بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمة، فتقول: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾.

الطغيان في النعمة هو أن يتخذ الإنسان هذه النعم وسيلة للذنب والجحود والكفران والتمرد والعصيان، بدل أن يستغلّها في طاعة الله وسعادته، تماماً كما فعل بنو إسرائيل، ولذلك حذّرتهم الآية بعد ذلك فقالت: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

«هوى»: في الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، والذي تكون نتيجته الهلاك عادةً، إضافة إلى أنّه هنا إشارة إلى السقوط الرتبي والبعد عن قرب الله، والطرد من رحمته.

ولما كان من الضروري أن يقترن التحذير والتهديد بالترغيب والبشارة دائماً، لتتساوى كفّتا الخوف والرجاء، حيث تشكّلان العامل الأساسي في تكامل الإنسان، ولتفتح أبواب التوبة والرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآية التالية: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

«غفّار»: صيغة مبالغة، وتوحي أنّ الله سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين ويشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سيعمّهم عفوه ومغفرته مرّات ومرّات.

وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ
إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ
عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾
قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا
فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي
وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

عجل السامري: ذكر في هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى ﷺ وبني إسرائيل، ويتعلق بذهاب موسى ﷺ مع وكلاء وممثلي بني إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثم عبادة بني إسرائيل للعجل في غياب هؤلاء.

كان من المقرر أن يذهب موسى ﷺ إلى «الطور» لتلقّي أحكام التوراة، ويصطحب معه جماعة من بني إسرائيل، غير أنّ شوق موسى ﷺ إلى المناجاة مع الله وسماع ترتيل الوحي، وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات الله وميعاده. هنا نزل عليه الوحي: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ**﴾.

شوق المناجاة وسماع كلامك قد سلب قراري، كنت مشتاقاً إلى أن آخذ منك أحكام التوراة بأسرع ما يمكن لأؤدّيها إلى عبادك، ولأنال رضاك عنّي بذلك...

وفي هذا اللقاء إمتدّت مدّة الإشراقات والتجليات المعنوية الإلهية من ثلاثين ليلة إلى أربعين، وأدّت الأجواء المهيّأة لانحراف بني إسرائيل دورها، فالسامري، ذلك الرجل الفطن والمنحرف صنع باستعماله الوسائل عجلاً، ودعا تلك الجماعة إلى عبادته، وأوقعهم فيها.

وأخيراً أخبر الله موسى في الميعاد بما جرى لقومه والسامري إذ تحكي الآية التالية ذلك

فتقول: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾.

وما أن وقعت عينه على ذلك المنظر القبيح، منظر عبادة العجل ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾. وهذا الوعد الحسن إمّا أن يكون وعد بني إسرائيل بنزول التوراة وبيان الأحكام السماوية فيها، أو الوعد بالنجاة والإنتصار على الفراعنة ووراثة حكومة الأرض، أو الوعد بالمغفرة والعفو للذين يتوبون ويؤمنون ويعملون الصالحات، أو أنّه كل هذه الأمور.

ثم أضاف: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾.

وحتى لو نأيت عنكم سنين طويلة فينبغي أن تلتزموا بالتعاليم الإلهية التي تعلّمتموها وتؤمنوا بالمعجزات التي رأيتموها: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾. فقد عاهدتكم على أن تثبتوا على خطّ التوحيد وطريق طاعة الله الخالصة، وأن لا تنحرفوا عنه قيد أنملة، إلّا أنّكم نسيتم كل كلامي في غيابي، وكذلك تمرّدتم على طاعة أمر أخي هارون وعصيتموه.

فلمّا رأى بنو إسرائيل أنّ موسى عليه السلام قد عنّفهم بشدة ولامهم على فعلهم وتنبّهوا إلى قبح ما قاموا به من عمل، هبوا للإعتذار فـ ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ فلم نكن في الواقع قد رغبنا وصمّمنا على عبادة العجل ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

إنّ كبير القوم إذا لام مَن تحت إمرته على إرتكابهم ذنباً ما، فإنّهم يسعون إلى نفي ذلك الذنب عنهم، ويلقونه على عاتق غيرهم، وكذلك عبّاد العجل من بني إسرائيل، فإنّهم كانوا قد انحرفوا بإرادتهم ورغبتهم عن التوحيد إلى الشرك، إلّا أنّهم أرادوا أن يلقوا كل التبعة على السامري.

على كلٍّ، فإنّ السامري ألقى كل أدوات زينة الفراعنة وحليّهم التي كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الظلم والمعصية ـ ولم يكن لها قيمة إلّا أن تصرف في مثل هذا العمل المحرّم ـ في النّار ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾[1] فلمّا رأى بنو إسرائيل هذا المشهد، نسوا فجأةً كل تعليمات موسى التوحيديّة ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾.

وبهذا فإنّ السامري قد نسي عهده وميثاقه مع موسى، وإله موسى: ﴿فَنَسِيَ﴾.

وهنا قال الله سبحانه توبيخاً وملامة لعبدة الأوثان هؤلاء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. فإنّ المعبود الواقعي يستطيع على الأقل أن يُلبّي طلبات

---

١. «الخوار»: صوت البقرة والعجل، ويطلق أحياناً على صوت البعير.

عباده ويجيب على أسئلتهم، فهل يمكن أن يكون سماع خوار العجل من هذا الجسد الذهبي لوحده، دليلًا على جواز عبادة العجل، وصحّة تلك العبادة؟

ولا شك أنّ هارون، خليفة موسى ونبي الله الكبير، لم يرفع يده عن رسالته في هذا الصخب والغوغاء، وأدّى واجبه في محاربة الانحراف والفساد قدر ما يستطيع، كما يقول القرآن: ﴿**وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ**﴾ ثم أضاف: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ**﴾.

لقد كنتم عبيداً فحرّركم، وكنتم أسرى فأطلقكم، وكنتم ضالين فهداكم، وكنتم متفرقين مبعثرين فجمعكم ووحّدكم تحت راية رجل رباني، وكنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم وهداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن ﴿**فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى**﴾.

أنسيتم أنّ أخي موسى قد نصّبني خليفة له وفرض عليكم طاعتي؟ فلماذا تنقضون الميثاق؟ ولماذا ترمون بأنفسكم في هاوية الفناء؟

إلّا أنّ بني إسرائيل تمسكّوا بهذا العجل عناداً، ولم يؤثّر فيهم المنطق السليم القوي لهذا الرجل، ولا أدلة هذا القائد الحريص، وأعلنوا مخالفتهم بصراحة: ﴿**قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ**﴾.

وبهذا لم يذعن بنو إسرائيل لأمر العقل ولا لأمر خليفة قائدهم وزعيمهم أيضاً.

ولكن إفترق عنهم هارون مع القلة من المؤمنين الثابتين، والذين كان عددهم قرابة إثني عشر ألفاً، في حين أنّ الأغلبية الجاهلة كادوا أن يقتلوه.

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ
يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ
سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ
وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ
ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ
كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

نهاية السامري المريرة: تعقيباً على البحث الذي تناولته الآيات السابقة حول تقريع موسى وملامته لبني إسرائيل الشديدة على عبادتهم العجل، تعكس هذه الآيات التي نبحثها ـ في البداية ـ محاورة موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، ثم مع السامري. فخاطب أوّلاً أخاه هارون ﴿قَالَ يَا هَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أفلم أقل لك أن ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١]. فلماذا لم تهب لمحاربة عبادة العجل هذه؟

إنّ المراد من جملة ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ هو: لماذا لم تتبع طريقة عملي في شدّة مواجهة عبادة الأصنام؟

ثم أضاف: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ .لقد كان موسى عليه السلام يتحدث بهذا الكلام مع أخيه وهو في فورة وسَورةٍ من الغضب، وكان يصرخ في وجهه، وقد أخذ برأسه ولحيته يجرّه إليه، فلمّا رأى هارون غضب أخيه الشديد قال له ـ من أجل تهدئته وليقلّل من فورته، وكذلك ليبيّن عذره وحجّته في هذه الحادثة ضمناً... ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

إنّ هارون يريد أن يقول: إنّي إذا كنت قد أقدمت على الإشتباك معهم كان ذلك خلاف أمرك، وكان من حقّك أن تؤاخذني. وبهذا أثبت هارون براءته.

وبعد الانتهاء من محادثة أخيه هارون وتبرئة ساحته، بدأ بمحاكمة السامري: لماذا فعلت ما فعلت، وما هدفك من ذلك: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَٰمِرِىُّ﴾. فأجابه و﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

إنّ كلمة «الأثر» يعني بعض تعليمات موسى عليه السلام؛ و«نبذتها» بمعنى ترك تعليمات موسى عليه السلام. وأخيراً فإنّ ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا﴾ تشير إلى ما كان لديه من معلومات خاصّة عن دين موسى عليه السلام.

ومن الواضح أنّ جواب السامري عن سؤال موسى عليه السلام لم يكن مقبولاً بأيّ وجه، ولذلك فإنّ موسى عليه السلام أصدر قرار الحكم في هذه المحكمة، وحكم بثلاثة أحكام عليه وعلى عجله، فأوّلاً: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾. أي يجب عليك الابتعاد عن الناس وعدم الإتصال بهم إلى آخر العمر، فكلما أراد شخص الإقتراب منك، فعليك أن

---

١. سورة الأعراف /١٤٢.

تقول له: لا تتصل بي ولا تقربني، وبهذا الحكم الحازم طرد السامري من المجتمع وجعله في عزلة تامة. منزوياً بعيداً عنهم.

قال بعض المفسرين: إنّ جملة ﴿لَا مِسَاسَ﴾ إشارة إلى أحد القوانين الجزائية في شريعة موسى ﷺ التي كانت تصدر في حق من يرتكب جريمة كبيرة، وكان ذلك الفرد يبدو كموجود شرّير نجس قذر، فلا يخالط أحداً أو يخالطه أحد[1].

والعقاب الثاني: إنّ موسى ﷺ قد أسمعه وأعلمه بجزائه في القيامة فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾.

والثالث: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

وشخّص موسى في آخر جملة، ومع التأكيد الشديد على مسألة التوحيد، وحاكمية نهج الله، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. فليس هو كالأوثان المصنوعة التي لا تسمع كلاماً، ولا تجيب سائلاً، ولا تحلّ مشكلة، ولا تدفع ضرّاً.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

مع أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث حول تاريخ موسى وبني إسرائيل والفراعنة والسامري المليء بالحوادث، وقد بيّنت في طيّاتها بحوثاً مختلفة، فإنّ القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتيجة عامة فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾. ثم يضيف: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ قرآناً مليئاً بالدروس والعبر، والأدلّة العقلية، وأخبار الماضين وما ينبّه المقبلين ويحذّرهم.

إنّ كلمة (ذكر) هنا، وفي آيات كثيرة أخرى من آيات القرآن الكريم تشير إلى القرآن نفسه، لأنّ آياته سبب لتذكّر وتذكير البشر، والوعي والحذر.

ولهذا السبب فإنّ الآية التالية تتحدث عن الذين ينسون حقائق القرآن ودروس التاريخ

---

١. تفسير في ظلال القرآن ٥/٤٩٤.

وعبره، فتقول: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾.

نعم... إنّ الإعراض عن القرآن يجرّ الإنسان إلى مثل هذه المتاهات التي تحمّله أعباءاً ثقيلة من أنواع الذنوب والانحرافات الفكرية والعقائدية.

ثم تضيف: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾.

ثم تتطرق الآيات إلى وصف يوم القيامة وبدايته، فتقول: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾. «زُرق»: جمع «أزرق» تأتي عادةً بمعنى زرقة العين، إلّا أنّها تطلق أحياناً على القاتم جسده بسبب الشدة والألم، فإنّ البدن عند تحمّل الألم والتعب والعذاب يضعف، ويفقد طراوته، فيبدو قاتماً وكأنّه أزرق.

في هذه الحال يتحدث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوثهم وبقائهم في عالم البرزخ، فبعضهم يقول: لم تلبثوا إلّا عشر ليال، أو عشرة أيام بلياليها: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

وإنّ تخافتهم هذا بالكلام إنّما هو للرعب والخوف الشديد الذي ينتابهم عند مشاهدة أهوال القيامة، أو أنّه نتيجة شدة ضعفهم وعجزهم.

ثم يضيف: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ سواء تكلّموا بهمس أم بصراخ، وبصوت خفي أم عال ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ
الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا
﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

مشهد القيامة المهول: تتابع هذه الآيات الكلام في الآيات السابقة عن الحوادث المرتبطة بانتهاء الدنيا وبداية القيامة. ويظهر من الآية الأُولى أنّ الناس كانوا قد سألوا

النبي ﷺ عن مصير الجبال عند انتهاء الدنيا. ولذلك يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾. والجواب: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾[١].

يستفاد من مجموع آيات القرآن حول مصير الجبال أنّها تمرّ عند حلول القيامة بمراحل مختلفة:

فهي ترجف وتهتزّ أوّلاً: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾[٢].

ثم تتحرّك: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾[٣].

وفي المرحلة الثالثة تتلاشى وتتحوّل إلى كثبان من الرمل: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[٤].

وفي المرحلة الأخيرة سيزحزحها الهواء والطوفان من مكانها ويبعثرها في الهواء وتبدو كالصوف المنفوش: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[٥].

ثم تقول الآية: إنّ الله سبحانه بعد تلاشي الجبال وتطاير ذرّاتها يأتي أمره إلى الأرض ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[٦]. وفي ذلك الحين يدعو الداعي الإلهي جميع البشر إلى الحياة والاجتماع في المحشر للحساب فيلبّي الجميع دعوته ويتّبعونه ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾. كما أنّ سطح الأرض يصبح صافياً ومستوياً بحيث لا يبقى فيه أيّ إعوجاج، فإنّ أمر الله والداعي أيضاً كل منهما صافٍ ومستقيم جلي، واتّباعه واضح لا سبيل لأيّ إنحراف وإعوجاج إليه.

عند ذلك: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾. إنّ هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إمّا هو هيمنة العظمة الإلهية على عرصة المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفاً من الحساب ونتيجة الأعمال، أو لكليهما.

---

١. «نسف»: تعني وضع الحبوب الغذائية في الغربال وغربلتها، أو ذرها في الهواء لينفصل الحبّ عن القشر، وهنا إشارة إلى تلاشي الجبال وتهشّمها، ثم تناثرها في الهواء.

٢. سورة المزمل / ١٤.

٣. سورة الطور / ١٠.

٤. سورة المزمل / ١٤.

٥. سورة القارعة / ٥.

٦. يستفاد من مجموع هذين الوصفين (القاع وصفصفاً) أنّ كل الجبال والنباتات ستمحى من على وجه الأرض في ذلك اليوم وستبقى الأرض مستوية خالية.

«العوج»: بمعنى الإعوجاج؛ و«الأمت»: أي الأرض المرتفعة والربية، وبناءً على هذا فإنّ معنى الآية هو أنّه لا يرى في ذلك اليوم أيّ إرتفاع وإنخفاض على وجه الأرض.

وبما أنّ بعض الغارقين في الذنوب والمعاصي قد يحتمل أن تنالهم شفاعة الشافعين وتنجيهم، فإنّه يضيف مباشرة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾. وهذا إشارة إلى أنّ الشفاعة هناك ليست إعتباطية وعشوائية، بل إنّ هناك تخطيطاً دقيقاً لها، سواء ما يتعلق بالشافعين أو المشفوع لهم، وما دام الأفراد لا يملكون الأهلية والاستحقاق للشفاعة، فلا معنى حينئذ لها.

ولمّا كان حضور الناس في عرصات القيامة للحساب والجزاء لابدّ معه من علم الله سبحانه بأعمالهم وسلوكهم ومعاملاتهم، فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾. فهو يعلم ما قدّم المجرمون وما فعلوه في الدنيا، وهو مطّلع على كل أفعالهم وأقوالهم ونيّاتهم في الماضي وما سيلاقونه من الجزاء في المستقبل، إلّا أنّهم لا يحيطون بعلم الله، وبهذا فإنّ إحاطة علم الله سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء وبجزائهم، وهذان الركنان في الحقيقة هما دعامة القضاء التام العادل.

في ذلك اليوم: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

«العنت»: من مادة العنوة، وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة، ولذلك يقال للأسير: «عاني»، لأنّه خاضع وذليل في يد الآسر، وإذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأنّ كل الإحساسات النفسية، ومن جملتها الخضوع، تظهر آثارها أوّلاً على وجه الإنسان.

إنّ إنتخاب صفتي «الحي والقيوم» هنا من بين صفات الله سبحانه، لأنّهما يناسبان النشور أو الحياة وقيام الناس جميعاً من قبورهم «يوم القيامة».

وتختتم الآية بالقول: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ فالظلم والجور كالحمل العظيم الذي يثقل كاهل الإنسان، ويمنعه من السير والرقي إلى نعم الله الخالدة.

ولمّا كانت طريقة القرآن غالباً هي بيان تطبيقي للمسائل، فإنّه بعد أن بيّن مصير الظالمين في ذلك اليوم، تطرّق إلى بيان حال المؤمنين فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[١].

التعبير بـ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ إشارة إلى أنّهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كل الصالحات فليقوموا ببعضها، لأنّ الايمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أنّ العمل الصالح

---

١. «الهضم»: بمعنى النقص، وإذا قيل لجذب الغذاء إلى البدن: هضم، فلأنّ الغذاء يقلّ ظاهراً وتبقى فضلاته.

بدون إيمان كالشجرة من دون جذر، إذ قد تبق عدة أيّام لكنها تجفّ آخر الأمر.

مراحل القيامة: وردت الإشارة في الآيات ـ محل البحث ـ إلى سلسلة من الحوادث التي تقع عند حلول القيامة وبعدها:

١ـ رجوع الأموات إلى الحياة: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٢ـ جمع المجرمين وحشرهم: ﴿نَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٣ـ تلاشي جبال الأرض، ثم تبعثرها في كل مكان، وإستواء سطح الأرض تماماً: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

٤ـ إستماع الجميع لدعوة داعي الله، وإنقطاع جميع الأصوات: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾.

٥ـ عدم تأثير الشفاعة في ذلك اليوم بدون إذن الله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ...﴾.

٦ـ إعداد الله تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهي ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

٧ـ خضوع الجميع في مقابل حكمه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾.

٨ـ يأس الظالمين: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

٩ـ رجاء المؤمنين لطف الله ورحمته: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ
ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ
وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

الآيات محل البحث ـ في الواقع ـ إشارة إلى مجموع ما مرّ في الآيات السابقة حول المسائل التربوية المرتبطة بالقيامة والوعد والوعيد، فتقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

التعبير بـ(كذلك) إشارة إلى المطالب التي بيّنت قبل هذه الآية.

كلمة «عربيًّا» وإن كانت بمعنى اللغة العربية، إلّا أنّها هنا إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته وسرعة إيصاله للمفهوم والمراد من جهتين:

الأولى: إنّ اللغة العربية ـ بشهادة علماء اللغة في العالم ـ واحدة من أبلغ لغات العالم، وأدبها من أقوى الآداب.

والثانية: إنّ جملة (صرّفنا) أحياناً تشير إلى التعبيرات القرآنية المختلفة حول حادثة واحدة، فمثلاً نراه يبيّن مسألة الوعيد وعقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الأُمم السابقة وحوادثها تارة، وتارة أُخرى على هيئة خطاب موجّه للحاضرين، وثالثة بتجسيد حالهم في مشهد القيامة، وهكذا.

أمّا الآية التالية فتضيف قائلة: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

وبما أنّ النبي ﷺ كان يعجّل في إبلاغ الوحي وما ينزل من القرآن لاهتمامه به وتعشّقه أن يحفظه المسلمون ويستظهروه، ولم يتمهّل أن يتمّ جبرئيل ما يلقيه عليه من الوحي فيبلغه عنه، فإنّ الآية محلّ البحث تذكّره بأن يتمهّل فتقول: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

فإذا كان النبي ﷺ مأموراً أن يطلب زيادة العلم من ربّه إلى آخر عمره مع غزارة علمه، وروحه المليئة وعياً وعلماً، فإنّ واجب الآخرين واضح جدّاً، وفي الحقيقة، فإنّ العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف حدّاً، وزيادة الطلب في كثير من الأُمور مذمومة إلّا في طلب العلم فإنّها ممدوحة، والإفراط قبيح في كل شيء إلّا في طلب العلم.

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ
﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ
يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

آدم ومكر الشيطان: إنّ هذه الآيات وما بعدها تتحدث عن قصة آدم وحواء، وعداء ومحاربة إبليس لهما، وربما كانت إشارة إلى أنّ الصراع بين الحق والباطل لا ينحصر بالأمس واليوم، وموسى ﷺ وفرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم وسيستمر كذلك.

وبالرغم من أنّ قصة آدم وإبليس قد وردت مراراً في القرآن، إلّا أنّها تمتزج في كل مورد بملاحظات ومسائل جديدة، وهنا تتحدث أوّلاً عن عهد الله إلى آدم فتقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

والمراد من العهد المذكور، أمر الله بعدم الإقتراب من الشجرة الممنوعة.

فلا شك أنّ آدم لم يرتكب معصية، بل بدر منه ترك الأولى. أو بتعبير آخر، فإنّ مرحلة وجود آدم في الجنّة لم تكن مرحلة تكليف، بل كانت مرحلة تجريبية للإستعداد للحياة في هذه الدنيا وتقبّل المسؤولية.

ثم أشارت إلى جانب آخر من هذه القصة، فقالت: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾. ومن هنا يتّضح مقام آدم العظيم، آدم الذي سجدت له الملائكة، كما أنّ عداوة إبليس تجلّت له ضمناً من أوّل الأمر إذ لم يخضع لآدم ولم يعظّمه.

لا شك أنّ السجدة لا تعني السجدة الخاصة بعبادة الله، ولا أحد أو موجود يستحق أن يكون معبوداً من دون الله سبحانه، وبناءً على هذا فإنّ هذه السجدة كانت لله، غاية ما هناك أنّها كانت من أجل خلق هذا الموجود العظيم. فإنّ الله سبحانه تعالى أنذر آدم بقوله: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

من الواضح أنّ الجنة هنا لا يراد منها جنّة الخلود في العالم الآخر، والتي هي نقطة تكامل لا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، بل كانت بستاناً فيه كل شيء مما في بساتين هذه الدنيا، ولم يكن فيها نصب ولا غصّة بلطف الله.

ثم يبيّن الله لآدم راحة الجنة وهدوءها، وألم ومشقة الخروج منها، فيقول: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

فقد أُشير في هاتين الآيتين إلى أربع إحتياجات أصلية وابتدائية للإنسان، أي: الحاجة إلى الغذاء، والماء، واللباس ـ للحماية من حرارة الشمس ـ والمسكن، لكن ومع كل ذلك، فإنّ الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، ولهذا لم يهدأ له بال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

«الوسوسة»: في الأصل تعني الصوت المنخفض جدّاً، ثم قيلت لخطور الأفكار السافلة والخواطر السيئة سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجه.

إنّ الشيطان تتبّع رغبة آدم وأنّها في أيّ شيء، فوجد أنّ رغبته في الحياة الخالدة

والوصول إلى القدرة الأزلية، ولذلك جاء إليه عن هذين العاملين وإستغلّهما في سبيل جرّه إلى مخالفة أمر الله.

وأخيراً وقع المحذور، وأكل آدم وحواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنة، فبدت أعضاؤهما: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [1]. فلما رأى آدم وحواء ذلك إستحييا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [2]. نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾. «غوى»: أخذت من مادّة الغي، أي العمل الصبياني الناشيء من إعتقاد خاطىء، ولما كان آدم هنا قد أكل ـ جهلًا وإشتباهاً ـ من الشجرة المحرمة، نتيجة للظن الذي حصل له من قول الشيطان، فقد عُبّر عن عمله بـ(غوى).

ولكن لما كان آدم تقيّاً ومؤمناً في ذاته، وكان يسير في طريق رضى الله سبحانه، وكان لهذا الخطأ الذي أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة استثنائية، فإنّ الله سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿۱۲۳﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿۱۲٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿۱۲٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿۱۲٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿۱۲۷﴾

مع أنّ توبة آدم قد قبلت، إلّا أنّ عمله أدّى إلى عدم استطاعته الرجوع إلى الحالة الأولى، ولذا فإنّ الله سبحانه أصدر أمره لآدم وحواء كليهما وكذلك الشيطان أن يهبطوا جميعاً من الجنة: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. إلّا أنّي أعلمكم بأنّ طريق النجاة والسعادة مفتوح أمامكم ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

---

۱. «سوءات»: جمع سوءة، وهي في الأصل كل شيء غير سار ويسيء الإنسان، ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميّت، وأحياناً على العورة، والمراد هنا هو المعنى الأخير.

۲. «يخصفان»: من مادّة خصف، وهي هنا تعني خياطة اللباس.

ومن أجل أن يتّضح أيضاً مصير الذين ينسون أمر الحق، فقد أضاف تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

هنا ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾. فيسمع الجواب مباشرةً: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾. وتعمى عينك عن رؤية نعم الله ومقام قربه.

أمّا الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فهي بمثابة الاستنتاج والخلاصة إذ تقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

لما كانت عدّة بحوث في الآيات السابقة قد وردت عن المجرمين، فقد أشارت الآيات الأُولى من الآيات محلّ البحث إلى واحد من أفضل طرق التوعية وأكثرها تأثيراً، وهو مطالعة تأريخ الماضين، فتقول: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾. أُولئك الذين عمّهم العذاب الإلهي الأليم ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾.

إنّ هؤلاء يمرّون في مسيرهم وذهابهم وإيّابهم على منازل قوم عاد ـ في أسفارهم إلى اليمن ـ وعلى مساكن ثمود المتهدمة الخربة ـ في سفرهم إلى الشام ـ وعلى منازل قوم لوط التي جُعل عاليها سافلها ـ في سفرهم إلى فلسطين ـ ويرون آثارهم، إلّا أنّهم لا يعتبرون.

نعم... ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[2].

إنّ موضوع أخذ العبرة من تأريخ الماضين من الأُمور التي يؤكّد عليها القرآن والأحاديث الإسلامية كثيراً.

في كتاب معاني الأخبار عن رسول الله ﷺ قال: «... وأغفل الناس من لم يتّعظ بتغيّر الدنيا من حال إلى حال». ولا يفكّر في تقلّب الليل والنهار وتعاقبهما.

الآية التالية جواب عن سؤال يثار هنا، وهو: لماذا لا يجري الله سبحانه على هذا القسم

---

١. «الضنك»: المشقّة والضيق، وهذه الكلمة تأتي دائماً بصيغة المفرد، وليس لها تثنية ولا جمع ولا تأنيث.

٢. «النهى»: من مادّة نهي، وهي هنا بمعنى العقل، لأنّ العقل ينهي الإنسان عن القبائح والسيّئات.

من المجرمين ما أجراه على المجرمين السابقين، فيقول القرآن: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

إنّ هذه السنّة الإلهية التي ذكرت في مواضع عديدة من القرآن باسم (كلمة) إشارة إلى قانون الخلقة المبتني على حرية البشر، لأنّ كل مجرم إذا عوقب مباشرة وبدون أن يمهل، فإنّ الإيمان والعمل الصالح سيتّصف بالجبر تقريباً، وسيكون على الأغلب خوفاً من العقاب الآني، وبناءً على هذا فسوف لا يكون وسيلة للتكامل الذي هو الهدف الأصلي.

إضافة إلى أنّه إذا تقرّر أن يعاقب جميع المجرمين فوراً، فسوف لا يبق أحد حيّاً على وجه الأرض: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾[1]. وبناءً على هذا فيجب أن تكون هناك مهلة وفترة تعطى لكل المرتبطين بطريق الحق حتى يرجع المجرمون إلى أنفسهم ويسلكوا سبيل الصلاح، ولتكون كذلك فرصة لتهذيب النفس.

إنّ التعبير بـ(أجل مسمّى) بالشكل الذي يفهم من مجموع آيات القرآن، إشارة إلى الزمان الحتمي لنهاية حياة الإنسان.

ثم يوجّه الخطاب إلى النبي ﷺ، فيقول: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. ومن أجل رفع معنويات النبي ﷺ وتقوية قلبه، وتسلية خاطره، فإنّه يؤمر بمناجاة الله والصلاة والتسبيح فيقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ ولا يتأثّر قلبك جرّاء كلامهم المؤلم.

لا شك أنّ هذا الحمد والتسبيح محاربة للشرك وعبادة الأصنام، وفي الوقت نفسه صبر وتحمّل أمام أقوال المشركين السيئة، وكلامهم الخشن.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ
رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ
وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

---

١. سورة النحل /٦١.

لقد أصدرت في هذه الآيات أوامر وتوجيهات للنبيﷺ، والمراد منها والمخاطب فيها عموم المسلمين، وهي تتمة للبحث الذي قرأناه آنفاً حول الصبر والتحمل. فتقول أوّلاً: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾. فإنّ هذه النعم المتزلزلة الزائلة ما هي إلّا ﴿زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

في الوقت الذي أمددناهم بها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. فإنّ الله سبحانه وهب لك مواهب ونعماً متنوّعة، فأعطاك الإيمان والإسلام، والقرآن والآيات الإلهية والرزق الحلال الطاهر، وأخيراً نعم الآخرة الخالدة، هذه الهبات والعطايا المستمرة الدائمة.

وتقول الآية التالية تلطيفاً لنفس النبيﷺ وتقوية لروحه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ لأنّ هذه الصلاة بالنسبة لك ولأهلك أساس العفّة والطهارة وصفاء القلب وسموّ الروح ودوام ذكر الله.

إنّ هذه السورة لمّا كانت قد نزلت في مكة، فإنّ مصداق الأهل في ذلك الزمان كان (خديجة وعلياًﷺ) إلّا أنّ مصطلح أهل بيت النبيﷺ أصبح واسع الدلالة بمرور الزمن.

ثم تضيف بأنّه إذا كان قد صدر الأمر لك ولأهلك بالصلاة فإنّ نفعها وبركاتها إنّما يعود كل ذلك عليكم، فإنّا ﴿لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ فإنّ هذه الصلاة لا تزيد شيئاً من عظمة الله، بل هي رأس مال عظيم لتكامل البشر وإرتقائهم ودرس تعليمي وتربوي عال.

وتضيف الآية في النهاية: ﴿وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. فإنّ ما يبقى ويفيد في نهاية الأمر هو التقوى، والمتقون هم الفائزون في النهاية، أمّا الذين لا تقوى لهم فهم محكومون بالهزيمة والإنكسار.

ثم أشارت الآية التالية إلى واحدة من حجج الكفار الواهية فقالت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وأجابتهم مباشرة: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾. حيث كانوا يشكّكون ويطلبون الأعذار بصورة متلاحقة من أجل الإتيان بالمعجزات، وبعد رؤية ومشاهدة تلك المعاجز إستمرّوا في كفرهم وإنكارهم، فحاق بهم العذاب الإلهي، أفلا يعلمون بأنّهم إذا ساروا في نفس الطريق فسينتظرهم المصير نفسه.

إنّ هؤلاء المتذرعين ليسوا أناساً طلّاب حق، بل إنّهم دائماً في صدد إيجاد أعذار وتبريرات جديدة، فحتّى ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ إلّا أنّهم الآن وقد جاءهم هذا النبي الكريم بهذا الكتاب العظيم، يقولون كل يوم كلاماً، ويختلقون الأعذار للفرار من الحق.

وقالت الآية التالية: أنذر هؤلاء و﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ فنحن بإنتظار الوعود الإلهية في حقّكم، وأنتم بإنتظار أن تحيط بنا المشاكل والمصائب ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾. وبهذه الجملة الحاسمة العميقة المعنى تنتهي المحاورة مع هؤلاء المنكرين العنودين المتذّرعين.

«نهاية تفسير سورة طه»

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢١

سورة الأنبياء

وهي مائة وإثنتا عشرة آية

مكية

محتوى السورة:

١ـ إنّ هذه السورة كما تدلّ عليها تسميتها هي سورة الأنبياء، لأنّ اسم ستّة عشر نبيّاً قد جاء في هذه السورة، بعضهم بذكر نماذج وصور من حالاتهم، والبعض كإشارة، وهم:

موسى ـ هارون ـ إبراهيم ـ لوط ـ إسحاق ـ يعقوب ـ نوح ـ داود ـ سليمان ـ أيّوب ـ إسماعيل ـ إدريس ـ ذو الكفل ـ ذو النون (يونس) ـ زكريا ـ يحيى عليهم السلام.

٢ـ إضافة إلى ما مرّ، فإنّ خاصية السور المكية التي تتحدث عن العقائد الدينية، وبالأخصّ المبدأ والمعاد، منعكسة تماماً في هذه السورة.

٣ـ وتحدّث جانب آخر من هذه السورة عن إنتصار الحق على الباطل، والتوحيد على الشرك، وجنود الحق على جنود إبليس.

والذي يلفت النظر هنا أنّ هذه السورة تبتدىء بتهديد الناس الغافلين الجاهلين بالحساب الشديد، وتنتهي بتهديدات أُخرى في هذا المجال أيضاً.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلّم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن».

وقد قلنا مراراً: إنّ القرآن كتاب عقيدة وعمل، والقراءة مقدمة للتفكير والتدبر، وهو مقدمة للإيمان والعمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ
مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾
قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾

تبدأ هذه السورة بتحذير قوي شديد موجّه لعموم الناس، تحذير يهزّ الوجدان ويوقظ الغافلين، فتقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

إنّ عمل هؤلاء يدلّ على أنّ هذه الغفلة عمّت كل وجودهم، وإلّا فكيف يمكن للإنسان أن يؤمن بإقتراب الحساب... الحساب الدقيق المتناهي في الدقة، ومع كل ذلك لا يكترث بالأمور ويرتكب أنواع الذنوب.

كلمة (إقترب) لها دلالة على التأكيد أكثر من (قرب) وهي إشارة إلى أنّ هذا الحساب قد أصبح قريباً جداً.

ثم إنّ الفرق بين «الغفلة» و«الإعراض» يمكن أن يكون من جهة أنّ هؤلاء غافلون عن إقتراب الحساب، وهذه الغفلة هي تسبّب الإعراض عن آيات الله سبحانه.

إنّ المراد من إقتراب الحساب والقيامة هو أنّ ما بقي من الدنيا قليل في مقابل ما مضى منها، ولهذا فإنّ القيامة ستكون قريبة ـ قرباً نسبيّاً ـ خاصة وأنّه قد روي ـ في تفسير مجمع البيان ـ عن رسول الله ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى اللتين تقع إحداهما إلى جنب الأُخرى.

ثم تبيّن الآية التالية علامة من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصورة: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

كلمة «ذكر» في الآية إشارة إلى كل كلام منبّه يوقظ الغافلين، والتعبير بـ(محدث) إشارة إلى أنّ الكتب السماوية كانت تنزل الواحد تلو الآخر، وتحتوي كل سورة من سور القرآن، وكل آية من آياته محتوى جديداً ينفذ إلى قلوب الغافلين بطرق مختلفة، لكن أيّ فائدة مع مَن يتّخذ كل ذلك هزواً؟

ثم تقول من أجل زيادة التأكيد: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ لأنّهم في الظاهر يتخذون كل المسائل الجدية لهواً ولعباً. ومن الطبيعي أنّ مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا يجدون طريق السعادة، ولا يوفّقون إليه.

ثم تشير إلى جانب من الخطط الشيطانية فتقول: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. وإذا لم يكن سوى بشر إعتيادي، فلابد أن تكون أعماله الخارقة ونفوذ كلامه سحراً، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

إنّ هؤلاء قد أكّدوا على مسألتين في أقوالهم: **إحداهما:** كون النبي ﷺ بشراً، **والأُخرى:** تهمة السحر، وستأتي الإتهامات الأُخرى في الآيات التالية أيضاً، ويتصدّى القرآن الكريم لجوابها.

إلّا أنّ القرآن يجيبهم بصورة عامة على لسان النبي ﷺ فيقول: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا تتصوروا أنّ نجواكم ومؤامراتكم المخفية تخفى عليه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهو يعلم كل شيء، ومطلع على كل شيء، فلا يسمع كلامكم وحسب، بل هو مطلع حتى على الأفكار التي تمرّ في أذهانكم، والقرارات التي في صدوركم.

بعد ذكر نوعين من تذرّعات المخالفين، يتطرق القرآن إلى ذكر أربعة أنواع أُخرى منها، فيقول: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾[١] وهم يعتقدون أنّها حقيقة.

وقد يغيّرون كلامهم هذا أحياناً فيقولون: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ ونسبه إلى الله.

ويقولون أحياناً: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، وهذه الآيات مجموعة من خيالاته الشعرية.

وفي المرحلة الرابعة يقولون: إنّا نتجاوز عن كل ذلك فإذا كان مرسلًا من الله حقّاً ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

إنّ التحقيق في هذه الإدّعاءات المتضادة المتناقضة في حق النبي ﷺ سيوضّح أنّها بنفسها دليل على أنّهم لم يكونوا طلّاب حق، بل كان هدفهم خلق الأعذار، وإخراج خصمهم من الحلبة بأيّة قيمة وثمن، وبأيّ صورة كانت.

---

١. «أضغاث»: جمع ضِغث، وهو حزمة الحطب أو الأعشاب اليابسة وما شاكل ذلك، و«الأحلام»: جمع حُلم وهو المنام والرؤية، ولمّا كان جمع حزمة حطب يحتاج أن يجمعوا عدّة أشياء متفرّقة إلى بعضها، فإنّ هذا التعبير أُطلق على المنامات المضطربة المتفرّقة.

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

كل الأنبياء كانوا بشراً: قلنا: إنّ ستّة إشكالات وإيرادات قد أُعيد ذكرها في الآيات السابقة، وهذه الآيات التي نبحثها تجيب عنها، تارةً بصورة عامّة جامعة، وأُخرى تجيب عن بعضها بالخصوص. أشارت الآية الأُولى إلى المعجزات المقترحة لأُولئك، ونقصد منها: المعجزات المقترحة حسب أهوائهم تذرّعاً، فتقول: إنّ جميع المدن والقرى التي أهلكناها سابقاً كانت قد طلبت مثل هذه المعاجز، ولكن لمّا استجيب طلبهم كذّبوا بها، فهل يؤمن هؤلاء؟: ﴿**مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ**﴾. وهي تنذرهم بصورة ضمنية بأنّ الآيات لو تحقّقت على ما إقترحتم ثم لم تؤمنوا، فإنّ فناءكم حتمي!

ثم تطرّقت الآية التالية إلى جواب الإشكال الأوّل ـ خاصةً ـ حول كون النبي ﷺ بشراً، فتقول: إنّك لست الوحيد في كونك نبيّاً، وفي نفس الوقت أنت بشر ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ**﴾ فإنّ هذه حقيقة تاريخية يعرفها الجميع ﴿**فَسْـَٔلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

لا شكّ أنّ ﴿**أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ تشمل من الناحية اللغوية كل العلماء والمطلعين، والآية أعلاه تبيّن قانوناً عقلائياً عاماً في مسألة (رجوع الجاهل إلى العالم) فإنّ مورد ومصداق الآية وإن كان علماء أهل الكتاب، إلّا أنّ هذا لا يمنع من عمومية القانون، ولهذه العلة إستدلّ علماء وفقهاء الإسلام بهذه الآية في مسألة «جواز تقليد المجتهدين المسلمين».

ثم تعطي الآية التالية توضيحاً أكثر حول كون الأنبياء بشراً، فتقول: ﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ**﴾.

لا شك في أنّه يجب أن يكون قائد البشر ومرشدهم من جنسهم، بنفس تلك الغرائز والعواطف والأحاسيس والحاجات والعلاقات حتى يحسّ بآلامهم وعذابهم، ولينتخب

أفضل طرق العلاج باستلهامه من معلوماته ليكون قدوة وأُسوة لكل البشر، ويقيم الحجة على الجميع.

ثم تحذّر الآية وتهدّد المنكرين المتعصبين العنودين، فتقول: إنّا كنّا قد وعدنا رسلنا بأن ننقذهم من قبضة الأعداء، ونبطل كيد أُولئك الأشرار ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

أجل، فكما أنّ سنّتنا كانت إختيار قادة البشر من بين أفراد البشر، كذلك كانت سنّتنا أن نحميهم من مكائد المخالفين، وإذا لم تؤثّر المواعظ والنصائح المتلاحقة أثرها في المخالفين، فإنّنا سنطهّر الأرض من وجودهم القذر.

أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب ـ مرّة أُخرى ـ في جملة قصيرة عميقة المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فتقول: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. فإنّ كل من يتدبّر آيات هذا الكتاب الذي هو أساس التذكّر وحياة القلب، وحركة الفكر، وطهارة المجتمع، سيعلم جيداً أنّه معجزة واضحة وخالدة، ومع وجود هذه المعجزة البينة التي تظهر فيها آثار الإعجاز من جهات مختلفة... من جهة الجاذبية الخارقة، ومن جهة المحتوى، الأحكام والقوانين، العقائد والمعارف، و... فهل لا زلتم بإنتظار معجزة أُخرى؟

إنّ كون القرآن موقظاً ومنبّهاً لا يعني إجباره الناس على هذا الوعي، بل إنّ الوعي مشروط بأن يريد الإنسان ويصمّم، وأن يفتح نوافذ قلبه أمام القرآن.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا
أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ
مَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

كيف وقع الظالمون في قبضة العذاب: تبيّن هذه الآيات مصير المشركين والكافرين مع مقارنته بمصير الأقوام الماضين، وذلك بعد البحث الذي مرّ حول هؤلاء. فتقول الآية الأُولى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

«القصم»: يعني الكسر المقترن بالشدة، فإنّها توحي بأنّ الله سبحانه قد أعدّ أشدّ العقاب والإنتقام للأقوام الظالمين الجائرين.

عند ذلك توضّح الآية حال هؤلاء عندما تتّسع دائرة العذاب لتشمل ديارهم العامرة، وعجزهم أمام العقاب الإلهي، فتقول: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[1].

إلّا أنّه يقال لهؤلاء من باب التوبيخ والتقريع: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾.

إنّ هذه العبارة قد تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء حينما كانوا غارقين في تلك النعمة الوفيرة، كان السائلون وطالبو الحاجات يترددون دائماً إلى أبوابهم، يأتون والأمل يقدمهم، ويرجعون بالخيبة والحرمان، فالآية تقول لهم: إرجعوا وأعيدوا ذلك المشهد اللعين، وهذا في الحقيقة نوع من الاستهزاء والملامة.

إنّ هؤلاء يعون في هذا الوقت حقيقة الأمر، ويرون ما كانوا يسخرون منه من قبل قد تجلّى أمامهم بصورة جديّة تماماً، فتعلو صرختهم: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

إلّا أنّ هذا الوعي الاضطراري للإنسان عندما يواجه مشاهد العذاب لا قيمة له، ولا يؤثّر في تغيير مصير هؤلاء، ولذلك فإنّ القرآن في آخر آية من الآيات محل البحث يضيف: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ فيلقونهم على الأرض كالزرع المحصود، وتبدّل مدينتهم التي غمرتها الحياة والحركة والعمران إلى قبور مهدّمة مظلمة، فيصبحوا ﴿خَامِدِينَ﴾[2].

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

خلق السماء والأرض ليس لهواً: لمّا كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة وهي: إنّ الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف وغاية من خلقهم إلّا الأكل

---

١. «الركض»: يأتي بمعنى ركض الإنسان بنفسه، أو بمعنى إركاض المركب والدابة، ويأتي أحياناً بمعنى ضرب الرجل على الأرض؛ مثل ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ـ سورة ص /٤٢.

٢. «خامد»: من مادّة الخمود، بمعنى إنطفاء النّار، ثمّ أُطلقت على كل شيء يفقد حركته وفاعليّته ونشاطه.

والشرب والملذّات، ويظنّون أنّ العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول في الآيات التي نبحثها من أجل إبطال هذا النوع من التفكير، وإثبات وجود هدف عال وسام من وراء خلق كل العالم، وخاصة البشر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

إنّ هذه الأرض الواسعة، وهذه السماء المترامية الأطراف، وكل هذه الموجودات المتنوعة البديعة التي توجد في ساحتها تبيّن أنّ هدفاً مهماً في خلقها... نعم، إنّ الهدف هو بيان قدرة الخالق الجليل، وإبراز جانب من عظمته من جهة، ومن جهة أُخرى ليكون دليلاً على المعاد، وإلّا فإنّ كل هذه الضجّة والغوغاء إن كانت لبضعة أيّام فلا معنى لها.

ثم تقول الآية التالية: الآن وقد ثبت أنّ العالم له هدف فإنّه لا ريب في أنّ الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو الله سبحانه وتعالى عن ذلك، فإنّ هذا اللهو غير معقول، فـ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾. «اللعب»: يعني العمل غير الهادف، و«اللهو»: إشارة إلى الأهداف غير المعقولة والملاهي.

هذه الآية تبيّن حقيقتين:

الأولى: أنّه تشير إلى أنّ من المحال أن يكون هدف الله هو اللهو.

والأُخرى: إنّه على فرض أنّ الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهواً مناسباً لذاته، كأن يكون من عالم المجردات وأمثال ذلك، لا من عالم المادة المحدود.

ثم تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنّون عدم هدفية الدنيا، بل هي للهو واللعب فقط: إنّ هذا العالم مجموعة من الحق والواقع، ولم يقم أساسه على الباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. وتقول في النهاية: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وتتحدثون عن عدم هدفية الخلق.

أي إنّنا نجعل الأدلة العقلية والإستدلالات الواضحة والمعجزات البيّنة إلى جانب ظنون وأوهام اللاهدفيين، لتتبخّر وتتلاشى هذه الأوهام في نظر العلماء وأصحاب الفكر والرأي.

«نقذف»: من مادة «قذف» بمعنى الإلقاء، وخاصةً الإلقاء من طريق بعيد، ولما كان للقذف من بعيد سرعة وقوة أكثر، فإنّ هذا التعبير يبيّن قدرة إنتصار الحق على الباطل.

«يدمغه»: (على قول الراغب) كسر «الجمجمة والدماغ»، وتعتبر أكثر نقطة في بدن الإنسان حساسية، وهو تعبير بليغ عن غلبة جند الحق غلبة واضحة قاطعة.

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ
﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ
يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ
﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟
بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

كان الكلام في الآيات السابقة عن أنّ عالم الوجود ليس عبثياً لا هدف من ورائه، فلا مزاح ولا عبث، ولا لهو ولا لعب، بل له هدف تكاملي دقيق للبشر.

ولما كان من الممكن أن يوجد هذا التوهّم، وهو: ما حاجة الله إلى إيماننا وعبادتنا؟ فإنّ الآيات التي نبحثها تجيب أوّلاً عن هذا التوهّم، وتقول: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ (أي: الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[1]. ومع هذا الحال فأيّ حاجة لطاعتكم وعبادتكم؟ فإذا كنتم قد أمرتم بالإيمان والعمل الصالح والعبودية فإنّ كل ذلك سيعود بالنفع عليكم.

وبعد أن نفت في الآيات السابقة عبثيّة ولا هدفية عالم الوجود، وأصبح من المسلم أنّ هذا العالم هدفاً مقدّساً، فإنّ هذه الآيات تتطرق إلى بحث مسألة وحدة المعبود ومدبّر هذا العالم، فتقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾[2].

وهذه الجملة إشارة إلى أنّ المعبود يجب أن يكون خالقاً، وخاصّة خلق الحياة، لأنّها أوضح مظاهر الخلق ومصاديقه.

التعبير بـ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى الأصنام والمعبودات التي كانوا يصنعونها من الحجارة والخشب، وكانوا يظنّونها حاكمة على السماوات.

---

١. «يستحسرون»: في الأصل من مادّة حسر، وفي الأصل تعني رفع النقاب والستار عن الشيء المغطّى، ثم استعملت بمعنى التعب والضعف، فكأنّ كل قوى الإنسان تصرف في مثل هذه الحالة، ولا يبقى منها شيء مخفي في بدنه.

٢. «ينشرون»: من مادّة «نشر»، أي فكّ الشيء المعقّد الملفوف، وهو كناية عن الخلق وإنتشار المخلوقات في أرجاء الأرض والسماء.

وتبيّن الآية التالية أحد الأدلة الواضحة على نفي آلهة وأرباب المشركين، فتقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

هذه الإدعاءات غير الصحيحة وهذه الأرباب المصنوعة والآلهة المظنونة ليست إلّا أوهاماً، وساحة كبرياء ذاته المقدسة لا تتلوّث بهذه النسب المغلوطة.

إنّ الدليل الوارد في الآية آنفة الذكر الذي يتحرك لإثبات التوحيد ونفي الآلهة، في الوقت الذي هو بسيط وواضح، فإنّه من البراهين الفلسفية الدقيقة في هذا الباب، ويذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). ويمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلي:

إنّنا نرى نظاماً واحداً حاكماً في هذا العالم، إنّ إنسجام القوانين وأنظمة الخلقة هذه يحكي أنّها تنبع من عين واحدة، لأنّ البدايات إن كانت متعددة، والإرادات مختلفة، لم يكن يوجد هذا الإنسجام مطلقاً. لأنّ لكل واحدة قضاء، وكانت الأُخرى تمحو أثر الأُولى، وسيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

وبعد أن ثبت بالإستدلال الذي ورد في الآية توحيد مدبّر ومدير هذا العالم، فتقول الآية التالية: إنّه قد نظّم العالم بحكمة لا مجال فيها للإشكال والإنتقاص ولا أحد يعترض عليه في خلقه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

إنّ لدينا نوعين من الأسئلة:

الأوّل: السؤال التوضيحي، وهو أن يكون الإنسان يريد أن يعلم النقطة الأصلية والهدف الحقيقي من المسائل، ومثل هذا السؤال جائز حتى حول أفعال الله.

أمّا **النوع الثاني:** فهو السؤال الإعتراضي، والذي يعني أنّ العمل الذي تمّ كان خطأً. من المسلم أنّ هذا النوع من السؤال لا معنى له حول أفعال الله الحكيم، إلّا أنّ مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرين واسع.

وتشتمل الآية التالية على دليلين آخرين في مجال نفي الشرك، فضافاً إلى الدليل السابق يصبح مجموعها ثلاثة أدلة.

تقول الآية أوّلاً: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ﴾. وهو إشارة إلى أنّكم إذا صرفتم النظر عن الدليل السابق القائم على أنّ نظام عالم الوجود دليل على التوحيد، فإنّه لا يوجد أيّ دليل ـ على الأقل ـ على إثبات الشرك وأُلوهية هذه الآلهة، فكيف يتقبّل إنسان عاقل مطلباً لا دليل عليه؟

ثم تشير إلى الدليل الأخير فتقول: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ وهذا هو الدليل الذي ذكره علماء العقائد تحت عنوان: (إجماع وإتّفاق الأنبياء على التوحيد).

ولما كانت كثرة المشركين (وخاصةً في ظروف حياة المسلمين في مكة، والتي نزلت فيها هذه السورة) مانعاً أحياناً من قبول التوحيد من قبل بعض الأفراد، فهي تضيف: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

لقد كانت مخالفة الأكثرية الجاهلة في كثير من المجتمعات دليلًا وحجة لإعراض الغافلين الجاهلين دائماً، وقد إنتقد القرآن الإستناد إلى هذه الأكثرية بشدة في كثير من الآيات، سواء التي نزلت في مكة أو المدينة.

ولما كان من المحتمل أن يقول بعض الجهلة الغافلين أنّ لدينا أنبياء كعيسى مثلًا دعوا إلى آلهة متعددة، فإنّ القرآن الكريم يقول في آخر آية من الآيات محل البحث بصراحة تامة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾. وبهذا يثبت أنّه لا عيسى ولا غيره قد دعا إلى الشرك، ومثل هذه النسبة إليه تهمة وإفتراء.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ
بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ
إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

لمّا كان الكلام في آخر آية عن الأنبياء، ونفي كل أنواع الشرك، ونفي كون المسيح ﷺ ولداً، فإنّ كل الآيات محلّ البحث تتحدّث حول نفي كون الملائكة أولاداً.

وتوضيح ذلك أنّ كثيراً من مشركي العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله سبحانه، ولهذا السبب كانوا يعبدونها أحياناً، والقرآن الكريم إنتقد هذه العقيدة الخرافية التي لا أساس لها، وبيّن بطلانها بالأدلّة المختلفة. يقول أوّلًا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾. فإن كان مرادهم الولد الحقيقي، فإنّه يلزم من هذا الجسمية، وإن كان المراد التبنّي ـ والذي كان إعتيادياً ومتداولًا بين العرب ـ فإنّ ذلك أيضاً دليل على الضعف والإحتياج، إلّا أنّ الوجود الأزلي الأبدي وغير الجسماني، وغير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له، ولذلك فإنّ القرآن يقول مباشرةً: ﴿سُبْحَانَهُ﴾.

ثم تبيّن أوصاف الملائكة في ستّة أقسام تشكّل بمجموعها دليلًا واضحاً على نفي كونهم أولاداً:

١ ـ ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾.

٢ ـ ﴿مُكْرَمُونَ﴾.

فليس هؤلاء عباداً هاربين خضعوا للخدمة تحت ضغط المولى، ولذلك فإنّ الله سبحانه قد أحبّهم، وأفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم في العبودية.

٣ ـ إنّ هؤلاء على درجة من الأدب والخضوع والطاعة لله بحيث ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾.

٤ ـ وكذلك من ناحية العمل أيضاً فهم مطيعون ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟

ثم أشارت إلى إحاطة علم الله بهؤلاء فتقول: إنّ الله تعالى يعلم أعمالهم الحاضرة والمستقبلية، وكذلك أعمالهم السالفة، وأيضاً يعلم ما في دنياهم وآخرتهم، وقبل وجودهم وبعده: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ومن المسلّم أنّ الملائكة مطلعون على هذا الموضوع، وهو أنّ لله إحاطة علمية بهم، وهذا العرفان هو السبب في أنّهم لا يسبقونه بالقول، ولا يعصون أمره، ولهذا فإنّ هذه الجملة يمكن أن تكون بمثابة تعليل للآية السابقة.

٥ ـ ولا شك أنّ هؤلاء الذين هم عباد الله المكرمون المحترمون يشفعون للمحتاجين، لكن ينبغي الإلتفات إلى أنّ هؤلاء ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾.

ثم إنّ هذه الجملة تجيب ضمناً أولئك الذين يقولون: إنّنا نعبد الملائكة لتشفع لنا عند الله، فيقول القرآن لهم: إنّ هؤلاء لا يقدرون على فعل شيء من تلقاء أنفسهم، وكل ما تريدونه يجب أن تطلبوه من الله مباشرةً، وحتى إذن شفاعة الشافعين.

٦ ـ ونتيجة لهذه المعرفة والوعي ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

«الخشية»: تعني الخوف المقترن بالتعظيم والإحترام؛ و«مشفق»: من مادة الإشفاق، بمعنى التوجه الممتزج بالخوف، لأنّها في الأصل مأخوذة من الشفق، وهو الضياء الممتزج بالظلمة. فبناءً على هذا، فإنّ خوف الملائكة ليس كخوف الإنسان من حادثة مرعبة مخيفة، وكذلك إشفاقهم فإنّه لا يشبه خوف الإنسان من موجود خطر، بل إنّ خوفهم وإشفاقهم ممزوجان بالإحترام، والعناية والتوجه، والمعرفة والإحساس بالمسؤولية.

من الواضح أنّ الملائكة مع هذه الصفات البارزة والممتازة، ومقام العبودية الخالصة لا

يدّعون الألوهية مطلقاً، أمّا إذا فرضنا ذلك ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾.

إنّ إدّعاء الألوهية في الحقيقة مصداق واضح على ظلم النفس والمجتمع، ويندرج في القانون العام ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ
الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ
وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا
وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي
فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

علامات أخرى لله في عالم الوجود: تعقيباً على البحوث السابقة حول عقائد المشركين الخرافية، والأدلة التي ذكرت على التوحيد، فإنّ في هذه الآيات سلسلة من براهين الله في عالم الوجود، وتدبيره المنظم، وتأكيداً على هذه البحوث تقول أوّلاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إنّ المراد من رتق السماء هو أنّها لم تكن تمطر في البداية، والمراد من رتق الأرض أنّها لم تكن تنبت النبات في ذلك الزمان، إلّا أنّ الله سبحانه فتق الإثنين، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض أنواع النباتات.

وأمّا فيما يتعلق بإيجاد كل الكائنات الحية من الماء، فهناك تفسيران مشهوران:

أحدهما: إنّ حياة كل الكائنات الحية ـ سواء كانت النباتات أم الحيوانات ـ ترتبط بالماء، هذا الماء الذي كان مبدؤه المطر الذي نزل من السماء.

والآخر: إنّ الماء هنا إشارة إلى النطفة التي تتولّد منها الكائنات الحية عادةً.

وما يلفت النظر أنّ علماء عصرنا الحديث يعتقدون أنّ أوّل إنبثاقة للحياة وجدت في أعماق البحار، ولذلك يرون أنّ بداية الحياة من الماء، وإذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أنّ المراد من التراب هو الطين المركّب من الماء والتراب.

وأشارت الآية التالية إلى جانب آخر من آيات التوحيد ونعم الله الكبيرة، فقالت:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾[١].

إنّ الجبال كالدرع الذي يحمي الأرض، وهذا هو الذي يمنع ـ إلى حد كبير ـ من الزلازل الأرضية الشديدة التي تحدث نتيجة ضغط الغازات الداخلية، إضافةً إلى أنّ وضع الجبال هذا يقلّل من حركات القشرة الأرضيّة أمام ظاهرة المدّ والجزر الناشئة بواسطة القمر إلى الحدّ الأدنى.

ومن جهة أُخرى فلولا الجبال، فإنّ سطح الأرض سيكون معرّضاً للرياح القوية دائماً، وسوف لا تستقرّ على حال أبداً، كما هي حال الصحاري المقفرة المحرقة.

ثم أشارت الآية إلى نعمة أُخرى، وهي أيضاً من آيات عظمة الله، فقالت: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

ولو لم تكن هذه الوديان والفجاج، فإنّ سلاسل الجبال العظيمة الموجودة في المناطق المختلفة من الأرض كانت ستنفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل إرتباطها تماماً، وهذا يدلّ انّ هذه الظواهر الكونية خلقت كلها وفق حساب دقيق.

ولما كان إستقرار الأرض لا يكفي لوحده لإستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمناً مما فوقه، فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

المراد من السماء هنا هو الجو الذي يحيط بالأرض دائماً، وتبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصّل إليه العلماء.

وهذه الطبقة رقيقة ظاهراً، وتتكوّن من الهواء والغازات، وهي محكمة ومنيعة إلى الحد الذي لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّا ويفنى ويتحطّم، فهي تحفظ الكرة الأرضية من سقوط الشهب والنيازك «ليل نهار» التي تعتبر أشد خطراً حتى من القذائف والصواريخ الحربية.

إضافةً إلى أنّ هذا الغلاف الجوي يقوم بتصفية أشعة الشمس التي تحتوي على أشعة قاتلة وتمنع من نفوذ تلك الأشعة الكونية القاتلة.

وتطرقت الآية الأخيرة إلى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، فقالت: ﴿وَهُوَ الَّذِي

---

١. «رواسي»: جمع راسية، أي الجبال الثابتة، ولمّا كانت هذه الجبال تتّصل جذورها، فيمكن أن تكون إشارة إلى هذا الإرتباط، و«تميد»: من الميد، وهو الهزّة والحركة غير الموزونة للأشياء الكبيرة.

خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

إنّ المراد من حركة الشمس في الآية إمّا الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسية.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

الموت يتربص بالجميع: قرأنا في الآيات السابقة أنّ المشركين قد تشبّثوا بمسألة كون النبي ﷺ بشراً من أجل التشكيك بنبوته. إنّ الآيات محل البحث أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تارةً أنّ إنتفاضة النبي (وفي نظرهم شاعر) لا دوام لها، وسينتهي بموته كل شيء، كما جاء في الآية (٣٠) من سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

وكانوا يظنّون تارةً أُخرى أنّ هذا الرجل لمّا كان يعتقد أنّه خاتم النبيين، فيجب أن لا يموت أبداً ليحفظ دينه، وبناء على هذا فإنّ موته في المستقبل سيكون دليلاً على بطلان إدّعائه. فيجيبهم القرآن في أوّل آية فيقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾.

إنّ قانون الخلقة هذا لا يقبل التغيير، أي انّه لا يكتب لأحد الخلود، وإذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

إنّ بقاء الشريعة والدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه في إقامة دينه والسير على خطاه.

ثم يذكر قانون الموت العام الذي يصيب كل النفوس بدون استثناء فيقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

إنّ لفظة (النفس) قد استعملت في القرآن بمعان مختلفة، فأوّل معنى للنفس هو الذات، وهذا المعنى واسع يطلق حتى على ذات الله المقدسة، كما جاء في الآية (١٢) من سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

ثم استعملت هذه الكلمة في الإنسان، أي مجموع جسمه وروحه، كما في الآية (٣٢) من سورة المائدة: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

واستعملت أحياناً في خصوص روح الإنسان كما في الآية (٩٣) من سورة الأنعام: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾.

والمراد من النفس في الآيات التي نبحثها هو المعنى الثاني.

وبعد ذكر قانون الموت الكلّي يطرح هذا السؤال، وهو: ما هو الهدف من هذه الحياة الزائلة؟ وأيّ فائدة منها؟

فيقول القرآن حول هذا الكلام: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. أي: إنّ مكانكم الأصلي ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان آخر، وإنّما تأتون هنا لتؤدّوا الإختبار والامتحان، وبعد إكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأصلي وهو الدار الآخرة.

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

نواجه في هذه الآيات مرّة أُخرى، بحوثاً أُخرى حول موقف المشركين من رسول الله ﷺ، حيث يتّضح نمط تفكيرهم المنحرف في المسائل الأُصولية، فتقول أوّلاً: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾. فهؤلاء لا عمل لهم إلّا السخرية والإستهزاء، ويشيرون إليك بعدم إكتراث ويقولون: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

ممّا يثير العجب هو إنّه لو إزدرى أحدٌ هذه الأصنام الخشبية والحجرية (وما هو بمزدرٍ لها، بل يُفصح عن حقيقتها) فيقول: إنّ هذه موجودات لا روح فيها ولا شعور ولا قيمة لها، لتعجّبوا منه، أمّا إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحيم الذي عمّت آثار رحمته وعظمته الأرض والسماء وما من شيء إلّا وفيه دليل على عظمته ورحمته، لما أثار إعجابهم.

ثم تشير إلى أمر آخر من الأُمور القبيحة لدى هذا الإنسان المتحلّل، فتقول: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

إنّ المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان؛ والمراد من «عجل» هي العجلة والتعجيل.

إنّ تعبير ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ نوع من التأكيد، أي إنّ الإنسان عجول إلى درجة كأنّه خلق من العجلة، وتشكّلت أنسجته ووجوده منها! وفي الواقع، فإنّ كثيراً من البشر العاديين هم على هذه الشاكلة، فهم عجولون في الخير وفي الشر.

وتضيف الآية في النهاية: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

التعبير بـ(آياتي) هنا يمكن أن يكون إشارة إلى آيات العذاب وعلاماته والبلاء الذي كان يهدّد به النبي ﷺ مخالفيه، ولكن هؤلاء الحمق كانوا يقولون مراراً: فأين تلك الإبتلاءات والمصائب التي تخوّفنا بها؟ فالقرآن الكريم يقول: لا تعجلوا فلا يمضي زمن طويل حتى تحيط بكم.

ثم يشير القرآن إلى إحدى مطالب أولئك المستعجلين فيقول: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فهؤلاء غافلون عن أنّ قيام القيامة يعني تعاستهم وشقاءهم المرير.

وتجيبهم الآية التالية فتقول: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. أي إنّ هذه الأصنام التي يظنّون أنّها ستكون شفيعة لهم وناصرة، لا تقدر على أيّ شيء.

ممّا يلفت النظر أنّ العقوبة الإلهية لا يعيّن وقتها دائماً ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ وحتى إذا استمهلوا، وطلبوا التأخير على خلاف ما كانوا يستعجلون به إلى الآن، فلا يجابون ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم
مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ
عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾

لاحظنا في الآيات السابقة أنّ المشركين والكفار كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ، فتقول الآية الأُولى تسلية للنبي: لست الوحيد الذي يستهزأ به ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾. ولكن في النهاية نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وتقول الآية التالية: قل لهم إنّ أحداً لا يدافع عنكم أمام عذاب الله في القيامة، بل وفي هذه الدنيا: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾. أي من عذابه. فلو أنّ الله سبحانه لم يجعل السماء ـ أي الجو المحيط بالأرض سقفاً محفوظاً كما مرّ في الآيات السابقة ـ لكان هذا وحده كافياً أن تتهاوى النيازك وتُمطركم الأجرام السماوية بأحجارها ليل نهار.

مما يستحق الإنتباه أنّ كلمة «الرحمن» قد استعملت مكان (الله) في هذه الآية. أي انظروا إلى أنفسكم كم إقترفتم من الذنوب حتى أغضبتم الله الذي هو مصدر الرحمة العامة؟!

ثم تضيف: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فلا هم يصغون إلى مواعظ الأنبياء ونصحهم، ولا تهزّ قلوبهم نعم الله وذكره، ولا يستعملون عقولهم لحظة في هذا السبيل.

ثم يسأل القرآن الكريم: أيّ شيء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين والمجرمين في مقابل العقوبات الإلهية؟ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[1]. فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من العذاب، ولا تكون مصحوبة بتأييدنا ورحمتنا.

ثم أشارت الآية التالية إلى أحد علل تمرّد وعصيان الكافرين المهمة، فتقول: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾. إلّا أنّ هذا العمر الطويل والنعم الوفيرة بدل أن تحرّك فيهم حس الشكر والحمد، ويطأطئوا رؤوسهم لعبودية الله، فإنّها أصبحت سبب غرورهم وطغيانهم.

ولكن ألا يرى هؤلاء أنّ هذا العالم ونعمه زائلة؟ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾. فإنّ الأقوام والقبائل تأتي الواحدة تلو الأُخرى وتذهب، وحتى العلماء والعظماء

---

١. «يصحبون»: من باب الإفعال، وفي الأصل يعني أن يجعلوا شيئاً تحت تصرّفهم بعنوان المساعدة والحماية، وهو هنا يعني أنّ هذه الأصنام لا تملك الدفاع ذاتياً، ولا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوّة من قبل الله تعالى، ونحن نعلم أنّ أيّة قوّة دفاعية في عالم الوجود إمّا أن تنبع من ذات الشيء، أو تمنح له من قبل الله تعالى. أي أنّها إمّا ذاتية أو عرضية.

الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم وودّعوا الدنيا! ومع هذا الحال ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

إنّ الآية تريد أن تبيّن أنّ موت الكبار والعظماء والأقوام درس وعبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أنّ محاربة الله تعالى لا تنتج سوى الإندحار.

ثم تقرّر الآية حقيقة أنّ وظيفة النبي ﷺ هي إنذار الناس عن طريق الوحي الإلهي، فتوجّه الخطاب إلى النبي ﷺ، فتقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ وإذا لم يؤثّر في قلوبكم القاسية، فلا عجب من ذلك، وليس ذلك دليلاً على نقص الوحي الإلهي، بل السبب هو ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

إنّ الأذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام الله، أمّا الآذان التي أصمّتها حجب الذنوب والغفلة والغرور فلا تسمع الحقّ مطلقاً.

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

بعد أن كانت الآيات السابقة تعكس حالة غرور وغفلة الأفراد الكافرين، تقول الآية الأولى أعلاه: إنّ هؤلاء المغرورين لم يذكروا الله يوماً في الرخاء، ولكن: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

«نفحة»: تعني الشيء القليل، أو النسيم اللطيف، وبالرغم من أنّ هذه الكلمة تستعمل غالباً في نسمات الرحمة والنعمة غالباً، إلّا أنّها تستعمل في مورد العذاب أيضاً.

ولو انتبهوا حينئذ، فما الفائدة؟ فإنّ هذه اليقظة الاضطرارية لا تنفعهم.

أمّا الآية الأخيرة التي نبحثها فتشير إلى حساب القيامة الدقيق، وجزائها العادل، ليعلم الكافرون والظالمون أنّ العذاب على فرض أنّه لم يعمّهم في هذه الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة حتمي، وسيحاسبون على جميع أعمالهم بدقة، فتقول: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

ونقرأ في الروايات الإسلامية أنّ موازين الحساب في القيامة هم الأنبياء والأئمة

والصالحون الذين لا توجد نقطة سوداء في صحيفة أعمالهم.

«القسط»: يعني أحياناً عدم التبعيض، وأحياناً يأتي بمعنى العدالة بصورة مطلقة، وما يناسب المقام هو المعنى الثاني، ولهذا تضيف مباشرةً: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ فلا ينقص من ثواب المحسنين شيء، ولا يضاف إلى عقاب المسيئين شيء.

إلّا أنّ نفي الظلم والجور هذا لا يعني عدم الدقة في الحساب، بل ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

«الخردل»: نبات له حبّة صغيرة جداً يضرب المثل بها في الصغر والحقارة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

لمحة من قصص الأنبياء: ذكرت هذه الآيات وما بعدها جوانب من حياة الأنبياء المشفوعة بأُمور تربوية بالغة الأثر، وتوضّح البحوث السابقة حول نبوة الرسول الأكرم ﷺ ومواجهته المخالفين بصورة أجلى مع ملاحظة الأُصول المشتركة الحاكمة عليها. تقول الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

«الفرقان»: يعني في الأصل الشيء الذي يميّز الحق عن الباطل، وهو وسيلة لمعرفة الإثنين. إنّ من الممكن أن يكون الفرقان إشارة إلى التوراة، وإلى سائر معجزات ودلائل موسى عليه السلام.

ثم تعرّف الآية التالية المتّقين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

ولكلمة «الغيب» هنا تفسيران: **الأوّل:** إنّه إشارة إلى ذات الله المقدّسة، أي مع أنّ الله سبحانه غائب عن الأنظار، فإنّ هؤلاء آمنوا به بدليل العقل.

والآخر: إنّ المتقين لا يخافون الله في العلانية وبين المجتمع فقط، بل يعلمون أنّه حاضر وناظر إليهم حتى في خلواتهم.

فإنّ المتّقين يحبّون يوم القيامة، لأنّه مكان الثواب والرحمة، إلّا أنّهم في الوقت نفسه مشفقون من حساب الله فيه.

وقارنت الآية الأخيرة بين القرآن وباقي الكتب السابقة: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾. فهل ينكر مثل هذا الكتاب الذي يستبطن أدلّة أحقّيته فيه، وقد سطعت نورانيته، والذين يسيرون في طريقه سعداء منتصرون؟!

ولكي نعرف مدى أثر القرآن في التوعية وما له من البركات، فيكفي أن نرى حال سكّان جزيرة العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كانوا يعيشون في جاهلية جهلاء وفقر وتعاسة وتفرّق وتمزّق، ثم نرى حالهم بعد نزول القرآن حيث أصبحوا أُسوة ومثلاً حسناً للآخرين، ونرى كذلك حال الأقوام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم وبعده.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ
مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم
مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قلنا: أنّ هذه السورة تحدثت عن جوانب عديدة من حالات الأنبياء، فقد أُشير في الآيات السابقة إشارة قصيرة إلى رسالة موسى وهارون عليهما السلام، وعكست هذه الآيات وبعض الآيات الآتية جانباً مهماً من حياة إبراهيم عليه السلام ومواجهته لعبدة الأصنام، فتقول أوّلاً: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾. «الرشد»: في الأصل بمعنى السير إلى المقصد والغاية، ومن الممكن أن يكون هنا إشارة إلى حقيقة التوحيد، وأنّ إبراهيم عرفها واطّلع عليها منذ سني الطفولة، وقد يكون إشارة إلى كل خير وصلاح بمعنى الكلمة الواسع.

والتعبير بـ﴿مِن قَبْلُ﴾ إشارة إلى ما قبل موسى وهارون عليهما السلام.

ثم أشارت إلى أحد أهمّ مناهج إبراهيم عليه السلام، فقالت: إنّ رشد إبراهيم قد بان عندما قال لأبيه وقومه ـ وهو إشارة إلى عمّه آزر، لأنّ العرب تسمّي العمّ أباً ـ ما هذه التماثيل التي تعبدونها؟ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

وجملة ﴿أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ بملاحظة معنى «العكوف»: الذي يعني الملازمة المقترنة

بالإحترام، توحي بأنّ أُولئك كانوا يحبّون الأصنام، وكأنّهم كانوا ملازميها دائماً.

إنّ مقولة إبراهيم ﷺ هذه إستدلال على بطلان عبادة الأصنام، لأنّ ما نراه من الأصنام هو الجسمة والتمثال، والباقي خيال وظن وأوهام.

إلّا أنّ عبدة الأصنام لم يكن عندهم ـ في الحقيقة ـ جواب أمام هـذا المـنطق السـليم القاطع، سوى أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويلقوها على عاتق آبائهم، ولهذا ﴿قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

ولمّا كانت حجتهم بأنّ «هذه العبادة هي سنة الآباء» غير مجدية نفعاً... ولا نمتلك دليلاً على أنّ السابقين من الآباء والأجداد أعقل وأكثر معرفة من الأجيال المقبلة، بل القضية على العكس غالباً، لأنّ العلم يتّسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرةً فـ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنّ هذا التعبير المقترن بأنواع التأكيدات، والحاكي عن الحزم التام سبّب أن يرجع عبدة الأصنام إلى أنفسهم قليلاً، ويتوجّهوا إلى التحقق من قول إبراهيم، فأتوا إلى إبراهيم ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّٰعِبِينَ﴾ لأنّ أُولئك الذين كانوا قد إعتادوا على عبادة الأصنام، وكانوا يظنّون أنّ ذلك حقيقة حتمية، ولم يكونوا يصدّقون أنّ أحداً يخالفها بصورة جدية، ولذلك سألوا إبراهيم هذا السؤال تعجّباً.

إلّا أنّ إبراهيم أجابهم بصراحة: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ﴾.

إنّ إبراهيم ﷺ قد بيّن بهذه الكلمات القاطعة أنّ الذي يستحق العبادة هو خالقهم وخالق الأرض وكل الموجودات.

ومن أجل أن يثبت إبراهيم جديّة هذه المسألة، وأنّه ثابت على عقيدته إلى أبعد الحدود، وأنّه يتقبّل كل ما يترتّب على ذلك بكل وجوده، أضاف: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾.

«أكيدنّ»: مأخوذة من الكيد، وهو التخطيط السري، والتفكير الخفي وكان مـراده أن يفهمهم بصراحة بأنّني سأستغلّ في النهاية فرصة مناسبة وأُحطّم هذه الأصنام.

إنّ إبراهيم من دون أن يحذر من مغبّة هذا العمل، دخل الميدان برجولة وتوجّه إلى حرب هذه الآلهة الجوفاء بشجاعة خارقة وحطّمها بصورة يصفها القرآن فيقول: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ وكان هدفه من تركه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

صحيح أنّ أذهاننا تنصرف من لفظ عبادة الأصنام إلى الأصنام الحجرية والخشبية على الأكثر، إلّا أنّ الصنم والصنمية ـ من وجهة نظر ـ لها مفهوم واسع يشمل كل ما يُبعد الإنسان عن الله، بأيّ شكل وصورة كان.

قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا
أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾
أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

وأخيراً عبدة الأصنام دخلوا المعبد وواجهوا منظراً أطار عقولهم من رؤوسهم، فقد وجدوا تلّاً من الأيادي والأرجل المكسّرة المتراكمة بعضها على البعض الآخر في ذلك المعبد المعمور، فصاحوا و﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾. ولا ريب أنّ من فعل ذلك فـ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فقد ظلم آلهتنا ومجتمعنا ونفسه، لأنّه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلّا أنّ جماعة منهم تذكّروا ما سمعوه من إبراهيمعليه السلام وإزدرائه بالأصنام وتهديده لها وطريقة تعامله السلبي لهذه الآلهة المزعومة، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

إنّ إبراهيم كان شاباً، وربّما لم يكن سنّه يتجاوز (١٦) عاماً.

إنّ المألوف ـ عادةً ـ عندما تقع جريمة في مكان ما، فإنّه ومن أجل كشف الشخص الذي قام بهذا العمل، تبحث علاقات الخصومة والعداء، ومن البديهي أنّه لم يكن هناك شخص في تلك البيئة من يعادي الأصنام غير إبراهيم، ولذلك توجّهت إليه أفكار الجميع، و﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بالجريمة.

فنادى المنادون في نواحي المدينة: «ليحضر كل من يعلم بعداء إبراهيم وإهانته للأصنام».

وأخيراً تشكّلت المحكمة، وكان زعماء القوم قد اجتمعوا هناك. ويقول بعض المفسرين: أنّ نمرود نفسه كان مشرفاً على هذه المحاكمة، وأوّل سؤال وجّهوه إلى إبراهيم ﷺ هو أن: ﴿قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَا إِبْرَٰهِيمُ﴾.

فأجابهم إبراهيم جواباً أفحمهم، وجعلهم في حيرة لم يجدوا منها مخرجاً ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾.

إنّ من أُسس علم معرفة الجرائم أن يكون المتّهم بادية عليه آثار الجريمة، والملاحظ هنا أنّ آثار الجريمة كانت باديةً على يد الصنم الكبير، [وفقاً للرواية المعروفة: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصنم الكبير].

لقد هزّت كلمات إبراهيم الوثنيين وأيقظت ضمائرهم النائمة الغافلة، وأنار فطرتهم التوحيدية من خلف حجب التعصب والجهل.

ورجعوا إلى فطرتهم ووجدانهم، كما يقول القرآن: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. فقد ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم الذي تنتمون إليه، وكذلك ساحة الله واهب النعم المقدسة.

ولكن للأسف، فإنّ صدأ الجهل والتعصب والتقليد الأعمى كان أكبر من أن يُصقل ويُمحى تماماً بنداء بطل التوحيد.

ولم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدسة، ورجع كل شيء إلى حالته الأُولى، وكم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾. ومن أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البُكْم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾. وأرادوا بهذا العذر الواهي أن يخفوا ضعف وذلة الأصنام.

وهنا فُتح أمام إبراهيم الميدان والمجال للاستدلال المنطقي ليوجّه لهم أشدّ هجماته: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾.

ووسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، وإنهال بسياط التقريع على روحهم التي فقدت الإحساس، فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. إلّا أنّه لم يلحّ في توبيخهم وتقريعهم لئلّا يلجّوا في عنادهم.

ويستفاد من التواريخ أنّ جماعة آمنوا به، وهم وإن قلّوا عدداً، إلّا أنّهم كانوا من الأهمية بمكان، إذ هيّأوا الاستعداد النسبي لفئة أُخرى.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

عندما تصير النار جنة: مع أنّ عبدة الأوثان أُسقط ما في أيديهم نتيجة إستدلالات إبراهيم العلمية والمنطقية، إلّا أنّ عنادهم وتعصبهم الشديد منعهم من قبول الحق، ولذلك فلا عجب من أن يتخذوا قراراً صارماً وخطيراً في شأن إبراهيم. يقول القرآن الكريم: **﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾**.

فقد قالوا الكثير من أمثال هذه الخزعبلات وأثاروا الناس ضدّ إبراهيم بحيث إنّهم لم يكتفوا بعدّة حزم من الحطب تكفي لإحراق عدّة أشخاص، بل أتوا بآلاف الحزم وألقوها حتى صارت جبلاً من الحطب. فقد أُلقي إبراهيم في النار وسط زغاريد الناس وسرورهم وصراخهم، وقد أطلقوا أصوات الفرح ظانّين أنّ محطِّم الأصنام قد فني إلى الأبد وأصبح تراباً ورماداً.

لكن الله الذي بيده كل شيء حتى النار لا تحرق إلّا بإذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالماً من لهب تلك النار الموقدة ليضيف وثيقة فخر جديدة إلى سجل إفتخاراته، وكما يقول القرآن الكريم: **﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾**.

لا شك أنّ أمر الله هنا كان أمراً تكوينياً، كالأمر الذي يصدره في عالم الوجود إلى الشمس والقمر، والأرض والسماء، والماء والنار، والنباتات والطيور.

والمعروف أنّ النار قد بردت برداً شديداً إصطكّت أسنان إبراهيم منه، وحسب قول بعض المفسرين: إنّ الله سبحانه لو لم يقل: سلاماً، لمات إبراهيم من شدة البرد.

ويقول الله سبحانه في آخر آية من الآيات محل البحث على سبيل الاستنتاج بإقتضاب: أنّهم تآمروا عليه ليقتلوه ولكن النتيجة لم تكن في صالحهم **﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾**.

لا يخفى أنّ الوضع قد إختلف تماماً ببقاء إبراهيم سالماً، وخمدت أصوات الفرح. غير أنّ العناد ظلّ مانعاً من قبول الحق، وإن كان أصحاب القلوب الواعية قد استفادوا من هذه الواقعة، وزاد إيمانهم مع قلّتهم.

وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين: لقد هزّت قصة حريق إبراهيم عليه السلام ونجاته الإعجازية من هذه المرحلة الخطيرة أركان حكومة نمرود، وأنّه لو بقي في تلك المدينة والبلاد على هذا الحال، ومع ذلك اللسان المتكلم والمنطق القوي، والشهامة والشجاعة التي لا نظير لها، فمن المحتّم أنّه سيشكّل خطراً على تلك الحكومة الجبارة الغاشمة.

ومن جهة أُخرى، فإنّ إبراهيم كان قد أدّى رسالته وبذر بذور الايمان والوعي في تلك البلاد، فلابد من الهجرة إلى موطن آخر لإيجاد أرضية لرسالته هناك، ولذلك صمّم على الهجرة إلى الشام بصحبة لوط ـ وكان ابن أخ إبراهيم ـ وزوجته سارة، وربّما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾.

وبالرغم من أنّ اسم هذه الأرض لم يرد صريحاً في القرآن، إلّا أنّه بملاحظة الآية الأُولى من سورة الإسراء يتّضح أنّ هذه الأرض هي أرض الشام ذاتها، التي كانت من الناحية الظاهرية أرضاً غنيّة مباركة خضراء، ومن الجهة المعنوية كانت معهداً لرعاية الأنبياء.

وأشارت الآية التالية إلى أحد أهمّ مواهب الله لإبراهيم، وهي هبته الولد الصالح، والنسل المفيد، فقالت: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ**﴾.

وتشير الآية الأخيرة إلى مقام إمامة وقيادة هذا النبي الكبير، وإلى جانب من صفات الأنبياء ومناهجهم المهمة القيّمة بصورة جماعية.

لقد عُدّت في هذه الآية ستّة أقسام من هذه الخصائص، وإذا أُضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين ـ والذي يستفاد من الآية السابقة ـ فستصبح سبعة.

يقول أوّلاً: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً**﴾. أي: إنّنا وهبناهم مقام الإمامة إضافةً إلى مقام النبوة والرسالة، والإمامة هي آخر مراحل سير الإنسان التكاملي، والتي تعني القيادة العامة.

ثم يذكر في المرحلة التالية ثمرة هذا المقام، فيقول: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ ولا يعني بالهداية الإرشاد وبيان الطريق الصحيح، والذي هو من شأن النبوّة والرسالة.

أمّا الموهبة الثالثة والرابعة والخامسة فقد عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾.

وفي آخر فصل أشار إلى مقام العبودية، فقال: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1]. والتعبير بـ«كانوا» الذي يدلّ على الماضي المستمر في هذا المنهج، ربّما كان إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا رجالاً صالحين موحدين مؤهّلين حتى قبل الوصول إلى مقام النبوة والإمامة، وفي ظلّ ذلك المخطّط وهبهم الله سبحانه مواهب جديدة.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

نجاة لوط من أرض الفجّار: لمّا كان لوط من أقرباء إبراهيم وذوي أرحامه، ومن أوائل من آمن به، فقد أشارت الآيتان بعد قصة إبراهيم ﷺ إلى جانب من إجتهاده وسعيه في طريق إبلاغ الرسالة، والمواهب التي منحها الله سبحانه له، فتقول: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

لفظة «الحكم» جاءت في بعض الموارد بمعنى أمر النبوة والرسالة.

والمراد من العلم كل العلوم التي لها أثر في سعادة ومصير الإنسان.

لقد كان لوط من الأنبياء العظام وكان معاصراً لإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثم فارق إبراهيم وجاء إلى مدينة (سدوم) لأنّ أهلها كانوا غارقين في الفساد والمعاصي، وخاصةً الانحرافات الجنسية، وقد سعى كثيراً من أجل هداية هؤلاء القوم، وتحمل المشاق في هذا الطريق، إلّا أنّه لم يؤثّر في أُولئك العُمي القلوب.

وأخيراً، نعلم أنّ الغضب والعذاب الإلهي قد حلّ بهؤلاء، وقلب عالي مدينتهم سافلها، وأُهلكوا جميعاً، إلّا عائلة لوط باستثناء امرأته.

---

١. تقديم كلمة (لنا) على (عابدين) يدلّ على الحصر، وإشارة إلى مقام التوحيد الخالص، لهؤلاء المقدّمين الكبار، أي إنّ هؤلاء كانوا يعبدون الله فقط.

ولذلك أشارت الآية إلى هذه الموهبة التي وهبت للوط، وهي: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾.

والتعبير بـ«الخبائث» بصيغة الجمع، إشارة إلى أنّهم إضافة إلى فعل اللواط الشنيع، كانوا يعملون أعمالاً قبيحة وخبيثة أُخرى.

والتعبير بـ«الفاسقين» بعد «قوم سوء» ربّما يكون إشارة إلى أنّ أُولئك كانوا فاسقين من وجهة نظر القوانين الإلهية، وحتى مع قطع النظر عن الدين والإيمان، فإنّهم كانوا أفراداً حمق ومنحرفين في نظر المعايير الإجتماعية بين الناس.

ثم أشارت الآية إلى آخر موهبة إلهية للنبي لوط، فقالت: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

نجاة نوح من القوم الكافرين: بعد ذكر جانب من قصّة إبراهيم وقصة لوط عليهما السلام، تطرّقت السورة إلى ذكر جانب من قصة نبي آخر من الأنبياء الكبار ـ أي: نوح عليه السلام ـ فقالت: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾. أي قبل إبراهيم ولوط.

إنّ هذا النداء ـ ظاهراً ـ إشارة إلى الدعاء واللعنة التي ذكرت في الآية (٢٦ و٢٧) من سورة نوح أو إنّه إشارة إلى الجملة التي وردت في الآية (١٠) من سورة القمر.

ثم تضيف الآية: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

إنّ للأهل ـ هنا ـ معنى وسيعاً يشمل أهله المؤمنين وخواص أصحابه، وعلى هذا فإنّ الذين اعتنقوا دين نوح يعدّون في الواقع من عائلته وأهله.

«الكرب»: تعني الغمّ الشديد، وهي في الأصل مأخوذة من تقليب الأرض وحفرها، لأنّ الغمّ الشديد يقلب قلب الإنسان، ووصفه بالعظيم يكشف عن منتهى كربه وأساه.

وأيّ كرب أعظم من أن يدعو قومه إلى دين الحق (٩٥٠) عاماً، كما صرّح القرآن بذلك، لكن لم يؤمن به خلال هذه المدة الطويلة إلّا ثمانون شخصاً.

وتضيف الآية التالية: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. إنّ هذه الجملة تؤكّد مرّة أُخرى على حقيقة أنّ العقوبات الإلهية لا تتّصف بصفة الإنتقام مطلقاً، بل هي على أساس إنتخاب الأصلح، أي إنّ حق الحياة والتنعّم بمواهب الحياة لأُناس يكونون في طريق التكامل والسير إلى الله، أو أنّهم إذا ساروا يوماً في طريق الانحراف إنتبهوا إلى أنفسهم ورجعوا إلى جادة الصواب.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قضاء داود وسليمان: بعد الحوادث والوقائع المتعلقة بموسى وهارون وإبراهيم ونوح ولوط، تشير هذه الآيات إلى جانب من حياة داود وسليمان، وفي البداية أشارت إشارة خفية إلى حادث قضاء وحكم صدر من جانب داود وسليمان، فتقول: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[1].

إنّ القصة كانت كما يلي: إنّ قطيع أغنام لبعض الرعاة دخلت ليلاً إلى بستان فأكلت أوراقه وعناقيد العنب منه فأتلفته، فرفع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كل الأغنام لصاحب البستان تعويضاً لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان ـ والذي كان طفلاً آنذاك ـ لأبيه: يا نبي الله العظيم، غيّر هذا الحكم وعدّ له. فقال الأب: وكيف ذاك؟ قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها ولبنها وصوفها، وتودع البستان في يد صاحب الأغنام ليسعى في إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الأولى يُردّ إلى صاحبه، وتردّ الأغنام أيضاً إلى صاحبها؛ وأيّد الله حكم سليمان في الآية التالية: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾. ولكن هذا لا يعني أنّ حكم داود كان إشتباهاً وخطأً، لأنّها تضيف مباشرةً: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

ثم تشير إلى إحدى المواهب والفضائل التي كان الله سبحانه قد وهبها لداود، فتقول:

---

١. «نفشت»: من مادّة نَفْش على وزن (حرب)، أي التفرّق والتبعثر في الليل، ولمّا كان تفرّق الأغنام في الليل، وفي المزرعة سيقترن بالتهام نباتها حتماً، لذا قال البعض: إنّها الرعي في الليل؛ و«نَفَش» (على وزن علم) تعني الأغنام التي تتفرّق في الليل.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾. فإنّ ذلك ليس شيئاً مهمّاً أمام قدرتنا ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وأشارت الآية الأخيرة إلى موهبة أُخرى من المواهب التي وهبها الله لهذا النبي الجليل، فقالت: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

«اللبوس»: كل نوع من أنواع الأسلحة الدفاعية والهجومية، إلّا في هنا تعني الدرع التي لها صفة الحفظ في الحروب.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

الرياح تحت إمرة سليمان: تشير هاتان الآيتان إلى جانب من المواهب التي منحها الله لنبي آخر من الأنبياء ـ أي: سليمان ﷺ ـ فتقول الآية الأولى منها: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾. وهذا الأمر ليس عجيباً، لأنّنا عارفون به ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾. فنحن مطّلعون على أسرار عالم الوجود، والقوانين والأنظمة الحاكمة عليه.

«العاصفة»: تعني الرياح القويّة أو الهائجة، وهنا يمكن أن تكون من باب بيان الفرد الأهمّ، أي ليست الرياح الهادئة لوحدها تحت إمرته، بل حتى العواصف الشديدة كانت رهن إشارته أيضاً، لأنّ الثانية أعجب، وكانت تتحرّك حيث أراد.

ثم تذكر الآية التالية أحد المواهب الخاصة بسليمان ﷺ، فتقول: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ لإستخراج الجواهر والأشياء الثمينة الأُخرى ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ من التمرد والطغيان على أوامر سليمان ﷺ.

إنّ هذه الجماعة كانوا أفراداً أذكياء نشطين فنّانين صنّاعاً ماهرين في مجالات مختلفة.

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

أيوب ونجاته من المصاعب: تتحدث الآيتان عن نبي آخر من أنبياء الله العظماء وقصّته المُلهمة، وهو «أيّوب» وهو عاشر نبي أُشير إلى جانب من حياته في سورة الأنبياء.

إنّ لأيّوب قصّة حزينة، وهي في نفس الوقت عظيمة سامية، فقد كان صبره وتحمله عجيبين، خاصةً أمام الحوادث المرّة، بحيث إنّ صبر أيوب أصبح مضرباً للمثل منذ القدم.

غير أنّ هاتين الآيتين تشيران ـ بصورة خاصة ـ إلى مرحلة نجاته وإنتصاره على المصاعب، وإستعادة ما فقده من المواهب، فتقول: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. «الضرّ»: تطلق على كل سوء وأذى يصيب روح الإنسان أو جسمه، وكذلك لنقص عضو، وذهاب مال، وموت الأعزّة وإنهيار الشخصية وأمثال ذلك، وكما سنقول فيما بعد، فإنّ أيوب قد إبتلي بكثير من هذه المصائب.

وتقول الآية التالية: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ ليعلم المسلمون أنّ المشاكل كلما زادت، وكلما زادت الإبتلاءات، وكلما زاد الأعداء من ضغوطهم وضاعفوا قواهم، فإنّها جميعاً ترفع وتحلّ بنظرة ومنحة من لطف الله، فلا تجبر الخسارة وحسب، بل إنّ الله سبحانه يعطي الصابرين أكثر ممّا فقدوا جزاءً لصبرهم وثباتهم.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

إسماعيل وإدريس وذو الكفل عليهم السلام: تعقيباً على قصة أيوب عليه السلام التربوية، وصبره وثباته بوجه سيل الحوادث، تشير الآيتان ـ محلّ البحث ـ إلى صبر ثلاثة من أنبياء الله الآخرين فتقول الأُولى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ثم تبيّن الآية الأُخرى موهبة إلهية لهؤلاء مقابل الصبر والثبات، فتقول: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

نجاة يونس من السجن المرعب: تبيّن هاتان الآيتان جانباً من قصة النبي الكبير يونس ﷺ، حيث تقول الأولى واذكر يونس إذ ترك قومه المشركين غاضباً عليهم: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾. «النون»: تعني السمكة العظيمة. أو بتعبير آخر: تعني الحوت. وبناءً على هذا فإنّ «ذاالنون» معناه صاحب الحوت.

إنّه ذهب مغاضباً ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾[1]. فقد كان يظنّ أنّه قد أدّى كل رسالته بين قومه العاصين، ولم يترك حتى «الأولى» في هذا الشأن، مع أنّ الأولى هو بقاؤه بينهم والصبر والتحمّل والتجلّد، فلعلّهم ينتبهون من غفلتهم ويتّجهون إلى الله سبحانه.

وأخيراً، ونتيجة تركه الأولى هذا، ضيّقنا عليه فابتلعه الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فقد ظلمت نفسي، وظلمت قومي، فقد كان ينبغي أن أتقبّل وأتحمّل أكثر من هذه الشدائد والمصائب، وأواجه جميع أنواع التعذيب والآلام منهم فلعلّهم يهتدون.

وتقول الآية التالية: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

جملة ﴿كَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ العميقة المعنى توحي بأنّ ما أصاب يونس من البلاء والنجاة لم يكن حكماً خاصّاً، بل حكم عام مع حفظ تسلسل الدرجات والمراتب.

إنّ كثيراً من الحوادث المؤلمة والابتلاءات الشديدة والمصائب نتيجة لذنوبنا ومعاصينا، فمتى ما تنبّه الإنسان إلى ثلاثة أمور [التي إنتبه إليها يونس في مثل هذا الظرف] فإنّه سينجو حتماً:

١ـ التوجّه إلى حقيقة التوحيد، وأنّه لا معبود ولا سند إلّا الله.

٢ـ تنزيه الله عن كل عيب ونقص وظلم وجور، وتجنّب كل سوء ظنّ بذاته المقدّسة.

٣ـ الإعتراف بذنبه وتقصيره.

في تفسير الدرّ المنثور عن سعد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متّى». قلت يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فهو شرط من الله لمن دعاه».

---

١. «نقدر»: من مادّة قدر بمعنى التعسير والتضييق، لأنّ الإنسان عند التضييق يأخذ من كل شيء قدراً محدوداً، لا على نطاق واسع وبدون حساب.

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

نجاة زكريا من الوحدة: تبيّن هاتان الآيتان جانباً من قصة شخصيتين أُخريين من أنبياء الله العظماء، وهما زكريا ويحيى عليهما السلام، فتقول الأولى: ﴿**وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ**﴾.

لقد مرّت سنين من عمر زكريا، واشتعل رأسه شيباً، ولم يرزق الولد حتى ذلك الحين، ثم أنّ زوجته كانت عقيماً، وقد كان يأمل أن يُرزق ولداً يستطيع أن يُكمل مناهجه الإلهية وأعماله التبليغية.

وعندئذ توجّه إلى الله بكلّ وجوده وسأله ولداً صالحاً.

فاستجاب الله هذا الدعاء الخالص المليء بعشق الحقيقة، وحقّق أُمنيته وما كان يصبوا إليه، كما تقول الآية: ﴿**فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ**﴾. ومن أجل الوصول إلى هذا المراد أصلحنا زوجته وجعلناها قادرة على الإنجاب ﴿**وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ**﴾.

ثم أشار الله سبحانه إلى ثلاث صفات من الصفات البارزة لهذه الأُسرة فقال: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ**﴾.

«رغباً»: بمعنى الرغبة والميل والعلاقة؛ و«رهباً»: بمعنى الخوف والرعب؛ و«الخشوع»: هو الخضوع المقرون بالإحترام والأدب، وكذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولية.

إنّ ذكر هذه الصفات الثلاث ربّما تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء عندما يصلون إلى النعمة فلا يبتلون بالغفلة والغرور كما في الأشخاص الماديين من ضعفاء الإيمان.

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ
ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

مريم السيدة الطاهرة: أُشير في هذه الآية إلى مقام مريم وعظمتها وعظمة إبنها المسيح عليه السلام. إنّ ذكر مريم في ثنايا البحوث التي تتكلّم على الأنبياء الكرام؛ إمّا من أجل

ولدها عيسى، أو لأنّ ولادته كانت تشبه ولادة يحيى بن زكريا من جهات متعددة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في ذيل آيات سورة مريم، أو ليوضّح أنّ العظمة غير مختصة بالرجال، بل هناك نساء عظيات يدلّ تاريخهن على عظمتهن، وكنّ قدوة ومثلاً أسمى لنساء العالم. تقول الآية: واذكر مريم، ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

«الفرج»: معناه في اللغة الفاصلة والشقّ، واستعمل كناية عن العضو التناسلي.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

أمّة واحدة: لمّا ورد في الآيات السابقة أسماء جمع من أنبياء الله، وكذلك مريم، تلك المرأة التي كانت مثلاً أسمى، وجانب من قصصهم، فإنّ هذه الآيات تستخلص نتيجة ممّا مرّ، فتقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. فقد كان منهجهم واحداً، وهدفهم واحداً بالرغم من اختلافهم في الزمان والمحيط والخصائص والأساليب والطرائق.

إنّ توحيد ووحدة الخطط والأهداف هذه تعود إلى أنّها جميعاً تصدر عن مصدر واحد، عن إرادة الله الواحد، ولهذا تقول الآية مباشرةً: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

إنّ توحيد الأنبياء الإعتقادي في الواقع يقوم على أساس وحدة منبع الوحي.

«الأمّة»: تعني كل جماعة تربطهم جهة مشتركة، وهنا إشارة إلى الأنبياء الذين مرّ ذكرهم في الآيات السابقة.

وأشارت الآية التالية إلى انحراف جماعة عظيمة من الناس عن أصل التوحيد، فقالت: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾. فقد وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضهم ضدّ بعض، ويلعن بعضهم بعضاً ويتبرّأ منه، ولم يكتفوا بذلك، بل شهروا السلاح فيما بينهم، وسفكوا الدماء الكثيرة، وكانت هذه الأحداث نتيجة الإنحراف عن أصل التوحيد ودين الله الحق.

«تقطّعوا»: من مادّة قطع، بمعنى تفريق القطع المتصلة بموضوع واحد. إنّ أولئك قد إستسلموا أمام عوامل التفرقة والنفاق، ورضوا بأن يبتعد أحدهم عن الآخر، وأنهوا

إتحادهم الفطري والتوحيدي، فمُنوا ـ نتيجة ذلك ـ بكل تلك الهزائم والشقاوة.

وتضيف في النهاية: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾. فإنّ هذا الإختلاف عرضي يمكن إقتلاعه، وسيسيرون في طريق الوحدة جميعاً في يوم القيامة.

وتبيّن الآية الأخيرة نتيجة الإنسجام مع الأُمّة الواحدة في طريق عبادة الله، أو الإنحراف عنها وإتخاذ طريق التفرقة. فتقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾. ومن أجل زيادة التأكيد قالت: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾.

إنّ هذه الآية ككثير من آيات القرآن الأُخرى قد عدّت الايمان شرطاً لقبول الأعمال الصالحة.

وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

الكافرون على أعتاب القيامة: كان الكلام في آخر الآيات السابقة عن المؤمنين العاملين للصالحات، وتشير الآية الأُولى من هذه الآيات إلى الأفراد في الطرف المقابل لأُولئك، وهم الذين استمرّوا في الضلال والفساد إلى آخر نفس، فتقول: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

إنّ هؤلاء أُناس ترفع الحجب عن أعينهم وأنظارهم بعد مشاهدة العذاب الإلهي، أو بعد فنائهم وإنتقالهم إلى عالم البرزخ، وعندها يأملون أن يرجعوا إلى الدنيا ليصلحوا أُخطاءهم ويعملون الصالحات، إلّا أنّ القرآن يقول بصراحة: إنّ رجوع هؤلاء حرام تماماً، ولم يبق طريق لجبران ما صدر منهم.

إنّ هؤلاء المغفلين في غرور وغفلة على الدوام، وتستمرّ هذه التعاسة حتى نهاية العالم، كما يقول القرآن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

فتقول مباشرةً: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. لأنّ الرعب يسيطر على وجودهم إلى حدّ أنّ عيونهم تتوقف عن الحركة وتصبح جاحظة لدى نظرهم إلى تلك الحوادث.

في هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفلة والغرور، فيرتفع صوتهم: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾. ولما كانوا لا يقدرون على تغطية ذنبهم بهذا العذر ليبرّئوا أنفسهم، فإنهم يقولون بصراحة: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

كيف يمكن عادةً مع وجود كل هؤلاء الأنبياء، والكتب السماوية، وكل هذه الحوادث المثيرة والعبر والدروس أن يكونوا في غفلة؟ إنّ ما صدر من هؤلاء تقصير وظلم لأنفسهم وللآخرين.

«حدب»: على زنة «أدب» معناه ما إرتفع من الأرض بين منخفضاتها، وقد يطلق على ما إرتفع وبرز من ظهر الإنسان أيضاً.

«ينسلون»: من مادة «نسول» (على وزن فضول)، أي الخروج بسرعة.

«شاخصة»: من الشخوص، وهو في الأصل الخروج من المنزل، أو الخروج من مدينة إلى أخرى، ولما كانت العين عند التعجب والدهشة كأنّها تريد الخروج من الحدقة، فقد قيل لذلك «شخوص» إنّ هذه هي حالة المذنبين العاصين في القيامة يصبحون حائرين كأنّ أعينهم تريد أن تخرج من أحداقهم.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ
(٩٨) لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩) لَهُمْ
فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ
أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ
أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

حصب جهنم: متابعة للبحث السابق عن مصير المشركين الظالمين، فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب إليهم، وجسّدت مستقبلهم ومستقبل آلهتهم بهذه الصورة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. «الحصب»: في الأصل يعني الرمي والإلقاء، وتقال بالذات لإلقاء قطع الحطب في التنور.

إنّكم وآلهتكم ستكوّنون حطب جهنم، وستُلقون الواحد تلو الآخر في نار جهنم كقطع

الحطب التي لا قيمة لها، ثم تضيف: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

إنّهم يلقون آلهتكم في النار أوّلاً، ثم تردون عليها، فكأنّ آلهتكم تستقبلكم وتستضيفكم بالنار المنبعثة من وجودها.

ثم تقول كاستخلاص للنتيجة: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾. ولكن اعلموا انّهم لا يدخلون جهنم وحسب، بل ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ولمزيد الإيضاح عن حال هؤلاء «العابدين الضالين» المؤلمة المخزية قبال «آلهتهم الحقيرة»، تقول الآية محل البحث: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾.

«الزفير»: في الأصل يعني الصراخ المقترن بإخراج النفس. وهنا إشارة إلى الصراخ أو الضجيج المنبعث من الحزن وشدة الكرب.

إنّ هذا الزفير أو الأنين المؤلم لا يكون مقتصراً على العباد فحسب، بل إنّ معبوداتهم من الشياطين أيضاً يصطرخون معهم.

ثم تذكّر الجملة التالية أحد العقوبات الأُخرى المؤلمة لهؤلاء، وهي ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يسمعون الكلام الذي يسرّهم ويبهجهم، بل يسمعون أنين أهل جهنم المؤلم المنغّص وصراخ ملائكة العذاب فقط.

وقال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ هؤلاء يوضعون في توابيت من نار بحيث لا يسمعون صوت أيّ أحد أبداً، فكأنّهم لوحدهم في العذاب، وهذا بنفسه يعتبر عقوبة أشد.

ثم تبيّن الآية التالية حالات المؤمنين الحقيقيين من الرجال والنساء ليتبيّن وضع الفريقين من خلال المقارنة بينهما، فتقول أوّلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. وهو إشارة إلى أنّنا سنفي بكل الوعود التي وعدنا بها المؤمنين في هذه الدنيا، وأحدها إبعادهم عن نار جهنم.

وتذكر الآيتان الأخيرتان أربع نعم إلهية كبرى تغمر هذه الطائفة السعيدة.

فالأولى: إنّهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾. و«الحسيس»: الصوت المحسوس، وجاءت أيضاً بمعنى الحركة، أو الصوت الناشيء من الحركة، ونار الجحيم المشتعلة دائماً لها صوت خاص، وهذا الصوت مرعب من جهتين: من جهة أنّه صوت النار، ومن جهة أنّه صوت حركة النار والتهامها.

والثانية: إنّهم ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾. فليس حالهم كما في هذه الدنيا

المحدودة، فإنّهم ينالون كل نعمة يريدونها، مادية كانت أو معنوية، وليس ذلك على مدى يوم أو يومين، بل على إمتداد الخلود.

والثالثة: إنّهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾. وقد اعتبر بعضهم أنّ هذا الفزع الأكبر إشارة إلى أهوال يوم القيامة التي هي أكبر من كل هول وفزع.

والرابعة: من ألطاف الله تعالى لهؤلاء هو ما ذكرته الآية محلّ البحث: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يوم نطوي السماء: قرأنا في آخر آية من الآيات السابقة أنّ المؤمنين آمنون من الفزع الأكبر وهمّه، وتجسّم هذه الآية رعب ذلك اليوم العظيم، وفي الحقيقة تبيّن وتجسّد علة عظمة وضخامة هذا الرعب، فتقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[١].

وفي هذه الآية تشبيه لطيف لطيّ سجل عالم الوجود عند إنتهاء الدنيا، ففي الوقت الحاضر فإنّ هذا السجل مفتوح، وتقرأ كل رسومه وخطوطه، وكل منها في مكان معين، أمّا إذا صدر الأمر الإلهي بقيام القيامة فإنّ هذا السجل العظيم سيطوى بكل رسومه وخطوطه.

ثم تضيف: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾.

وفي النهاية تقول الآية: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ المراد من رجوع الناس إلى الحالة الأُولى، هو أنّهم يرجعون حفاة عراة مرّة أُخرى كما كانوا في بداية الخلق. وهذا أحد صور رجوع الخلق إلى الصورة الأُولى.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾

سيحكم الصالحون الأرض: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى جانب من ثواب المؤمنين الصالحين، فقد أشارت السورة في هاتين الآيتين إلى أحد أوضح المكافآت الدنيوية لهؤلاء،

---

١. «السَّجْل»: الدلو العظيمة، و«السِّجِلّ» حجر كان يكتب فيه، ثم سمّي كل ما يكتب فيه سجلاً.

فتقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

«الأرض»: تطلق على مجموع الكرة الأرضية.

«الإرث»: يعني إنتقال الشيء إلى شخص بدون معاملة وأخذ وعطاء.

إنّ المراد من الزبور كتاب داود، والذكر بمعنى التوراة.

إنّ كلمة الصالحون لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كل المؤهّلات، الأهلية من ناحية التقوى، والعلم والوعي، ومن جهة القدرة والقوة، ومن جانب التدبير والتنظيم والإدراك الاجتماعي.

إنّ الآية التالية تقول من باب التأكيد المشدد: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

لقد فسّرت هذه الآية في بعض الروايات بأصحاب المهدي عليه السلام، وهو بيان مصداق عال وواضح، ولا تحدّ من عمومية مفهوم الآية مطلقاً.

إنّ نظام الخلقة سيكون دليلاً واضحاً على قبول نظام اجتماعي صحيح في المستقبل، في عالم الإنسانية، وهذا هو الذي يستفاد من الآية مورد البحث، والأحاديث المرتبطة بقيام المصلح العالمي العظيم، المهدي الموعود.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ
إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ
وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾
قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

النبي رحمة للعالمين: لمّا كانت الآيات السابقة قد بشّرت العباد الصالحين بوراثة الأرض وحكمها، ومثل هذه الحكومة أساس الرحمة لكل البشر، فإنّ الآية الأولى أشارت إلى رحمة وجود النبي صلى الله عليه وآله العامة، فقالت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. فإنّ عامّة البشر في الدنيا، سواء الكافر منهم والمؤمن، مشمولون لرحمتك، لأنّك تكفّلت بنشر الدين الذي يُنقذ الجميع.

إنّ التعبير بـ«العالمين» له إطار واسع يشمل كل البشر وعلى إمتداد الأعصار والقرون،

ولهذا يعتبرون هذه الآية إشارة إلى خاتمية نبي الإسلام، لأنّ وجوده رحمة وقدوة لكل الناس إلى نهاية الدنيا.

ولمّا كان أهمّ مظهر من مظاهر الرحمة، وأثبت دعامة لذلك هي مسألة التوحيد وتجلياته، فإنّ الآية التالية تقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وهذه الآية في الواقع تشير إلى ثلاث نقاط مهمة:

الأولى: إنّ التوحيد هو الدعامة الأساسية للرحمة، التوحيد في الإعتقاد، وفي العمل، والتوحيد في الكلمة، وتوحيد الصفوف، وفي القانون وفي كل شيء.

الثانية: إنّ كل دعوات الأنبياء تتلخص في أصل التوحيد، والتوحيد كالروح السارية في البدن.

والنقطة **الثالثة**: إنّ المشكلة الأساسية في جميع المجتمعات هي التلوّث بالشرك بأشكال مختلفة، لأنّ جملة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ توحي بأنّ المشكلة الأساسية هي الخروج من الشرك ومظاهره، ورفع اليد عن الأصنام وتحطيمها، ليس الأصنام الحجرية والخشبية فحسب، بل كل الأصنام، وفي أيّ شكل كانت، وخاصة طواغيت البشر.

ثم تقول الآية التالية: إنّهم إذا لم يذعنوا ويهتمّوا لدعواتنا ونداءاتنا هذه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾. «آذنت»: من مادة الإيذان، أي الإعلان المقترن بالتهديد، والظاهر أنّ النبي أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفّره وإبتعاده عن أُولئك، ويبيّن بأنّه قد يئس منهم تماماً.

ثم يبيّن هذا التهديد بصورة أوضح، فيقول بأنّي لا أعلم هل أنّ موعد عذابكم قريب أم بعيد: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾. فلا تظنّوا أنّ هذا الوعيد بعيد، فربّما كان قريباً وقريباً جدّاً.

قد يكون المراد من العذاب والعقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، ففي الصورة الأُولى هو مختص بعلم الله، ولا يعلم أيّ أحد تاريخ وقوع القيامة بدقة حتى أنبياء الله، وفي الصورة الثانية والثالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته وزمانه، وأنا لا أعلم بجزئياته.

ثم إنّكم لا ينبغي أن تتوهّموا أنّ عقوبتكم إذا تأخّرت فهذا يعني أنّ الله غير مطّلع على أعمالكم وأقوالكم، فهو يعلم كل شيء، فـ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

فإنّ الجهر والإخفاء له معنى بالنسبة لكم حيث إنّ علمكم محدود عادةً، أمّا بالنسبة لمن لا حدود لعلمه، فإنّ الغيب والشهادة، والسرّ والعلن سواء لديه.

وكذلك إذا رأيتم أنّ العقوبة الإلهية لا تحيط بكم فوراً، فلا تظنّوا أنّ الله سبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعلّه إمتحان لكم: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. ثم يأخذكم أشدّ مأخذ ويعاقبكم أشدّ عقاب.

لقد أوضحت الآية في الواقع حكمتين لتأخير العذاب الإلهي:

الأُولى: مسألة الامتحان والاختبار، فإنّ الله سبحانه لا يعجّل في العذاب أبداً حتى يمتحن الخلق بالقدر الكافي، ويُتمّ الحجة عليهم.

والثانية: إنّ هناك أفراداً قد تمّ اختبارهم وحقّت عليهم كلمة العذاب حتماً، إلّا أنّ الله سبحانه يوسّع عليهم النعمة ليشدّد عليهم العذاب، فإذا ما غرقوا في النعمة تماماً، وغاصوا في اللذائذ، أهوى عليهم بسوط العذاب ليكون أشدّ وآلم، وليحسّوا جيّداً بألم وعذاب المحرومين والمضطهدين.

وتتحدث آخر آية هنا ـ وهي آخر آية من سورة الأنبياء ـ كالآية الأُولى من هذه السورة عن غفلة الناس الجهّال، فتقول حكاية عن النبيﷺ في عبارة تشبه اللعن، وتعكس معاناتهﷺ من كل هذا الغرور والغفلة، وتقول: إنّ النبيﷺ بعد مشاهدة كل هذا الإعراض ﴿قَالَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[1]. وفي الجملة الثانية يوجّه الخطاب إلى المخالفين ويقول: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

إنّه ينبّه هؤلاء بكلمة (ربّنا) إلى هذه الحقيقة، وهي أنّنا جميعاً مربوبون ومخلوقون، وهو ربّنا وخالقنا جميعاً.

والتعبير بـ«الرحمن»، والذي يشير إلى الرحمة العامة، يعيد إلى أسماع هؤلاء أنّ الرحمة الإلهية قد عمّت كل وجودنا، فلماذا لا تفكّروا لحظة في خالق كل هذه النعمة والرحمة.

وجملة ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يحذّر هؤلاء بأن لا تظنّوا أنّا وحيدون أمام جمعكم وكثرتكم، ولا تتصوروا أنّ كل إتهاماتكم وأكاذيبكم، سواء كانت على ذات الله المقدسة، أو علينا، ستبقى بدون جواب وجزاء، كلّا مطلقاً، فإنّه تعالى سندنا ومعتمدنا جميعاً، وهو قادر على أن يدافع عن عباده المؤمنين أمام كل أشكال الكذب والافتراء والإتهام.

«نهاية تفسير سورة الأنبياء»

---

١. لا شكّ أنّ حكم الله سبحانه بالحقّ دائماً، وعلى هذا فإنّ ذكر كلمة (بالحقّ) هنا له صبغة التوضيح.

٢٢

سورة الحج

وهي ثمان وسبعون آية

مدنية

محتوى السورة: سمّيت هذه السورة بـ«سورة الحج» لأنّ جزءاً من آياتها تحدّث عن الحج. ويمكن تقسيم مواضيعها إلى عدّة أقسام هي:

١ـ تضمّنت آيات منها موضوع «المعاد» وأدلته المنطقية، وإنذار الغافلين عن يوم القيامة ونظائر ذلك التي تبدأ هذه السورة بها لتضمّ جزءاً كبيراً منها.

٢ـ يتضمّن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك والمشركين.

٣ـ دعا جزء آخر من هذه السورة الناس إلى الاعتبار بمصير الأقوام البائدة، وما لاقت من عذاب إلهي.

٤ـ وتناول جزء آخر منها مسألة الحج وتاريخه منذ عهد إبراهيم ﷺ.

٥ـ وتضمّن الجزء الآخر مقاومة الظالمين والتصدّي لأعداء الإسلام المحاربين.

٦ـ واحتوى قسم آخر نصائح في مجالات الحياة المختلفة.

٧ـ التشجيع على أعمال الصلاة والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوكل والتوجه إلى الله (سبحانه وتعالى).

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال النبي ﷺ: «من قرأ سورة الحج أُعطي من الأجر كحجة حجّها، وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي».

وهذا الثواب والفضل العظيم ليس لمجرد التلاوة اللفظيّة فقط، وإنّما لتلاوة تنير الفكر، وتفكّر يتبعه عمل وتطبيق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

زلزلة البعث العظيمة: تبدأ هذه السورة بآيتين تشيران إلى يوم البعث ومقدماته، وهما آيتان تبعدان الإنسان ـ دون إرادته ـ عن هذه الحياة المادية العابرة، ليفكّر بالمستقبل المخيف الذي ينتظره، المستقبل الذي سيكون جميلاً وسعيداً إن فكّرت فيه اليوم، ولكنّه مخيف حقاً إن لم تعدّ العدة له، والآية المباركة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾. خطاب للناس جميعاً بلا استثناء، فقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحية العنصر، واللغة، والزمان، والأماكن الجغرافية، والطوائف، والقبائل، فهو موجّه للجميع: المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والشيخ والشاب، والرجل والمرأة، على إمتداد العصور.

ثم بيّنت الآية التالية في عدّة جمل إنعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**﴾ من شدة الوحشة والرعب.

﴿**وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**﴾.

وثالث إنعكاس لهذا الذعر الشديد: ﴿**وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ**﴾. وعلة ذلك هو شدة العذاب في ذلك اليوم ﴿**وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾. هذا العذاب الذي أرعب الناس وأفقدهم صوابهم.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)

أتباع الشيطان: بعد أن أعطت الآيات السابقة صورة لرعب الناس حين وقوع زلزلة

القيامة، أوضحت الآيات اللاحقة حالة أُولئك الذين نسوا الله، وكيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

نجد هؤلاء الناس يجادلون مرّة في أساس التوحيد ووحدانية الحق تبارك وتعالى، ومرّة يجادلون في قدرة الله على إحياء الموتى، وفي البعث والنشور، ولا دليل لهم على ما يقولون.

ثم تضيف هذه الآية: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾. فهؤلاء الأشخاص الذين لا يتّبعون منطقاً أو علماً، وإنّما يتّبعون كل شيطان عنيد ومتمرد، ولا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس والجن، الذين لكل منهم برنامجه وأحابيله وشراكه.

«مريد»: مشتقة من «مَرَدَ» وأصلها الأرض المرتفعة التي لا نبت فيها. وهنا يقصد بـ«المريد» الشخص الذي خلا من أيّ خير وسعادة. وطبيعي أن يكون مثل هذا الشخص عنيداً وظالماً وعاصياً.

ومن هنا كانت الآية اللاحقة: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

دليل المعاد في عالم الأجنة والنبات: بما أنّ البحث في الآيات السابقة كان يدور حول

---

١. «السعير»: مشتقة من «سَعَرَ» بمعنى لهب النّار، وتعني هنا نار جهنّم الحارقة التي تمتاز بأنّها أكثر حرقاً من أيّ نار.

تشكيك المخالفين للمبدأ والمعاد، فالآيات محل البحث طرحت دليلين منطقيين قويين لإثبات المعاد الجسماني: أحدهما التغيّرات التي تحدث في مراحل تكوين الجنين، والآخر هو التغيّرات التي تحدث في الأرض عند خروج النبات.

والخطاب القرآني يعمّ جميع الناس بنوره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[1]. كل ذلك من أجل أن نوضّح لكم حقيقة قدرتنا على القيام بأيّ عمل ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾. فتبق الأجنّة في الأرحام إلى مدّة معلومة نحن نحدّدها لتمرّ بمراحل تكاملها، ونسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام في وسط الطريق قبل أن تكمل ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ثم تبدأ الأجنّة مرحلة تطور جديدة، لنخرجكم أطفالاً من أرحام أُمهاتكم، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وبهذا تنتهي مرحلة حياتكم المحدّدة في بطون أُمهاتكم. فتضعون أقدامكم في محيط أوسع مملوء بالنور والصفاء، وإمكانات واسعة جدّاً، إلّا أنّ تكاملكم يستمر في قطع المسافات بسرعة لتبلغوا الهدف، ألا وهو الرشد والكمال الجسمي والعقلي، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾. وهنا يتبدل الجهل إلى علم، والضعف إلى قوة، والتبعية إلى الاستقلال، لكن مسيرة حياتكم تطوى وتستمر فبعضكم يودّع الحياة بينما يستمر آخرون حتى المرحلة الأخيرة من الحياة، أي مرحلة الشيخوخة بعد تكاملهم: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾.

أجل، فالمرء يصل إلى مرحلة لا يتذكر فيها شيئاً، حيث يسيطر عليه النسيان، ويصبح في وضع وكأنّه طفل ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾. وهذا الضعف والخمول دليل على بلوغ المرء مرحلة إنتقالية جديدة كما نجد ضعف التحام الثمرة بالشجرة حين تبلغ مرحلة النضج مما يدل على وصولها إلى مرحلة الإنفصال.

ثم تتناول الآية بيان الدليل الثاني أي حياة النباتات، فتبيّن ما يلي: انظر إلى الأرض في فصل الشتاء فتجدها جافّة وميتة، فإذا سقط المطر وحلّ الربيع، دبّت الحياة والحركة فيها ونبتت أنواع النباتات فيها ونمت ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2].

---

١. «المضغة»: مشتقة من «المضغ» وتعني مقداراً من اللحم يمكن للإنسان مضغه في لقمة واحدة، وهذا تشبيه رائع للجنين في المرحلة التي تعقب مرحلة العلقة.

٢. «الهامدة»: تعني في الأصل النّار التي أطفئت، ويطلق على الأرض التي جفّت نباتاتها وأصبحت دون حركة

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصّلنا إليه، وذلك بإستعراض خمس ملاحظات:

١ـ إنّ ما إستعرضته الآيات الخاصة بالمراحل التي تسبق مراحل الحياة للإنسان وعالم النبات، من أجل أن تعلموا أنّ الله تعالى حقّ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾. وبما أنّه هو الحق، فالنظام الذي خلقه حق أيضاً، لهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق دون هدف.

وبما أنّ هذه الحياة ليست عبثاً، وأنّ لها هدفاً، وأنّنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف في حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد والبعث حتماً.

٢ـ إنّ هذا النظام الذي يسيطر على عالم الحياة يقول لنا ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. إنّ الذي يلبس الأرض لباس الحياة، ويغيّر النطفة التافهة إلى إنسان كامل، ويمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى.

٣ـ الهدف الآخر هو أن نعلم ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولا يستحيل على قدرته شيء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة، ويطوّر هذه النطفة التافهة في مراحل الحياة، أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيي الإنسان بعد موته؟!

٤ـ إنّ كل هذا لتعلموا أنّ ساعة نهاية هذا العالم وبداية عالم آخر، ستحلّ بلا شك فيها ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

٥ـ ثم إنّ كل هذا مقدمة لنتيجة أخيرة هي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

وعلى هذا الأساس أنّ البعث ليس ممكن فحسب، بل إنّه سيقع حتماً.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

الجدال بالباطل مرّة أخرى: تتحدث هذه الآيات أيضاً عمّن يجادلون في المبدأ والمعاد

(مفردات الراغب الاصفهاني). والبعض الآخر قال: إنّ كلمة «هامدة» تطلق على الحد الفاصل بين الموت والحياة (تفسير في ظلال القرآن).

«إهتزّت»: مشتقة من «الهزّ» وتعني تحرّكت بشدة.

«ربت»: مشتقة من «الربو» وتعني الزيادة والنمو، كما أنّ كلمة «ربا» مشتقة أيضاً من «الربو».

«بهيج»: تعني الجميل الساحر السارّ.

جدالاً خاوياً لا أساس له، في البداية يقول القرآن المجيد: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

وعبارة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هي ذاتها التي ذكرت في آية سابقة، والآية السابقة الذكر دالة على وضع الأتباع الضالين الغافلين، في وقت تكون فيه هذه الآية دالة على قادة هذه المجموعة الضالة.

إنّ «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلي؛ و«الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الربانيين؛ و«الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماوية، أي أنّها تعني الأدلة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و«السنّة» و«الدليل العقلي».

ثم يتطرّق القرآن المجيد في جملة قصيرة عميقة المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. إنّهم يريدون أن يضلّوا الناس عن سبيل الله بغرورهم وعدم إهتمامهم بكلام الله وبالأدلّة العقليّة الواضحة.

«ثاني»: مشتقة من «ثني» بمعنى التواء؛ و«عطف»: تعني «جانب» فالجملة تعني ثني الجانب، أي الإعراض عن الشيء وعدم الإهتمام به.

ويعقّب القرآن ذلك ببيان عقابهم الشديد في الدنيا والآخرة بهذه الصورة: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

ونقول له: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. لا يعاقب الله أحداً بلا ذنب، ولا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه [1].

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ
عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟
لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

---

١. «ظلّام»: صيغة مبالغة تعني كثير الظلم. وطبيعي أنّ الله لا يظلم أبداً لا كثيراً ولا قليلاً. ويمكن أن يكون استخدام هذا التعبير هنا إشارة إلى أنّ العقاب دون مبرّر من قبل الله تعالى ـ جلّ عن ذلك وعلا علوّاً كبيراً ـ مصداق ظلم كبير.

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾ في جماعة كانوا يقدمون على رسول اللهﷺ المدينة. فكان أحدهم إذا صحّ جسمه ونـتجت فرسه وولدت إمرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضي به، واطمأن إليه، وإن أصابه وجع في المدينة، وولدت امرأته جارية، قال: ما أصبت في هذا الدين إلّا شرّاً.

التّفسير

الواقف على حافّة وادي الكفر: تحدثت الآيات السابقة عن مجموعتين: الأتباع الضالين، والقادة المضلين، أمّا هذه الآيات، فتتحدث عن مجموعة ثالثة هم ضعاف الإيمان، قال القرآن المجيد عن هذه المجموعة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾. أي إنّ بعض الناس يعبد الله بلقلقة لسان، وإنّ إيمانه ضعيف جداً، ولم يدخل الايمان إلى قلبه.

ثم تناول القرآن الكريم عدم ثبات الايمان لدى هؤلاء الأشخاص ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾. إنّهم يطمئنون إذا ضحكت لهم الدنـيا وغمرتهم بخيراتها، ويعتبرون ذلك دليلاً على أحقّية الإسلام، إلّا أنّهم يتغيّرون ويتّجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالدين والايمان لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون في هذه الدنيا، فإن تمّ ما يبغونه كان الدين حقّاً، وإلّا فلا.

ويضيف القرآن المجيد في الختام: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾. مؤكّداً أنّ أفدح الضرر وأفظع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه ودنياه.

وتشير الآية التالية إلى إعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصة بعد الإنحراف عن صراط التوحيد والايمان بالله، فتقول: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾. أي إذا كان هذا الإنسان يسعى إلى تحقيق مصالحه المادية والإبتعاد عن الخسائر ويرى صحّة الدين في إقبال الدنيا عليه، وبطلانه في إدبارها عنه، فلماذا يتوجّه إلى أصنام لا يؤمّل منها خير، ولا يخاف منها ضرر، فهي أشياء لا فائدة فيها، ولا أثر لها في مصير البشر. أجل، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾. إنّ هؤلاء ليبتعدون عن الصراط المستقيم بُعداً حتى لا ترجى عودتهم إلى الحقّ إلّا رجاءً ضعيفاً جداً.

ويوسّع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾. لأنّ هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض في هذه الدنيا، ويدفعهم نحو الخرافات والجهل، ويدعهم في الآخرة في نار جهنم.

وتضيف الآية في الختام: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾. فما أسوأه ناصراً ومعيناً، وما أسوأه مؤنساً ومعاشراً.

وفي ختام الآية المباركة نلحظ مقارنة بين الخير والشر كما هو دأب القرآن الكريم لتتضح النتائج بشكل أكبر، فتقول الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. فعاقبتهم معلومة ومنهج تفكيرهم وسلوكهم واضح فمولاهم هو الله تعالى، ورفاقهم وجلساؤهم في الآخرة هم الأنبياء والصالحون والملائكة. وأنّ الله سبحانه يُثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنات تجري من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة والسرور جزاء إستقامتهم على الحق وإستجابتهم له في الحياة الدنيا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. وثوابهم يسير عليه ـ جلّ وعلا ـ يُسْرَ عقاب الذين ظلموا أنفسهم بإيثار الباطل على الحق، وبعبادتهم الأصنام من دون الله سبحانه.

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ
لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ
وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

البعث نهاية جميع الخلافات: بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن ضعفاء الإيمان، فإنّ الآيات مورد البحث ترسم لنا صورة أُخرى عن هؤلاء فتقول: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾. هذه الآية تركّز على ملاحظة نفسيّة تخصّ الأشخاص الحادّي المزاج، والضعيفي الإيمان الذين يصابون بالهلع ويرتكبون أعمالاً جنونية كلما بلغت أُمورهم طريقاً مسدوداً في الظاهر.

وأشارت الآية التالية إلى خلاصة الآيات السابقة، فقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

لقد أوضحت الآيات السابقة أدلّة المعاد والبعث، كالمراحل التي يمرّ بها الجنين الإنساني

ونموّ النباتات وإحياء الأرض بعد موتها، ولكن هذه الأدلّة الواضحة والبراهين الدامغة لا تكفي لتقبّل الحق، بل لابد من إستعداد ذاتي لذلك. ولهذا يقول القرآن المجيد في نهاية الآية: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾.

وأشارت آخر الآية هنا إلى ستّ فئات، إحداها مسلمة مؤمنة، وخمس منها غير مسلمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨)

الوجود كله يسجد لله: بما أنّ الحديث في الآيات السابقة كان عن المبدأ والمعاد، فإنّ الآية ـ موضع البحث ـ بطرحها مسألة التوحيد، قد أكملت دائرة المبدأ والمعاد، وتخاطب النبي ﷺ فتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾. ولا يقتصر الحال على هذه المخلوقات، بل إنّ الكثير من الناس يشاركون عالم الموجود بالسجود لله تعالى سوى بعض الكفار الذين يتحركون من موقع العناد والجحود: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾. ثم تضيف: وهؤلاء ليست لهم قيمة عند الله تعالى، ومن كان كذلك فهو مهان: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾. أي إنّ من يهينه الله لا يكرمه أحد، وليست له سعادة ولا أجر، حقّاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾. فهو يكرم المؤمنين به، ويذلّ المنكرين له.

إنّ للموجودات مع ملاحظة ما ورد في الآية ـ موضع البحث ـ شكلين من السجود: «سجود تكويني» و«سجود تشريعي».

فالسجود التكويني هو الخضوع والتسليم لإرادة الله ونواميس الخلق والنظام المسيطر على هذا العالم دون قيد أو شرط، وهو يشمل ذرّات المخلوقات كلها، حتى أنّه يشمل خلايا أدمغة الفراعنة والمنكرين العنودين وذرّات أجسامهم فالجميع يسجدون لله تعالى تكويناً.

وحسبما يقوله عدد من الباحثين، فإنّ ذرّات العالم كلها لها نوع من الإدراك والشعور، ولذا يسبّحون الله ويحمدونه ويسجدون له ويصلّون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلك في

تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء) وإذا رفضنا هذا النوع من الإدراك والشعور، فلا مجال لإنكار تسليم الكائنات جميعاً للقوانين الحاكمة على نظام الوجود كله.

أمّا «السجود التشريعي» فهو غاية الخضوع من العقلاء المدركين العارفين لله سبحانه.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ في ستّة نفر من المؤمنين والكفار، تبارزوا يوم بدر وهم: حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة وعلي بن أبي طالب ﷺ قتل الوليد بن عقبة، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب قتل شيبة بن ربيعة.

التّفسير

خصمان متقابلان: أشارت الآية السابقة إلى المؤمنين وطوائف مختلفة من الكفار، وحدّدتهم بستّ فئات. أمّا هنا فتقول: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾.

ثم تبيّن الآية أربعة أنواع من عقاب الكافرين المنكرين لله تعالى بوعي منهم، والعقاب الأوّل حول لباسهم، فتقول الآية: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى لباسهم الذي أُعدّ لهم من قطع من نار، أو كناية عن إحاطة نار جهنم بهم من كل جانب.

ثم: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾. أي يصبّ على رؤوسهم سائل حارق هو حميم

النار، وهذا الماء الحارق الفوّار ينفذ إلى داخل أبدانهم ليذيب باطنها وظاهرها ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [١].

وثالث نوع من العقاب هو: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [٢]. أي أُعدّت لهم أسواط من الحديد المحرق.

والرابع: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. أي كلّما أرادوا الخروج من جهنم والخلاص من آلامها وهمومها أُعيدوا إليها، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

وأوضحت الآيات التالية وضع المؤمنين الصالحين، مستخدمة أُسلوب المقارنة، لتكشف بها عن وضع هاتين المجموعتين، وهنا تستعرض هذه الآيات خمسة أنواع من المكافئات للمؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

فخلافاً للمجموعة الأُولى الذين يتقلّبون في نار جهنم، نجد أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتّعون بنعيم رياض الجنة على ضفاف الأنهر وهذه هي المكافأة الأُولى، وأمّا لباسهم وزينتهم فتقول الآية: و﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [٣].

وهاتان مكافأتان يمنّ الله بهما كذلك على عباده العالمين في الجنة، يهبهم أفخر الملابس التي حرموا منها في الدنيا، ويحلّيهم بزينة الأساور التي منعوا عنها في الحياة الأُولى، لأنّها كانت تؤدّي إلى إصابتهم بالغرور والغفلة، وتكون سبباً لحرمان الآخرين وفقرهم، أمّا في الجنّة فينتهي هذا المنع ويباح للمؤمنين لباس الحرير والحلي وغيرها.

وأخيراً الهبة الرابعة والخامسة التي يهبها الله للمؤمنين الصالحين ذات سمة روحانية ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ حديث ينمي الروح. وألفاظ تثير حيوية الإنسان، وكلمات ملؤها النقاء والصفاء التي تبلغ بالروح درجة الكمال وتملأ القلب بهجةً وسروراً، ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [٤]. هكذا يهدون إلى طريق الله الحميد، الجدير بالثناء، طريق معرفة الله

---

١. «يصهر»: مشتقة من «صهر» على وزن «قهر» وتعني تذويب الشحم؛ أمّا «الصِهر» على وزن «فكر» فتعني النسيب.

٢. «المقامع»: جمع «مقمع» على وزن «منبر» وتعني السوط أو العمود الحديدي يضرب به المذنب عقاباً له.

٣. «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهي بدورها جمع لكلمة «سوار» على وزن «كتاب» وتعني المعضد.

٤. «الحميد»: تعني المحمود، وتطلق على من يستحقّ الثناء، وهنا يقصد بها الله تعالى، وعلى هذا فإنّ «الصراط الحميد» يعني السبيل إلى مقام مقرّب من الله تعالى.

والتقرب المعنوي والروحي إليه، سبيل العشق والعرفان.

حقاً إنّ الله يهدي المؤمنين إلى هذا الطريق الذي ينتهي إلى أعلى درجات اللذة الروحية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

الذين يصدّون عن بيت الله الحرام: تحدثت الآيات السابقة عن عامة الكفار، وهذه الآية تشير إلى مجموعة خاصّة منهم باءت بمخالفات وذنوب عظيمة، ذات علاقة بالمسجد الحرام ومراسم الحج العظيم. تبدأ هذه الآية بـ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾. وكذلك يصدّون ويمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: ﴿**وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ**﴾. أي سواءٌ المقيمون فيه والذين يقصدونه من مكان بعيد. ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾. أي كل من أراد الانحراف في هذه الأرض المقدسة عن الحق ومارس الظلم والجور أذقناه عذاباً أليماً.

وهذه الفئة من الكفار ترتكب ثلاث جرائم كبيرة، إضافةً إلى إنكارها الحق، وجرائمها هي:

١ـ صدّ الناس عن سبيل الله والإيمان به والطاعة له.

٢ـ صدّهم عن حج بيت الله الحرام، وتوهّم أنّ لهم إمتيازاً عن الآخرين.

٣ـ ممارستهم للظلم وإرتكابهم الإثم في هذه الأرض المقدسة، والله يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾

الدعوة العامة للحج: تناولت الآية السابقة قضيّة المسجد الحرام وحجّاج بيت الله، أمّا هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبة على يد إبراهيم الخليل، ووجوب الحج وفلسفته، وبعض أحكام هذه العبادة الجليلة. إذ بدأت بقصة تجديد بناء الكعبة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾. أي تذكّر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبة ليقوم ببنائها.

«بوّأ»: مشتقة من بواء، أي الأرض المسطّحة، ثم أطلقت على إعداد المكان مطلقاً.

وتقصد هذه الآية أنّ الله هدى إبراهيم إلى مكان الكعبة بعد أن هدّمت بطوفان نوح وخفيت معالمها، إذ حدثت عاصفة فأزالت التراب وكشفت عن أُسس البيت، أو بعث الله سحابة ظلّلت مكان البيت، أو بأيّ أُسلوب آخر كشف الله لإبراهيم أُسس الكعبة، فقام هو وإبنه إسماعيل بتجديد بناء بيت الله الحرام.

وتضيف الآية الكريمة أنّه عندما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

فهمّة إبراهيم كانت تطهير البيت وما حوله من أيّ نجس ظاهر أوْ باطن، ومن أيّ صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجّه عباد الرحمن قلوبهم وأبصارهم إليه تعالى وحده في هذا المكان الطاهر، وليقوموا بأهمّ العبادات في هذه البقعة المباركة، ألا وهو الطواف والصلاة في محيط إيمانيّ لا يخالطه شرك.

وبعد إعداد البيت للعبادة، أمر الله تعالى إبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

«أذّن»: مشتقة من «الأذان» أي «الإعلان»؛ و«رجال»: جمع «راجل» أي «ماشي»؛ و«الضامر»: تعني الحيوان الضعيف؛ و«الفجّ»: في الأصل تعني المسافة بين جبلين، ثم أطلقت على الطرق الواسعة؛ و«العميق»: تعني هنا «البعيد».

في تفسير علي بن إبراهيم القمي: لمّا فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج فقال: «يا ربّ وما يبلغ صوتي». فقال الله: «أذن عليك الأذان وعلي البلاغ». وارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت فارتفع المقام حتى كان أطول من الجبال فنادى وأدخل اصبعيه في أُذنيه وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً يقول: أيّها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم، فأجابوه من تحت البحور السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتلبية: لبيك

اللهم لبيك أوَلا ترونهم يأتون يلبون فن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهم ممن استجاب لله وذلك قوله ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني نداء إبراهيم على المقام بالحج.

وتناولت الآية التالية فلسفة الحج فقالت: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾. أي إنّ على الناس الحج إلى هذه الأرض المقدسة، ليروا منافع لهم بأم أعينهم.

إنّ كلمة «المنافع» تشمل جميع المنافع والبركات المعنوية والمكاسب المادية، وكل عائد فردي واجتماعي، ومعطيات سياسية واقتصادية وأخلاقية. فما أحرى بالمسلمين أن يتوجّهوا من أنحاء العالم إلى مكة ليشهدوا هذه المنافع.

ثم تضيف الآية: ﴿وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾. أي أنّه على المسلمين أن يحجّوا إلى البيت ويقدّموا القرابين من المواشي التي رزقهم الله، وأن يذكروا اسم الله عليها حين الذبح في أيّام معينة تبدأ من العاشر من ذي الحجة وتنتهي بالثالث عشر منه.

وهذا الذكر إشارة إلى توجّه الحاج إلى الله كل التوجه عند تقديم الأُضحية، وهمّه كسب رضى الله وقبوله القربان، كما أنّ الاستفادة من لحم الأُضحية تقع ضمن هذا التوجه.

ويعتبر تقديم الأضاحي رمزاً لإعلان الحاج إستعداده للتضحية بنفسه في سبيل الله، على نحو ما ذكر من قصة إبراهيم عليه السلام ومحاولة التضحية بإبنه إسماعيل عليه السلام. إنّ الحجاج بعملهم هذا يعلنون إستعدادهم للإيثار والتضحية في سبيل الله حتى بأنفسهم.

وعلى كل حال فإنّ القرآن بهذا الكلام ينفي أُسلوب المشركين الذين كانوا يذكرون أسماء الأصنام التي يعبدونها على أضاحيهم، ليحيلوا هذه المراسم التوحيدية إلى شرك بالله، وجاء في ختام الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾.

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحج مشيرةً إلى جانب آخر من هذه المناسك، فتقول أوّلاً: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾. أي ليطهّروا أجسامهم من

الأوساخ والتلوّث، ثم ليوفوا ما عليهم من نذور. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. أي يطوفوا بذلك البيت الذي صانه الله عن المصائب والكوارث وحرّره.

«تفث»: تعني القذارة وما يلتصق بالجسم وزوائده كالأظافر والشعر. بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلى برنامج «التقصير» الذي يعدّ من مناسك الحج.

إنّما سمّيت الكعبة بالبيت العتيق، و«العتيق»: مشتقة من «العتق»، أي التحرّر من قيود العبودية، وربّما كان ذلك لأنّ الكعبة تحرّرت من قيود ملكية عباد الله، ولم يكن لها مالك إلّا الله، كما حرّرت من قيد سيطرة الجبابرة كأبرهة.

ومن معاني «العتيق» أيضاً الشيء الكريم الثمين، وهذا المعنى يتجسّد في الكعبة بوضوح. ومن المعاني الأُخرى للعتيق «القديم»، فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت الله بعد ملاحظة ما تتضمّنه هذه الكلمة من معان.

والمراد من «الطواف» هنا طواف النساء، في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجل: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال: «طواف النساء»[١].

وأشارت الآية الأخيرة إلى خلاصة ما بحثته الآيات السالفة الذكر، حيث تبدأ بكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ التي لها جملة محذوفة تقديرها «كذلك أمر الحج والمناسك». ثم تضيف تأكيداً لأهمّية الواجبات التي شرحت: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾.

والمقصود هنا بـ«الحرمات» ـ طبعاً ـ أعمال ومناسك الحجّ، ويمكن أن يضاف إليها إحترام الكعبة خاصة والحرم المكّي عامة.

ثم تشير هذه الآية وتناسباً مع أحكام الإحرام إلى حلّية المواشي، حيث تقول: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

وفي ختام هذه الآية ورد أمران يخصّان مراسم الحج ومكافحة العادات الجاهلية:

الأوّل يقول: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. و«الأوثان»: جمع «وثن» على وزن «كفن» وتعني الأحجار التي كانت تُعبد زمن الجاهلية، وهنا جاءت كلمة الأوثان إيضاحاً لكلمة «رجس» التي ذكرت في الآية، حيث تقول: ﴿اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾. ثم تليها عبارة ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. أي الرجس هو ذاته الأوثان.

---

١. وسائل الشيعة ٩/ ٣٩٠.

والأمر الثاني هو: ﴿وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾. أي الكلام الباطل الذي لا أساس له من الصحّة.

إنّ هذه الآية إشارة إلى كيفيّة تلبية المشركين في مراسم الحج في زمن الجاهلية، لأنّهم يلبّون بشكل يتضمّن الشرك بعينه، ويبعدونه عن صورته التوحيدية.

ومع هذا فإنّ إهتمام الآية المذكورة بأعمال المشركين، لا يمنع من تعميمها على بطلان أيّة عبادة للأصنام بأيّة صورة كانت، وإجتناب أيّ قول باطل مهما كانت صورته.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

عقّبت الآيات هنا المسألة التي أكّدتها آخر الآيات السابقة، وهي مسألة التوحيد، وإجتناب أيّ صنم وعبادة الأوثان، حيث تقول: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾. أي أقيموا مراسم الحج والتلبية في حالة تخلصون فيها النية لله وحده لا يخالطها أيّ شرك أبداً.

«حنفاء»: جمع «حنيف» أي الذي إستقام وإبتعد عن الضلال والانحراف. أو بتعبير آخر: هو الذي سار على الصراط المستقيم.

إنّ الآية السابقة اعتبرت الإخلاص وقصد القربة إلى الله محرّكاً أساسياً في الحج والعبادات الأُخرى، حيث ذكرت ذلك بشكل عام، فالإخلاص أصل العبادة، والمراد به الإخلاص الذي لا يخالطه أيّ نوع من الشرك وعبادة غير الله.

ثم ترسم الآية ـ موضع البحث ـ صورة حيّة ناطقة عن حال المشركين وسقوطهم وسوء طالعهم، حيث تقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

«السماء»: هنا كناية عن التوحيد؛ و«الشرك» هو السبب في السقوط من السماء هذه.

والذي يسقط من السماء يفقد كل قدرة على اتّخاذ قرار ما، ويبتلى بفقدانه هذا المكان

---

١. «تخطفه»: مشتقة من «الخطف» على وزن فعل، بمعنى الإمساك بالشيء أثناء تحرّكه بسرعة؛ و«سحيق»: تعني «البعيد» وتطلق على النخلة العالية كلمة «سحوق».

السامي بأهوائه النفسية المعاندة وتزداد سرعة سقوطه لحظة بعد أخرى نحو العدم، ويصبح نسياً منسياً.

وأوجزت الآية التالية مسائل الحج وتعظيم شعائر الله ثانية فتقول ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إنّ الموضوع كما قلناه، وتضيف: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

«الشعائر»: جمع «شعيرة» بمعنى العلامة والدليل، وعلى هذا فالشعائر تعني علامات الله وأدلّته، وهي تضمّ عناوين لأحكامه وتعاليمه العامة، وأوّل ما يلفت النظر في هذه المراسم مناسك الحج التي تذكّرنا بالله سبحانه وتعالى.

ويمكن القول: إنّ شعائر الله تشمل جميع الأعمال الدينية التي تذكّر الإنسان بالله سبحانه وتعالى وعظمته، وإنّ إقامة هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب.

ويستدلّ من بعض الأحاديث أنّ مجموعة من المسلمين كانوا يعتقدون بعدم جواز الركوب على الأضحية (الناقة أو ما شابهها) حين جلبها من موطنهم إلى منى للذبح، كما يرون عدم جواز حلبها أو الإستفادة منها بأيّ شكل كان، ولكن القرآن نفى هذه العقيدة الخرافية حيث قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وتذكر الآية في ختامها نهاية مسار الأضحية: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

وعلى هذا يمكن الاستفادة من الانعام المخصّصة للأضحية ما دامت في الطريق إلى موضع الذبح، وبعد الوصول يجرى ما يلزم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

بشّر المخبتين: يمكن أن يتساءل الناس عن الآيات السابقة. ومنها التعليمات الواردة بخصوص الأضحية، كيف شرّع الإسلام تقديم القرابين لكسب رضى الله؟ وهل الله سبحانه بحاجة إلى قربان؟ وهل كان ذلك متّبعاً في الأديان الأخرى، أو يخصّ المشركين وحدهم؟ تقول أوّل آية ـ من الآيات موضع البحث ـ لإيضاح هذا الموضوع أنّ هذا الأمر لا يختص بكم، بل إنّ كل أمّة لها قرابين: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

ذبح حيوان باسم الله ولكسب رضاه يبيّن إستعداد الإنسان للتضحية بنفسه في سبيل الله، والاستفادة من لحم الأضحية وتوزيعه على الفقراء أمر منطقي.

ولذا يذكر القرآن في نهاية هذه الآية: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. وبما أنّه إله واحد ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾. وبشّر الذين يتواضعون لأحكامه الربانية و﴿بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾[1].

ثم يوضّح القرآن المجيد في الآية التالية صفات المخبتين (المتواضعين) وهي أربع: إثنتان منها ذات طابع معنوي، وإثنتان ذات طابع جسماني.

يقول في الأوّل: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. لا يخافون في غضبه دون سبب ولا يشكّون في رحمته، بل إنّ خوفهم ناتج عن عظمة المسؤوليات التي بذمّتهم، واحتمال تقصيرهم في أدائها، وليقينهم بجلال الله سبحانه يقفون بين يديه بكل خشوع.

والثاني: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾. فهؤلاء يصبرون على ما يكابدونه في حياتهم من مصائب وآلام، ولا يكفرون بأنعم الله أبداً، وبإيجاز نقول: يستقيمون وينتصرون.

والثالث والرابع: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. فمن جهة توطّدت علاقتهم ببارىء الخلق وإزدادوا تقرّباً إليه، ومن جهة أُخرى إشتدّ إرتباطهم بالخلق بالإنفاق.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

لماذا الأضحية؟ عاد الحديث عن مراسم الحج وشعائره الإلهية والأُضحية ثانية، ليقول أوّلاً: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. إنّ «البُدن»: وهي الإبل البدينة تعلّقت بكم من جهة، ومن جهة أُخرى هي من شعائر الله وعلائمه في هذه العبادة العظيمة. فالأُضحية في

---

١. «المخبتين»: مشتقة من «الإخبات» وأصلها «خبت» وهي الأرض المستوية الواسعة التي يمشي الإنسان فيها بكلّ سهولة، كما جاءت بمعنى الإطمئنان والخضوع، لأنّ السير في هذه الأرض يلازمه الإطمئنان، ولهذا تكون خاضعة مستسلمة للسائرين عليها.

الحج من المظاهر الجليّة لهذه العبادة التي أشرنا إلى فلسفتها من قبل.

ثم تضيف الآية: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ فمن جهة تستفيدون من لحومها وتطعمون الآخرين، ومن جهة أُخرى تستفيدون من آثارها المعنوية بإيثاركم وسماحكم وعبادتكم الله، وبهذا تتقرّبون إليه سبحانه وتعالى.

ثم تبيّن الآية كيفية ذبح الحيوان: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾. أي: اذكروا اسم الله حين ذبح الحيوان وفي حالة وقوفه مع نظائره في صفوف.

وليس لذكر الله حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغة خاصة، بل يكفي ذكر اسم من أسماء الله عليها، كما يبدو من ظاهر الآية.

«صوافّ»: جمع «صافّة» بمعنى الحيوان الواقف في صفّ، وكما ورد في الأحاديث فإنّ القصد من ذلك عقل رجلي الناقة الأماميّتين معاً حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعة حين النحر، وطبيعي أنّ أرجل الناقة تضعف حين تنزف مقداراً من الدم، فتتمدّد على الأرض، ويقول القرآن المجيد هنا: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. أي عندما تستقر ويهدأ جانبها (كناية عن لفظ الأنفاس الأخيرة) فكلوا منها وأطعموا الفقير القانع والسائل المعترّ.

الفرق بين «القانع» و«المعترّ» هو أنّ القانع يطلق على من يقنع بما يُعطى وتبدو عليه علائم الرضى والإرتياح ولا يعترض أو يغضب، أمّا المعترّ فهو الفقير السائل الذي يطالبك بالمعونة ولا يقنع بما تعطيه، بل يحتجّ أيضاً.

إنّ عبارة ﴿كُلُوا مِنْهَا﴾ توجب أن يأكل الحجّاج من أضاحيهم، ولعلّها ترمي إلى مراعاة المساواة بين الحجّاج والفقراء.

وتنتهي الآية بالقول: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وإنّه لمن العجب أن يستسلم حيوان عظيم الجثّة هائل القوّة لطفل يعقل يديه معاً ثم ينحره.

تجيب الآية التالية عن هذه الأسئلة: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾. إنّ الله ليس بحاجة إلى لحوم الأضاحي، فما هو بجسم، ولا هو بحاجة إلى شيء، وإنّما هو موجد كل وجود وموجود. إنّ الغاية من الأُضحية كما تقول الآية: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾. فالهدف هو أن يجتاز المسلمون مراحل التقوى ليبلغوا الكمال ويتقربوا إلى الله.

إنّ جميع العبادات دروس في التربية الإسلامية، فتقديم الأُضحية ـ مثلاً ـ فيه درس الإيثار والتضحية والسماح والاستعداد للشهادة في سبيل الله، وفيه درس مساعدة الفقراء والمحتاجين.

وعبارة ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ مع أنّ دماءها غير قابلة للاستفادة، ربّما تشير إلى الأعمال القبيحة التي كان يمارسها أعراب الجاهلية، الذين كانوا يلطّخون أصنامهم وأحياناً الكعبة بدماء هذه القرابين.

وقد اتّبعهم في ممارسة هذا العمل الخرافي مسلمون جاهلون، حتى نهتهم هذه الآية المباركة.

ثم تشير الآية ثانيةً إلى نعمة تسخير الحيوان قائلة: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

إنّ الهدف الأخير هو التعرف على عظمة الخالق جلّ وعلا، لهذا تقول الآية في الختام: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. أُولئك الذين استفادوا من هذه النعم الإلهية في طاعة الله، وأنجزوا واجباتهم على خير وجه، ولم يقصّروا في الإنفاق في سبيل الله أبداً.

وقد تؤدّي مقاومة خرافات المشركين التي أشارت إليها الآيات السابقة إلى إثارة غضب المتعصبين المعاندين، ووقوع إشتباكات محدودة أو واسعة، لهذا طمأن الله سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾.

لتتّحد قبائل عرب الجاهلية مع اليهود والنصارى والمشركين في شبه الجزيرة العربية للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكّنوا من بلوغ ما يطمحون إليه، لأنّ الله وعد المؤمنين بالدفاع عنهم وعداً تجلّى صدقه في دوام الإسلام حتى يوم القيامة، ولا يختص الدفاع الإلهي عن المؤمنين في الصدر الأوّل للإسلام وحسب، بل هو ساري المفعول أبد الدهر، فإن كنّا على نهج الذين آمنوا. فالدفاع الإلهي عنّا أكيد. ومن ذا الذي لا يلتمس دفاع الله سبحانه عن عباده الصالحين؟

وفي الختام توضّح هذه الآية موقف المشركين وأتباعهم بين يدي الله بهذه العبارة الصريحة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾. أُولئك الذين أشركوا بالله حتى أنّهم ذكروا أسماء أوثانهم عند التلبية. فثبتت عليهم الخيانة والكفر لأنعم الله.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

أوّل حكم بالجهاد في تفسير مجمع البيان (والتفسير الكبير أيضاً) كان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: «اصبروا فإنّي لم أؤمر بالقتال». حتى هاجر، فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة، وهي أوّل آية نزلت في القتال.

ولمّا وعد الله المؤمنين بالدفاع عنهم في الآية السابقة يتّضح جيّداً الإرتباط بين هذه الآيات. تقول الآية: إنّ الله تعالى أذن لمن يتعرّض لقتال الأعداء وعدوانهم بالجهاد، وذلك بسبب أنّهم ظلموا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾. ثم أردفت بنصرة الله القادر للمؤمنين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

عليكم بالجدّ والعمل بكل ما تستطيعون من قدرة، وعندما تستحقون النصر بإخلاصكم ينجدكم الله وينصركم على أعدائه، وهذا ما حدث للرسول ﷺ في جميع حروبه التي كانت تُكلّل بالنصر.

ثم توضّح هذه الآيات للمظلومين ـ الذين أذن لهم بالدفاع عن أنفسهم ـ بواعث هذا الدفاع، ومنطق الإسلام في هذا القسم من الجهاد فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. وذنبهم الوحيد أنّهم موحّدون: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

ثم تستعرض الآية واحداً من جوانب فلسفة تشريع الجهاد فتقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾. أي إنّ الله إن لم يدافع عن المؤمنين، ويدفع بعض الناس ببعضهم عن طريق الإذن بالجهاد،

لهدّمت أديرة وصوامع ومعابد اليهود والنصارى والمساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً.

وكل دعوة لعبادة الله وتوحيده مضادّة للجبابرة الذين يريدون أن يعبدهم الناس تشبّهاً منهم بالله تعالى، لهذا يهدّمون أماكن توحيد الله وعبادته، وهذا من أهداف تشريع الجهاد والإذن بمقاتلة الأعداء.

«الصوامع»: جمع «صومعة» وهي عادةً مكان خارج المدينة بعيد عن أعين الناس مخصّص لمن ترك الدنيا من الزهّاد والعبّاد. و«البِيَع»: جمع بيعة بمعنى معبد النصارى، ويطلق عليها كنيسة أيضاً. و«الصلوات»: جمع صلاة، بمعنى معبد اليهود، ويرى البعض أنّها معرّبة لكلمة «صلوتا» العبرية، التي تعني المكان المخصّص بالصلاة. وأمّا «المساجد»: فجمع مسجد، وهو موضع عبادة المسلمين. والصوامع والبيع، رغم أنّها تخصّ النصارى، إلّا أنّ إحداهما معبد عام والأُخرى لمن ترك الدنيا.

وفي الختام أكّدت هذه الآية ثانية وعدالله بالنصر: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ولا شكّ في إنجاز هذا الوعد، لأنّه من رب العزة القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، من أجل ألّا يتصوّر المدافعون عن خطّ التوحيد أنّهم وحيدون في ساحة قتال الحقّ للباطل، ومواجهة جموع كثيرة من الأعداء الأقوياء.

وآخر آية تفسّر المراد من أنصار الله الذين وعدهم بنصره في الآية السابقة، وتقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

إنّهم فئة لا تلهو ولا تلعب كالجبابرة بعد انتصارها، ولا يأخذها الكبر والغرور، إنّما ترى النصر سلّماً لإرتقاء الفرد والجماعة، إنّها لن تتحوّل إلى طاغوت جديد بعد وصولها إلى السلطة، لإرتباطها القوي بالله، والصلاة رمز هذا الإرتباط بالخالق، والزكاة رمز للإلتحام مع الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان قويّتان لبناء مجتمع سليم، وهذه الصفات الأربع تكفي لتعريف هؤلاء الأفراد، ففي ظلّها تتمّ ممارسة سائر العبادات والأعمال الصالحة، وترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطوّر.

وتقول الآية في ختامها: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾. وتعني أنّ بداية أيّ قدرة ونصر من الله تعالى، وتعود كلّها في الأخير إليه ثانية.

وقد أشارت هذه الآيات إلى أمرين مهمّين في فلسفة الجهاد:

أوّلهما: جهاد المظلوم للظالم، وهو من حقوقه المؤكدة والطبيعية، التي يؤكّدها عقل الإنسان وفطرته. وليس له أن يستسلم للظلم.

وثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر الله من القلوب بتهديم المعابد التي هي مراكز لبثّ الوعي وإيقاظ الناس.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمين بعد أن ذاقوا ـ كما ذكرت الآيات السابقة ـ وقد طمأنت الآيات ـ موضع البحث ـ الرسول ﷺ والمؤمنين وخفّفت عنهم من جهة، وبيّنت لهم أنّ العاقبة السيئة تنتظر الكفرة من جهة أُخرى، فقالت: ﴿**وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ**﴾. أي إذا كذّبك هؤلاء القوم فلا تبتئس ولا تحزن، فالأقوام السابقة قد كذّبت رسلها أيضاً، وأضافت: ﴿**وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ**﴾.

وكذلك كذّب أهالي مدينة «مدين» نبيّهم «شعيب»، وكذّب فرعون وقومه نبيّهم «موسى» ﴿**وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ**﴾.

وإنّ هذه المعارضة والتكذيب لن تؤثّر في روحك الطاهرة ونفسك المطمئنة، مثلما لم تؤثّر في أنبياء كبار قبلك ولم تعق مسيرتهم التوحيدية ودعوتهم إلى الحق والعدل قطّ.

إلّا أنّ هؤلاء الكفرة الأغبياء يتصورون إمكانية مواصلة هذه الأساليب المخزية. ﴿**فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ**﴾. أجل، أمهل الله الكافرين ليؤدّوا إمتحانهم وليتمّ الحجة عليهم فأغرقهم بنِعَمه، ثم حاسبهم حساباً عسيراً. ﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ [١] ورأيت كيف أنكرت عليهم أعمالهم، وبيّنت لهم أعمالهم القبيحة، لقد سلبت منهم نعمتي وجعلتهم على أسوأ حال... سلبت سعادتهم الدنيوية وعوّضتهم بالموت.

---

١. «النكير»: تعني الإنكار وهنا تعني فرض العقاب.

آخر آية موضع البحث يبيّن الله تعالى كيفية عقاب الكفار بجملة موجزة ذات دلالة واسعة: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾. وأضافت الآية أنّ سقف بيوتها قد باتت أسفل البناء: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. أي إنّ الواقعة كانت شديدة حتى أنّ السقوف إنهارت أوّلاً ثم الجدران على السقوف ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ فما أكثر الآبار المترعة بمياهها العذبة، ولكنّها غارت في الأرض بعد هلاك أصحابها فأصبحت معطّلة لا نفع فيها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[1]. أجل ما أكثر القصور المشيدة التي إرتفعت شاهقة وزُيّنت، إلّا أنّها أضحت خرائب بعد أن هلك أصحابها، والنتيجة إنّهم تركوا مساكنهم وقصورهم المجللة، وأهملوا مياههم وعيونهم التي كانت مصدر حياتهم وعمران أراضيهم وذهبوا، وكذلك الآبار الغنيّة بالماء أصبحت معطّلة لا ماء فيها.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

السير في الأرض والعبرة: تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التي عاقبها الله على ما إقترفت أيديهم فدمّر أحياءهم، وأكّدت الآية الأُولى هذه القضيّة فقالت: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

أجل، تحدّثنا عن خرائب قصور الظلمة، ومنازل الجبابرة المهدّمة، وعبدة الدنيا.

إنّ هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدّث عن ماضي هؤلاء الأقوام، ونتائج أعمالهم وسلوكهم في الحياة، وعن أعمالهم المشؤومة، وأخيراً عن العقاب الذي صبّه الله عليهم.

ولإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ

---

١. «المشيد»: مشتقة من «شيد» ذات معنيين: أوّلهما الإرتفاع، والثاني الجصّ، فتعني لفظة «قصر مشيد» القصر المرتفع.

والمعنى الثاني القصر الذي بني على أُسس ثابتة قويّة ليصان من حوادث الزمان، وبما أنّ معظم منازل ذلك العصر تبنى من الطين، فإنّ المنزل الذي يبنى بالجصّ يكون أقوى من هذه البيوت ويكون متميّزاً عنها.

وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحياناً أكثر وعياً من الآخرين. أمّا العمي الحقيقيون فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبداً. في تفسير القمي عن رسول الله ﷺ: «شرّ العمى، عمى القلب». وفي الكافي: «وأعمى العمى عمى القلب».

وترسم الآية الثانية ـ موضع البحث ـ صورة أُخرى لجهل الأغبياء وعديمي الإيمان فتقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ فردّ عليهم ألّا تعجلوا ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

فلا فرق عنده بين الساعة واليوم والسنة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وفي آخر آية نجد تأكيداً على ما سبق أن ذكرته الآيات الآنفة الذكر من إنذار الكفار المعاندين بأنّه ما أكثر القرى والبلاد التي أمهلناها ولم ننزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، ولمّا لم يفيقوا وينتبهوا أمهلناهم مرّة أُخرى ليغرقوا في النعيم والرفاهية، وفجأةً نزل عليهم العذاب: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾.

إنّ أُولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكون من تأخّر العذاب عليهم، ويسخرون من وعيد الأنبياء، ولا يرونه إلّا باطلاً، إلّا أنّهم ابتلوا بالعذاب أخيراً ولم ينفعهم صراخهم أبداً ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. أجل كل الأمور تعود إلى الله، وتبقى جميع الثروات فيكون الله وارثها.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

تحدثت الآيات السابقة عن تعجيل الكفر والعذاب الإلهي، وإنّ ذلك ليس من شأن النبي ﷺ وإنّما يرتبط بمشيئة الله تعالى، فأوّل آية من الآيات أعلاه تقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وترسم الآيتان التاليتان صورةً للبشرى وأُخرى للإنذار، لأنّ رحمة الله واسعة، فتتقدم على عقاب الله. تتحدّث أوّلاً عن البشرى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. يتطهّرون بماء المغفرة الإلهية أوّلاً، فتطمئن ضمائرهم، ثم تشملهم نعم الله ورحمته.

عبارة «رزق كريم» ذات مفهوم واسع يضمّ جميع الأنعم المادية والمعنوية.

وأضافت الآية اللاحقة: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[1]. أي إنّ الذين حاولوا تخريب الآيات الإلهية ومحوها، وكانوا يعتقدون بأنّ لهم القدرة على مغالبة إرادة الله المطلقة، فهم أصحاب الجحيم.

«جحيم»: من مادّة «جحم» بمعنى شدّة توقّد النار، وتقال كذلك لشدّة الغضب، فعلى هذا تطلق كلمة (الجحيم) على المكان المشتعل بالنيران، وهي هنا تشير إلى نار الآخرة.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

وساوس الشياطين في مساعي الأنبياء: تناولت الآيات السابقة محاولات المشركين والكفرة لمحو التعاليم الإلهية والإستهزاء بها، أمّا الآيات موضع البحث فقد تضمّنت تحذيراً مهمّاً حيث قالت: إنّ هذه المؤامرات ليست جديدة، فالشياطين دأبوا منذ البداية على إلقاء وساوسهم ضدّ الأنبياء. في البداية تقول الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أمراً لصالح الدين والمجتمع وفكّر في خطّة لتطوير العمل ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إلّا أنّ الله لم يترك نبيّه وحده إزاء إلقاءات الشياطين ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾. إنّ هذا العمل يسير على الله تعالى، لأنّه عليم بجميع هذه المؤامرات الدنيئة، ويعرف كيف يحبطها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

إلّا أنّ المؤامرات الشيطانية التي كان يحيكها المشركون والكفرة، كانت تشكّل ساحة لإمتحان المؤمنين والمتآمرين في آنٍ واحد، إذ تضيف الآية: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً

١. «سعوا»: مشتقة من «السعي» وتعني في الأساس الهرولة، وهنا المحاولة في تخريب الآيات الإلهية ومحوها.

«المعاجزون»: مشتقة من «العجز» وتعني هنا الذي يحاول الغلبة على قدرة الله غير المحدودة.

لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ فهم بعيدون عن الحق لشدّة عداوتهم وعنادهم.

وكذلك الهدف من هذا البرنامج: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾. وطبيعي أنّ الله لا يترك المؤمنين الواعين المطالبين بحقوقهم والمدافعين عن الحق وحدهم في هذا الطريق الوعر ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

إنّ كلمة الرسول تطلق على أنبياء لهم رسالات من الله أمروا بنشرها بين الناس.

أمّا كلمة «النبي» وهو الذي ينبأ بالوحي الإلهي رغم أنّه لم يُكلّف بإبلاغه بشكل واسع.

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

تحدثت الآيات السابقة عن محاولات المخالفين في محو الآيات الإلهية، أمّا الآيات التي نقف في ضوئها، فأشارت إلى هذه المحاولات من قبل أشخاص متعصبين قساة. تقول الآية الأولى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾. بديهي أنّ الآية هنا قصدت فئة من الكفار لا الكفار كلّهم، لأنّ الكثير منهم أسلموا والتحقوا بالنبي ﷺ وبصفوف المسلمين، قصدت الآية زعماء الكفار والمعاندين والمتعصبين بقوّة والحاقدين الذين لم يؤمنوا قطّ، واستمرّوا في عرقلة المسيرة الإسلامية.

وتعني كلمة «مرية» الشكّ والترديد، وتبيّن لنا الآية أنّ هؤلاء الكفرة لم يكونوا يوماً على يقين ببطلان الإسلام ودعوة النبي ﷺ بالرغم من إظهارهم لذلك في كلماتهم.

والمراد من «الساعة» ختام العالم وعشيّة يوم القيامة، والتي رافقت كلمة «بغتة».

ويقصد بـ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ عقاب يوم القيامة، وقد وصف يوم القيامة بالعقم لأنّه لا

يوم يليه لينهض المرء للقيام بأعمال خيّرة تعوّض عمّا فاته وتؤثّر في مصيره.

ثم أشارت الآية التالية إلى السيادة المطلقة لربّ العالمين يوم القيامة: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾. وهذا أمر ملازم لله الحاكم الدائم والمالك المطلق، وليس ليوم القيامة فقط.

ولكن كل هذا يزول وتتّضح حقيقة وحدانية المالك والحاكم يومئذ.

وبما أنّ الله هو المالك الحقيقي، فهو إذن الحاكم الحقيقي، وتعمّ حكومته على المؤمنين والكافرين على السواء، ونتيجة ذلك كما يقول القرآن المجيد: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. الجنّات التي تتوفّر فيها جميع المواهب وكل الخيرات والبركات.

ويضيف القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. عذابٌ يذلّ الكفرة والذين كذّبوا بآيات الله، أُولئك الذين عاندوا الله واستكبروا على خلقه يهينهم الله.

وبما أنّ الآيات السابقة تناولت المهاجرين من الذين طردوا من ديارهم وسلبت أموالهم، لأنّهم قالوا: ربّنا الله، ودافعوا عن شريعته، فقد اعتبرتهم الآية التالية مجموعة ممتازة جديرة بالرزق الحسن وقالت: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

في تفسير القرطبي: سبب نزول هذه الآية أنّه لمّا مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبدالأسد، قال بعض الناس: من قتل في سبيل الله أفضل ممّن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية مسويّة بينهم، وأنّ الله يرزق جميعهم رزقاً حسناً. وظاهر الشريعة يدلّ على أنّ المقتول أفضل.

وعرضت الآية الأخيرة صورة من هذا الرزق الحسن: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾. فإذا طردوا من منازلهم في هذه الدنيا ولاقوا الصعاب، فإنّ الله يأويهم في منازل طيّبة في الآخرة ترضيهم من جميع الجهات.

وتنتهي هذه الآية بعبارة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. أجل، إنّ الله عالم بما يقوم به عباده، وهو في نفس الوقت حليم لا يستعجل في عقابهم، من أجل تربية المؤمنين في ساحة الإمتحان هذه، وليخرجوا منها وقد صلب عودهم وإزدادوا تقرّباً إلى الله.

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: إنّ الآية الأُولى نزلت في قوم من مشركي مكة، لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقالوا: إنّ أصحاب محمّد لا يقاتلون في هذا الشهر. فحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا، فأظفر الله المسلمين بهم.

التّفسير

من هم المنتصرون؟ حدّثتنا الآيات السابقة عن المهاجرين في سبيل الله، وما وعدهم الله من رزق حسن يوم القيامة. ومن أجل ألّا يتصور المرء أنّ الوعد الإلهي يختص بالآخرة فحسب، تحدّثت الآية ـ موضع البحث ـ في مطلعها عن إنتصارهم في ظل الرحمة الإلهية في هذا العالم: ﴿**ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ**﴾. إشارة إلى أنّ الدفاع عن النفس ومجابهة الظلم حق طبيعي لكل إنسان.

وبما أنّ الوعد بالنصر الذي يقوي القلب لابدّ وأن يصدر من مقتدر على ذلك. لهذا تستعرض الآية قدرة الله في عالم الوجود التي لا تنتهي، فتقول: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ**﴾. فما أن يقل من أحدهما حتى يزداد في الآخر وفق نظام مدروس.

«يولج»: مشتقة من «الايلاج» وهو في الأصل من الولوج أي الدخول، وهذه العبارة تشير إلى التغييرات التدريجية المنظّمة تنظيماً تامّاً، كمسألة الليل والنهار، فما يقلّ أحدهما إلّا ليزداد الآخر على مدى فصول السنة.

وتنتهي الآية بـ ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ**﴾. أجل، إنّ الله يلبّي حاجة المؤمنين، ويطّلع على حالهم وأعمالهم، ويعينهم برحمته عند اللزوم، مثلما يطّلع على أعمال ومقاصد أعداء الحق.

وآخر آية من الآيات السالفة الذكر في الواقع دليل على ما مضى، حيث تقول: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ**

اَللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

إن شاهدتم إنتصار الحق وهزيمة الباطل، فإنّ ذلك بلطف الله الذي ينجد المؤمنين ويترك الكافرين لوحدهم.

إنّ المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامة، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء والعدم بمخالفتهم تلك القوانين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

دلائل الله في ساحة الوجود: تحدثت الآيات السابقة عن قدرة الله غير المحدودة وأنّه الحق المطلق، وبيّنت هذه الآيات الأدلة المختلفة على هذه القدرة الواسعة والحق المطلق وتقول أوّلاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾.

لقد اخضّرت الأرض المرتدية رداء الحزن ـ من أثر الجفاف ـ بعد ما نزل المطر عليها، فأصبحت تسرّ الناظرين. أجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. «لطيف»: مشتقة من «اللطف» بمعنى العمل الجميل الذي يمتاز برقّته؛ وكلمة «الخبير»: تعني المطّلع على الأمور الدقيقة.

يرسل الله المطر بقدرة وبخبرة منه، فإن زاده صار سيلاً، وإن نقصه كثيراً ساد الجفاف في الأرض.

الآية التالية تعرض علامة أُخرى على قدرة الله غير المتناهية، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فهو سبحانه خالق الجميع ومالكهم، وبهذا الدليل يكون قادراً عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعاً، ولا يحتاج هو إلى شيء أو إلى أحد.

ويزداد هذا المعنى إشراقاً في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

والتحام صفتي الغني والحميد جاء في غاية الإحكام، لأنّ عدداً كبيراً من الناس أغنياء،

إلّا أنهم بخلاء يستغلّون الآخرين ويعملون لذاتهم فقط، أمّا غنى الله سبحانه فهو مزيج من اللطف والسماح والجود والكرم، لذا استحقّ الحمد والثناء من عباده.

وتشير الآية التالية إلى نموذج آخر من تسخير الله تعالى الوجود للإنسان ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ وجعل تحت اختياركم جميع المواهب والإمكانات فيها لتستفيدوا منها بأيّ صورة تريدون، وكذلك جعل السفن والبواخر التي تتحرّك وتمخر عباب البحار بأمره نحو مقاصدها. ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾. إضافةً إلى ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. وذلك من رحمة الله لعباده ولطفه بهم، وهذا ما تلمسه في ختام الآية المباركة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وتتناول الآية الأخيرة أهمّ قضية في الوجود، أي قضية الحياة والموت فتقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾. أي كنتم تراباً لا حياة فيه فألبسكم لباس الحياة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ وبعد إنقضاء دورة حياتكم يميتكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. أي يمنحكم حياة جديدة يوم البعث.

وتبيّن الآية ميل الإنسان إلى نكران نعم الله عليه قائلة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾. فرغم كل ما أغدق الله على الإنسان من أنعم في الأرض والسماء، في الجسم والروح، لا يحمده ولا يشكره عليها، بل يكفر بكلّ هذه النعم. ومع أنّه يرى كل الدلائل الواضحة والبراهين المؤكّدة لوجود الله تبارك وتعالى، والشاهدة بفضله عليه وإحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه وأجهله.

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

لكل أمّة عبادة: تناولت البحوث السابقة المشركين خاصة، ومخالفي الإسلام عامة، ممّن جادلوا فيما أشرق به الإسلام من مبادىء نسخت بعض تعاليم الأديان السابقة، وكانوا يرون من ذلك ضعفاً في الشريعة الإسلامية، وقوة في أديانهم، في حين أنّ ذلك لا يشكّل ضعفاً إطلاقاً، بل هو نقطة قوّة ومنهج لتكامل الأديان ولذا جاء الفصل الرباني جليّاً ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. «المناسك»: جمع «منسك» أي مطلق العبادات، ومن

الممكن أن تشمل جميع التعاليم الإلهية. لهذا فإنّ الآية تبيّن أنّ لكل أمّة شرعة ومنهاجاً يفي بمتطلّباتها بحسب الأحوال التي تعيشها، لكن ارتقاءها يستوجب تعاليم جديدة تلبّي مطامعها المترقية، وهذا ما صدعت به الآية المباركة وأثارته قائلة: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾. فبما تقدّم لا ينبغي لهم منازعتك في هذا الأمر.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾. تخاطب الآية النبي ﷺ أن يا أيّها النبي لا يؤثّر هؤلاء في دعوتك الراشدة باعتراضاتهم الضالة، فالمهتدي إلى الصراط المستقيم أقوى من الضارب في التيه.

ثم أضافت الآية: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. فلو استمرّوا في جدالهم ومنازعتهم معك، ولم يؤثّر فيهم كلامك. فقل لهم: إنّ الله أعلم بأعمالكم، وستحشرون إليه في يوم يعود الناس فيه إلى التوحيد، وتحلّ جميع الإختلافات لظهور الحقائق لجميع الناس: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وبما أنّ القضاء بين العباد يوم القيامة بحاجة إلى علم واسع بهم وإطّلاع دقيق بأعمالهم، ختمت الآيات هاهنا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾. أجل، إنّ جميع ذلك قد ثبت في كتاب علم الله الذي لا حدود له، كتاب عالم الوجود وعالم العلة والمعلول، عالم لا يضيع فيه شيء، فهو في تغيير دائم، وكل هذه الموجودات حاضرة بين يدي الله سبحانه بجميع صفاتها وخصائصها، وهذا من معاني القدرة الإلهية التي نلمسها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ
أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ
مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ
لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

معبودات أضعف من ذبابة: تابعت هذه الآيات الأبحاث السابقة عن التوحيد والشرك، فتحدثت ثانية عن المشركين وأفعالهم الخاطئة، فتقول الآية الأولى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾. وهذا يبيّن بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أنّ الله سمح لهم بعبادة الأوثان وأنّها تشفع لهم عند الله. وتضيف الآية ﴿**وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ**﴾. أي: يعبدون عبادةً لا يملكون دليلًا على صحّتها لا من طريق الوحي الإلهي، ولا من طريق الاستدلال العقلي، ومن لا يعمل بدليل يظلم نفسه وغيره، ولا أحد يدافع عنه يوم الحساب، لهذا تقول الآية في ختامها: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾.

وتشير الآية الثانية ـ موضع البحث ـ إلى عناد الوثنيين وإستكبارهم عن الإستجابة لآيات الله تعالى، في جملة وجيزة لكنها ذات دلالات كبيرة: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ**﴾.

وهنا يسفر التناقض بين المنطق القرآني القويم وتعصب الجاهلية الذي لا يرضخ للحق ولا يفتح قلبه لندائه الرحيم، فما تليت عليهم آيات ربّهم إلّا ظهرت علائم الإستكبار عنها في وجوههم حتى إنّهم ﴿**يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**﴾. أي كأنّهم يريدون مهاجمة الذين يتلون عليهم آيات الله عزّ وجلّ وضربهم بقبضات أيديهم، تنفيساً عن التكبّر البغيض في قرارة أنفسهم.

«يسطون»: مشتقة من «السطوة» أي رفع اليد ومهاجمة الطرف الآخر.

وقد أمر القرآن المجيد الرسول الأكرم ﷺ أن يجيب هؤلاء المتغطرسين هاتفاً ﴿**قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ**﴾. أي: إن زعمتم أنّ هذه الآيات البينات شرّ، لأنّها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإنّني أخبركم بما هو شرّ منها، ألا وهو عقاب الله الأليم، النار التي أعدّها الله جزاءً: ﴿**وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.

وترسم الآية الآتية صورة معبّرة لما كان عليه الوثنيون، وما يعبدونه من أشياء ضعيفة هزيلة تكشف عن بطلان آراء المشركين وعقيدتهم، مخاطبةً للناس جميعاً خطاباً هادياً أن ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾ وتدبّروا فيه جيّداً ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾. أجل، لو إجتمعت الأوثان كلها، وحتى العلماء والمفكّرين والمخترعين جميعاً، لما استطاعوا خلق ذبابة. فكيف تجعلون أوثانكم شركاء لخالق السماوات والأرض وما فيهن من آلاف مؤلّفة من أنواع المخلوقات في البرّ والبحر، في الصحاري والغابات، وفي أعماق الأرض؟

وتستكمل الآية البيان عن ضعف الأوثان وعجزها المطلق وأنّها ليست غير قادرة على خلق ذبابة فحسب، بل ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

ويعلو صدى الحق في تقرير ضعف الوثن وعبدته في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

وبعد أن عرض القرآن الكريم هذا المثال الواضح، قرّر حقيقة مهمة، وهي: ﴿مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

فالمشركون لو كانوا على أدنى معرفة بالله تعالى لما أنزلوا قدره إلى مستوى هذه الآلهة الضعيفة العاجزة ولما جعلوا مصنوعاتهم شركاء له، تعالى عما يفعلون علواً كبيراً، ولو كان لديهم أدنى معرفة بقدرة الله لضحكوا من أنفسهم وسخروا من أفكارهم، وتقول الآية في النهاية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. أجل، إنّ الله قادر على كل شيء ولا مثيل لقدرته ولا حدّ، فهو ليس كآلهة المشركين التي لو إجتمعت لما تمكّنت من خلق ذبابة، بل ليس لها القدرة على إعادة ما سلبه الذباب منها.

ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ
﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ
وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ
مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سبب النّزول

في التفسير الكبير: قال الوليد بن المغيرة: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

التّفسير

بما أنّ الآيات السابقة تناولت بحث التوحيد والشرك وآلهة المشركين الوهميّة، وبما أنّ بعض الناس قد اتّخذوا الملائكة أو بعض الأنبياء آلهة للعبادة، فإنّ أوّل الآيات موضع البحث تقول بأنّ جميع الرسل هم عباد الله وتابعون لأمره: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أجل، إختار الله من الملائكة رسلًا كجبرئيل، ومن البشر رسلًا كأنبياء الله الكبار.

وختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾. أي: إنّ الله ليس كالبشر، لا يعلمون أخبار رسلهم في غيابهم، بل إنّه على علم بأخبار رسله لحظة بعد أُخرى، يسمع كلامهم ويرى أعمالهم.

وتشير الآية الثانية إلى مسؤولية الأنبياء في إبلاغ رسالة الله من جهة، ومراقبة الله لأعمالهم من جهة أُخرى، فتقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. إنّه يعلم ماضيهم ومستقبلهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾. فالجميع مسؤولون في ساحة قدسه.

ليعلم الناس أنّ ملائكة الله سبحانه وأنبياءه عليهم السلام عباد مطيعون له مسؤولون بين يديه، لا يملكون إلّا ما وهبهم من لطفه، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى واجب ومسؤولية رسل الله ومراقبته سبحانه لأعمالهم.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحج حيث تخاطبان المؤمنين وتبيّنان مجموعة من التعاليم الشاملة التي تحفظ دينهم ودنياهم وإنتصارهم في جميع الميادين، وبهذه الروعة والجمال تختتم سورة الحج. في البداية تشير الآية إلى أربعة تعليمات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وقد بيّنت الآية ركنين من أركان الصلاة، الركوع والسجود لأهميّتها الاستثنائية في هذه العبادة العظيمة.

ثم يصدر الله أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمة، فيقول عزّ من قائل: ﴿وَجَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

والمراد بالجهاد هي كل نوع من الجهاد في سبيل الله والإستجابة له وممارسة أعمال البرّ والجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) وجهاد الأعداء والظلمة (الجهاد الأصغر).

ولا شكّ في أنّ حق الجهاد له معنىً واسع يشمل الكيف والنوع والمكان والزمان وسواها.

ولكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات

والتعليمات الشاملة الواسعة؟ ولهذا تجيب بقية الآية الشريفة فتقول أوّلاً: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾.

أي: حمّلكم هذه المسؤوليات بإختياركم من بين خلقه.

والعبارة الأُخرى قوله جلّ وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. أي: إذا دقّقتم جيّداً لم تجدوا صعوبة في التكاليف الربّانية لإنسجامها مع فطرتكم التي فطركم الله عليها، وهي الطريق إلى تكاملكم.

وثالث عبارة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

إنّ إطلاق كلمة «الأب» على إبراهيم عليه السلام، إمّا بسبب كون العرب والمسلمين آنذاك من نسل إسماعيل عليه السلام غالباً، وإمّا لكون إبراهيم عليه السلام هو الأب الروحي للموحدين جميعاً.

ويليها تعبير: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾. أي هو سمّاكم المسلمين في الكتب السماوية السابقة.

وخامس عبارة خصّ بها المسلمين وجعلهم قدوة للأُمم الأُخرى هي قوله المبارك: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وكون الرسول صلى الله عليه وآله شاهداً على جميع المسلمين يعني إطلاعه على أعمال أُمّته. فجميع الأُمة شهداء، والأئمة الطاهرين شهود ممتازون على هذه الأُمة.

وأعادت الآية في ختامها بشكل مركّز الواجبات الخمسة في ثلاث جمل هي ﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ﴾. فإنّ الله هو قائدكم وناصركم ومعينكم: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ و﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾. أي: إنّ الله أمركم بالإعتصام به لكونه خير الموالي وأجدر الأعوان.

«نهاية تفسير سورة الحج»

٢٣

سورة المؤمنون

وهي مائة وثماني عشرة آية

مكية

محتوى السورة: يمكن تقسيم مواضيع هذه السورة إلى الأقسام التالية:

١ـ إنّ السورة يبدأ بالآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وينتهي بعدد من الآيات التي تذكر صفات هي مدعاة لفلاح المؤمنين.

٢ـ وأشار هذه السورة إلى علائم أُخرى للمؤمنين، التوحيد وآيات عظمة الله وجلاله في عالم الوجود.

٣ـ وشرح ما حدث لعدد من كبار الأنبياء.

٤ـ ووجّه الخطاب سبحانه وتعالى إلى المستكبرين يحذّرهم ببراهين منطقيّة تارةً، وأُخرى بتعابير دافعة عنيفة، ليعيد القلوب إلى طريق الصواب بالعودة إليه عزّ وجلّ.

٥ـ ثم بيّن في بحث مركّز المعاد.

٦ـ وتناول قسم آخر سيادة الله على عالم الوجود، وإطاعة العالم ولأوامره.

٧ـ بحثت هذه السورة عن حساب يوم القيامة، وجزاء الخير للمحسنين، وعقاب المذنبين. وينتهي السورة ببيان الغاية من خلق الإنسان.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «من قرأ سورة المؤمنين ختم الله له بالسعادة إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعة، وكان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين».

وتؤكّد أنّ فضيلة السورة، إنّما يجب أن يرافق ذلك التمعّن في معانيها والعمل بما أوجبته، لأنّ هذا الكتاب يبني الذات الإنسانية ويربّيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ
وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ
﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

صفات المؤمنين البارزة: اختيار اسم المؤمنين لهذه السورة لأنّه جاء في بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزة معبّرة صفات المؤمنين، وممّا يلفت النظر أنّها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، إستثارةً للشوق في قلوب المسلمين للوصول إلى هذا الفخر العظيم باكتساب صفة المؤمنين. تقول الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

«أفلح»: مشتقة من الفلح والفلاح، وتعني في الأصل الحرث والشقّ، ثم أُطلقت على أيّ نوع من النصر والوصول إلى الهدف والسعادة بشكل عام، ولكلمة الفلاح معنىً واسعاً يضمّ الفلاح المادي والمعنوي، ويكون الإثنان للمؤمنين.

ثم تشرح الآية هذه الصفات فتؤكّد قبل كل شيء على الصلاة فتقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. «خاشعون»: مشتقة من خشوع، بمعنى التواضع وحالة التأدّب يتخذها الإنسان جسماً وروحاً بين يدي شخصية كبيرة، أو حقيقة مهمة تظهر في الإنسان وتبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

والقرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، وليس إقامة الصلاة، إشارة منه إلى أنّ الصلاة ليست مجرد ألفاظ وحركات لا روح فيها ولا معنى، وإنّما تظهر في المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجّه إلى الله تفصله عن الغير وتلحقه بالخالق.

وروي ـ في تفسير مجمع البيان ـ أنّ النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

إشارة منه ﷺ إلى أنّ الخشوع الباطني يؤثّر في ظاهر الإنسان.

وثاني صفة للمؤمنين بعد الخشوع مما تذكره الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

حقّاً نرى جميع حركات وسكنات المؤمنين تتجه لهدف واحد مفيد وبنّاء.

وتشير الآية الرابعة إلى ثالث صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين، وهي ذات جانب إجتماعي ومالي حيث تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾.

ورابع صفة من صفات المؤمنين هي الطهارة والعفة بشكل تام، وإجتناب أي معصية جنسية، حيث تقول الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾[1]. يحفظونها ممّا يخالف العفّة ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

بما أنّ الغريزة الجنسية أقوى الغرائز عند الإنسان تمرّداً، ولضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى والإيمان القوي، لهذا أكدّت الآية التالية على هذه المسألة: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

إنّ عبارة المحافظة على «الفروج» قد تكون إشارة إلى أنّ فقدان المراقبة المستمرة في هذا المجال تؤدّي بالفرد إلى خطر التلوّث بالانحرافات الكثيرة.

وأشارت الآية الثامنة ـ موضع البحث ـ إلى الصفتين الخامسة والسادسة من صفات المؤمنين البارزة، حيث تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

إنّ المحافظة على «الأمانة» بالمعنى الواسع للكلمة، وكذلك الالتزام بالعهد والميثاق بين يدي الخالق والخلق من صفات المؤمنين البارزة، وتعني الأمانة بمفهومها الواسع أمانة الله ورسوله إضافة إلى أمانات الناس، وكذلك ما أنعم الله على خلقه. وتضمّ أيضاً أمانة الله الدين الحق والكتب السماوية وتعاليم الأنبياء القدماء، وكذلك الأموال والأبناء والمناصب جميعها أمانات الله سبحانه وتعالى بيد البشر.

وهكذا أنّ الحكومة وديعة إلهية مهمة جداً يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

وبيّنت الآية التاسعة من الآيات موضع البحث آخر صفة من صفات المؤمنين حيث تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

---

١. «الفروج»: جمع فرج، وهو كناية عن الجهاز التناسلي.

وممّا يلفت النظر أنّ أوّل صفة للمؤمنين كانت الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظة عليها، لأنّ الصلاة أهمّ رابطة بين الخالق والمخلوق، وأغنى مدرسة للتربية الإنسانية.

وإنّ الصلاة إن أُقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعاً.

بعد بيان هذه الصفات الحميدة، بيّنت الآية التالية حصيلة هذه الصفات فقالت: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾.

أُولئك الذين يرثون الفردوس ومنازل عالية وحياة خالدة: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. «الفردوس»: الجنة العالية، وأفضل البساتين.

إنّ هذه المنزلة العالية ـ حسب ظاهر الآيات المذكورة أعلاه ـ خاصة بالمؤمنين الذين لهم هذه الصفات، ونجد أهل الجنة الآخرين في منازل أقلّ أهمية من هؤلاء المؤمنين.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

مراحل تكامل الجنين في الرحم: تبيّن الآيات موضع البحث ـ وقسم من الآيات التالية لها ـ السبيل لكسب الإيمان والمعرفة، حيث يمسك القرآن بيد الإنسان ليأخذه إلى «عالم النفس» وليكشف له أسرار باطنه وهو «السير الأنفسي»، وتثير الآيات التالية لها إنتباه الإنسان إلى عالم الظاهر والمخلوقات المدهشة في عالم الوجود وسير عالم الآفاق، وهو «السير الآفاقي». تقول الآيات أوّلاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[1].

وتضيف الآية التالية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

وفي الواقع فإنّ الآية الأُولى تشير إلى بداية وجود جمع البشر من آدم وأبنائه وأنّهم خلقوا جميعاً من التراب، إلّا أنّ الآية التالية تشير إلى تداوم واستمرارية نسل الإنسان بواسطة تركيب نطفة الذكر ببويضة الأُنثى في الرحم.

---

١. «السلالة»: تعني الشيء الذي يستخلص من شيء آخر، وهي في الحقيقة خلاصة ونتيجة منه.

والتعبير عن الرحم بـ«قرار مكين»، أي القرار الآمن، إشارة إلى أهمية الرحم في الجسم، حيث يقع في مكان أمين محفوظ من جميع الجهات، يحفظه العمود الفقري من جهة، وعظم الحوض القوي من جهة أُخرى، وأغشية البطن العديدة من جهة ثالثة، ودفاع اليدين يشكّل حرزاً رابعاً له، وكل ذلك شواهد على موضع الرحم الآمن.

ثم تشير الآية الثالثة إلى المراحل المدهشة والمثيرة لتدرّج النطفة في مراحلها المختلفة، واتخاذها شكلاً معيّناً في كل منها في ذلك القرار المكين، حيث تقول: إنّنا جعلنا من تلك النطفة على شكل قطعة دم متخثّر (علقة) ثم بدّلناها على شكل قطعة لحم ممضوغ (مضغة)، ثم جعلنا من هذه المضغة عظاماً، وأخيراً ألبسنا هذه العظام لحماً: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

وفي الختام أشارت الآية إلى آخر مرحلة والتي تعتبر ـ في الحقيقة ـ أهمّ مرحلة في خلق البشر، بعبارة عميقة وذات معنى كبير: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. مرحباً بهذه القدرة الفريدة، التي خلقت في ظلمات الرحم هذه الصورة البديعة، وصاغت من قطرة ماء كل هذه الأمور المدهشة.

طوبى لهذا العلم والحكمة والتدبير، الذي خلق في هذا الموجود البسيط كل هذه القابليات والجدارة، تعالى الله فقد تجلّت قدرته فيما خلق.

وتنتقل الآية التالية من تناول مسألة التوحيد ومعرفة المبدأ ـ بشكل دقيق وجميل ـ إلى مسألة المعاد حيث تقول: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

ومن أجل أن لا يعتقد المرء بأنّ الموت نهاية كل شيء، تقول الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾. أي إنّ خلقكم بهذه الصورة المدهشة لم يكن عبثاً أو لتعيشوا أيّاماً معدودات، فتضيف الآية أنّكم ستبعثون يوم القيامة في مستوى أعلى وفي عالم أوسع.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ
مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ
سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا
فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

مرّة أخرى مع علائم التوحيد: تحدثت الآيات السابقة عن آيات الله العظيمة في وجودنا، وتناولت هذه الآيات بعدها عالم الظاهر وآفاق الكون وعظمة خلق الأرض والسماوات، حيث قالت الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾.

فإنّ الآية تعني طبقات السماء السبع.

وربّما يتوهّم أنّ العالم بهذه السعة والعظمة ألا يوجب أن يغفل الله تعالى عن إدارته؟

فتجيب الآية مباشرةً: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

وأشارت الآية التالية إلى أحد مظاهر القدرة الإلهية، الذي يعتبر من بركات السماوات والأرض، ألا وهو المطر، حيث تقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾.

ثم أشارت الآية إلى قضيّة أكثر أهميّة، هي قضية إحتياطي المياه الجوفية فتقول: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

نحن نعلم أنّ القشرة السطحية من الأرض تتكوّن من طبقتين مختلفتين:

إنّ الله الرحيم جعل القشرة الأولى من سطح الأرض نافذةً، وتليها قشرة غير نافذة تحافظ على المياه الجوفية، فتكون احتياطاً للبشر يستخرجها عند الحاجة عن طريق الآبار، أو تخرج بذاتها عن طريق العيون، دون أن تفسد أو توجّه للإنسان أقلّ أذى[١].

وتشير الآية التالية إلى الخير والبركة في نعمة المطر، أي المحاصيل الزراعية الناتجة عنه فتقول: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. فضافاً إلى التمر والعنب اللذين يعتبران أهمّ المحاصيل الزراعية فانّ فيها أنواع أُخرى من الفواكه كثيرة.

وممّا يلفت النظر من الآيات أعلاه أنّ منشأ حياة الإنسان في ماء النطفة، ومنشأ حياة النبات من ماء المطر، وفي الحقيقة ينبع هذان النموذجان للحياة من الماء.

ثم تشير الآية التالية إلى شجرة مباركة أُخرى نمت من ماء المطر، إضافةً إلى بساتين النخيل والكروم والأشجار والفاكهة الأُخرى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾[٢].

إنّ جملة ﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾ إشارة إلى جبل الطور المعروف في صحراء سيناء أو ذات جانب

---

١. ويجب ملاحظة أنّ الماء الملوّث يصفي عند مروره من القشرة النافذة في معظم الأوقات.

٢. صبغ الآكلين: غذاء يؤكل مع الخبز.

وصفي يعني الجبل ذي الخيرات، أو الجبل ذي الأشجار الكثيرة، أو الجبل الجميل (لأنّ «الطور» يعني الجبل، و«سيناء» تعني ذات البركة والجبال والشجر).

«صبغ»: تعني في الأصل اللون، وبما أنّ الإنسان يلوّن خبزه مع المرق، لهذا أُطلق على جميع أنواع المرق اسم الصبغ.

بعد بيان جانب من أنعم الله في عالم النبات التي تنمو على المطر، يلي ذلك بحث جانب مهم من أنعم الله وهباته في عالم الحيوان: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾.

ثم تشرح الآية «العبرة» فتقول: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾. أجل إنّ الحيوان يدرّ حليباً لذيذاً يعتبر غذاءً كاملاً، ويمنح الجسم حرارة كبيرة، ويخرج الحليب من بين الدم على شكل دفعات كما ينزف الدم، لتعلموا قدرة الله حيث يتمكّن من خلق غذاء طاهر لذيذ من بين أشياء تبدو ملوّثة.

ثم تضيف الآية: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

كما يستفاد من الحيوانات في الركوب في البرّ والسفن في البحر ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

كل هذه الخصائص والفوائد في الحيوان تعتبر ـ حقاً ـ عبرة لنا، تعرّف الإنسان على ما خلق الله من أنعم، كما تثير فيه الشعور بالشكر والثناء على الله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

منطق الجبناء المغرورين: تحدثت الآيات السابقة عن التوحيد ومعرفة الله وأسباب عظمته في عالم الخليقة، أمّا الآيات ـ موضع البحث والآيات المقبلة ـ فقد تناولت نفس الموضوع على لسان كبار الأنبياء ومن خلال تاريخ حياتهم، حيث بدأت بأوّل أنبياء أولي العزم والمنادي بالتوحيد نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. أي: مع هذا البيان الواضح كيف لا تجتنبون عبادة الأوثان؟

أمّا الأشراف الأثرياء والمغرورون والملأ من الناس، وهم اللـذين يملأون العين في ظاهرهم، والفارغون في واقعهم من قوم نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

وبهذا اعتبروا أوّل عيب له كونه إنساناً فاتّهموه بالسلطوية، وحديثه عن الله والتوحيد والدين والعقيدة مؤامرة لتحقيق أهدافه، ثم أضافوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾. ولإتمام هذا الاستدلال الخاوي قالوا: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

إلّا أنّ هذا الكلام الفارغ لم يؤثّر في معنويات هذا النبي الكبير، حيث واصل دعوته إلى الله، ولم يكن في عمله دليل على رغبته في الحصول على إمتياز على الآخرين، أو أن يتسلط عليهم، لهذا لجأوا إلى توجيه تهمة أُخرى إليه، هي الجنون الذي كان يتّهم به جميع أنبياء الله عبر التاريخ، حيث قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا
فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ
﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ
﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا
لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

خاتمة حياة قوم معاندين: استعرضت الآيات السابقة التهم التي وجّهها أعداء نوح عليه السلام إليه، إلّا أنّه يستدلّ من آيات قرآنية أُخرى ـ بشكل واضح ـ أن أذى القوم المعاندين لنوح عليه السلام لم يتحدّد بهذه الأُمور، بل شمل كل وسيلة يمكن بها إيذاؤه، في حين بذل جميع ما في وسعه في سبيل هدايتهم وإنقاذهم من براثن الشرك والكفر. وعندما يئس منهم حيث لم يؤمن بما جاء به إلّا مجموعة صغيرة، دعا الله ليعينه، حيث تقرأ في الآية الأُولى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

هنا نزل الوحي الإلهي، من أجل التمهيد لإنقاذ نوح عليه السلام وأصحابه القلّة وهلاك المشركين المعاندين ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

إنّ عبارة «بأعيننا» إشارة إلى أنّ سعيك في هذا السبيل سيكون تحت حمايتنا.

وإستعمال عبارة «وحينا» يكشف لنا أنّ نوحاً عليه السلام تعلّم صنع السفينة بالوحي الإلهي.

ثم تواصل الآية بأنّه إذا جاء أمر الله، وعلامة ذلك فوران الماء في التنور، فاعلم أنّه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كل نوع من الحيوانات زوجاً (ذكر وأنثى) واصعد به إلى السفينة: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾. إشارة إلى زوجة نوح عليه السلام وأحد أبنائه.

ثم أضافت الآية: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

وتقول الآية التالية: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وبعد الحمد والثناء عليه تعالى على هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من مخالب الظلمة، ادعوه هكذا: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

وقد أشارت الآية الأخيرة ـ من الآيات موضع البحث ـ إلى مجمل هذه القصة فقالت: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾. في هذه الحوادث التي جرت على نوح عليه السلام وإنتصاره على أعدائه الظالمين، ونزول أشدّ أنواع العقاب عليهم، آيات ودلائل لأصحاب العقول السليمة.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾. أي إنّنا نمتحن الجميع بشكل قاطع.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

المصير المؤلم لقوم ثمود: تحدّثت هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السلام. ومنطقهم يتناغم ومنطق الكفار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة. فهي تقول أوّلاً: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ**﴾.

«القرن»: مشتقّ من الإقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التي تعيش في عصر واحد، وقياس زمن القرن بثلاثين أو مائة سنة يتّبع ما تعارفته الأقوام المختلفة.

وبما أنّ البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد ربّاني، فقد بعث الله أنبياءه يدعون إلى توحيده ويقيمون عدالته بين الناس، حيث تقول الآية التالية: ﴿**فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾.

وهذه هي الركيزة الأساسية لدعوة الأنبياء، إنّها نداء التوحيد، أسّ جميع الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وبعدها أكّد رسول الله لهم القول: إنّكم وبعد هذه الدعوة الصريحة ألا تتركون الشرك وعبادة الأوثان: ﴿**أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾.

إنّهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، وبعث الله النبي «صالح عليه السلام» لهدايتهم، إلّا أنّهم كفروا وطغوا فأهلكهم الله بالصيحة السماوية (الصاعقة القاتلة).

ولننظر الآن ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذي أعلنه هذا النبي الكبير؟ يقول القرآن في الآية التالية: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ**﴾.

أجل إنّ القوم بما كانوا يرون في دعوة نبي الله خلافاً لأهوائهم ومنافسةً لمصالحهم العدوانية فجادلوا نبيّهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح.

ثم قال بعضهم للبعض الآخر: ﴿**وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ**﴾.

ومن ثم أنكروا المعاد، الذي كان دوماً سدّاً منيعاً لاتّباع الشهوات وأرباب اللذات، وقالوا: ﴿**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ**﴾. لتعيشون حياة جديدة ﴿**هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ**﴾. فقد تساءل الكفار: هل يمكن البعث والناس قد أصبحوا تراباً وتبعثرت ذرّاتهم هنا وهناك؟ إنّ ذلك مستحيل.

وبهذا الكلام ازدادوا إصراراً على إنكار المعاد قائلين: إنّنا نشاهد باستمرار موت مجموعة وولادة مجموعة أخرى لتحلّ محلّهم، ولا حياة بعد الموت: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

وأخيراً لخّصوا التّهم التي وجّهوها إلى نبيّهم فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وعندما طغى عناد الكفار، تجاسروا على الله، وأنكروا رسالته إليهم، وأنكروا معاجز أنبيائه بكل صلافة، وقد أتمّ الله حجّته عليهم، عندها توجّه هذا النبي الكبير إلى الله سبحانه وتعالى و﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾. ربّاه: انصرني فقد هتكوا الحرمات، واتّهموني بما شاؤوا وكذّبوا دعوتي.

فأجابه الله عزّ وجل كما ذكرت الآية: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ﴾. ألا إنّهم سيندمون يوم لا ينفع الندم.

وهكذا جرى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ حيث نزلت عليهم صاعقة الموت برعبها الهائل ودمارها الماحق، وقلبت مساكنهم ونثرتها حطاماً، وكانت سريعة خاطفة إلى درجة لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا في منازلهم كما بيّنت الآية الكريمة: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً﴾. أي: جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

والغثاء، يعني النباتات الجافّة المتراكمة والطافية على مياه السيول، كما يطلق الغثاء على الزبد المتراكم على ماء القدر حين الغليان، وتشبيه الأجسام الميتة بالغثاء دليل على منتهى ضعفها وإنكسارها وتفاهتها.

وهذا إستنتاج نهائي من كل هذه الآيات، فما قيل بصدد إنكار وتكذيب الآيات الإلهية والمعاد والعاقبة المؤلمة والنهاية السيئة لا تختص بجماعة معينة، بل تشمل جميع الظلمة عبر التاريخ.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

هلاك الأقوام المعاندين الواحد بعد الآخر: بعد أن تحدّث القرآن عن قصة قوم نوح، أشار إلى أقوام أُخرى جاءت بعدهم، وقبل النبي موسى عليه السلام حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾. لأنّ هذا أمر الله وسنّته في خلقه، فالفيض الإلهي لا ينقطع عن

عباده فلو سعى جماعة للوقوف في وجه مسيرة التكامل الإنساني للبشرية لحقهم ودفع هذه المسيرة إلى أمام.

وهذه الأقوام تأريخ معين وأجل محدود: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾. فلو صدر الأمر الحتمي بنهاية حياتهم فسيهلكوا فوراً، دون تأخير لحظة أو تقديم لحظة.

«الأجل»: بمعنى العمر ومدّة الشيء، فالأجل المحتّم انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، ولا تغيير فيه. إنّ الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتّم».

وتكشف الآية التالية حقيقة استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوة إلى الله حيث تقول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾. «تترا»: مشتقة من «الوتر» بمعنى التعاقب، و«تواتر الأخبار» تعني وصولها الواحد بعد الآخر، ومن مجموعها يتيقّن الإنسان بصدقها.

إنّ معلّمي السماء، كانوا يتعاقبون في إرشاد الناس، إلّا أنّ الأقوام المعاندة كانوا يواصلون الكفر والإنكار، فإنّه: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾.

وعندما تجاوز هذا الكفر والتكذيب حدّه وتمّت الحجة عليهم. ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾. أي: أهلكنا الأمم المعاندة الواحدة بعد الأخرى ومحوناهم من الوجود.

وقد تمّ محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداولها الناس ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾. إشارة إلى أنّ كل أمّة تتعرض للهلاك، ويبق منهم بعض الأفراد والآثار هنا وهناك، وأحياناً لا يبق منهم أيّ أثر. وهذه الأمم المعاندة والطاغية كانت ضمن المجموعة الثانية.

وتقول الآية في الختام، كما ذكرت الآيات السابقة: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهؤلاء لم يكونوا بعيدين عن رحمة الله في هذه الدنيا فحسب، بل بعيدون عن هذه الرحمة في الآخرة أيضاً، لأنّ تعبير الآية جاء عاماً يشمل الجميع.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ
﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

قيام موسى وهلاك الفراعنة: كان الحديث حتى الآن عن أقوام بعث الله لهم رسلاً قبل

موسى عليه السلام، وهلكوا. أمّا الآيات موضع البحث فقد تحدّثت باختصار جداً عن إنتفاضة موسى وهارون على الفراعنة ومصير هؤلاء القوم المستكبرين، فقالت: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

إنّ «الآيات» تعني المعجزات التي أعطاها الله لموسى بن عمران (الآيات التسع). وتقصد عبارة «سلطان مبين» المنطق القوي والبرهان الدافع لموسى عليه السلام أمام الفراعنة.

أجل بعثنا موسى وأخاه هارون بهذه الآيات وسلطان مبين ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

لعل ذلك إشارة إلى أنّ الفراعنة هم أساس الفساد، ولا يصلح أيّ بلد إلّا بصلاح قادته، إلّا أنهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا﴾ لأنهم لم يرضخوا لآيات الحق والسلطان المبين.

والفراعنة كانوا مستكبرين طاغين، كما تقول الآية: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾.

ومن الدلائل الواضحة على إحساسهم بالإستعلاء، قولهم: ﴿وَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[١]. فقد تصدّوا لموسى وأخيه هارون بهذه الأدلة الخاوية، مخالفة منهم للحق ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾. وهكذا إنتهى أعداء بني إسرائيل الذين كانوا سدّاً مانعاً لدعوة موسى وهارون إلى الله سبحانه.

وبدأت بعدها مرحلة تعليم وتربية بني إسرائيل، فأنزل الله في هذه المرحلة «التوراة» على موسى، الذي دعا بني إسرائيل للإهتداء بهذا الكتاب وتطبيقه على ما ذكرته الآية الأخيرة هنا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

آية أخرى من آيات الله: أشارت الآية في آخر مرحلة من شرحها لحياة الأنبياء إلى السيد المسيح عليه السلام وأمه مريم، فقالت: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾.

وقد استعملت «الآية» عبارة «ابن مريم» بدلاً من ذكر اسم عيسى، لجلب الإنتباه إلى حقيقة ولادته من أم دون أب بأمر من الله، وهذه الولادة هي بذاتها من آيات الله الكبيرة.

ثم أشارت الآية إلى الأنعم الكبيرة التي أسبغها الله على هذه الأمّ الزكية وإبنها فتقول: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. «الربوة»: مشتقة من «الربا» بمعنى الزيادة والنمو،

---

١. يطلق على الإنسان «البشر»، لأنّ بشرته وجلده عارية، خلافاً لما عليه الحيوانات من لباس طبيعي خاص بكلّ نوع منهما.

وتعني هنا المكان المرتفع؛ و«المعين»: مشتق من «المعن» بمعنى جريان الماء.

إنّ هذا المكان الآمن هو مولد السيد المسيح عليه السلام في صحراء القدس، وقد جعله الله أمناً لهذه الأم والوليد، وفجّر لهما ماء معيناً ورزقهم من النخل الجاف رطباً جنيّاً.

فقد كانت الآية دليلاً على حماية الله تعالى الدائمة لرسله ولمن يدافع عنهم.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤)

جميع الأمة يد واحدة: تحدثت الآيات السابقة عن ماضي الأنبياء وأممهم، أمّا هذه الآيات فخاطبت الجميع فقالت: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾.

بيّنت هذه الآية ثلاثة مؤثّرات في العمل الصالح:

الأوّل: طيب الغذاء الذي يورث صفاء القلب ونقاوته.

والثاني: شكر الله تعالى على ما أنعم به من رحمته.

الثالث: الشعور اليقظ بمراقبة الله سبحانه للأعمال كلها.

ثم دعت الآية جميع الأنبياء وأتباعهم إلى توحيد الله والتزام تقواه: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾. فالإختلافات الموجودة بينكم، وكذلك بين أنبيائكم ليست دليلاً على التعدّدية إطلاقاً. ﴿**وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾. فنحن بين يدي دعوة واعية إلى وحدة الجماعة والقضاء على ما يثير التفرقة، ليعيش الناس أُمّة واحدة، كما أنّ الله ربّهم واحد أحد.

ولهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السلام إذ دعوا إلى اتّباع تعاليم موحدة، ذات أساس واحد في كل مكان.

وقد حذّرت الآية التالية البشر من الفُرقة والاختلاف، بعد أن تمّت في الآية السابقة دعوتهم إلى التمسك بالوحدة، فقالت: ﴿**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا**﴾. وممّا يثير الدهشة أنّ ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾.

«الزبر»: جمع «زبرة» تعني بعض شعر الحيوان خلف رأسه، يجمعه الراعي ليفصله عن

باقي الشعر، ثم أطلقت هذه الكلمة على كل شيء ينفصل عن أصله، فتقول الآية: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾. إشارة منها إلى تفرّق الأمّة إلى مجموعات وفئات مختلفة.

تستعرض الآية حقيقة نفسية واجتماعية هي أنّ التعصب الجاهلي للأحزاب والفئات يمنع وصولها إلى الحقيقة، لأنّ كلًّا منها قد اتّخذ سبيلًا خاصّاً به.

وهذه الحالة نتجت عن حبّ الذات المفرط والعناد، وهما أكبر عدوّ للحقيقة، ولوحدة الأمّة.

ولهذا تقول الآية الأخيرة هنا: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. أي: اتركهم على حالهم حتى يأتي أجلهم، أو يأتيهم الله بعذاب منه، فليس لهم سوى هذا، لأنّهم أصرّوا على البقاء في جهلهم ومتاهتهم.

«حين»: قد تكون إشارة إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

«الغمرة»: على وزن «ضربة» فهي بالأصل من «غمر» أي إتلاف كل شيء، ثم أطلق غمر وغامر على الماء الكثير الذي يزيل كل شيء يواجهه، ويواصل جريانه، ثم أطلق على الجهل والبلايا التي يغرق فيها الإنسان، كما استعملته الآية السابقة بمعنى الغفلة والضياع والجهل والضلال.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ
هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ
﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

تعرّض ما سبق من الآيات المباركة للأحزاب والجموعات المعاندة التي غلب عليها التعصب وحبّ الذات، بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنانية: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [١]. هو من أجل أنّنا: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

فهل يتصوّرون أنّ أموالهم الوافرة وكثرة أولادهم دليل على أنّهم على حق، ودليل على

١. وهذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن في قضيّة (الإستدراج في النعم).
«نمدّ»: مشتقة من «الإمداد» وهو إتمام النقص والحيلولة دون القطع، وإيصال الشيء إلى نهايته.

قرب منزلتهم من الله؟ ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنّ كثرة أموالهم وأولادهم نوع من العذاب، أو مقدمة للعذاب ولعقاب الله، إنّهم لا يدركون أنّ ما أغدق عليهم ربّهم من نعم إنّما هو من أجل أن يتورّطوا في العقاب الإلهي، ويمسي عقابهم أشد ألماً.

وبعد نفي تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين والمسارعين في الخيرات، وتبيّن صفاتهم الرئيسية، فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾.

و«الخشية»: تعني الخوف المقترن بالتعظيم والتقديس.

ثم تضيف الآية: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

وتأتي بعد مرحلة الإيمان بآيات الله، مرحلة تنزيهه عن كل شبهة وشريك، فتقول الآية: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

بعد هذا تأتي مرحلة الإيمان بالمعاد والبعث، والإهتمام الخاص الذي يوليه المؤمنون الحقيقيون لهذه القضية، التي تساعدهم عملياً في السيطرة على أعمالهم وأقوالهم، فتقول الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

وبعد شرح الآيات السابقة لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وقد رسمت الآيات السابقة صورة واضحة لصفات هذه القدوة من المؤمنين، فبدأت أوّلاً بالخوف الممتزج بتعظيم الله، وهو الدافع إلى الإيمان به ونفي الشرك عنه، وانتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمة العدل الإلهي، الذي يشكّل الشعور بالمسؤولية، ويدفع الإنسان إلى كل عمل طيّب، فهي تبيّن أربع خصال للمؤمنين ونتيجةً واحدةً. (فتأمّلوا جيداً).

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

بما أنّ خصال المؤمنين هي سبب القيام بالأعمال الخيّرة التي أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأنّ هذه الخصال والقيام بهذه الأعمال لا تتيسّر لكل أحد.

فتجيب أوّل آية ـ من الآيات موضع البحث ـ عن ذلك فتقول: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. وكل إنسان يكلّف حسب عقله وطاقته.

وهذه إشارة إلى أنّ الواجبات الشرعية هي في حدود طاقة الإنسان، وأنّها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، وكما يقول علماء أصول الفقه: إنّ هذه القاعدة حاكمة على جميع الواجبات الشرعية ومقدمة عليها.

وقد يُسأل: كيف يُحاسب كل البشر على أعمالهم كلّها صغيرها وكبيرها؟

فتجيب الآية: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. فهناك صحيفة أعمال الإنسان المحفوظة لدى الله العلي القدير.

ولكون هذه الحقائق مؤثّرة في الواعين من الناس فحسب، أضافت الآية التالية بأنّ هؤلاء الكفار المعاندين غارقون في دوّامة الجهل والغفلة لدرجة أنّهم غافلون عما ينتظرهم من الوعيد: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا﴾.

وتضيف هذه الآية: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾.

المهمّ هو الإنتباه إلى أنّ مصدر الأعمال الشريرة يكمن في إنغمار القلوب في الجهالة.

ولكن هؤلاء المترفين يبقون في هذه الغفلة ما داموا في نعيمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم يصرخون كالوحوش من شدة العذاب الإلهي، كما تقول الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾.

فيخاطبون: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

وتكشف الآية التالية عن سبب هذا المصير المشؤوم: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾. بدلاً من الاستفادة منها والإنتباه للواقع.

«تنكصون»: مشتقة من النكوص، بمعنى السير بشكل معاكس.

«أعقاب»: جمع «عقب» على وزن «فَعِل» وتعني عقب القدم.

وهذه الجملة كناية عن شخص يسمع كلاماً غير مرغوب فيه، فيرتعب لدرجة يسير فيها القهقرى على عقبي قدميه.

ثم إنّه لا يرجع إلى الوراء لمجرد سماعه آيات الله، وإنّما يصبح ممن وصفتهم الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾.

وإضافةً إلى ذلك: ﴿سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾. أي يتسامرون في لياليهم ويتحدثون عن النبي والقرآن بالباطل.

«سامراً»: مشتقة من «سَمَر» على وزن «نصر» بمعنى التحدّث ليلاً.

«تهجرون»: مشتقة من «هَجْر» وتعني بالأصل الابتعاد والانفصال، وقد وردت بمعنى الهذيان الصادر من المريض، لأنّ كلامه في تلك الحالة غير سليم، ويبعث على النفور كما أنّ الهُجر (على وزن كُفر) يعني السباب، وهو أيضاً يبعث على الابتعاد والقطيعة.

وقد جاءت كلمة «تهجرون» في الآية بالمعنى الأخير، فتقول: إنّ المشركين من العرب كانوا يتسامرون حتى ساعات متأخّرة من الليل، وهم يهذون ويكيلون السباب والشتائم كالمرضى.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ
لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ
﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ
أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ
رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

أعذار المنكرين المختلفة: تحدّثت الآيات السابقة عن إعراض الكفار وإستكبارهم إزاء الرسول الأعظمﷺ. وتناولت هذه الآيات أعذارهم في هذا المجال والردّ عليهم، وشرحت الدوافع الحقيقية لإعراض المشركين عن القرآن والرسولﷺ، ويمكن تلخيصها في خمس مراحل:

الأولى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾. فأوّل سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكّر في مضمون دعوة النبيﷺ ولو تفكّروا ملياً لما بقيت مشكلة لديهم.

وفي **المرحلة الثانية** تقول الآية: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. سألت الآية مستنكرةً: أكانت الدعوة إلى التوحيد والمعاد، والهدى إلى الأعمال الصالحة مختصة بهم دون آبائهم الأوّلين، ليحتجّوا بأنّها بدعةٌ، ويقولوا: لماذا لم يبعثه الله للأوّلين، وهو لطيف بعباده؟

ليس لهم ذلك، لأنّ الإسلام من حيث المبادىء له مضمون سائر الرسالات التي حملها الأنبياءﷺ فهذا التبرير غير منطقي ولا معنى له.

وفي المرحلة **الثالثة** تقول الآية: ﴿**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾. أي: إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول ومشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأنّ كلامه حق، إلّا أنّ هذا الرجل مشكوك وغير معروف لدينا، فيحتمل أن نُخدع بكلامه، ولكنّهم يعرفون ماضيك جيّداً، وكانوا يدعونك محمّداً الأمين، ويعترفون بعقلك وعلمك وأمانك، ويعرفون جيّداً والديك وقبيلتك، فلا حجة لهم.

وفي المرحلة **الرابعة** تقول الآية: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ**﴾. أي إنّه مجنون، فبعد إعترافهم بأنّك لست مجهولاً بالنسبة لهم، إلّا أنّهم يشكّكون في سلامة عقلك وينسبونك إلى الجنون، لأنّ ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتّخذوا هذا دليلًا على جنونك.

يقول القرآن المجيد لنفي هذه الحجة: ﴿**بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ**﴾. وكلامه شاهد على هذه الحقيقة، ويضيف: ﴿**وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾.

أجل، إنّ كلمات الرسول راشدة حكيمة، إلّا أنّهم ينكرونها لعدم إنسجامها مع أهوائهم النفسية، فألصقوا به تهمة الجنون في الوقت الذي لا ضرورة في توافق الحق مع رغبات الناس: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**﴾.

لأنّه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافاً إلى أنّها تميل إلى الشر والفساد غالباً.

وتأكيداً لذلك تقول الآية: ﴿**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ**﴾. أي: منحناهم القرآن الذي هو أساس للذكر والتوجه إلى الله، وسبب لرفعتهم وشرفهم، إلّا أنّهم أعرضوا عن هذا المنار الذي يُضيء لهم درب السعادة والشرف.

وفي المرحلة **الخامسة** تقول الآية: هل أنّ عذرهم في فرارهم من الحق هو أنّك تريد منهم أجراً على دعوتك: ﴿**أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾.

والقرآن الكريم بإيضاحه هذه المراحل الخمس برهن على أنّ هؤلاء الحمق (المشركين) لا يرضخون للحق، وأنّ أعذارهم في إنكار الحق أعذار واهية.

وجاءت الآية التالية باستنتاج عام لكل ما مضى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

ورغم أنّ الروايات الإسلامية تفسّر الصراط المستقيم بولاية علي عليه السلام، إلّا أنّها تكشف عن المصداق الأكمل لذلك، ولا تتنافى مع المصاديق الأُخرى كالقرآن والإيمان بالمبدأ والمعاد والتقوى والجهاد والعدل.

وتستعرض الآية التالية النتيجة الطبيعية لهذا الموضوع، فتقول: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾.

«ناكب»: مشتقة من «النكب» و«النكوب» أي الانحراف عن الطريق. «نكبت الدنيا» تقع في مقابل إقبال الدنيا، وتعني إدبار الدنيا وإعراضها عن المرء.

والصراط يقصد به هنا ما في الآية السابقة.

أوضحت الآيات السابقة عدداً من صفات القادة إلى طريق الحق، فهم المعروفون بالصلاح والإستقامة.

ويواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقيدة الحقّة رغم رفض عدد كبير من الناس لهم وحقدهم عليهم.

والصفة الأخرى للأنبياء أنّهم لم يطلبوا أجراً من الناس.

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم
بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ
شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

طرق التوعية الإلهية المختلفة: عرضت الآيات السابقة الحجج التي يتذرّع بها منكرو الحق في رفض الرسالات وإيذاء الأنبياء ﷺ، وتناولت هذه الآيات إتمام الحجة عليهم من قبل الله تعالى وتوعيتهم. فتقول أوّلاً: إنّنا تارةً نشملهم برعايتنا ونرزقهم من وفير النعمة لينتبهوا، ولكن: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

والله تعالى يبتليهم لعلهم يعون حين لا تجدي بهم رحمته سبحانه، لكن طائفة غالبة منهم لم يستيقظوا حتى بالبلاء المذل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

فالله تعالى يواصل هذه الرحمة والنعمة والعقوبات، والمشركون يواصلون طغيانهم وعنادهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[١].

الواقع، أنّ نوعين من العقاب الإلهي: أوّلهما «عقاب الإبتلاء»، وثانيهما «عقاب الإستيصال» والإقتلاع من الجذور، والهدف من العقاب الأوّل وضع الناس في صعوبات وآلام ليدركوا مدى ضعفهم وليتركوا مركب الغرور.

أمّا هدف العقاب الثاني الذي ينزل بالمعاندين المستكبرين فهو إزالتهم عن مجرى الحياة، وتطهيرها من عراقيلهم.

ثم تناول القرآن المجيد القضية من باب آخر، فعدّد النعم الإلهية لدفع الناس إلى الشكر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

والتأكيد على (الأذن والعين والعقل) لأنّها الأجهزة التي بها يتعرف الإنسان على المحسوسات والقضايا، فالأشياء الحسيّة يبلغها بالعين والأذن، والقضايا غير الحسية يدركها بالعقل.

وتناولت الآية اللاحقة خلق الله سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

وبما أنّه ـ جلّ إسمه ـ خلقكم من الأرض، لذلك ستعودون إليها مرّة ثانية، ثم يبعثكم: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ولو فكّرتم في خلقكم من تراب لا قيمة له، لدلّكم على خالق الوجود سبحانه، وعرّفكم على كريم لطفه بكم وإحسانه إليكم، وقادكم إلى الإيمان به وبالمعاد.

وبعد ذكر خلق الإنسان، تناولت الآية المذكورة آنفاً دلائل أُخرى من بديع صنع الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وبهذا الترتيب بدأ البيان القرآني من الدافع لإستيقاظ القلب وإنبعاثه على معرفة ربّه سبحانه وإنتهى بذكر بعض أهمّ الآيات الأنفسية والآفاقية.

---

١. «المبلس»: كلمة مشتقة من «الإبلاس» بمعنى الألم الشديد الناتج عن شدّة أثر الحادثة، وتدفع بالإنسان إلى الصمت والحيرة واليأس.

٢. «ذرأ»: مشتقة من الذرء (على وزن زرع)، وهي في الأصل بمعنى الخلق والإيجاد والإظهار.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ
﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ
هُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ
﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾

دعت الآيات السابقة منكري الله والمعاد إلى التفكر في خلق عالم الوجود وآيات الآفاق والأنفس، وأضافت هذه الآيات أنّ هؤلاء تركوا عقولهم واتبعوا أسلافهم وقلّدوهم تقليداً أعمى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾.

ثم إنّ هؤلاء ملكهم التعجب و: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

إنّ ذلك لا يُصدّق، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ﴾. فكانت وعوداً كاذبة، و﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ولكون الكفار والمشركين أشدّ خوفاً من اليوم الآخر وما فيه من هول الحساب وعدل الكتاب، وسدّدت الآيات موضع البحث إلى هذا المنطق الواهي من ثلاث طرق.

ومما يلفت النظر أنّ القرآن يأخذ من المشركين إعترافاً بكل مسألة، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم. يقول أوّلاً: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم تضيف الآية أنّهم يؤمنون بالله خالق الوجود وفق نداء الفطرة النابع من ذاتهم، وسيجيبونك و: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾. فأجبهم: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. كيف تتصورون إستحالة إحياء الموتى بعد إعترافكم الصريح؟

ثم يأمر رسوله مرّة ثانية أن يسألهم: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

فيأتي الجواب نابعاً من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي الإعتراف بربوبيته تعالى

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾. وبعد هذا الإعتراف الواضح فلماذا لا تخافون الله، ولا تعترفون بالمعاد وبعث الإنسان مرّة ثانية: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

واسألهم مرّة أُخرى عن سيادة الله على السماوات والأرض: ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. ومن الذي يجير اللاجئين وجميع المحرومين ولا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فيعترفون بأنّ العالم ومالكيته وحكومته وإجارة الآخرين يعود لله فقط: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.

﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾. أي: كيف تقولون: إنّ الرسول ﷺ سحركم رغم كل هذا الإعتراف والإقرار منكم؟!

وأخيراً يقول القرآن في عبارة مختصرة ذات دلالة كبيرة بأنّه ليس سحراً ولا شعبذة ولا شيء آخر: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

«الأساطير»: جمع «أُسطورة». قال بعض اللغويين: إنّها مشتقة من «السطر» بمعنى الصفّ، فيطلق على الكلمات التي إصطفّت في خطّ واحد لفظ السطر. فالأُسطورة: الكتابة أو السطور التي تركها لنا الآخرون، ولأنّ كتابات القدماء تحتوي على أساطير خرافية، تطلق الأساطير على الحكايات والقصص الخرافية الكاذبة. وقد تكرّرت كلمة الأساطير في القرآن المجيد تسع مرّات، وجميعها جاء على لسان الكفار لتوجيه مخالفتهم لأنبياء الله تعالى.

«الملكوت»: مشتقة من «المُلك» (على وزن كُفر)، بمعنى الحكومة والمالكية.

«العرش»: يعني السرير ذا القوائم العالية، ويطلق أحياناً على السقف وشبهه، وعندما تتعلق هذه الكلمة بالله سبحانه، فإنّها تعني عالم الوجود كلّه.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

الشرك يجرّ العالم نحو الدمار: تناولت الآيات السابقة بحوثاً في المعاد والملك والحكم والربوبية، أمّا هذه الآيات فقد تناولت نفي الشرك، وإستعرضت جانباً من إنحرافات المشركين، وردّتها عليهم بالأدلة الساطعة، قائلة: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

إنّ المسيحيين يرون النبي عيسى عليه السلام إبناً لله، والمشركون يرون الملائكة بنات لله، وهذا أوضح مظهر للشرك.

ثم بيّنت الآية بطلان الشرك: أنّه لو كان هناك آلهة متعدّدة تحكم العالم، فسيكون لكل إله مخلوقاته الخاصة به يحكم عليها ويدبّر أُمورها.

وسيكون تبعاً لذلك أنظمة متعددة للعالم، لأنّ كل واحد من الآلهة يدير منطقته بنظام خاص: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾. وهذا ينافي وحدة النظام الحاكم في هذا العالم.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وهذه نتيجة محتومة لكل صراع، إذ يسعى كل طرف فيه لغلبة الآخرين والهيمنة عليهم، وهذا سيكون بذاته سبباً آخر لتفكّك النظام الموحد السائد في العالم.

وجاء في ختام الآية تقديس لله سبحانه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

والآية التالية تردّ على المشركين المغالطين فتقول: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾. أي: إنّ الله يعلم ظاهر الأشياء وباطنها، فكيف تتصورون وجود إله آخر تعرفونه أنتم ولا يعرفه الربّ الذي خلقكم والذي يعلم الغيب والشهادة في هذا العالم؟

وبهذه العبارة يبطل تصوراتهم الخرافية: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وختام هذه الآية يشبه ختام الآية (١٨) من سورة يونس، كما أنّ هذه العبارة تهديد موجّه للمشركين بأنّ الله الذي يعلم السرّ والعلن، يعلم ما تقولونه، وسيحاسبكم عليه يوم القيامة في محكمته العادلة.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾
وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

مع مخاطبة هذه الآيات للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، واصلت مقاصد الآيات السابقة في تهديد الكفار والمشركين المعاندين بأنواع العذاب الإلهي: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والمراد بهذا العذاب أنّه العقاب الدنيوي الذي ابتلى الله به المشركين.

وتأكيداً لهذا الموضوع ولنفي كل شك لدى الأعداء، ولتسلية خاطر الرسول ﷺ والمؤمنين، أضافت الآية اللاحقة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾.

ولقد تجلّت قدرة الله سبحانه في ساحات مختلفة بعد ذلك.

ثم يأمر الله الرسول ﷺ باتباع سياسة اللين في الدعوة إلى الهدى ودين الحق: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[١]. أي: ادفع عدوانهم وسيئاتهم بالعفو والصفح والإحسان، وكلامهم البذيّ بالكلام المنطقي الموزون: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾. والله يعلم أنّ أعمالهم القبيحة وكلامهم البذيء وأذاهم القاسي يؤلم الرسول ﷺ، إلّا أنّه عزّ وجل يدعو إلى عدم الردّ بالمثل، بل يوجب أن يكون الردّ بالتي هي أحسن. وهذا خير سبيل لإيقاظ الغافلين والمخدوعين.

ثم نقرأ أمراً ربّانياً بالإستعاذة بالله من مكائد الشيطان: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. إنّه دعاء بالإنقاذ من تربّص الشيطان ومكره الخفي، ولا يقف الدعاء عند همزات الشياطين بل يستمر في الإستعاذة من حضورهم عنده: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾. أي: حضور الشياطين في اجتماعات النبي ﷺ الذي يؤدّي إلى إغفال المجتمعين وإضلالهم، فعلى محبّي الحق والذابّين عنه وناشديه أن يفوّضوا أمرهم إلى الله، ليحفظهم من وساوس الشياطين ومكائدهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

طلب المستحيل: تابعت هاتان الآيتان ما تناولته الآيات السابقة من عناد المشركين والمذنبين وتمسكهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخيم حين الموت. وأنّهم يستمرون في باطلهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

حينما يجبر المذنب والمشرك على ترك الدنيا لينتقل إلى عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة والغرور، فيرى بأم عينه مصيره المؤلم، فلا مال ولا جاه، فقد عاد كل ما يعنيه هباءً في

---

١. والجدير بالذكر أنّ هذا الأمر خاصّ بحالات لا يسيء العدو الاستفادة من هذا المبدأ.

هباءٍ، وهو يشاهد اليوم عاقبة أمره، وما إرتكبه من ذنوب ومعاص، فيرتفع صراخه وعويله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾.

ارجعني يا ربّ ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾. ولكن قانون الخلق العادل لا يسمح بمثل هذه العودة، لا يسمح بعودة الصالح ولا الطالح، فيأتيه النداء الدامغ ﴿كَلَّآ﴾.

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾. كلام لم يصدر من أعماقه، ومتى هدأت العاصفة بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبيحة.

وتشير الآية في نهايتها إلى عالم البرزخ الغامض بعبارة قصيرة ذات دلالة كبيرة ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

جانب من عقاب المسيئين: تحدّثت الآيات السابقة عن عالم البرزخ، وأعقبتها آيات تناولت القيامة بالبحث، وتناولت كذلك جانباً من وضع المذنبين في عالم الآخرة. فهي تقول أوّلاً: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

من المعلوم ـ بالإستناد إلى آيات القرآن الكريم ـ أنّ النفخ في الصور يجري مرتين: أُوليهما في نهاية هذا العالم، حيث يموت مَن في الأرض والسماوات، وفي ثانيتهما يبدأ بعث من في القبور ليعودوا لحياة جديدة وليستعدّوا للحساب والجزاء.

إنّ الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

أُوليهما: إنتهاء مسألة النسب، لأنّ رابطة الأُسرة والقبيلة التي تسود حياة الناس في هذا العالم تؤدّي في كثير من الحالات إلى نجاة المذنبين من العقاب، إذ يستنجدون بأقربائهم في حلّ مشاكلهم، أمّا الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كل إنسان وعمله. فلا معين له، ولا

---

١. «البرزخ»: في الأصل الشيء الذي يقع حائلاً بين شيئين، ثم استعملت لكل ما يقع بين أمرين، ولهذا أتت كلمة البرزخ للدلالة على عالم يقع بين عالم الدنيا والآخرة.

نفع في ولده، أو أخيه، أو والده.

وثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهي، هو يوم كما اطّلعنا عليه في مطلع سورة الحج: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

وبعد وقوع القيامة تبدأ مرحلة الحساب وقياس الأعمال بميزان خاص بيوم القيامة: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

«الموازين»: جمع «ميزان» وهو وسيلة للقياس، وكما ورد في الأحاديث المختلفة أنّه ميزان تقاس به الأعمال والناس، وهم قادة الإسلام الكبار، في الحديث: «إنّ أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين»[1].

وعلى هذا فإنّ الرسل وأوصياءهم هم الذين يقاس الناس وأعمالهم بهم، ليتبيّن إلى أيّ درجة يشبهونهم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾. وهم الذين فقدوا الإيمان والعمل الصالح، فوزنهم خفيف يوم القيامة لأنّهم خسروا رأسمال وجودهم: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾.

عبارة ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ تصريح بحقيقة خسران المذنبين لأكبر رأسمال لهم ـ أي وجودهم ـ في سوق تجارة الدنيا دون أن يحصلوا على مقابل.

وتشرح الآية التالية عذابهم الأليم: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾. ألسنة النار ولهيبها المحرق تضرب وجوههم كضرب السيف، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ وهم من شدة الألم وعذاب النار، في عبوس واكفهرار.

«تلفح»: تعني في الأصل ضربة السيف، وقد وردت هنا كناية، لأنّ لهيب النار، أو نور الشمس المحرقة، وريح السموم، تضرب وجه الإنسان كضرب السيف.

«كالح»: بمعنى التعبيس واكفهرار الوجه.

---

١. بحار الأنوار ٢٥٢/٧.

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ
﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ
ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ
ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

تحدثت الآيات السابقة عن العذاب الأليم لأهل النار، وتناولت الآيات ـ موضع البحث ـ إستعراض جانب من كلام الله مع أهل النار، إذ خاطبهم سبحانه وتعالى بعتاب: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وهم يعترفون في ردّهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾.

«الشقوة» و«الشقاوة»: نقيض السعادة، وتعني توفّر وسائل العقاب والبلاء. أو بتعبير آخر: هي الشر والبلاء الذي يصيب الإنسان.

ولعلّهم في إعترافهم هذا يودّون نيل رضى الله ورحمته، لهذا يضيفون مباشرةً: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾. يقولون ذلك وكأنّهم لا يعلمون أنّ القيامة دار جزاء وليست دار عمل، وأنّ العودة إلى الدنيا أمر محال.

لهذا يردّهم الله سبحانه وتعالى بقوة: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

وعبارة «اخسؤا» التي هي فعل أمر، تستعمل لطرد الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنّها تعني تحقيره ومعاقبته.

ثم يبيّن الله عزّ وجل دليل ذلك بقوله: هل نسيتم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. ولكنّكم كنتم تستهزئون بهم إلى درجة أنّ كثرة الإستهزاء والسخرية منهم أنساكم ذكري: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. وأمّا أنتم فقد إبتليتم بأسوأ حالة، وبأكثر العذاب ألماً، ولا ينجدكم أحد من مصيركم الذي تستحقونه.

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ
﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ
عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

الدنيا وعمرها القصير: بما أنّ الآيات السابقة تناولت جانباً من عذاب أهل النار الأليم، عقّبت الآيات ـ موضع البحث ـ ذلك بذكر نوع آخر من العذاب، هو العذاب النفسي الموجه من قبل الله تعالى لأهل النار للإستهانة بهم. تقول الآية الأولى: **﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾**. يخاطبهم سبحانه وتعالى يوم القيامة قائلًا: كم سنة عشتم فوق الأرض؟

إلّا أنّهم يرون في هذه المقارنة أنّ الدنيا قصيرة جدّاً: **﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾**.

والحقيقة أنّ الأعمار الطويلة في الدنيا كسحابة صيف لو قارناها بحياة الآخرة، حيث النعم الخالدة والعقاب غير المحدود.

وللتأكيد أو للردّ بدقة قالوا: **﴿فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾**. أي: ربّاه اسأل الذين يعرفون أن يعدّوا الأعداد ويحسبوها بدقة حين مقارنة بعضها مع بعض.

وهنا يؤنّبهم الله ويستهزىء بهم: **﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**.

وإستعملت الآية أُسلوباً مؤثراً آخر لإيقاظ هذه الفئة وتعليمها: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾**.

هذه العبارة الموجزة والعميقة تبيّن واحداً من أقوى الأدلّة على البعث وحساب الأعمال والجزاء، وتعني أنّ الحياة الدنيا تصبح عبثاً إن لم تكن القيامة والمعاد، فالدنيا بما فيها من مشاكل وما وضع فيها الله من مناهج ومسؤوليات وبرامج، تكون عبثاً وبلا معنى إن كانت لأيّام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك في المسائل الآتية.

وبما أنّ عدم عبثيّة الخلق أمر مهم يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآية: **﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾**.

وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

المفلحون والخائبون: بما أنّ الآيات السابقة تحدثت عن قضية المعاد، واستعرضت الصفات الإلهية، فإنّ الآية الأُولى أعلاه تناولت التوحيد نافيةً الشرك مؤكّدة للمبدأ والمعاد في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ**﴾.

أجل، إنّ المشركين ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلته وإشراق حقيقته، ويقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه.

وفي النهاية تقول الآية: ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾.

ما أجمل بداية هذه السورة ﴿**قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ وما أجمل نهايتها المؤكّدة لبدايتها: ﴿**لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ هذه هي صورة جامعة لحياة المؤمنين والكافرين من البداية إلى النهاية.

وختمت السورة بهذه الآية الشريفة كاستنتاج عام بأن وجّهت الكلام إلى الرسول ﷺ: ﴿**وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾.

والآن وقد إختارت فئة الشرك سبيلاً، وجارت فئة أُخرى وظلمت، فأنت أيّها الرسول ومن معك تدعون الله ربّكم أن يغفر لكم ويرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

«نهاية تفسير سورة المؤمنون»

٢٤

سورة النّور

وهي اربع وستون آية

مدنية

محتوى السورة: يمكن اعتبار هذه السورة خاصة بالطهارة والعفة، وكفاح الإنحطاط الخلقي، والقرآن الكريم يحقق هذا الهدف عبر مراحل، هي:

١ـ بيان العقاب الشديد للمرأة الزانية والرجل الزاني، وهو ما ورد حاسماً في الآية الثانية من هذه السورة.

٢ـ بيان حد الزنا الذي لا تنبغي إقامته إلّا بشروط مشدّدة للغاية.

ثم طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفك، وما فيه من إتهام إحدى نساء النبي ﷺ.

٣ـ وتناولت الآية أحد السبل المهمة لاجتناب التدهور الأخلاقي، من أجل ألا يتصور أنّ الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.

فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، وحجاب المرأة المسلمة، لأنّ أحد أسباب الانحراف الجنسي المهمة ناجم عن هاتين المسألتين.

٤ـ وكخطوة للنجاة من التلوث بما يخلّ بالشرف، دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكاليف.

٥ـ وبيّنت الآيات جانباً من آداب المعاملة، ومبادىء تربية الأولاد.

٦ـ وجاء ذكر مسائل خاصة بالتوحيد والمبدأ والمعاد والإمتثال لتعاليم النبي ﷺ. كل ذلك خلال البحوث المطروحة.

وتطرقت بحوث هذه الآيات إلى حكومة المؤمنين الصالحين العالمية.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حصّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور وحصّنوا بها نساءكم، فإنّ من أدمن قراءتها في كل ليلة أو في كل يوم لم يزن أحد من أهل بيته أبداً حتى يموت. فإذا مات شيعه إلى قبره سبعون ألف ملك، يدعون ويستغفرون الله له حتى يدخل إلى قبره».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

حدّ الزاني والزانية: سمّيت هذه السورة بالنور لأنّ آية النور فيها من أهم آياتها، وأُولى آيات هذه السورة المباركة بمثابة إشارة إلى مجمل بحوث السورة: **﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**.

إنّ «سورة» بناء جميل مرتفع، وهذه الكلمة تطلق أيضاً على قسم من بناء كبير، وتطلق السورة على أقسام القرآن المختلفة المفصولة بعضها عن بعض.

إنّ هذه العبارة إشارة إلى كون أحكام ومواضيع هذه السورة ـ من اعتقادات وآداب وأوامر إلهية ـ ذات أهمية فائقة، لأنّها كلها من الله.

وبعد هذا الإستعراض العام، تناولت السورة أوّل حكم حاسم للزاني والزانية: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾**. ولتأكيد هذا الحكم قالت: **﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾**.

وأشارت الآية في نهايتها إلى مسألة أُخرى لإكمال الاستنتاج من العذاب الإلهي **﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

وتشتمل هذه الآية على ثلاثة تعاليم:

١ـ الحكم بمعاقبة النساء والرجال الذين يمارسون الزنا.

٢ـ إقامة هذا الحكم الإلهي بعيداً عن الرأفة بمن يقام عليه.

٣ـ أوجب الله حضور عدد من المؤمنين في ساحة معاقبة الزناة ليتعظ الناس بما يرون من إقامة حكم الله العادل على المذنبين.

وبعد بيان حدّ الزنا، جاء بيان حكم الزواج من هؤلاء في الآية الثالثة كما يلي: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ الآية تبيّن واقعة ملموسة، فالمنحطون يختارون المنحطات، وكذلك يفعلن هنّ في اختيارهن، بينما يَسْمو المتطهّرون المؤمنون عن ذلك. كما تبيّن في هذه العبارة حكماً شرعياً وأمراً إلهياً يمنع المؤمنين من الزواج مع الزانيات، ويمنع المؤمنات من الزواج مع الزناة، لأنّ الانحرافات الأخلاقية كالأمراض الجسمية المعدية في الغالب.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

عقوبة البهتان: قد يستغلّ المعترضون ما نصّت عليه الآيات السابقة من عقوبات شديدة للزاني والزانية فيسيئون للمتطهّرين، فبيّنت الآيات اللاحقة هنا عقوبات شديدة للذين يرمون المحصنات. تقول الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾[1]. فالأشخاص الذين يتّهمون النساء العفيفات بعمل ينافي العفة (أي: الزنا)، ولم يأتوا بأربعة شهود عدول لإثبات إدعائهم. فحكمهم: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾. وتضيف الآية حكمين أخرين: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

«القذف»: إذا جرى بلفظ صريح، وبأيّ لغة وأيّة صورة فحدّه هو ثمانون جلدة، وإذا لم يكن صريحاً فيعزّر القاذف.

وهذا التشديد في الحكم المشرّع لحفظ الشرف والطهارة، ليس خاصاً بهذه المسألة، ففي كثير من التعاليم الإسلامية نراه ماثلاً أمامنا.

---

١. «الرّمي» في الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر وأمثالهما، وقد استخدمت الكلمة هنا كناية عن اتّهام الأشخاص وسبابهم ووصفهم بما لا يليق.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا اتّهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء».

ولكن المولى العزيز الحكيم سبحانه وتعالى لا يسدّ باب رحمته في وجه التائبين، الذين تابوا من ذنوبهم وطهّروا أنفسهم، وندموا على ما فرّطوا، وسعوا في تعويض ما فاتهم من البرّ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فمعنى ذلك قبول شهادتهم بعد التوبة وإزالته الحكم بفسقهم.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس، قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد يفخّذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت فإنّ في ظهري لثمانين جلدة.

وبنزول الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكلة.

التّفسير

عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة: يستنتج من سبب النّزول أنّ هذه الآيات في حكم الإستثناء الوارد على حدّ القذف، فلا يُطبق حدّ القذف (ثمانين جلدة) على زوج يتّهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، وتقبل شهادته لوحدها ويمكن في هذه الحالة أن يكون صادقاً كما يمكن أن يكون كاذباً في شهادته وهنا يقدم القرآن المجيد حلّاً أمثل هو: على الزوج أن يشهد أربع مرات على صدق إدّعائه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ

شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

وبهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة: «أشهد بالله إنّي لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا». أربع مرات لإثبات إدعائه من جهة، وليدفع عن نفسه حدّ القذف من جهة أُخرى.

ويقول في الخامسة: «لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين».

وهنا تقف المرأة على مفترق طريقين، فإمّا أن تقرّ بالتهمة التي وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية.

ففي الحالة الأُولى تثبت التهمة؛ وفي الثانية: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وبهذا الترتيب تشهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس ـ أيضاً ـ لتنفي التهمة عنها بأن تكرر أربع شهادات: «أشهد بالله إنّه لمن الكاذبين فيما رماني من الزنا». وفي الخامسة تقول: «أنّ غضب الله عليّ إن كان من الصادقين».

وهذه الشهادات منهما هي ما يسمّى بـ«اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن في الشهادة.

وليترتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية.

أوّلها: انفصالهما دون طلاق.

وثانيها: تحرم الزوج على الزوجة إلى الأبد، أي لا يمكنهما العودة إلى الحياة الزوجية معاً بعقد جديد.

وثالثها: سقوط حدّ القذف عن الرجل، وحد الزنا عن المرأة.

ورابعها: الطفل الذي يولد بعد هذه القضية لا ينسب إلى الرجل، وتحفظ نسبته للمرأة فقط.

ولم ترد تفاصيل الحكم السابق في الآيات المذكورة أعلاه، وإنّما جاء في آخر الآية موضع البحث: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

فهذه الآية إشارة إجمالية إلى تأكيد الأحكام السابقة، لأنّها تدل على أنّ اللعان فضل من الله، إذ يحل المشكلة التي يواجهها الزوجان، بشكل صحيح.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ
مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾
لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى
مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم
بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ
لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

حديث الإفك المثير: يستفاد من مجموع الآيات هو أنّه قد اتهم شخص بريء بعمل مخلّ بالعفة والشرف حين نزول هذه الآيات، وأنّ الشائعات كانت منتشرة في المدينة، وأنّ مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الاخلال بالمجتمع الإسلامي إلى أخسّ السبل لتلويث سمعة النبي ﷺ والحط من شأنه المقدس لدى الناس، بترويجهم هذه الشائعة، فنزلت هذه الآيات، وتصدّت لهذه الحادثة بقوة، ودفعت المنحرفين والمنافقين الحاقدين إلى جحورهم. وهذه الأحكام نافذة في كل بيئة وزمان. تقول أوّل آية من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾.

«الإفك»: على وزن «فكر» يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذي يحق له أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب «مؤتفكة»، ثم أُطلقت على كل كلام منحرف عن الحق ومجانب للصواب، ومن ذلك يطلق على الكذب «إفك».

و«العُصبة»: على وزن «فُعْلَة» مشتقة من العَصَبْ، وجمعها أعصاب، وهي التي تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، وعلى شكل شبكة منتشرة في الجسم، ثم أطلقت كلمة «عصبة» على مجموعة من الناس متحدة وذات عقيدة واحدة.

واستخدام هذه الكلمة يكشف عن الإرتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين في ترويج حديث الإفك، حيث كانوا يشكّلون شبكة قوية منسجمة ومستعدة لتنفيذ المؤامرات.

إنّ القرآن طمأن وهدأ روع المؤمنين الذين آلمهم توجيه هذه التهمة إلى شخصية متطهرة: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لأنّه كشف عن حقيقة عدد من الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء.

ولو لم تكن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، ولكانوا أكثر خطراً على المسلمين.

إنّ هذا الحادث علّم المسلمين أنّ اتّباع الذين يروّجون الشائعات يجرّهم إلى الشقاء، وأنّ عليهم أن يقفوا بقوّة أمام هذا العمل.

ثم تعقب هذه الآية بذكر مسألتين:

أوليها: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾. إشارة إلى أنّ المسؤولية الكبرى التي تقع على عاتق كبار المذنبين لا تحول دون تحمل الآخرين لجزء من هذه المسؤولية، ولهذا يتحمل كل شخص مسؤوليته إزاء أية مؤامرة.

والمسألة الثانية: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقائد هذه المجموعة سيعاقب عقاباً عظيماً لكبر ذنبه.

ثم توجّهت الآية التالية إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلامتهم بشدّة: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

أي: لماذا لم تقفوا في وجه المنافقين بقوة، بل استمعتم إلى أقوالهم التي مسّت مؤمنين آخرين كانوا بمنزلة أنفسكم منكم. ولماذا لم تدفعوا هذه التهمة وتقولوا بأنّ هذا الكلام كذب وافتراء: ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

أنكم كنتم تعرفون جيداً الماضي القبيح لهذه المجموعة من المنافقين.

ثم تهتم الآيات بالجانب القضائي للمسألة فتقول: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾. أي لماذا لم تطلبوا منهم الإتيان بأربعة شهود. ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

إنّ هذه الملامة تبيّن أنّ الحكم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، وكذلك، حدّ القذف في حالة عدمه قد نزل قبل الآيات التي تناولت حديث الإفك.

وأخيراً جمعت الآية التالية هذه الملامات، فقالت: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ونظراً لأن «أفضتم» مشتقة من الإفاضة، بمعنى خروج الماء بكثرة، واستعملت في حالات أُخرى للتوغل في الماء، نتج من هذه العبارة أنّ شائعة الإتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافاً إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

وتبيّن الآية التالية البحث السابق وهو كيف ابتلي المؤمنون بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم، فتقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾. أي تذكّروا كيف رحّبتم بهذه التهمة الباطلة فتناقلتموها: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وتشير هذه الآية إلى ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظيمة في هذا المجال:

الأوّل: تَقبُّل الشائعة: استقبالها وتناقلها.

الثاني: نشر الشائعة دون أي تحقيق أو علم بصدقها.

الثالث: استصغار الشائعة واعتبارها وسيلة للهو وقضاء الوقت. في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام قال: «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه».

ونظراً لهول هذه الحادثة التي استصغرها بعض المسلمين، أكدتها الآية ثانية، فأنّبتهم مرّة أُخرى ولذعتهم بعباراتها إذ قالت: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

وسبق لهذه الآية أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنّهم بالذي وجه إليه الإتهام باطلًا. وهنا تقول الآية: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، ولا تتناولوا التهمة الموجهة إليه، فكيف بكم وقد كنتم سبباً لنشرها.

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

حرمة إشاعة الفحشاء: تحدثت هذه الآيات أيضاً عن حديث الإفك، والنتائج المشؤومة والأليمة لاختلاق الشائعات ونشرها، فذكر أوّلًا: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾. أي أنّ من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، والجملة المذكورة تشكل أحد

أركان التوبة، إذ أنّ الندم على الماضي لا يكفي، بل يجب التصميم على عدم تكرار ارتكاب الذنوب في المستقبل، لتكون توبة كاملة.

وللتأكيد أكثر على أنّ هذا الكلام ليس اعتيادياً، بل صادر عن الله العليم الحكيم، ولبيان الحقائق ذات الأثر الفعال في مصير الإنسان، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فهو يعلم حاجاتكم وما يضرّكم وما ينفعكم بمقتضى علمه الواسع، ويصدر أحكامه وأوامره المتناسبة لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

ولتثبيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

ولجملة (تشيع الفاحشة) مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد في نشر الفحشاء والمنكر.

وتختم الآية بالقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. إنّه يعلم الذين يبيتون في قلوبهم حب هذا الذنب، ويعلم الذين يمارسونه تحت واجهات خداعة، أمّا أنتم فلا تعلمون ذلك ولا تدركونه.

وكررت الآية الأخيرة ـ مما نحن بصدده من الآيات التي تناولت حديث الإفك ومكافحة إشاعة الفحشاء، وقذف المؤمنين المتطهرين ـ هذه الحقيقة لتؤكّد القول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن
يُؤْتُوٓا أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا
أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ
ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُولَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

على الرغم من عدم متابعة هذه الآيات حديث الإفك بصراحة، إلّا أنّها تعتبر مكملة لمضمون ذلك البحث، وتحذّر المؤمنين جميعاً من تأثير الأفكار الشيطانية فعلى هذا حينما يشعر الفرد بأوّل وسوسة شيطانية بإشاعة الفحشاء أو إرتكاب أي ذنب آخر فيجب التصدي له بقوة حاسمة، حتى يمنع من انتشاره وتوسّعه.

وتخاطب الآية الأُولى المؤمنين، فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

وحيث لا يمكن جرّ أي إنسان مؤمن متطهر مرّة واحدة إلى الفساد، فإنّ ذلك يتمّ خطوة بعد أُخرى في طريق الفساد.

وأخيراً الإبتلاء بالكبائر، وهذه معنى جملة ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

ثم تشير الآية إلى أهم النعم الكبيرة التي منّ الله بها على الإنسان في هدايته فتقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا شك في أنّ الفضل والرحمة الإلهية ينقذان الإنسان من الإنحطاط والانحراف من الذنوب جميعاً، فالله منحه العقل، ولطف به فأرسل إليه الرسل، ويسّر له سبل الإرتقاء والإهتداء، وأعانه على استكمال الخير، وإضافة إلى هذه المواهب شمل الله الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصّة، وإمداداته التي يستحقونها، والتي تعتبر أهم عنصر في تطهير وتزكية النفس.

وذكر عدد من المفسرين ـ ومنهم الطبرسي في المجمع ـ سبباً لنزول الآية الثانية ـ من الآيات موضع البحث ـ يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقة، قال: نزلت في جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلّم بشيء من الإفك ولا يواسوهم. فنزلت هذه الآية لتمنعهم من ردّ فعل قاس، وأمرتهم بالعفو والسماح.

نعود الآن إلى تفسير الآية بملاحظة سبب النزول هذا. يقول القرآن: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

إنّ هذا التعبير يكشف أنّ عدداً ممن تورّط في قضية الإفك كانوا من المهاجرين في سبيل الله إذ خدعهم المنافقون، ولم يجز الله طردهم من المجتمع الإسلامي لماضيهم المجيد، كما لم يسمح بعقابهم أكثر مما يستحقونه.

«يأتل»: مشتقة من «أليّة» أي اليمين.

ثم تضيف الآية: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾. لتشجيع المسلمين وترغيبهم في العفو والصفح بقولها: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. فإنّكم مثلما تأملون من الله العفو عنكم وأن يغفر خطاياكم، يجب عليكم العفو والصفح عن الآخرين: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وترسم هذه الآيات صورة للتعادل الإسلامي في جذبه ودفعه، وتشكل آيات الإفك والعقوبات الشديدة التي تفرض على الذين يتهمون الآخرين في شرفهم «قوة الدفع». وأمّا الآية موضع البحث التي تتحدث عن العفو والصفح وكون الله غفوراً رحيماً. فإنّها تكشف عن «قوة الجذب».

ثم تعود الآية إلى قضية القذف واتّهام النساء العفيفات المؤمنات في شرفهن، فتقول بشكل حازم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

في تفسير الميزان: هذه الآية أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإنّ كلّاً من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلماً والرامي ظالماً والمرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، وجزاؤه اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم[1].

والمراد من «الغافلات» أنّهن لا يعلمن بما ينسب إليهنّ من بهتان في الخارج، ولهذا لسن في صدد الدفاع عن أنفسهن، وفي النتيجة فإنّ الآية تطرح موضوعاً جديداً للبحث، لأنّ الآيات السابقة تحدثت عن مثيري التهم الذين يمكن التعرف عليهم ومعاقبتهم. إلّا أنّ الحديث هنا يدور حول مثيري الشايعات الذين أخفوا أنفسهم عن العقاب والحد الشرعي، فتقول الآية: إنّ الله تعالى سيبعدهم عن رحمته في هذه الدنيا، كما ينتظرهم العذاب العظيم في الآخرة.

وتحدد الآية التالية وضع الذين يتهمون الناس بالباطل في ساحة العدل الإلهي، قائلة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

تدور ألسنتهم بما لا تشتهي أنفسهم لتستعرض الحقائق.

---

١. الميزان في تفسير القرآن ١٥/ ٩٤.

وتشهد أيديهم وأرجلهم، وكما ذكرت الآيات القرآنية: تنطق جلودهم، حقاً إنّه يوم البروز والإفتضاح، ويوم تنكشف فيه السرائر.

ثم تقول الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾. واستناداً إلى هذا الدليل أيضاً ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم: بيّنت هذه الآيات جانباً من أدب المعاشرة، والتعاليم الإسلامية الاجتماعية التي لها علاقة وثيقة بقضايا عامة حول حفظ العفة، حيث تقول أوّلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وبهذا الترتيب عندما تعزمون على الدخول لابدّ من إخبار أصحاب البيت بذلك ونيل موافقتهم.

يجب أن يكون محيط المنزل آمناً إلى حدّ كاف؛ حتى أنّ جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان وتعاقب عليه. ونصّت الأحكام الإسلامية على تعاليم وآداب خاصة في هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلّا نادراً.

روى ـ في التفسير الكبير ـ أنّ أبا سعيد الخدري استأذن على الرسول ﷺ وهو مستقبل الباب فقال: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب».

وفي الدرّ المنثور عن عبدالله بن بشر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم السلام عليكم».

ومما يلفت النظر في هذا الحكم الذي يتصف بأبعاد إنسانية وعاطفية واضحة، مرافقة لجملتين، أولاها: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وثانيتهما: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وأردف القرآن هذا الحكم بجملة اُخرى في الآية التالية: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

قد يكون المراد من هذه العبارة أنّه ربّما كان في المنزل أحد، ولكن من لديه حق إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففي هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

ثم تضيف الآية: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

إشارة إلى أنّه لا لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالدخول، فلعل صاحب المنزل في وضع غير مريح، أو أنّ منزله لم يهيأ لاستقبال الضيوف.

وبما أنّ بعض الناس قد يدفعهم حبّ الإطلاع والفضول حين رفضهم استقباله على استراق السمع، أو التجسس من ثقب الباب لكشف خفايا أهل المنزل وليطلع على أسرارهم، لهذا قالت الآية: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وبما أنّ لكل حكم استثناءً لرفع المشكلات والضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.

وتضيف في الختام: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. ولعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرّع بأنّ المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعاً بعدم علمه بأنّها مسكونة، إلّا أنّ الله يعلم بكل هذه الأعمال، ويعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ
أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ
الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ
مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

سبب النّزول

في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «استقبل شابٌ من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنّعن خلف آذانهن، فنظر إليها وهي مقبلة. فلما جازت نظر إليها ودخل في زقاق قد سمّاه ببني فلان، فجعل ينظر خلفها واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه. فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على صدره وثوبه، فقال: والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله ولأخبرنّه». قال: «فأتاه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآية: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾».

التّفسير

مكافحة السفور وخائنة الأعين: قلنا في البداية: إنّ هذه السورة اختصت بالعفة والطهارة وتطهير الناس من جميع الانحرافات الجنسية، ولا يخفى على أحد إرتباط هذا البحث بالبحوث الخاصة بالقذف. تقول الآية أوّلاً: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾. «يغضوا»: مشتقة من «غضّ» من باب «ردّ» وتعني في الأصل التنقيص، لهذا لم تأمر الآية أن يغمض المؤمنون عيونهم، بل أمرت أن يغضّوا من نظرهم.

إنّ الإسلام نهى عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسية والشهوات، لأنّ ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾. كما نصّت عليه الآية ـ موضع البحث ـ في ختامها.

ثم تحذر الآية أُولئك الذين ينظرون بشهوة إلى غير محارمهم، ويبررون عملهم هذا بأنّه غير متعمّد، فتقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وتناولت الآية التالية شرح واجبات النساء في هذا المجال، فأشارت أوّلاً إلى الواجبات التي تشابه ما على الرجال، فتقول: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

وبهذا حرم الله النظر بريبة على النساء أيضاً مثلما حرّمه على الرجال، وفرض تغطية فروجهنّ عن أنظار الرجال والنساء مثلما جعل ذلك واجباً على الرجال.

ثم أشارت الآية إلى مسألة الحجاب في ثلاث جمل:

أ) ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهنّ المخفية، وإن كانت لا تُظهر أجسامهنّ، أي لا يجوز لهنّ الكشف عن لباس يتزيّنّ به تحت اللباس

العادي أو العباءة، بنص القرآن الذي نهاهن عن ذلك.

ب) وثاني حكم ذكرته الآية هو: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾. «خُمُر»: جمع «خِمار» في الأصل تعني «الغطاء»، إلّا أنّه يطلق بصورة اعتيادية على الشيء الذي تستخدمه النسوة لتغطية رؤوسهنّ؛ و«الجيوب»: جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقة القميص، وأحياناً يطلق على الجزء الذي يحيط بأعلى الصدر لمجاورته الياقة.

ويستنتج من هذه الآية أنّ النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهن أو خلف الرأس بشكل يكشفن فيه عن الرقبة وجانباً من الصدر، فأمرهن القرآن برمي أطراف الخمار حول أعناقهن؛ أي فوق ياقة القميص ليسترن بذلك الرقبة والجزء المكشوف من الصدر.

ج) وتشرح الآية في حكمها الثالث الحالات التي يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهن وإظهار زينتهن، فتقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾.

١ـ ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

٢ـ ﴿أَوْ ءَابَائِهِنَّ﴾.

٣ـ ﴿أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾.

٤ـ ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾.

٥ـ ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾.

٦ـ ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾.

٧ـ ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾.

٨ـ ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾.

٩ـ ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾.

١٠ـ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾.

١١ـ ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾. أي: الرجال الذين لا رغبة جنسية عندهم أصلًا بالعنن أو بمرض غيره.

١٢ـ ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

د) وتبيّن الآية رابع الأحكام فتقول: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. أي: على النساء أن يتحفظن عفتهنّ.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ويجب أن يراقبن تصرفهن بشدة بحيث لا يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم.

وانتهت الآية بدعوة جميع المؤمنين رجالاً ونساءً إلى التوبة والعودة إلى الله ليفلحوا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وتوبوا أيّها الناس مما ارتكبتم من ذنوب في هذا المجال، بعدما اطلعتم على حقائق الأحكام الإسلامية، وعودوا إلى الله لتفلحوا.

فلسفة الحجاب: مما لا شك فيه أنّ الحديث عن الحجاب للمتغربين في عصرنا الذي سمّوه بعصر التعري والحرية الجنسية، ليس حديثاً سارّاً حيث يتصورونه أسطورة يعود لعصور خلت. إلّا أنّ الفساد الذي لا حدّ له، والمشاكل المتزايدة والناتجة عن هذه الحريات التي لا قيد لها ولا حدود، أدّى بالتدريج إلى إيجاد الأذن الصاغية لهذا الحديث.

والقضية المطروحة (نقولها مع الإعتذار): هل من الصحيح أن تُستغل النساء للتلذذ من جانب الرجال عن طريق السمع والنظر واللمس (باستثناء المجامعة) وأن يكن تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الأُمور خاصة لأزواجهن؟

يقول الإسلام: إنّ الأُمور الجنسية سواءً كانت مجامعة أو استلذاذاً عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاص بالأزواج، ومحرّم على غيرهم، لأنّ ذلك يؤدّي إلى تلويث المجتمع وانحطاطه، وعبارة ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ التي جاءت في الآية السابقة تشير إلى هذه المسألة.

إنّ فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

١ـ إنّ تعري النساء وما يرافقه من تجميل ودلال ـ وما شاكل ذلك ـ يحرك الرجال ـ خاصّة الشباب ـ ويحطّم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبي، وأحياناً يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية.

خاصة إذا لاحظنا أنّ الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز في الإنسان وأكثرها عمقاً، وكانت عبر التاريخ السبب في أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إنّ وراء كل حادثة مهمة امرأة.

أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟ وهل هذا العمل عقلاني؟

٢ـ تبيّن إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكّك الأُسرة في العالم، بسبب زيادة التعرّي، لأنّ في سوق التعري والحرية الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع وتشترى، أو في أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمته.

٣ـ انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء

الحجاب، فشواهدها ظاهرة في المجتمع الغربي، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

٣ـ قضية «ابتذال المرأة» وسقوط شخصيتها في المجتمع الغربي ذات أهمية كبيرة فعندما يرغب المجتمع في تعري المرأة، فمن الطبيعي أن يتبعه طلبها لادوات التجميل والتظاهر الفاضح والإنحدار السلوكي، وتسقط شخصية المرأة في مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلةً إعلامية يُروّج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كل قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنّه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنّها أداةٌ لإشباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة في صور البشر.

كيف يمكن للمرأة في هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

الترغيب في زواج يسير التكاليف: طرحت هذه الآية ـ منذ بدايتها حتى الآن ـ سبلاً أمينة متعددة للحيلولة دون الإنحطاط الخلقي والفساد إلى عالم أرحب من الطهر والاستقامة، ويحول دون تقهقرها أو انحدارها في مهاوي الرذيلة، وقد أشارت الآيات ـ موضع البحث ـ إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا وهو الزواج اليسير الذي يتمّ بعيداً عن أجواء الرياء والبذخ، لأنّ إشباع الغرائز بشكل سليم وشرعي خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب. لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: **﴿وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾**. «الأيامى»: جمع «أيّم» على وزن «قيّم» وتعني في الأصل المرأة التي لا

زوج لها، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذي لا زوجة له، فيدخل في هذا المفهوم كل من ليس له زوج، سواء كان بكراً أم ثيّباً.

وعبارة «أنكحوا» أي «زوّجوا» فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج عن طريق تقديم العون المالي عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج، ولا اختلاف في أنّ أصل التعاون الإسلامي يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

وجاء ذلك هنا بصراحة ليؤكّد أهمية الزواج الخاصة، وهي أهمية بالغة المدى.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين في نكاح حتى يجمع الله بينهما**».

وبما أنّ بعض الأعذار كالفقر أو عدم وجود وتوفّر الإمكانات اللازمة قد تقف حائلًا دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج وتشكيل الأسرة. يقول القرآن بهذا الصدد: ﴿**إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

إنّ المتزوج يكتسب شخصية اجتماعية، حيث يجد نفسه مسؤولاً عن المحافظة على زوجته، وماء وجه أسرته، وتأمين حياة سعيدة ومستقبل زاهر لها، ويستغلّ المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد في نفقاته ليتغلّب على الفقر بأسرع وقت ممكن، ولا جدال في أنّ الإمدادات الإلهية والقوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذي تزوج ليحفظ نفسه ويطهرها.

ولكن أحياناً بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئة مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون في ذلك، مما يضطره إلى مضي فترة من الزمن محروماً من الزواج، ولكي لا يظن أنّ إقدامه على الفساد أمراً مباحاً تقتضيه الضرورة أسرعت الآية التالية لتأمره بالطهارة والعفّة فقالت: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾.

ويهتم الإسلام كعادته بالعبيد الضعفاء اجتماعياً من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسألة المكاتبة[1] فتقول الآية: ﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾.

ولأجل ألا يقع العبيد في مشاكل لا يتمكنون من حلّها ويعجزون عن تسديد ما

---

١. إنّ عقد المكاتبة نوع من الإتفاقات يتمّ بين المولىٰ وعبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطاً لسيّده، فإذا دفع آخر قسط ينال حريته.

بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

والهدف الحقيق هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

وعقّبت هذه الآية بإشارة إلى أحد الأعمال القبيحة التي كان يمارسها عبّاد الدنيا إزاء جواريهم: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وهذه الآية تكشف عن مدى الرذيلة والانحطاط الخلقي الذي كان سائداً في عهد الجاهليه، وقد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، وأنهت هذه الأعمال.

ومع بالغ الأسف نجد عصرنا الذي سمي بجاهلية القرن العشرين، تمارس البشرية هذا العمل بقوة وعلى قدم وساق في بلدان تدّعي المدنية والحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان.

وفي الختام ـ على حسب الأسلوب الذي يتبعه القرآن ـ يفتح طريق التوبة للمذنبين، ويشجعهم على إصلاح أنفسهم: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وعلى نهج القرآن، نجد آخر الآيات ـ موضع البحث ـ تستنتج وتلخّص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾. وكذلك دروس وعبر من الأقوام الماضية تنفعكم في يومكم هذا: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ
ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ
يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ
ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ
فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن
ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

آية النور: تحدث الفلاسفة والمفسرون والعرفاء الإسلاميون كثيراً عن مقاصد الآيات أعلاه، وهي مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التي عرضت لقضية العفة ومكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

وبما أنّ ضمانة تنفيذ الأحكام الإلهية، وخاصة السيطرة على الغرائز الثائرة، ولا سيما الغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز، لا تتمّ دون الإستناد إلى الإيمان، ومن هنا إمتد البحث إلى الإيمان وأثره القوي، فقالت الآية أوّلاً: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وإذا أردنا تشبيه الذات المقدسة لربّ العالمين (رغم منزلته العظيمة التي لا نظير لها ولا شبيه) فلا نجد خيراً من النور! الله الذي خلق كل شيء في عالم الوجود ونوّره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، ورزقها من فضل، ولو انقطعت رحمته عنها لحظة، لأصبح الجميع في ظلمات الفناء والعدم.

ومما يلفت النظر أنّ كل مخلوق يرتبط بالله بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنّه كلام الله.

والدين الإسلامي نور لأنّه دينه.

الأنبياء أنوار لأنّهم رسله.

والأئمة المعصومون عليهم السلام أنوار إلهية، لأنّهم حفظة دينه بعد النبي صلى الله عليه وآله.

والإيمان نور، لأنّه رمز الإلتحام به سبحانه وتعالى.

والعلم نور، لأنّه السبيل إلى معرفته ـ عزّ وجل ـ.

ولهذا: «**الله نور السماوات والأرض**».

وإذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسع، أي الظاهر في ذاته والمظهر لغيره في هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات الله المقدسة حقيقة ولا تشبيه فيها، لأنّه لا يوجد أظهر من الله تعالى في العالم، وكل الأشياء تظهر من بركات وجوده.

وبهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره وتنتهي إلى نوره الطاهر.

وقد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذ ذكر مثالاً رائعاً دقيقاً لكيفية النور الإلهي: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ

عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

«المشكاة»: في الأصل تعني الكُوّة التي تخصص في الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح.

«الزجاجة»: تطلق في الأساس على الأحجار الشفّافة، وهنا تعني الزجاجة التي توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، وتنظّم جريان الهواء، لتزيد من نور الشعلة.

«المصباح»: يتألف من وعاء للزيت وفتيل.

عبارة ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تشير إلى الطاقة التي تُجهّز هذا المصباح بوقود لا ينضب معينه، وزيت الزيتون من أجود الوقود المستعمل للمصابيح، ثم إنّ هذا الزيت يُحصل عليه من زيتون شجر يتعرض للشمس من جميع جوانبه بشكل متساو، لا أن تكون الشجره في الجانب الشرقي من البستان وبجانب حائط يمنع وصول أشعة الشمس إليها، كما لا تكون في جهة الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعة الشمس.

وتوضيح هذا المثال: إنّ نور الايمان الموجود في قلوب المؤمنين يحتوي على العناصر الأربعة المتوفرة في المصباح المضيء، هي:

«المصباح» وهو شعلة الايمان في قلب المؤمن يضيء طريق الهداية.

و«الزجاجة» هي قلب المؤمن ينظم الايمان في ذاته ويحفظه من كل سوء.

و«المشكاة» صدر المؤمن. أو بعبارة أُخرى: شخصيته بما فيها وعيه وعلمه وفكره الذي يصون إيمانه من الأعاصير والأخطار.

«شجرة مباركة زيتونة» هي الوحي الإلهي الذي يكون بمنتهى الصفاء والطهارة وتوقد شعلة إيمان المؤمنين ـ في الحقيقة ـ من نور الله الذي ينير السماوات والأرض وقد أشرق من قلوب المؤمنين، فأضاء وجودهم ونور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلة العقلائية بنور الوحي، فيكون مصداق «نور على نور».

ولهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبال النور الإلهي تهتدي، وهي المقصودة بعبارة ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

وتجب المحافظة على نور الوحي من التلوث والميول المادية والانحراف إلى الشرق أو الغرب الذي يؤدّي إلى التفسخ والإندثار.

ولتعبيء قوىٰ الانسان بشكل سليم بعيداً عن كل فكر مستورد وانحراف، لتكون

مصداقاً لـ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

ويجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، وشكل موضعه، ليتّضح لنا ما كان ضرورياً إيضاحه في هذا المجال، لهذا تقول الآية التالية: إنّ هذه المشكاة تقع ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ لكي تكون في مأمن من الشياطين والأعداء والانتهازيين، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ويتلى فيها القرآن والحقائق الإلهية.

ثم تبيّن المقصود من هذه البيوت في آخر الآية حيث تقول: أنّه في هذه البيوت يسبّح أهلها صباحاً ومساءاً: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾. إنّ هذه الخصائص تكشف عن أنّ هذه البيوت هي المراكز التي حُصّنت بأمر من الله، وأنّها مركز لذكر الله ولبيان حقيقة الإسلام وتعاليم الله، ويضم هذا المعنى الواسع المساجد وبيوت الأنبياء والأولياء خاصة بيت النبي ﷺ وبيت علي عليه السلام.

وأشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافي لحراس نور الهداية وعشّاق الحق والحقيقة، فقالت: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. أي: أنّ الله يكافىء جميع أعمالهم بموجب أفضلها، ويشمل ذلك أبسط أعمالهم وأوسطها، حيث يجعلها الله بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

ولا عجب في ذلك، لأنّ الفضل الإلهي لمن كان جديراً به غير محدود: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾

أعمال سرابية: تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الإيمان والهداية، ولإتمام هذا البحث ولتوضيح المقارنة بين الذين نوّر الله قلوبهم وبين الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر والجهل والإلحاد المظلم. الكلام في الآية الأولى عن الذين يبحثون عن الماء في

صحراء جافّة حارقة، ولا يجدون غير السراب فيموتون عطشاً. في الوقت الذي عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، ومنبع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها. فتقول أوّلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾. ولكن يجد الله عند أعماله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

ثم تناولت الآية الثانية مثالاً آخر لأعمال الكفار وقالت: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾. وبهذا المنوال تكون ﴿ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾.

أجل، إنّ النور الحقيقي في حياة البشر هو نور الإيمان فقط، ومن دونه تسود الحياة الظلمات، ونور الإيمان هذا إنّما هو لطف من عند الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

فقد شبّهت الآية أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسراب يراه ظمآن في صحراء جافة.

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن هذا النور الكاذب، الذي هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هذه الأعمال، الباطن المظلم والمخيف والموحش حيث تتعطل فيه حواس الإنسان، وتظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٢﴾

الجميع يسبّح لله: تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الهداية والإيمان، وعن الظلمات المضاعفة للكفر والضلال، أمّا الآيات موضع البحث، فإنّها تتحدث عن دلائل الأنوار الإلهية وأسباب الهداية، وتخاطب الآية النبي ﷺ فتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وكذلك الطير يسبّحن لله في حال أنّها باسطات اجنحتهنّ في السماء ﴿وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وبما أنّ هذا التسبيح العام دليل على خلقه تعالى لجميع المخلوقات، وخالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، وكذلك دليل على أنّ كل ما في الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآية: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

إنّ القصد من التسبيح والحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله». أي نظام الوجود وأسراره المدهشة الكامنة في كل مخلوق تتحدث بصراحة عن عظمة الخالق وعلمه وحكمته التي لا حدود لها، إذ كل مخلوق جميل، وكل أثر فني بديع يثير الدهشة والإعجاب، حتى أنّ لوحة فنية وقطعة شعرية جميلة، تحمد وتسبّح لمبدعها. فمن جهة تكشف عن صفاته (بحمدها له) ومن جهة أُخرى تنفي عنه أي عيب أو نقص (فتسبحه)، فكيف وهذا الكون العظيم بما فيه من عجائب وغرائب لا تنتهي.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾

جانب آخر من الخلق العجيب: نواجه ثانية ـ في هذه الآيات ـ جانباً آخر من مسألة الخلق المدهشة، وما احتوته من آيات العلم والحكمة والعظمة، وكل ذلك من أدلة توحيد ذات الله الطاهرة. يخاطب القرآن المجيد النبي ﷺ ثانية ويقول: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾**. وبعد أن تتراكم السحب ترى قطرات المطر تخرج من بين السحاب وتهبط على الجبال والسهول والصحاري، **﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾**.

«يزجي»: مشتقة من «الإزجاء»، أي سوقه بأسلوب لين لترتيب المخلوقات المتبعثرة هنا وهناك بقصد جمعها.

«ركام»: على وزن «غلام»، بمعنى الأشياء المتراكمة بعضها فوق بعض.

«الودق»: على وزن «شرق»، أنّها حبّات المطر.

فهو الذي يحيي الأرض بعد موتها ويبعث الحياة في الأشجار والنباتات، ويروي عطش البشر والحيوان.

وأشار القرآن إلى ظاهرة أُخرى من ظواهر السماء المدهشة، وهي السحاب، حيث قال:

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾. أي من جبال السحب في السماء تنزل قطرات المطر على شكل ثلج وبرد، فتكون بلاء لمن يريد الله عذابه فتصيب هذه الثلوج المزارع والثمار وتتلفها وقد تصيب الناس والحيوانات فتؤذيهم، ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ﴾. ومن لم يرد تعذيبه دفع عنه هذا البلاء، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ﴾.

أجل، إنّه هو الذي ينزّل الغيث المخصب من سحابة تارة... وهو الذي يصيّره برداً بأدنى تغيير بأمره فيصيب به (بالأذى) من يشاء، وربّما يكون مهلكاً أحياناً.

وهذا يدل على منتهى قدرته وعظمته إذ جعل نفع الإنسان وضرره وموته وحياته متقارنة، بل مزج بعضها ببعض.

وفي نهاية الآية يشير إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية التي هي من آيات التوحيد فيقول سبحانه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾. فالسحب المؤلفة من ذرات الماء تحمل في طيّاتها الشحنات «الكهربائية»، وتُومض إيماضاً يُذهل برقها (العيون) والأبصار ويصكّ رعدها السمع من صوته، وربّما اهتزت له جميع الاجواء.

إنّ هذه الطاقة الهائلة بين هذا البخار اللطيف لمثيرةٌ للدهشة حقاً...

وأشارت الآية التالية إلى إحدى معاجز الخلق ودلائل عظمة الله، وهو خلق الليل والنهار بما فيهما من خصائص، حيث تقول: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

إنّ لتعاقب الليل والنهار والتغييرات التدريجية الحاصلة منه أثر فعّال في استدامة الحياة وبقاء الإنسان، وفي ذلك عبرة لأُولي الأبصار.

وأشارت آخر الآيات ـ موضع البحث ـ إلى أوضح دليل على التوحيد، وهي مسألة الحياة بصورها المختلفة، فقالت: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. أي أنّ أصلها جميعاً من ماء، ومع هذا فلها صور مختلفة: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالزواحف؛ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور؛ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالدواب.

وليس الخلق محدداً بهذه المخلوقات، فالحياة لها صور أُخرى متعددة بشكل كبير، سواء كانت أحياء بحرية أم حشرات بأنواعها المتعددة التي تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآية في الختام: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨)
وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن
يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٥٠)﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان قيل: نزلت الآيات في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشراف.

التّفسير

الإيمان وقبول حكم الله: تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان بالله وعن دلائل توحيده وعلائمه في عالم التكوين، بينما تناولت الآيات ـ موضع البحث ـ أثر الإيمان وانعكاس التوحيد في حياة الإنسان، وإذعانه للحقّ والحقيقة. تقول أوّلاً: **﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾**. آيات تنور القلوب بنور الإيمان والتوحيد، وتزيد في فكر الإنسان نوراً وبهجة، وتبدّل ظلمات حياته إلى نور على نور. وطبيعي أنّ هذه الآيات المبينات تمهد للإيمان، إلّا أنّ الهداية الإلهية هي صاحبة الدور الأساسي: **﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**.

وكما نعلم فإنّ إرادة الله ومشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه وتعالى يدخل نور الهداية إلى القلوب المستعدة لتقبله.

ثم استنكرت الآية الثانية وذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدّعون الإيمان في الوقت الذي خلت فيه قلوبهم من نور الله، فتقول الآية عن هذه المجموعة: **﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾**.

ما هذا الإيمان الذي لا يتجاوز حدود ألسنتهم، ولا أثر له في أعمالهم.

ثم تذكر الآية التي بعدها دليلاً واضحاً على عدم إيمانهم: **﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾**.

ولتأكيد عبادة هذه المجموعة للدنيا وفضح شركهم، تضيف الآية: **﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾** وبكامل التسليم والخضوع.

وبيّنت الآية الأخيرة في ثلاث جمل، الجذور الأساسية ودوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرسول ﷺ، فقالت أوّلاً: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالايمان، ولكنّهم لا يسلّمون بحكم الله ورسوله، ولا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قلبياً عن التوحيد أو الشك والتردد: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا﴾. وطبيعي أنّ الذي يتردد في عقيدته، لن يستسلم لها أبداً.

وثالثها فيا لو لم يلحدوا ولم يشكوا، أي كانوا من المؤمنين: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

في الوقت الذي يعتبر هذا تناقضاً صريحاً، إذ كيف للذي يؤمن برسالة محمّد ﷺ ويعتبر حكمه حكم الله تعالى أن ينسب الظلم إلى الرسول ﷺ؟!

وهل يمكن أن يظلم الله أحداً؟ أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إنّ الله تعالى مقدس عن كل هذه الصفات؛ ﴿بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾. إنّهم لا يقتنعون بحقّهم، وهم يعلمون أنّ النبي الأكرم ﷺ لا يجحف بحق أحد، ولهذا لا يستسلمون لحكمه.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

الإيمان والتسليم التام إزاء الحق: لاحظنا في الآيات السابقة ردّ فعل المنافقين لحكم الله ورسوله ﷺ، أمّا الآيات ـ موضع البحث ـ فإنّها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم الله ورسوله، فتقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

كيف يمكن أن يرجّح شخص حكم شخص آخر على حكم الله، وهو يعتقد بأنّ الله عالم بكلّ شيء، ولا حاجة له بأحد، وهو الرّحمن الرّحيم؟ وكيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم الله إلّا السمع والطاعة؟

لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ولا شك في أنّ الفلاح نصيب الذي يسلّم أمره إلى الله، ويعتقد بعدله وحكمه في حياته المادية والمعنوية.

وتابعت الآية الثانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فتقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

لكن الآية التالية ـ وكذلك سبب نزولها الذي ذكرته بعض التفاسير ـ يعني أنّ بعض المنافقين تأثروا جداً على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة والتي وجّهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النبي ﷺ وأقسموا يميناً مغلظة أنّنا نسلّم أمرنا إليك، ولهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم وبيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، وعليكم عملاً اطاعة الله بصدق واخلاص: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ كلمة «ليخرجنّ» في هذه الآية يقصد منها عدم التهالك على المال والحياة، وأتباع الرّسول ﷺ أينما رحل وحلّ وطاعته.

لهذا أكدت الآية التالية ـ التي هي آخر الآيات موضع البحث ـ هذا المعنى، وتقول للرسول ﷺ أن: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

ثم تضيف الآية أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدىٰ حالتين: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾. في صورة العصيان فقد ادّى وظيفته وهو مسؤول عنها كما أنّكم مسؤولون عن أعمالكم حين أنّ وظيفتكم الطاعة، ولكن ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ لأنّه قائد لا يدعو لغير سبيل الله والحق والصواب.

في كل الأحوال: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. وإنّه ﷺ مكلّف بإبلاغ الجميع ما أمر الله به، فإن أطاعوه استفادوا، وإن لم يطيعوه خسروا.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلّا مع السلاح ولا يصبحون إلّا فيه. فقالوا: ترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلّا الله؟ فنزلت هذه الآية.

التّفسير

حكومة المستضعفين العالمية: تحدثت الآية السابقة عن طاعة الله ورسوله والتسليم له، وقد واصلت الآية ـ موضع البحث ـ هذا الموضوع، وبيّنت نتيجة هذه الطاعة ألا وهي الحكومة العالمية التي وعدها الله المؤمنين به. فقالت الآية مؤكّدة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ ويجعله متجذراً وثابتاً وقوياً بين شعوب العالم.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾. وبعد سيادة حكم التوحيد في العالم وإجراء الأحكام الإلهية، واستقرار الأمن واقتلاع جذور الشرك، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

وعلى كل حال يبدو من مجمل هذه الآية أنّ الله يبشّر مجموعة من المسلمين الذين يتصفون بالايمان والعمل الصالح بثلاث بشائر:

١ـ استخلافهم وحكومتهم في الأرض.

٢ـ نشر تعاليم الحق بشكل جذري وفي كل مكان (كما يستفاد من كلمة «تمكين»...).

٣ـ انعدام جميع عوامل الخوف والإضطراب.

وينتج من كل هذا أن يُعبد الله بكل حرية، وتُطبق تعاليمه ولا يشرك به، ويتمّ نشر عقيدة التوحيد في كل مكان.

الذين وعدهم الله باستخلاف الأرض: لقد وعدالله المؤمنين ذوي الأعمال الصالحة بالإستخلاف في الأرض وتمكينهم من نشر دينهم وتمتعهم بالأمن الكامل، فما هي خصائص هؤلاء الموعودين بالإستخلاف؟

إنّ هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكومة المهدي عليه السلام مصداق لها، إذ يتفق

المسلمون كافة من شيعة وسنة على أنّ المهدي عليه السلام يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

ومع كل هذا لا مانع من تعميمها، وينتج من ذلك تثبيت أُسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين في كل عصر وزمان، وأنّ لهم الغلبة والحكم ذا الأُسس الثابتة.

إنّ جميع الجهود ـ من حرب وسلام وبرامج تثقيفية واقتصادية وعسكرية ـ تنصّب في ظلّ هذه الحكومة في مسيرة العبودية لله الخالية من كل شائبة من شوائب الشرك.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

استحالة الفرار من حكومته تعالى: وعدت الآية السابقة المؤمنين الصالحين بالخلافة في الأرض، وتهيىء هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومة، فهي تقول أوّلاً: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ**﴾. وهي الوسيلة التي توثق الصلة بين الخالق والمخلوق، وتقرّب الناس إلى بارئهم، وتمنع عنهم الفحشاء والمنكر.

﴿**وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ**﴾. وهي الوسيلة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وتقلل الفواصل بينهما، وتقوي ارتباطهما العاطفي.

وبشكل عام يكون في كل شيء تبعاً للرسول: ﴿**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾. طاعة تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم في الأرض، ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ وتكونون لائقين لحمل راية الحقّ والعدل.

وإذا احتملتم أنّ الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم الله إيّاه، فذلك غير ممكن، لأنّه قادر على كل شيء، ولا يحجب إرادته شيء، ولهذا: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾. فهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب الله وعذابه في الأرض، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل إنّهم في الآخرة، ﴿**وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ
ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ
مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين: إنّ أهم مسألة تابعتها هذه السورة هي مسألة العفاف العام ومكافحة كل انحطاط خلقي، بأبعاده المختلفة. وقد تناولت الآيات ـ موضع البحث ـ إحدى المسائل التي ترتبط بهذه المسألة، وشرحت خصائصها. فتقول أوّلاً: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾**. فيجب على عبيدكم وأطفالكم الإستئذان في ثلاث أوقات: **﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾**.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾. أي هذه ثلاث أوقات للخلوة خاصة بكم.

«العورة»: مشتقة من «العار»، أي: العيب، وأطلق العرب على العضو التناسلي العورة، لأنّ الكشف عنه عار.

إنّ إطلاق كلمة «العورة» على هذه الأوقات الثلاثة بسبب كون الناس في حالة خاصة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حيث لا يرتدون الملابس التي يرتدونها في الأوقات الأُخرى.

وطبيعي أنّ المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الأُصول، لأنّ الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

كما أنّ عمومية الآية تعني شمولها الأطفال البنين والبنات.

وتختتم الآية بالقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. فلا حرج ولا إثم عليكم وعليهم إذا دخلوا بدون إستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة، أجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وبيّنت الآية التالية الحكم بالنسبة للبالغين، حيث تقول: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

«الحلم»: على وزن «كتب»، بمعنى العقل والكناية عن البلوغ، الذي يعتبر توأماً لطفرة عقلية وفكرية، ومرحلة جديدة في حياة الإنسان.

ويستفاد من الآية السابقة، أنّ الحكم بالنسبة للبالغين يختلف عنه بالنسبة للأطفال غير البالغين، لأنّ أولئك يجب عليهم إستئذان الوالدين في الأوقات الثلاثة فقط، لأنّ حياتهم قد امتزجت مع حياة والديهم بدرجة يستحيل بها الإستئذان كل مرة، وكما أنّهم لم يعرفوا المشاعر الجنسية بعد، أمّا الشباب البالغ، فهم مكلّفون في جميع الأوقات بالإستئذان حين الدخول على الوالدين.

ويخصّ هذا الحكم المكان المخصّص لاستراحة الوالدين.

وتقول الآية في الختام للتأكيد والإهتمام الفائق: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي آخر الآيات ـ موضع البحث ـ استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز والمسنّات من هذا الحكم، فقال: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾.

ولهذا الإستثناء شرطان:

أوّلهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه. أو بعبارة أُخرى: أن يفقدن كل جاذبية أُنثوية.

وثانيهما: ألا يتزيّن بزينة بعد رفع حجابهن.

كما أنّ ـ من الواضح ـ أنّه لا يقصد برفع العجائز للحجاب اباحة خلع الملابس كلّها والتعريّ، بل خلع اللباس الفوقاني فقط. وكما عبّرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب والخمار.

وتضيف الآية في ختامها: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

فالإسلام يرغب في أن تكون المرأة أكثر عفّة وأنقى وأطهر. ولتحذير النساء اللواتي يسئن من سوء الاستفادة من هذه الحرية، بأن يتحدثن أو يتصرفن بأسلوب لا يليق بشرفهن، تقول الآية محذرة إيّاهن: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كلما تقولونه يسمعه الله، وما تكتمون في قلوبكم أو في أذهانكم يعلمه الله أيضاً.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

البيوت التي يسمح بالأكل فيها: تحدثت الآيات السابقة عن الإستئذان في أوقات معينة، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاصّ بالأب والأم، أمّا الآية موضع البحث فإنّها استثناء لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض وبشروط معينة، الدخول إلى منازل الأقرباء وأمثالهم، وحتى أنّه يجوز لهم الأكل فيها دون إستئذان، حيث تقول هذه الآية أوّلاً: **﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾**.

لأنّ أهل المدينة كانوا ـ كما ورد بصراحة في بعض الأحاديث ـ وقبل قبولهم الإسلام، يمنعون الأعمى والأعرج والمريض من المشاركة في مائدتهم، ويتنفّرون من هذا العمل.

وقد استفسر من الرسول ﷺ عن هذا الموضوع، فنزلت الآية السابقة التي نصّت على عدم وجود مانع من مشاركة الأعمى والأعرج والمريض للصحيح غذاءه على مائدة واحدة.

ثم يضيف القرآن المجيد: **﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾**.

والمقصود بعبارة بيوتكم، الأبناء أو الزوجات.

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾. «الصداقة»: تعني هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقة، وهذه العلاقة توجب التزاور فيما بينهم والأكل من طعام الآخر.

بالطبع فإنّ هذا الحكم له شروط وإيضاحات سيأتي ذكرها في آخر تفسير الآية.

ثم تضيف الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

ولا يوجد خلاف بين الفقهاء حول عدم جواز الأكل من غذاء الآخرين دون استئذان الذي نهت عنه الآية بصراحة مع العلم بهذا النهي.

ذكر الشيخ الطوسي ﷺ في تفسير التبيان أنّ مجموعة من المسلمين كانوا إذا نزل بهم الضيف تحرجوا أن يأكلوا معه، فأباح الله الأكل منفرداً ومجتمعاً.

ثم تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقية فتقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾. واختتمت بهذه العبارة: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

يجب السلام عند الدخول إلى أيّ منزل كان، ويجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، ويسلّم أهل المنزل أحدهم على الآخر، وأمّا إذا لم يجد أحداً في المنزل فيحيي المرء نفسه[1]، حيث تعود هذه التحيات بالسلامة على الإنسان ذاته.

---

١. فيقول: «السّلام عليكم من قبل ربّنا». أو: «السّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟
حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا
ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ
قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سبب النّزول

في تفسير علي بن ابراهيم: نزلت الآية الأولى في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله ﷺ لأمر من الأمور في بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عزّ وجل عن ذلك وقوله ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ قال نزلت في حنظلة بن أبي عياش وذلك أنّه تزوج في الليلة التي في صبيحتها حرب أُحد، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يقيم عند أهله فأنزل الله هذه الآية ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال واستشهد، فقال رسول الله ﷺ: «رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحايف فضة بين السماء والأرض». فكان يسمى غسيل الملائكة.

التّفسير

لا تتركوا النبي وحده: إنّ الآيات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة الله ورسوله، ومن علائم طاعته عدم تركه أو القيام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآيات ـ موضع البحث ـ حول هذا الموضوع، فتقول أوّلاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

والمراد من «أمر جامع» كل عمل يقتضي اجتماع الناس فيه ويتطلب تعاونهم، سواء كان عملاً استشارياً، أو مسألة حول الجهاد ومقاتلة العدو، أو صلاة جمعة في الظروف الإستثنائية وأمثالها.

وفي الحقيقة إنّ هذا من شروط النظم والتنظيم ولا يمكن لأية مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغياب شخص واحد قد تترتب عليه صعوبات ويلحق ضرراً بالهدف النهائي، فإذا وجد القائد أنّ غياب هذا الشخص يلحق ضرراً، فمن حقه أن لا يأذن له، وعليه أن يضحي بمصلحته من أجل هدف أسمى، لهذا تضيف الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

وتقول الآية في الختام: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تبيّن هذه العبارة ضرورة عدم الإستئذان بالقدر الممكن، واتباع التضحية والإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادرة الجماعة لعمل بسيط.

ومن الطبيعي أن لا تخصّ هذه التعاليم التنظيمية الرسولﷺ وأصحابه فقط، وإنّما هي واجبة الإتباع إزاء كل قائد إلهي، سواء كان نبياً أم إماماً أم عالماً نائباً لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعة، كما يحتمه ـ إضافة إلى القرآن ـ العقل والمنطق.

ثم بيّنت الآية التالية حكماً آخر له علاقة بتعاليم النبيﷺ حيث تقول: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

إن الرسولﷺ عندما يدعوكم للاجتماع، فإنّه لابدّ من أن يكون لمسألة إلهية مهمة، لهذا يجب عليكم الإهتمام بدعوته، والإلتزام بتعاليمه، وألاّ تهملوها، فأمره من الله ودعوته منه سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

«يتسلّلون»: مشتقة من «تسلل»، وتعني سحب الشيء من موضعه، كما يطلق على الذين يفرون سرّاً من مكان تجمع محدد لهم، كلمة «متسللون».

«لواذاً»: مشتقة من «ملاوذة» بمعنى الإختفاء، وتعني هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار. أو بتعبير آخر: استغفال الآخرين ثم الفرار من مكان تجمعهم، وهذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرسولﷺ الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر.

وآخر آية من الآيات موضع البحث ـ والتي هي آخر سورة النور ـ إشارة بليغة إلى قضية المبدأ والمعاد حيث تقول: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فإنّ الله العالم بكل شيء، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾. أي: يعلم أسلوبكم في التعامل

وأعمالكم واعتقادكم ومقاصدكم، فكلّها واضحة له سبحانه وتعالى، وثابتة في لوحة علمه ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾. ويجازيهم بها ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ومما يلفت النظر تأكيد الآية ثلاث مرات على علم الله بأعمال البشر، ليشعر الإنسان أنّه مراقب بشكل دائم، ولا يخفى على الله شيء من أعمال هذا الإنسان أبداً، ولهذا الإعتقاد أثره التربوي الكبير ويضمن سيطرة الإنسان على نفسه إزاء الانحرافات والذنوب.

«نهاية تفسير سورة النور»

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢٥

سورة الفرقان

وهي سبع وسبعون آية

مكية

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

محتوى السورة: تتألف هذه السورة في مجملها من ثلاثة أقسام:

١ـ الذي يشكل مطلع هذه السورة، يدحض منطق المشركين بشدّة، ويستعرض ذرائعهم، ويردّ عليها، ويخوفهم من عذاب الله، وحساب يوم القيامة، وعقوبات جهنم الأليمة، ويذكّرهم بمقاطع من قصص الأقوام الماضية.

٢ـ ولأجل إكمال هذا البحث، تبحث الآيات بعض دلائل التوحيد ومظاهر عظمة الله في الأكوان.

٣ـ مختصر جذاب، وجامع لصفات المؤمنين الحقيقيين (عباد الرحمن) وعباد الله المخلصين، في مقايسة مع الكفار المتعصبين الذين ذكروا في القسم الأوّل، فتتحدد منزلة كل من الفريقين تماماً، كما أنّنا سنرى أنّ هذه الصفات مجموعة من الاعتقاديات والأعمال الصالحة ومكافحة الشهوات، وامتلاك الوعي الكافي، والإحساس والالتزام بالمسؤولية الاجتماعية.

واسم هذه السورة قد أُخذ من آيتها الأُولى، التي تعبر عن القرآن بـ«الفرقان» (الفاصل بين الحق والباطل).

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفرقان

بعث يوم القيامة وهو يؤمن أنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

المقياس الأعلى للمعرفة: تبدأ هذه السورة بجملة «تبارك» من مادة «بركة»، ونعلم أنّ الشيء ذو بركة، عبارة عن أنّه ذو دوام وخير ونفع كامل. يقول تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾.

الملفت للإنتباه أنّ ثبوت البركة لذات الخالق عزّ وجل بواسطة نزول الفرقان، يعني أنّه أنزل قرآناً فاصلاً بين الحق والباطل، وهذا يدل على أنّ أعظم الخير والبركة هي أن يمتلك الإنسان بيده وسيلة المعرفة ـ معرفة الحق من الباطل.

فمقام العبودية والإنقياد التامين هو الذي يحقق اللياقة لنزول الفرقان، ولتلقي موازين الحق والباطل.

وعبارة «للعالمين» كاشفة عن أنّ شريعة الإسلام عالمية، بل إنّ بعضهم قد استدل منها على خاتمية النبي ﷺ.

الآية الثانية تصف الله الذي نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هي الأساس، والبقية نتائج وفروع لها، فتقول أوّلاً: ﴿**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾.

وبالإلتفات إلى تقدم «له» على «ملك السماوات» الذي هو دليل الحصر في اللغة العربية يستفاد أنّ الحكومة الواقعية والحاكمية المطلقة في السماوات والأرض منحصرة به تبارك وتعالى.

ثم يتناول تفنيد عقائد المشركين واحدة بعد الأُخرى، فيقول تعالى: ﴿**وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾.

وبهذا الترتيب، يدحض اعتقاد النصارى بأنّ «المسيح» ابن الله، أو ما يعتقده اليهود أنّ «العزير» ابن الله، وكذلك يدحض اعتقاد مشركي العرب.

ثم يضيف جلّ ذكره: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ**﴾.

فإذا كان لمشركي العرب اعتقاد بوجود الشريك أو الشركاء، ويتوهمونهم شركاء لله في

العبادة، فإنّ القرآن يدين ويدحض كل هذه الأوهام.

ويقول تعالى في العبارة الأخيرة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

ليس كمثل اعتقاد الثنويين الذين يعتقدون بأنّ قسماً من موجودات هذا العالم مخلوقات «الله»، وأنّ قسماً منها مخلوقات «الشيطان». وبهذا الترتيب كانوا يقسمون الخلق والخلقة بين الله والشيطان.

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

الإتهامات المتعددة الألوان: هذه الآيات تتمة للبحث الذي ورد في الآيات السابقة، في مسألة المواجهة مع الشرك وعبادة الأوثان. الآية الأُولى تجر المشركين إلى المحاكمة، ولتحريك وجدانهم تقول بمنطق واضح وبسيط، وفي نفس الوقت قاطع وداحض: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

وبعد، فماذا يمكن أن تكون دوافعهم لعبادة الأوثان التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فما بالك بما تستطيعه للآخرين: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾.

والأُصول المهمة عند الإنسان هي هذه الأُمور الخمسة بالذات: النفع والضر، والموت، والحياة، والنشور.

فمن يكن بحق مالكاً أصيلاً لهذه الأُمور، يكن بالنسبة إلينا جديراً بالعبادة.

هذه الأوثان ليست عاجزة في الدنيا عن حل مشكلة ما لعبدتها فحسب، بل إنّها لا يؤمل منها شيء في الآخرة أيضاً.

الآية التالية ـ تتناول تحليلات الكفار ـ أو حججهم على الأصح ـ في مقابل دعوة النبي ﷺ، فتقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾.

لكن القرآن يردّ عليهم في جملة واحدة فقط، تلك هي: ﴿فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[١].

«الظلم» هنا لأنّ رجلاً أميناً طاهراً وصادقاً مثل الرسول الأكرمﷺ اتّهموه بالكذب والإفتراء على الله، وبالإشتراك مع جماعة من أهل الكتاب، فظلموا أنفسهم والناس أيضاً.

و«الزور» هنا أنّ قولهم لم يكن له أساس مطلقاً، لأنّ النبيﷺ دعاهم عدّة مرات إلى الإتيان بسورة وآيات مثل القرآن، فعجزوا وضعفوا أمام هذا التحدي.

كلمة «زور» في الأصل من «زَور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثم أطلقت على كل شيء يتمايل عن حدّ الوسط، وبما أنّ «الكذب» انحرف عن الحق، ومال إلى الباطل، فقد سمّوه «زوراً».

تتناول الآية التالية لوناً آخر من التحليلات المنحرفة والحجج الواهية للمشركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾[٢].

وهو يستلهمها من الآخرين طيلة اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف: ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

إنّه يتلقّ المعونة لأجل هدفه في الأوقات التي يقلّ فيها تواجد الناس، أي بكرة وعشياً.

لذا فالآية الأخيرة تصرح بصيغة الرد على هذه الإتهامات الواهية، فتقول: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

إشارة إلى أنّ محتوى هذا الكتاب، والأسرار المتنوعة فيه من علوم ومعارف وتاريخ الأقوام الأوّلين، والقوانين والاحتياجات البشرية، وحتى أسرار عالم الطبيعة والأخبار المستقبلية، تدل على أن ليس من صنع ومتناول عقل البشر، ولم ينظّم بمساعدة هذا أو ذاك، بل بعلم الذي هو جدير بأسرار السماء والأرض، والمحيط بكل شيء علماً.

لكن مع كل هذا، فإنّ القرآن يترك طريق التوبة مفتوحاً أمام هؤلاء المغرضين والمنحرفين، فيقول تبارك وتعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فبمقتضى رحمته أرسل الأنبياء، وأنزل الكتب السماوية، وبمقتضىٰ غفوريته سيعفو في ظل الايمان والتوبة عن ذنوبكم التي لا تحصى.

---

١. «جاءو»: من مادة «مجيء»، يراد بها عادة معنىٰ «القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى «الإتيان».

٢. ففي الواقع إنّ أولئك كانوا يريدون أن يتهموا النبيﷺ من هذا الطريق، بأنّه يقرأ ويكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أمياً عمداً.

وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

سبب النّزول

في كتاب الاحتجاج للطبرسي﵀ وعن أبي محمد الحسن العسكري﵇ قال: قلت لأبي علي بن محمد﵉ هل كان رسول الله ﷺ يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: مراراً كثيرة وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بمكة بفناء الكعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش.. فابتدأ عبد الله بن أبي أمية المخزومي فقال: يا محمّد زعمت أنّك رسول الله ربّ العالمين، وما ينبغي لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا، تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب، وتمشي في الأسواق كما نمشي.. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أنت السامع لكل صوت، والعالم بكل شيء، تعلم ما قاله عبادك». فأنزل الله عليه: يا محمّد ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

التّفسير

لم لا يملك هذا الرسول كنوزاً وجنات؟ استعرض القرآن في الآيات السابقة قسماً من إشكالات الكفار فيما يخص نزول القرآن المجيد، وأجاب عليها، ويعرض في هذه الآيات قسماً آخر يتعلق بشخص الرسول ويجيب عنها، فيقول تعالى: **﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾**.

وفي الوقت الذي يريد هذا الرسول التبليغ بالدعوة الإلهية، ويريد أيضاً السلطنة على الجميع.

لقد كان المشركون يرون أنّه لا يليق بذوي الشأن الذهاب إلى الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ينبغي أن يرسلوا خدمهم ومأموريهم من أجل ذلك.

ثم أضافوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. فلِمَ لم يرسل إليه ـ على الأقل ـ ملك من عند الله، شاهد على صدق دعوته، وينذر معه الناس؟

حسن جداً، لنفرض أنّنا وافقنا على أنّ رسول الله يمكن أن يكون إنساناً، ولكن لماذا يكون فقيراً فاقداً للثروة والمال؟! ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

ولم يكتفوا بهذا أيضاً، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطىء، كما نقرأ في ختام هذه الآية نفسها: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. ذلك أنّهم كانوا يعتقدون أنّ السحرة يستطيعون أن يتدخلوا في فكر وعقول الأفراد فيسلبونهم قوام عقولهم.

الآية التالية تبيّن جواب جميع هذه الإشكالات في عبارة موجزة: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

إنّ (الأمثال) هنا، بمعنى الأقوال الفارغة الواهية.

هذه العبارة الموجزة أداء بليغ عن هذه الحقيقة، فهم من خلال مجموعة من الأقوال الواهية التي لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق والقرآن ـ الذي محتواه شاهد ناطق على إرتباطه بالله ـ ليخفوا وجه الحقيقة.

الآية الأخيرة مورد البحث ـ كالآية التي قبلها ـ توجّه خطابها إلى النبي ﷺ على سبيل تحقير مقولات أولئك، وأنّها لا تستحق الإجابة عليها. يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

وإلّا، فهل أحد غير الله أعطى الآخرين القصور والبساتين؟ من غير الله خلق جميع هذه النعم والجمال في هذا العالم؟ ترى أيستحيل على الله القادر المنّان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور والبساتين؟!

لكنّه لا يريد أبداً أن يعتقد الناس أنّ مكانتك مردّها المال والثروة والقصور، ويكونوا غافلين عن القيم الواقعية.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾

في هذه الآيات ـ على أثر البحث في الآيات السابقة حول انحراف الكفار في مسألة التوحيد والنبوة ـ يتناول القرآن الكريم قسماً آخر من انحرافاتهم في مسألة المعاد، ويتّضح مع بيان هذا القسم أنّهم كانوا أسارىٰ التزلزل والانحراف في تمام أصول الدين. يقول تعالى أوّلاً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾.

ذلك أنّه إذا آمن الإنسان بهكذا محكمة عظمى وبالجزاء الإلهي، فلن يتلق الحقائق بمثل هذا الإستهزاء واللامبالاة، ولن يتذرع بالحجج الواهية ضد دعوة النبي وبراهينه الظاهرة، لكن القرآن هنا لم يتقدم برد استدلالي، ذلك لأنّ هذه الفئة لم تكن من أهل الاستدلال والمنطق، بل واجههم بتهديد مخيف وجسد أمام أعينهم مستقبلهم المشؤوم والأليم. فهذا الاسلوب قد يكون أقوى تأثيراً لمثل هؤلاء الأفراد يقول أوّلاً: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[١].

ثم وصف هذه النار المحرقة وصفاً عجيباً، فيقول تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

في هذه الآية تعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدّة هذا العذاب الإلهي ويدل على أنّ نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير بالله».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أمّا حالهم في نار جهنم فيصفها تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

لأنّ جهنم مكان واسع، لكن أُولئك يُحصرون مكاناً ضيقاً في هذا المكان الواسع، فهم «يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط».

---

١. «سعير»: من «سَعْر» بمعنى التهاب النار، وعلى هذا يقال للسعير: النار المشتعلة والمحيطة والمحرقة.

«مقرنين»: من «قرن» بمعنى قرب واجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، ويقولون للحبل الذي يربطون به الأشياء «قرن»، ويقولون أيضاً لمن تقيد يده ورجله مع بعضهما بالغل والسلاسل «مقرّن».

«ثبور»: في الأصل بمعنى «الهلاك والفساد». فحينما يجد الإنسان نفسه أمام شيء مخيف ومهلك، فإنّه يصرخ عالياً «واثبورا» التي مفهومها ليقع الموت علي.

لكنهم يجابون عاجلاً: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

فلن تنفعكم استغاثتكم في شيء، ولن يكون ثمّة موت أو هلاك، بل ينبغي أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

ثم يوجّه الخطاب إلى الرسول ﷺ، ويأمره أن يدعو أُولئك إلى المقايسة، فيقول تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾.

تلك الجنة التي ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾.

تلك الجنة التي سيبقون فيها أبداً ﴿خَالِدِينَ﴾.

أجل، إنّه وعد الله الذي أخذه على نفسه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

المحاكمة بين المعبودين وعبدتهم الضالين: كان الكلام في الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين والمشركين في القيامة وجزاء هذين الفريقين، وتواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبيّن السؤال الذي يسأل الله عنه معبودي المشركين في القيامة وجوابهم، على سبيل التحذير. فيقول تعالى: واذكر يوم يحشر الله هؤلاء المشركين وما يعبدون من دون الله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

والمقصود بالمعبودين إنساناً (مثل المسيح) أو شيطاناً (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث إنّ كل واحد منها كان قد اتخذه فريق من المشركين معبوداً لهم.

فيسأل المعبودين: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.

في الإجابة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

فليس فقط أنّنا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل إنّنا كنّا نعترف بولايتك وربوبيتك، ولم نقبل غيرك معبوداً لنا ولغيرنا.

وكان سبب انحراف أولئك هو: أنّ الله تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا ونعيمها فتمتعوا هم وآباءهم وبدلاً من شكر الله تعالى غرقوا في هذه الملذات ونسوا ذكر الله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾. فالحياة المرفهة لجماعة ضيقة الأفق، ضعيفة الايمان، تبعث على الغرور، ولهذا هلكوا واندثروا ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

«بور»: من مادة «بوار» وهي في الأصل بمعنى شدّة كساد الشيء، ولأنّ شدّة الكساد تبعث على الفساد، فهذه الكلمة بمعنى الفساد، ثم أُطلقت بعد هذا على الهلاك.

وعلى هذا فإنّ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ إشارة إلى أنّ هذا الفريق على أثر انغماسهم في الحياة المادية المرفهة، ونسيانهم الله واليوم الآخر، صاروا إلى الفساد والهلكة.

هنا يوجّه الله تبارك وتعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾.

لأنّ الأمر هكذا، وكنتم أنتم قد أضللتم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

لا شك أنّ «الظلم» له مفهوم واسع، ومع أنّ موضوع البحث في الآية هو «الشرك» الذي هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلّا أنّه لا يقدح بعمومية المفهوم.

والملفت للنظر أنّ «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، وهذا يدل على أنّ القسم الأوّل من البحث وإن كان مرتبطاً بمناقشات البعث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم في الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة لقبول الايمان على أثر سماعها محاورات العابدين والمعبودين في القيامة، فيحوّل الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿۲۰﴾

سبب النّزول

في تفسير القرطبي: هذه الآية نزلت جواباً للمشركين حيث قالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

وقال ابن عباس: لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة وقالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام الآية، حزن النبي ﷺ لذلك فنزلت تعزية له فقال جبرئيل ﷺ: السلام عليك يا رسول الله! الله ربّك يقرئك السلام ويقول لك: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**﴾. أي يبتغون المعايش في الدنيا.

التّفسير

في عدّة آيات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشركين وأجيب عليها بجواب إجمالي أمّا الآية مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطي جواباً أكثر تفصيلاً. فيقول تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**﴾. فقد كانوا من البشر ويعاشرون الناس، وفي ذات الوقت: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً**﴾ وامتحاناً.

وهذا الإمتحان، قد يكون بسبب أنّ اختيار الأنبياء من جنس البشر ومن أوساط الجماهير المحرومة هو امتحان عظيم بذاته، لأنّ البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصة إذا كان في مستوىً واطيء من حيث الإمكانات المادية.

وعلى أثر هذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى: ﴿**أَتَصْبِرُونَ**﴾. ذلك لأنّ أهم ركن للنجاح في جميع هذه الامتحانات هو الصبر والاستقامة والشجاعة...

ويقول تعالى في ختام الآية بصيغة التحذير: ﴿**وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**﴾. فينبغي ألا يتصور أحد أن شيئاً من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهية يظل خافياً ومستوراً عن عين الله وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء، إنّه يراها بدقة ويعلمها جميعاً.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)

الادعاءات الكبيرة: الآيات الحالية، تطرح شكلين آخرين من ذرائع المشركين وتجيب عليها، فيقول تعالى أوّلاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾. فعلى فرض أنّنا سنقبل أنّ النبي يستطيع أن يعيش الحياة العادية مثلنا، لكن أن يتنزل الوحي عليه وحده، ولا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به.

وأفضل دليل على أنّهم لم يكونوا يقولون هذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوّة النبي، هو أنّهم طلبوا أن يشاهدوا الخالق، وأنزلوه إلى حدّ جسم يمكن رؤيته. ذلك الطلب نفسه الذي طلبه مجرمو بني إسرائيل أيضاً، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه في الآية (١٤٣) من سورة الأعراف. لذا يقول القرآن في الإجابة على هذه الطلبات في آخر الآية مورد البحث: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾. «العتو»: على وزن «غلو»، بمعنى الإمتناع عن الطاعة، والتمرد على الأمر، مصحوباً بالعناد واللجاجة.

وتعبير «في أنفسهم» من الممكن أن يكون بمعنى: أنّ هؤلاء صاروا أسارى الغرور والتكبّر في أنفسهم. ومن الممكن أن يكون أيضاً بمعنى أنّهم أخفوا كبرهم وغرورهم في قلوبهم وأظهروا هذه المعاذير.

ثم يقول تعالى بصيغة التهديد: إنّ هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

بلى سوف لن يُسرّوا برؤية الملائكة في ذلك اليوم، لأنّهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، وسوف يغمرهم الرعب إلى حد أنّهم سيطلقون صرخات الاستغاثة التي كانوا يطلقونها في الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون: الأمان.. الأمان، اعفوا عنّا: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

«حجر»: على وزن «قشر»، تقال في الأصل للمنطقة التي حجروها وجعلوها ممنوعة الورود، وعندما يقال «حجر إسماعيل» فلأنّ حائطاً أُنشيء حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضاً «حجراً» لأنّه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفة. وأيضاً «اصحاب الحجر» الذين ورد اسمهم في القرآن (الآية ٨٠ من سورة الحجر) وهم قوم صالح الذين كانوا ينحتون لأنفسهم بيوتاً حجرية محكمة في قلوب الجبال، فكانوا يعيشون في أمانها.

أمّا جملة «حجراً محجوراً» فقد كانت اصطلاحاً بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنّهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

الآية التي بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين في الآخرة، فتقول: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾. يعني أنّ أعمال أولئك لا قيمة لها ولا اثر إلى حدّ كأنّهم لم يعملوا شيئاً، لأنّ الشيء الذي يعطي عمل الإنسان الشكل والمحتوى، هو النية وغاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهي وعلى أساس أهداف مقدسة طاهرة، في حين أنّ من لا إيمان لهم، فغالباً يقعون أسارىٰ التظاهر والرياء والغرور والعجب، فيكون سبباً في انعدام أية قيمة لأعمالهم.

وبما أنّ القرآن ـ عادة ـ يضع الحسن والسيء متقابلين حتى يتّضح وضع كل منهما بالمقايسة فإنّ الآية التي بعدها تتحدث عن أهل الجنة فتقول: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. «مستقر»: بمعنى محل الإستقرار؛ و«مقيل»: بمعنى محل الإستراحة في منتصف النهار، من مادة «قيلولة»، وقد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

تشقق السماء بالغمام: مرّة أخرى يواصل القرآن في هذه الآيات البحث حول القيامة، ومصير المجرمين في ذلك اليوم، فيقول أوّلاً: إنّ يوم محنة وحزن المجرمين هو ذلك اليوم الذي تنشق فيه السماء بواسطة الغيوم: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

«الغمام»: من «الغم» بمعنى ستر الشيء، لذلك فالغيم الذي يغطي الشمس يقال له «الغمام»، وكذلك الحزن الذي يغطي القلب يسمّونه «الغم».

هذه الآية ردّ على طلبات المشركين، وعلى إحدىٰ ذرائعهم، لأنّهم كانوا يتوقعون أن يأتي الله والملائكة طبقاً لأساطيرهم وخرافاتهم من خلال الغيم، فيدعونهم إلى الحق، وفي أساطير اليهود جاء ـ أيضاً ـ أنّ الله أحياناً يظهر ما بين الغيوم.

والمقصود من تشقق السماء بالغمام، هو أن ترتفع حجب العالم المادي عن عين الإنسان من جهة، فيشاهد عالم ماوراء الطبيعة، ومن جهة أخرى ستتلاشى الأجرام السماوية، وتظهر الغيوم الانفجارية، فتبرز التشققات ما بينها في ذلك اليوم، يوم نهاية هذا العالم وبداية النشور، يوم أليم جداً للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

حتى أُولئك الذين كان لهم في هذا العالم نوع من الملك المجازي والمحدود والفاني والسريع الزوال، يخرجون أيضاً من دائرة الملك، فتكون الحاكمية من كل النواحي وجميع الجهات لذاته المقدسة خاصة، وبهذا: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

في الوقت الذي يكون على المؤمنين سهلاً يسيراً وهيناً جداً.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: نزل قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ في عقبة بن أبي معيط، وأُبي بن خلف، وكانا متخالّين، وذلك أنّ عقبة كان لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة الرسول فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول الله ﷺ إلى طعامه، فلمّا قربوا الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله». فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله. وبلغ ذلك أُبي بن خلف فقال: صبأت يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال أُبي: ما كنت براض عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه! ففعل ذلك عقبة وارتدّ، وأخذ رحم دابّة فألقاها بين كتفيه. فقال النبي ﷺ: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلّا علوت رأسك بالسيف». فضرب عنقه يوم بدر صبراً.

وأمّا أُبي بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أُحد بيده في المبارزة.

نزلت الآيات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذي يُبتلى بخليل ضال، ويجره إلى الضلال.

التّفسير

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعض منها في الآيات السابقة، وفي هذه الآيات اشارة إلى قسم آخر منها، وهي مسألة حسرة الظالمين البالغة على ماضيهم، يقول

تعالى أوّلاً: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

«يعضّ»: من مادة «عضّ»، ويستخدم هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهووسين من شدّة الحسرة والأسف.

وهذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، ويعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الإنتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب في نفوسهم والشعور بالراحة.

ثم يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدي الغارق في عالم الأسف، يقول: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[1].

والمقصود بـ«فلان» هو ذلك الذي أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال.

ثم يستمر ويقول: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾.

«الذكر» في الجملة أعلاه، له معنىً واسع، ويشمل كل الآيات الإلهية التي نزلت في الكتب السماوية، بل يدخل في إطاره كل ما يوجب يقظة ووعي الإنسان.

وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾. ذلك لأنّه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر والطرق المنحرفة، ثم يتركه حيران ويذهب لسبيله.

وحقيقة الخذلان هي أي يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، ولكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته وإعانته تماماً في اللحظات الحساسة.

نقرأ في حديث عن الإمام محمّد التقي الجوادﷺ قال: «اياك ومصاحبة الشرير، فإنّه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره»[2].

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

---

١. «خليل»: تطلق بمعنى الصديق الخاص الحميم حيث يجعله الإنسان مشاوراً لنفسه.

٢. بحار الأنوار ٧١/١٩٨.

الحي، إنّ الناس قد هجروا القرآن: كما تناولت الآيات السابقة أنواعاً من ذرائع المشركين والكافرين المعاندين، تتناول الآية الأولى في مورد البحث هنا حزن وشكاية الرسول الأعظمﷺ بين يدي الله عزّ وجل من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول: **﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾**.

قول الرسولﷺ هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدي الله أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الممتلىء ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الإستجداء إلى الآخرين، حتى في القوانين المدنية والجزائية.

إنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، ويستخدمونه في زخرفة المساجد بعنوان الفن المعماري، ولافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، وعلى الأكثر للتلاوة من أجل الثواب.

تقول الآية التي بعدها في مواساة النبي الأكرمﷺ، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائي للخصوم: **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾**.

لست وحدك قدواجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصبونهم العداء.

ولكن إعلم أنّك لست وحيداً، وبلا معين، **﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾**. فلا وساوسهم تستطيع أن تضلك، لأنّ الله هاديك، ولا مؤامراتهم تستطيع أن تحطمك، لأنّ الخالق معينك، الخالق الذي علمه فوق كل العلوم، وقدرته أقوى من كل القدرات.

الآية التي بعدها تشير أيضاً إلى ذريعة أُخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: **﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾**.

واساساً فقد كان الأفضل للنبيﷺ أيضاً أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعة واحدة، كما يجيب الناس فوراً على كل ما يسألونه ويريدون منه.

ولكن القرآن في تتمة هذه الآية نفسها يجيبهم: **﴿وَكَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾**.

إنّ القرآن مجموعة من أوامر ونواهي، أحكام وقوانين، تاريخ وموعظة، ومجموعة من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير في مواجهة الأحداث التي كانت تبرز أمام مسير الأمة

الإسلامية، كتاب ـ كهذا ـ يبيّن وينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكلية عن طريق الحضور في ميادين حياة الأُمة، لا يمكن أن ينظم ويُدوّن دفعة واحدة.

وهذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه ونشر جميع بياناته وإعلاناته وأوامره ونواهيه ـ التي يصدرها في المناسبات المختلفة ـ دفعة واحدة من أجل تسيير الثورة، تُرى هل يعتبر هذا العمل عقلائياً؟!

ثم للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾. أي أنّهم لا يأتون بمثل أو مقولة أو بحث لاضعاف دعوتك ومقابلتها.

وبما أنّ هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا ـ بعد مجموعة من إشكالاتهم ـ أنّ محمّداً وأصحابه مع صفاتهم هذه وكتابهم هذا وبرامجهم هذه شرّ خلق الله ـ العياذ بالله ـ ولأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحة وبلاغة القرآن، فإنّ الله سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول في الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول: ﴿**الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا**﴾.

وهذا علامة على مهانتهم وذلتهم، لأنّهم كانوا في الدنيا في غاية الكبر والغرور والإستهانة بخلق الله، هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى تجسيد لضلالتهم في هذا العالم، ذلك أنّ من يسحبونه بهذه الصورة لا يرىٰ ما أمامه بأي شكل، وغافل عما حوله.

فريق لهم قامات منتصبة كشجر السرو، ووجوه منيرة كالقمر، وخطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

أشار القرآن المجيد في هذه الآيات إلى تاريخ الأمم الماضية ومصيرهم المشؤوم مؤكّداً على ست أمم. يقول أوّلاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾.

فقد ألقيت على عاتقيهما المسؤولية الثقيلة في جهاد الفراعنة، ويجب عليهما مواصلة هذا العمل الثوري بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾. فإنّهم قد كذبوا دلائل الله وآياته التي في الآفاق وفي الأنفس وفي كل عالم الوجود، ومن جهة أخرىٰ أعرضوا عن تعاليم الانبياء السابقين وكذبوهم.

ولكن بالرغم من جميع الجهود والمساعي التي بذلها موسى وهارون،بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة والبينات المتنوعة، أصروا أيضاً على طريق الكفر والإنكار، لذا ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾. «تدمير»: من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك بأسلوب يثير العجب.

وكذلك: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وكذلك: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

«قوم عاد» هم قوم النبي «هود» العظيم، الذي بعث في منطقة (الأحقاف) أو (اليمن).

و«قوم ثمود» قوم نبي الله «صالح» الذي بعث في منطقة وادي القرى (بين المدينة والشام).

«رسّ»: في الأصل بمعنى الأثر القليل، و«أصحاب الرس» كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر كان يافث بن نوح غرسها وكان لهم إثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له «الرسّ»، ولمّا طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة، بعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهة إلى عبادة الله وترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست، فلمّا رأوا ذلك ساءهم، فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها، فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم.

«قرون»: جمع «قرن» وهي في الأصل بمعنى الجماعة الذين يعيشون معاً في زمان واحد، ثم أطلقت على الزمان الطويل (أربعين أو مائة سنة).

لكنّنا لم نجاز أولئك على غفلة أبداً، بل ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾.

أجبنا على إشكالاتهم، مثل الإجابة على الإشكالات التي يوردونها عليك، أخطرناهم، أنذرناهم، كررنا عليهم مصائر وقصص الماضين، لكن حين لم ينفع أيّ من ذلك أهلكناهم

ودمّرناهم تدميراً: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[١].

وفي نهاية المطاف ـ في الآية الأخيرة مورد البحث ـ يشير القرآن المجيد إلى خرائب مدن قوم لوط التي تقع على بداية طريق الحجازيين إلى الشام، وإلى الأثر الحي الناطق عن المصير الأليم لأُولئك الملوثين والمشركين، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾.

نعم، لقد كانوا يرون مشهد الخرائب هذه، لكنّهم لم يأخذوا منها العبرة، ذلك لأنّهم: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

الآيات الحالية تتناول لوناً آخر من منطق المشركين وكيفية تعاملهم مع رسول الخاتم ﷺ ودعوته الحقة. يقول تعالى أوّلاً: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

ثم يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففي البداية من خلال جملة واحدة حاسمة يرد على مقولات هذه الفئة التي ما كانت أهلاً للمنطق: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» وأمثالها.

---

١. «تتبير»: من مادة «تبر» (على وزن ضرر، وعلى وزن صبر) بمعنى الإهلاك التام.

الجواب القرآني الثاني على مقولاتهم ورد في الآية التي بعدها، موجهاً الخطاب إلى النبي ﷺ على سبيل المواساة وتسلية الخاطر، وأيضاً على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النبي من قبل أولئك، فيقول: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾. فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته والدفاع عنه، ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

يعني إذا وقف أولئك أمام دعوتك بالإستهزاء والإنكار وأنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأنّ منطقك ضعيف ودلائلك غير مقنعة، وفي دينك شك أو ريبة، بل لأنّهم ليسوا أتباع العقل والمنطق، فعبودهم أهواؤهم النفسية، واتباع الهوى مصدر الغفلة ومنبع الكفر وعدم الايمان.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآني الثالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

يعني لا يؤذينك استهزاؤهم ومقولاتهم السيئة وغير المنطقية أبداً، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، ويستخدم عقله، فيكون مصداقاً لـ«يعقلون». أو أنّه فاقد للعلم ولكنه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقاً لـ«يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من أولئك ولا من هؤلاء، وعلى هذا فلا فرق بينهم وبين الأنعام، بل هم أتعس من الأنعام وأعجز، إذ أنّ الأنعام لا تعقل ولا فكر لها، وهؤلاء لهم عقل وفكر، وتسافلوا إلى حال كهذه.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَ
ٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ
رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ
ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

حركة الظلال: في هذه الآيات كلام في أقسام مهمّة من النعم الإلهية، وكلام في نعمة «الظلال» ثم في آثار وبركات «الليل» و«النوم والإستراحة» و«ضياء» النهار و«هبوب الرياح» و«نزول المطر» و«إحياء الأراضي الموات» و«سقاية» الأنعام والناس. يقول تعالى

أوّلاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

هذا الظل الممتد والمنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وأهنأ الظلال والساعات هي تلك؛ لأنّه تعالى يقول على أثر ذلك: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾. إشارة إلى أنّ مفهوم الظل لم يكن ليتّضح لو لم تكن الشمس.

بعد ذلك يبيّن تعالى: ثم إنّنا نجمعه جمعاً ويندأ، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

من المعلوم أنّ الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجياً، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماماً في بعض المناطق، وفي مناطق أُخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، ولهذا فالظل لا يظهر ولا يختفي دفعةً واحدةً، وهذا نفسه حكمة الخالق، ذلك لأنّ الإنتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائي يكون ضاراً بجميع المخلوقات.

بعد ذكر نعمة الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين أُخريين متناسبتين معها تناسباً تاماً، فيكشف جانباً آخر من أسرار نظام الوجود الدالة على وجود الله، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾.

هذا الحجاب الظلامي الذي لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض ويحفظها كاللباس، ويلتحفه الإنسان كالغطاء الذي يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثم يشير تعالى إلى نعمة النوم: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾.

«السبات»: في اللغة من «سبت» بمعنى القطع، ثم جاء بمعنى تعطيل العمل للإستراحة.

هذا التعبير إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم.

النوم في وقته وبحسب الحاجة إليه، يجدد لجميع طاقات البدن، وباعث للنشاط والقوة، وأفضل وسيلة لهدوء الأعصاب.

وفي ختام الآية أشار تعالى إلى نعمة «النهار» فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

«النشور»: في الأصل من النشر بمعنى البسط، في مقابل الطي وربّما كان هذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح في أنحاء البدن، حين اليقظة التي تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس في ساحة المجتمع، والحركة للمعاش على وجه الأرض.

فضياء النهار من حيث روح وجسم الإنسان باعث على الحركة حقّاً، كما أنّ الظلام باعث على النوم والهدوء.

بعد بيان هذه المواهب العظيمة ـ التي هي أهم ركائز الحياة الإنسانية ـ يتناول القرآن الكريم موهبة أخرى مهمة جداً فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِیٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّیَـٰحَ بُشۡرَۢا بَیۡنَ یَدَیۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَاۤءِ مَاۤءࣰ طَهُورࣰا﴾.

لا يخفى أنّ دور الرياح هو أنّها الطلائع المتقدمة لنزول الرحمة الإلهية، لأنّ إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم المثقلة من أعالي المحيطات باتجاه الأراضي اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر وستهطل على نفس ذلك البحر.

إنّ قسماً من هذه الرياح المتقدمة لقطعات الغيوم في حركتها وامتزاجها برطوبة ملائمة، تبعث النسيم المنعش الذي تشم منه رائحة المطر، هذه الرياح مثل البشير الذي يُنبيء عن قدوم مسافر عزيز.

التعبير بـ«الرياح» بصيغة الجمع لعله إشارة إلى أنواع مختلفة منها، فبعض شمالي، وبعض جنوبي، وبعض يهب من الشرق إلى الغرب، ومنها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سبباً في انتشار الغيوم في كل الآفاق.

المهم هنا هو أنّ «الماء» قد وصف بـ«الطهور» التي هي صيغة مبالغة من الطهارة والنقاء ولهذا فمفهوم الطهارة والتطهير يعني أنّ الماء طاهر بذاته ويطهر الأشياء الملوثة.

فضلاً إلى خاصية الإحياء، فإنّ للماء خاصية كبيرة الأهمية هي التطهير، فلولا الماء فإنّ أجسامنا ونفوسنا وحياتنا تتسخ وتتلوث في ظرف يوم واحد.

مضافاً إلى أنّ تنقية الروح من التلوث بواسطة الغسل والوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح والجسم معاً.

لكن خاصية التطهير هذه مع ما لها من الأهمية، اعتبرت في الدرجة الثانية، لذا يضيف القرآن الكريم في الآية التي بعدها بأنّ الهدف من نزول المطر هو الإحياء: ﴿لِّنُحۡـِۧیَ بِهِۦ بَلۡدَةࣰ مَّیۡتࣰا﴾. وأيضاً: ﴿وَنُسۡقِیَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَاۤ أَنۡعَـٰمࣰا وَأَنَاسِیَّ كَثِیرࣰا﴾.

في الآية الأخيرة ـ مورد البحث ـ يشير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هذه الآيات بينهم بصور مختلفة ومؤثرة ليتذكروا وليتعرفوا من خلاله على قدرة الخالق، لكن كثيراً من الناس لم يتخذوا موقفاً إزاء ذلك إلّا الإنكار والكفران: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَـٰهُ بَیۡنَهُمۡ لِیَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰۤ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورࣰا﴾.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ
بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا
وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ
الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

الآية الأُولى ـ مورد البحث ـ أشارت إلى عظمة مقام النبي ﷺ، يقول تعالى: لو أردنا لبعثنا نبيّاً في كل مدينة وبلد، لكنّنا لم نفعل هذا وألقينا مسؤولية هداية العالمين على عاتقك، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾. لأنّ تمركز النبوة في وجود فرد واحد يكون باعثاً على وحدة وانسجام الناس، ومانعاً من كل فرقة وتشتت.

إنّ هذه الآية دليل على عظمة مقام النبي ﷺ، فهي دليل كذلك على وجوب وحدة القائد، وعلى ثقل عبء مسؤوليته.

وبنفس هذا الدليل، يبيّن الله تبارك وتعالى في الآية التالية أمرين إلهيين مهمين يشكلان منهجين أساسيين للأنبياء، فيوجه الخطاب أوّلاً إلى الرسول الأعظم ﷺ ويقول: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾. لا تخطُ أيّة خطوة على طريق التوافق مع انحرافاتهم، فإنّ التوافق مع المنحرفين آفة الدعوة إلى الله.

أمّا القانون الثاني فهو: جاهد أُولئك بالقرآن: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

جهاداً كبيراً بعظمة رسالتك، وبعظمة جهاد كل الأنبياء الماضين، الجهاد الذي يشمل جميع الأبعاد الروحية والفكرية للناس، ويشمل كل الأصعدة المادية والمعنوية.

هذا التعبير يجسد أيضاً عظمة مقام القرآن، ذلك لأنّه وسيلة هذا الجهاد الكبير وسلاحه القاطع، فإنّ قدرته البيانية واستدلاله وتأثيره العميق وجاذبيته فوق تصور وقدرة البشر.

ثم يتناول القرآن الكريم مجدداً الاستدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نعمه في النظام الكوني، فيشير بعد ذكر المطر في الآيات السابقة إلى عدم الإختلاط بين المياه العذبة والمالحة: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

«مرج»: من مادة «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، وهنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب والمالح.

«عذب»: بمعنى سائغ وطيب وبارد، و«فرات» بمعنى لذيذ وهنيء.

«ملح»: بمعنى مالح، و«أجاج» بمعنى مُرّ وحار.

«برزخ»: بمعنى حجاب وحائل بين شيئين.

فهذه الآية تصور واحداً من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق في عالم مخلوقاته، وكيف يستقر حجاب غير مرئي، وحائل خفي بين البحر المالح والبحر العذب، فلا يسمح لهما بالاختلاط.

وقد اتّضح اليوم أنّ هذا الحجاب اللامرئي، هو ذلك «التفاوت بين كثافة المالح والعذب» وفي الإصطلاح «تفاوت الوزن النوعي» لهما، حيث يكون سبباً في عدم امتزاجهما إلى مدة طويلة.

إنّ جعل هذه الآية وسط آيات تتعلق بـ«الكفر» و«الإيمان» ربّما تكون أيضاً إشارة وتمثيلاً لهذا الأمر، ففي المجتمع الواحد أحياناً، وفي المدينة الواحدة، بل حتى في البيت الواحد أحياناً، يتواجد أفراد مؤمنون كالماء العذب والفرات، مع أفراد بلا إيمان كالماء المالح الأجاج... مع طرازين من الفكر، ونوعين من العقيدة، ونمطين من العمل، طاهر وغير طاهر، دون أن يمتزجا.

في الآية التالية ـ بمناسبة البحث في نزول المطر، وفي البحرين العذب والأجاج المتجاورين ـ يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الماء، فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾. أي إنّ الإنسان الأوّل خلق من ماء، وأن تكوّن جميع أفراد البشر من ماء النطفة أيضاً، وأنّ الماء يشكل أهم مادة في بناء جسم الإنسان أيضاً... الماء الذي يعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، كيف صار مبدأ إيجاد مثل هذا الخلق الجميل؟! وهذا دليل بيّن على قدرته تبارك وتعالى.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جلّ ذكره الكلام عن انتشار الأنسان، فيقول: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

المقصود من «النسب» هو القرابة التي تكون بين الناس عن طريق الذرية والولد، مثل إرتباط الأب والابن، أو الإخوة بعضهم مع بعض، أمّا المقصود من «صهر» التي هي في

الأصل بمعنى «الختن» هو الإرتباط الذي يقام بين طائفتين عن هذا الطريق، مثل إرتباط الإنسان بأقرباء زوجته.

في ختام الآية يقول تبارك وتعالى بصيغة التأكيد على المسائل الماضية: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

ويبيّن القرآن الكريم في نهاية المطاف في الآية الأخيرة ـ مورد البحث ـ انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايسة بين قدرة الأصنام وقدرة الخالق، حيث مرّت نماذج منها في الآيات السابقة، يقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾.

من المسلّم أنّ وجود المنفعة والضرر لا يكون وحده معيار العبادة، لكن القرآن يبيّن من خلال هذا التعبير هذه النكتة، وهي أنّهم يفتقدون أية حجة في هذه العبادة، لأنّ الأصنام موجودات عديمة الخاصية تماماً، وفاقدة لأية قيمة، ولأي تأثير سلبي أو إيجابي.

ويضيف القرآن الكريم في ختام الآية: أنّ الكفرة يعين بعضهم بعضاً في مواجهة خالقهم «في طريق الكفر» ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾. ويعبئون القوى ويقيمون العراقيل ضد دين الله ونبيّه والمؤمنين الحقيقيين.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

أجري هو هدايتكم: كان الكلام في الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع، وفي الآية الحالية الأولى يشير القرآن إلى مهمة النبي ﷺ قبالة هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أديت مهمتك في البشارة والإنذار.

هذا الخطاب، كما يشخص مهمّة النبي ﷺ، كذلك يسلّيه، وفيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، وعدم المبالاة بهم.

ثم يأمر النبي ﷺ أن يقول لهم أنني لا أُريد منكم في مقابل هذا القرآن وابلاغكم رسالة

السماء أي أجر وعوض: ﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. ثم يضيف: إنّ الأجر الوحيد الذي أطلبه أن يهتدي الناس إلى طريق الله ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

يعني أجري وجزائي هو هدايتكم فقط، وبكامل الإرادة والاختيار أيضاً، فلا إكراه ولا إجبار فيه، وكم هو جميل هذا التعبير الكاشف عن غاية لطف ومحبة النبي ﷺ لأتباعه، ذلك لأنّه عدّ أجره وجزاءه سعادتهم.

وتبيّن الآية التي بعدها المعتمد الأساس للنبي ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾.

فمع هذا المعتمد والملجأ فلا حاجة لك بأجر وجزاء هؤلاء، ولا خوف عليك من ضررهم ومؤامراتهم.

والآن حيث الأمر على هذه الصورة فسبح الله تنزيهاً له من كل نقص، وأحمده إزاء كل هذه الكمالات: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾.

ثم يضيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان ومؤامرات الأعداء، لأنّ الله مطلع على ذنوب عباده وسيحاسبهم: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾.

الآية التالية بيان لقدرة الخالق في ساحة عالم الوجود، ووصف آخر لهذا الملاذ الأمين. يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فأخذ بتدبير العالم.

إنّ من له هذه القدرة الواسعة يستطيع أن يحفظ المتوكلين عليه من كل خطر وحادثة.

وفي ختام الآية يضيف تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾: من شملت رحمته العامة جميع الموجودات، فالمطيع والعاصي والمؤمن والكافر يغترفون من خوان نعمته التي لا انقطاع فيها.

والآن، حيث ربّك الرحمن القادر المقتدر، فإذا أردت شيئاً فاطلب منه فإنّه المطلع على احتياجات جميع عباده: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾
تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

البروج السماوية: كان الكلام في الآيات الماضية عن عظمة وقدرة الله، وعن رحمته

أيضاً، ويضيف الله تعالى في الآية الأولى هنا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

نحن لا نعرف «الرحمن» أصلًا، وهذه الكلمة ليس لها مفهوم واضح عندنا، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾. نحن لا نخضع لأيّ أحد، وسوف لن نكون أتباع أمر هذا أو ذاك، ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾. أي أنّهم يتكلمون بهذا الكلام ويزدادون ابتعاداً ونفوراً عن الحق.

لا شكّ أنّ أنسب اسم من أسماء الله للدعوة إلى الخضوع والسجود بين يديه، هو ذلك الاسم الممتلىء جاذبية «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامّة الواسعة، لكن أولئك بسبب عمى قلوبهم ولجاجتهم، لم يظهروا تأثراً حيال هذه الدعوة، بل تلقوها بالسخرية والاستهزاء، وقالوا على سبيل التحقير: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

الآية التالية إجابة على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «وما الرحمن؟» وإن كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية، لكن القرآن يجيبهم إجابة جادة، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجًا﴾. «البروج»: جمع «برج» في الأصل بمعنى «الظهور» ولذا يسمون ذلك القسم الأعلى والأظهر من جدار أطراف المدينة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج». فالبروج السماوية إشارة إلى الصور الفلكية الخاصة حيث تستقر الشمس والقمر في كل فصل وكل موضع من السنة إزاء واحد منها، يقولون مثلًا: استقرت الشمس في برج «الحمل» يعني أنّها تكون بمحاذاة «الصورة الفلكية»، «الحمل»، أو القمر في «العقرب» يعني وقفت كرة القمر أمام الصورة الفلكية «العقرب».

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس والقمر السماوية، وتضيف على أثر ذلك: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

مع هذه الدلائل الواضحة، ومع هذه المنازل البديعة والدقيقة للشمس والقمر، فهل مازلتم تجهلونه وتقولون: «وما الرحمن؟!»

في الآية الأخيرة يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، ويتحدث مرّة أخرى في قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

هذا النظام البديع الحاكم على الليل والنهار، لولاه لانعدمت حياة الإنسان نتيجةً لشدة النور والحرارة أو الظلمة والعتمة، وهذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا الله عزّ وجل.

وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا
سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ
قَوَامًا ﴿٦٧﴾

الصفات الخاصة لعباد الرحمن: هذه الآيات ـ فما بعد ـ تستعرض بحثاً جامعاً فذاً حول الصفات الخاصة لعباد الرحمن، وتبيّن اثنتي عشر صفة من صفاتهم الخاصّة، إكمالاً للآيات الماضية حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم الله «الرحمن» يقولون وملء رؤوسهم استهزاء وغرور «وما الرحمن؟» ورأينا أنّ القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، وجاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن».

إنّ أوّل صفة لـ«عباد الرحمن» هو نفي الكبر والغرور والتعالي، الذي يبدو في جميع أعمال الإنسان حتى في طريقة المشي، لأنّ الملكات الأخلاقية تظهر نفسها في حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان بحيث إنّ من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه ـ بدقة ـ من أسلوب مشيته. يقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1].

نعم، إنّهم متواضعون، والتواضع مفتاح الايمان، في حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر.

الصفة الثانية لـ«عباد الرّحمن» الحلم والصبر، كما يقول القرآن في مواصلته هذه الآية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾. السلام الذي هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، وليس الناشيء عن الضعف؛ وليس سلام التحية الذي هو علامة المحبة ورابطة الصداقة، بل السلام الذي هو علامة الحلم والصبر والعظمة.

وتتناول الآية الثانية، خاصيتهم الثالثة التي هي العبادة الخالصة لله، فيقول تعالى:

---

١. «هون»: مصدر، وهو بمعنى الناعم والهادي المتواضع، واستعمال المصدر في معنىٰ اسم الفاعل هنا للتوكيد؛ يعني أنّهم في ما هم عليه كأنّهم عين الهدوء والتواضع.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾. في عتمة الليل حيث أعين الغافلين نائمة، وحيث لا مجال للتظاهر والرياء، حرّموا على أنفسهم لذة النوم، ونهضوا إلى ما هو ألذّ من ذلك، حيث ذكر الله والقيام والسجود بين يدي عظمته عزّ وجلّ.

الصفة الرابعة لهم هي الخوف من العذاب الإلهي: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾. أي شديداً ومستديماً. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

ومع أنّهم مشتغلون بذكر الله وعبادته في الليالي، ويقضون النهار في إنجاز تكاليفهم، فإنّ قلوبهم أيضاً مملوءة بالخوف من المسؤوليات.

«غرام»: في الأصل بمعنى المصيبة والألم الشديد الذي لا يفارق الانسان. وتطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأنّ عذابها شديد ودائم لا يزول.

في الآية الأخيرة يشير جل ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة لـ«عباد الرحمن» التي هي الإعتدال والإبتعاد عن أي نوع من الإفراط والتفريط في الأفعال، خصوصاً في مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

الملفت للإنتباه أنّه يورد الكلام في كيفية إنفاقهم فيقول: إنّ إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أي إسراف وبخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم وأولادهم جياعاً، ولا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم وعطاياهم.

إنّ «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، وفي غير حق، وبلا داع، و«الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

«قوام»: لغة بمعنى العدل والإستقامة والحد والوسط بين شيئين.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

ميزة «عباد الرحمن» السادسة التي وردت في هذه الآيات هي التوحيد الخالص الذي

يبعدهم عن كل أنواع الشرك والثنوية والتعددية في العبادة، فيقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

الصفة السابعة: طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ويستفاد جيداً من الآية أعلاه أنّ جميع الأنفس الإنسانية محترمة في الأصل، ومحرم إراقة دمائها إلّا إذا تحققت أسباب ترفع هذا الإحترام الذاتي فتبيح إراقة الدم.

صفتهم الثامنة: هي أنّ عفافهم لا يتلوث أبداً: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

إنّهم على مفترق طريقين: الكفر والايمان، فينتخبون الايمان، وعلى مفترق طريقين: الأمان واللاأمان في الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، وعلى مفترق طريقين: الطهر والتلوث، فهم يتخيرون النقاء والطهر. إنّهم يهيئون المحيط الخالي من كل أنواع الشرك والتعدي والفساد والتلوث، بجدهم واجتهادهم.

وفي ختام هذه الآية يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

«الإثم» و«آثام»: في الأصل بمعنى الأعمال التي تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبة، ثم أطلقت على كل ذنب، لكنها هنا بمعنى جزاء الذنب.

تتكيء الآية التالية أيضاً على ما سبق، من أنّ لهذه الذنوب الثلاثة أهمية قصوى، فيقول تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

والمقصود من مضاعفة العذاب أنّ كل ذنب من هذه الذنوب الثلاثة المذكورة في هذه الآية سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذاباً مضاعفاً.

فضلًا عن أنّ ذنباً ما يكون أحياناً مصدر الذنوب الأخرى، مثل الكفر الذي يسبب ترك الواجبات وارتكاب المحرمات، وهذا نفسه موجب لمضاعفة العذاب الإلهي.

لكن القرآن المجيد كما مرّ سابقاً، لم يغلق طريق العودة أمام المجرمين في أي وقت من الأوقات، بل يدعو المذنبين إلى التوبة ويرغبهم فيها، ففي الآية التالية يقول تعالى هكذا: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تبديل السيئات حسنات: هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعاً:

١ـ حينما يتوب الإنسان ويؤمن بالله، تتبدل سيئات أعماله في المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلًا للنفس المحترمة في الماضي، فإنّه يتبنىٰ مكانها في المستقبل الدفاع عن المظلومين

ومواجهة الظالمين. وهذا التوفيق الإلهي يناله العبد في ظل الإيمان والتوبة.

٢ـ إنّ الله تبارك وتعالى بلطفه وكرمه وفضله وإنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، ويضع مكانها حسنات.

٣ـ والمقصود من السيئات آثارها السيئة التي تنطبع بها روح ونفس الإنسان، فحينما يتوب ويؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه ونفسه.

الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[١]. يعني أنّ التوبة وترك الذنب ينبغي ألّا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغي ـ إضافة إلى ذلك ـ أن يكون الدافع إليها خلوص النية، والعودة إلى الله تبارك وتعالى.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

الصفة التاسعة لـ«عباد الرحمن»، هي احترام وحفظ حقوق الآخرين: إنّ هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقاً: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. والمقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعني أنّ عباد الرّحمن لا يتواجدون في مجالس الباطل. فعباد الرّحمن لا يؤدون الشهادة الكاذبة، ولا يشهدون مجالس اللهو والباطل والخطيئة، ذلك لأنّ الحضور في هذه المجالس ـ فضلاً عن ارتكاب الذنب ـ فإنّه مقدمة لتلوث القلب والروح.

ثم يشير تعالى في آخر الآية إلى صفتهم الرفيعة العاشرة، وهي امتلاك الهدف الإيجابي في الحياة، فيقول: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

إنّهم لا يحضرون مجالس الباطل، ولا يتلوثون باللغو والبطلان.

الصفة الحادية عشر لهذه النخبة امتلاك العين الباصرة والأذن السامعة حين مواجهتهم

---

١. «متاب»: مصدر ميمي بمعنى التوبة، ولأنّه مفعول مطلق هنا، فهو للتوكيد.

لآيات الخالق، فيقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

من المسلّم أنّ المقصود ليس الإشارة إلى عمل الكفار، ذلك لأنّهم لا اعتناء لهم بآيات الله أصلاً، بل إنّ المقصود: فئة المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات الله بأعين وآذان موصدة، دون أن يتدبّروا حقائقها، ويستهدوه في أعمالهم.

التلقي الواعي عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة والثبات والصمود، لأنّ من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، وبتحريفه يتم الإنحراف عن الخط الأصيل، فيهوي بهم ذلك إلى وادي الكفر والضلالة وعدم الإيمان.

الصفة الثانية عشر الخاصّة لهؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هي التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم وعوائلهم، وإيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

بديهي أنّ معنى هذا ليس أن يقبعوا في زاوية ويتضرعوا بالدعاء، بل إنّ الدعاء دليل شوقهم وعشقهم الداخلي لهذا الأمر، ورمز جدهم واجتهادهم.

والصفة الثالثة عشر لـ«عباد الرحمن»، التي هي أهم هذه الصفات من وجهة نظر معينة: هي أنّهم لا يقنعون أبداً أنّهم على طريق الحق، بل إنّ همتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة وقدوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضاً. إنّهم ليسوا كالزهاد المنزوين في الزوايا، وليس همّهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إنّ سعيهم هو أن ينقذوا الغرق. لذا يقول في آخر الآية، إنّهم الذين يقولون: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

نعم، إنّهم عباد الرحمن، وكما أنّ رحمة الله العامة تشمل الجميع فإنّ رحمة الله بهؤلاء العباد عامة أيضاً من أكثر من جهة، فعلمهم وفكرهم وبيانهم وقلمهم ومالهم وقدرتهم تخدم بلا انقطاع في طريق هداية خلق الله.

أُولئك نماذج الإنسان الكامل والأُسوة في المجتمع الإنساني.

أُولئك قدوات المتقين.

بعد إكمال هذه الصفات الثلاثة عشرة، يشير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، وفي صورة الكوكبة الصغيرة، فيبيّن جزاءهم الإلهي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾. «غرفة»: من مادة «غرف» (على وزن حرف) بمعنى رفع الشيء وتناوله، ويقال لما يغترف ويتناول «غرفة»، ثم أُطلقت على الأقسام العليا من البناء، ومنازل

الطبقات العليا، وهي هنا كناية عن أعلى منازل الجنة.

المهم أنّ الصبر ليس وصفاً جديداً لهم، بل هو ضمانة تطبيق جميع الصفات السابقة، وعلى هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل والصمود أمام مشكلات طريق الحق، والجهاد والمواجهة ضد العصاة، والوقوف أمام دواعي الذنوب، تجتمع كلها في ذلك المفهوم.

ثم يضيف تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾.

أهل الجنّة يحيي بعضهم بعضاً، وتسلم الملائكة عليهم، وأعلى من كل ذلك أنّ الله يحييهم ويُسلم عليهم.

ثم يقول تبارك وتعالى للتأكيد أكثر: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لولا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة: هذه الآية التي هي الآية الأخيرة في سورة الفرقان، جاءت في الحقيقة نتيجة لكل السورة، وللأبحاث التي بصدد صفات «عباد الرحمن» في الآيات السابقة، فيقول تبارك وتعالى مخاطباً النبي ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾. وبناء على هذا، إنّ ما يعطيكم الوزن والقيمة والقدر عند الله هو الإيمان بالله والتوجه إليه، والعبودية له.

ثم يضيف تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

يعني: أنّكم قد كذبتم فيما مضى بآيات الله وبأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى الله، ولم تسلكوا طريق الإيمان به والعبودية له، فلن تكون لكم أية قيمة أو مقام عنده، وستحيط بكم عقوبات تكذيبكم.

«نهاية تفسير سورة الفرقان»

٢٦

سورة الشّعراء

وهي مائتان وسبع وعشرون آية

مكية

محتوى السورة: إنّنا نعلم أنّ السور المكية التي أنزلت في بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الأُصول الاعتقادية: التوحيد والمعاد، ودعوة أنبياء الله، وأهمية القرآن.

وتدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريباً.

ويمكن تلخيص محتوى هذه السورة في عدة أقسام:

١ـ مطلع هذه السورة الذي يتكون من الحروف المقطعة، ثم يتحدث في عظمة القرآن، وتسلية النبي ﷺ في مواجهة إصرار وحماقة المشركين، والإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، وصفات الله تبارك وتعالى.

٢ـ يحكي جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام ومواجهاتهم مع أقوامهم، والذي يشبه كثيراً منطق مشركي عصر النبي ﷺ، فكان هذا سبباً في تسلية النبي ﷺ والمؤمنين الأوائل.

وفيه بشكل خاص أيضاً، تركيز على العذاب العظيم والابتلاءات المروعة التي حلّت بهذه الأمم، والذي هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النبي في تلك الشرائط.

٣ـ وتغلب عليه جنبه الإستنتاج من القسمين الأوليين، يتناول الحديث حول النبي ﷺ، وعظمة القرآن، وتكذيب المشركين، والأوامر الصادرة إلى النبي ﷺ فيما يتعلق بطريقة الدعوة، وكيفية التعامل مع المؤمنين، ويختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، وبالتهديد الشديد للظالمين.

وبالمناسبة، فإنّ اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التي تتحدث حول الشعراء غير المؤمنين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ﷺ وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وابراهيم ﷺ وبعدد من كذّب بعيسى ﷺ وصدّق بمحمّد ﷺ».

والمراد من التلاوة هي ما كانت مقدمة للتفكر، ثم العزم والعمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾

مرّة أخرى نواجه في بداية هذه السورة مثلاً آخر من الحروف المقطعة وهو: ﴿طسم﴾.

ورد في روايات متعددة عن النبي ﷺ أو بعض أصحابه في تفسير «طسم» أنّ هذه الحروف علامات «مختصرة» عن أسماء الله تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنة.

وهذه الرّوايات تؤيد التّفسير الذي نقلناه في مستهلّ سورة الأعراف في هذا الصدد، كما أنّها في الوقت ذاته لا تنافي ما قلناه في مستهل سورة البقرة من أنّ المراد من هذه الحروف بيان إعجاز القرآن وعظمته، حيث إنّ هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطة وصغيرة.

والآية التالية تبيّن عظمة القرآن بهذا النحو: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

ووصف القرآن بـ«المبين» المشتق من «البيان»، هو إشارة إلى كونه جليّاً بيّناً عظيماً معجزاً ـ فكلّما أمعن الإنسان النظر في محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر... ثم بعد هذا فإنّ القرآن يبيّن الحق ويميزه عن الباطل، ويوضّح سبيل السعادة والنصر والنجاة من الضلال.

وتتحرك الآية التالية لتُسرّي عن قلب النبي ﷺ وتثبته فتقول: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. «باخع»: مشتقة من «البَخْع»، ومعناه إهلاك النفس من شدة الغمّ.

أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على أُممهم ولا سيما الرسول الأعظم ﷺ الذي ورد في شأنه هذا التعبير القرآني أكثر من مرّة...

قال بعض المفسرين: إنّ سبب نزول الآية الآنفة الذكر هو أنّ النبي ﷺ كان يدعو أهل مكة إلى توحيد الله باستمرار، إلّا أنّهم لم يؤمنوا، فأسف النبي وتأثر تأثراً بالغاً حتى بدت أماراته في وجهه، فنزلت الآية آنفة الذكر لتسرّي عن قلب النبي ﷺ[1].

ولبيان أنّ الله على كل شيء قدير حتى أنّه يستطيع أن يسوقهم إلى الايمان به سوقاً ويضطرّهم إلى ذلك، فإنّ الآية التالية تقول: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

وهي إشارة إلى أنّ الله قادر على إنزال معجزة مذهلة ـ من السماء ـ أو أن يرسل عليهم عذاباً شديداً فيذعنوا له، ويطأطئوا برؤوسهم خضوعاً له، ويستسلموا لأمره وحكمه، إلّا أنّ الايمان بإكراه لا قيمة له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادة ووعي وإدراك وتفكر.

ثم يتحدث القرآن عن مواقف المشركين والكفار من آيات القرآن فيقول: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

والتعبير بـ«الرحمن» إشارة إلى أنّ نزول هذه الآيات من قبل الله إنّما هو من رحمته العامة، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعادة والكمال.

والتعبير بـ«محدث» ـ أي جديد ـ إشارة إلى أنّ آيات القرآن تنزل واحدةٌ تلو الأخرى، وكل منها ذو محتوى جديد.

ثم يضيف القرآن: أنّ هؤلاء لا يقفون عند حدود الإعراض، بل يتجاوزون إلى مرحلة التكذيب، بل إلى أشدّ منه ليصلوا إلى الإستهزاء به، فيقول: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. «الأنباء»: جمع «انبأ»، أي الخبر المهم، والمراد من هذه الكلمة ما سيصيبهم من العقاب الشديد الدنيوي والأخروي.

والتحقيق في هذه الآية والآية السابقة يكشف أنّ الإنسان حين ينحرف عن الجادة المستقيمة فإنّه يفصل نفسه عن الحق ـ بشكل مستمر.

---

١. تفسير روح الجنان ٨/٣٢٤.

في المرحلة الأُولى يعرض عن الحق ويصرف بوجهه عنه... ثم بالتدريج يبلغ مرحلة الإنكار والتكذيب.. ثم يتجاوز هذه المرحلة إلى السخرية والإستهزاء... ونتيجةً لذلك ينال عقاب الله وجزاءه (وقد ورد نظير هذا التعبير في الآيتين ٤ و ٥ من سورة الأنعام).

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

الزوجية في النباتات: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعية (أي القرآن المجيد)، أمّا في الآيات محل البحث فالكلام عن الآيات التكوينية ودلائل الله في خلقه وما أوجده سبحانه؛ فتقول الآية الأُولى من هذه الآيات: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾. «كريم»: في الأصل تعني كل شيء قيّم وثمين.

والمراد من ﴿**كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ هو النباتات المهمّة ذوات الفائدة.

وتأتي الآية التالية لتقول مؤكّدة بصراحة: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً**﴾. إلّا أنّ أُولئك الذين طُبع على قلوبهم في غفلة وجهل إلى درجة يرون معها آيات الله بأعينهم، ومع ذلك يجحدونها ويكفرون بها، ويترسخ في قلوبهم العناد والجدل. لذلك فإنّ الآية هذه تعقّب قائلة: ﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾. أي إنّ عدم الإيمان لدى أُولئك أمسى كالصفة الراسخة فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يرد الخطاب في تعبير يدل على التهديد والترهيب والتشويق والترغيب، فيقول سبحانه: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾.

«العزيز»: معناه المقتدر الذي لا يغلب ولا يُقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنّه قادر على إهلاك المكذبين وتدميرهم.. إلّا أنّه مع كل ذلك رحيم، ورحمته وسعت كل شيء، ويكفي الرجوع بإخلاص إليه في لحظة قصيرة، لتشمل رحمته من أناب إليه وتاب، فيعفو عنه بلطفه ورحمته.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

بداية رسالة موسى: قلنا إنّ في هذه السورة بياناً لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامّة المسلمين، ولا سيما المسلمين الأوائل في عصر النبي ﷺ... فأوّل قصّة تتناولها هذه السورة هي قصة موسى ﷺ، وتشرح جوانب مختلفة من حياته ومواجهته لفرعون وأتباعه حتى هلاكهم بالغرق في النيل.

وممّا يلفت النظر تكرار عبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، بعد تمام الحديث عن كل نبي... وهو التعبير ذاته الوارد في بداية هذه السورة في شأن النبي محمّد ﷺ.. وهذا الإتساق في التعبير شاهد حيّ على أنّ ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنّما هو للظروف المتشابهة التي أكتنفت المسلمين من حيث الحالة النفسية والإجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون...

فتقول الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾. ويتركون ظلمهم وفسادهم وعنادهم للحق.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هي الظلم، ومن الواضح أنّ الظلم له معنى جامع واسع ومن مصاديقه الشرك كما تقول الآية (١٣) من سورة لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

كما أنّ استعباد بني إسرائيل واستثمارهم وما قارنهما من زجر وتعذيب من المصاديق الأخرى أيضاً، ثم بعد هذا كلّه فإنّ قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، وهكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم بجميع أبعاده...

ويحكي القرآن مقالة موسى الكليم لربّ العزة وما طلبه منه من مزيد القوة والعون لحمل الرسالة العظمى، فيقول في الآية التالية: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾. وأخشى أن أُطرد قبل أن أكمل أداء رسالتي بما ألاقيه من صخب وتكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود...

وكان لموسى الحق في كلامه هذا تماماً، لأنّ فرعون وأتباعه وحاشيته كانوا مهيمنين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم ولو برأيه، وإذا أحسّوا بأدنى نغمة مخالفة لأي شخص بادروا إلى الإجهاز عليه فوراً..

وإضافة إلى ذلك فإنّ صدري لا يتّسع لاستيعاب هذه الرسالة الإلهية: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾.

ثم بعد هذا كلّه فلساني قد يعجز عن بيانها: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾...

فلذلك فإنّي أطلب أن تشدّ أزري بأخي: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

لنؤدّي رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا في مواجهة الظالمين والمستكبرين.

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ قوم فرعون يطاردونني ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ كما يعتقدون لأنّي قتلت واحداً منهم ـ حين كان يتنازع مع إسرائيلي مظلوم ـ بضربة حاسمة، وأنا قلق من ذلك: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

إنّ موسى لم يكن خائفاً على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف والمقصد للأسباب آنفة الذكر، لذلك فقد كان يطلب من الله سبحانه مزيد القوة لهذه المواجهة...

فاستجاب الله طلب موسى ودعوة الصادقة و﴿قَالَ كَلَّا﴾. فلن يستطيعوا قتلك، أو كلاّ لن يضيق صدرك وينعقد لسانك، وقد أجبنا دعوتك أيضاً في شأن أخيك، فهو مأمور معك في هذه المهمة: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ لتدعوا فرعون وقومه إلى توحيد الله.

ولا تظنّا بأنّ الله بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾...

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ
أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا
خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

مواجهة فرعون مواجهة منطقية وقاطعة: انتهت في الآيات المتقدمة المرحلة الأُولى لمأمورية موسى عليه السلام وهي موضوع الوحي والرسالة وطلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير... وتعقيباً على المرحلة الآنفة تأتي الآيات ـ محل البحث ـ لتمثل المرحلة الثانية، أي مواجهة موسى وهارون لفرعون، والكلام المصيري الذي جرى بينهم. تقول الآية الأُولى من هذه الآيات مقدمة لهذه المرحلة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وضمن دعوتكما لفرعون بأنّكما رسولا ربّ العالمين اطلبا منه أن يُرسل بني إسرائيل ويرفع يده عنهم: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وبديهي أنّ المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بني إسرائيل نير العبودية والقهر

والإستعباد، ليتحرروا ويأتوا مع موسى وهارون، وليس المراد هو إرسال بني إسرائيل معهما فحسب.

وهنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسة وممزوجة بالخبث والشيطنة لينفي الرسالة ويقول لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...﴾. إذْ التقطناك من أمواج النيل الهادرة فانقذناك من الهلاك، وهيّأنا لك مرضعة، وعفونا عن الحكم الصادر في قتل أبناء بني إسرائيل الذي كنت مشمولاً به، فتربّيت في محيط هادىء آمن منعّماً... وبعد أن تربيت في بيتنا عشت زماناً ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

ثم توجه إلى موسى وذكره بموضوع قتل القبطي فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾.

ثم بعد هذا كلّه: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وعندما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث والشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلّا أنّه قدّم الإجابة على الإشكال الثاني نظراً لأهميته. (أو أنّه أساساً لم يجد الإشكال الأوّل يستحق الإجابة، لأنّ تربية الشخص لا تكون دليلاً على عدم جواز هداية مربّيه إن كان المربي ضالاً، ليسلك سبيل الرشاد) وأجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

إنّ موسى عليه السلام استخدم التورية في تعبيره جواباً على كلام فرعون، فقال كلاماً ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق في ذلك الزمان... لكن الله عرّفه إيّاه بعدئذ، ووهب له حكماً ـ فجعله من المرسلين، إلّا أنّه كان يقصد في الباطن أنّه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدّي إلى هذه النتيجة من الجهد والعناء واضطراب البال ـ مع أنّ أصل عمله كان حقاً ومطابقاً لقانون العدالة.

ثم يضيف موسى قائلاً: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم يردّ موسى عليه السلام على كلام فرعون الذي يمنّ به عليه في أنّه ربّاه وتعهده منذ طفولته وصباه، معترضاً عليه بلحن قاطع فيقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

حتى أمرت أن يُقتل الأطفال الذكور وتستحيا النساء للخدمة.

فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سبباً لأن تضعني أُمي في الصندوق حفاظاً علي، وتلقيني في أمواج النيل، وكانت مشيئة الله أن تسوق الأمواج «زورقي» الصغير حتى توصله إلى قصرك... أجل إنّ ظلمك الفاحش هو الذي جعلني رهين منّتك وحرمني من بيت أبي الكريم، وصيرني في قصرك الملوّث...

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

حين واجه موسىعليه السلام فرعون بلهجة شديدة وأجابه بضرس قاطع، وأفحم فرعون في ردّه، غيّر فرعون مجرى كلامه، وسأل موسى عن معنى كلامه أنّه رسول رب العالمين، و﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وفرعون قد سأل موسىعليه السلام هذا السؤال متجاهلًا ومستهزئاً.

إلّا أنّ موسى لم يجد بُداً أن يجيب على فرعون بجدّ... وحيث إنّ ذات الله سبحانه بعيدة عن متناول أفكار الناس، فإنّه أخذ يحدثه عن آيات الله في الآفاق وآثاره الحية إذ: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

وينبغي الإلتفات إلى أن عبدة الأوثان كانوا يعتقدون أنّ لكل موجود في هذا العالم ربّاً، وكانوا يعدّون العالم تركيباً من نُظُم متفرقة، إلّا أنّ كلام موسىعليه السلام يشير إلى أنّ هذا النظام الواحد المتحكم على هذه المجموعة في عالم الوجود دليل على أنّ له ربّاً واحداً...

وجملة ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ لعلها إشارةً إلى أنّ موسىعليه السلام يريد أن يفهم فرعون ومن حوله ـ ولو تلويحاً ـ أنّه يعرف أنّ الهدف من هذا السؤال ليس إدراك الحقيقة... لأنّه لو أراد إدراك الحقيقة والبحث عنها لكان استدلاله كافياً.. لتصححوا نظرتكم نحو الكون.

إلّا أنّ فرعون عاد لمواصلة الاستهزاء والسخرية، واتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾.

ومعلوم من هم الذين حول فرعون، فهم أشخاص من نسيجه وجماعة من أصحاب القوة والظلم والقهر والمال.

وكان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقي يؤثر في القلوب المظلمة لأولئك الرهط... فعدّه كلاماً بلا محتوى وغير مفهوم.

إلّا أنّ موسىعليه السلام عاد مرّةً أخرى إلى كلامه المنطقي دون أي خوف ولا وهن ولا إيهام، فواصل كلامه و﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

إنّ موسى عليه السلام بدأ في المرحلة الأُولى بـ«الآيات الآفاقية»، وفي المرحلة الثانية أشار إلى «الآيات الأنفسية»، إلّا أنّ فرعون تمادى في حماقته، وتجاوز مرحلة الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، فـ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

وذلك ما اعتاده الجبابرة والمستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الرّبانيين، إلّا أنّ هذه التهمة لم تؤثر في روح موسى عليه السلام ومعنوياته العالية، وواصل بيان آثار الله في عالم الإيجاد في الآفاق والأنفس، مبيناً خط التوحيد الأصيل فـ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فإذا كنت ـ يا فرعون ـ تحكم حكماً ظاهرياً في أرض محدودة تدعى مصر، فإنّ حكومة ربّي الواقعية تسع المشرق والمغرب وما بينهما جميعاً، وآثاره تشرق في وجوه الموجودات.

غير أنّ هذا المنطق المتين الذي لا يتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلى استعمال «حربة» يفزع إليها المستكبرون عند الإندحار، فجابه موسى و﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

إنّ فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الإرهابي، لأنّ مواصلة موسى عليه السلام بمثل هذه الكلمات ستكون سبباً في إيقاظ الناس.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾
قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

رأينا في الآيات المتقدمة أنّ فرعون يلجأ إلى التهديد بالسجن والإعدام، وهنا يقلب موسى عليه السلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقةً أُخرى يخذل فيها فرعون ويعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوة أيضاً، القوة الإلهية التي تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدّياً و﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾.

وهنا وجد فرعون نفسه في طريق مغلق مسدود، لأنّ موسى عليه السلام أشار إلى خطّة جديدة ولفت أنظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لاعترض عليه الجميع.

فاضطر فرعون إلى الإستجابة لاقتراح موسى عليه السلام و﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ «بأمر الله».

ثم أظهر إعجازاً آخر حيث أدخل يده في جيبه (أعلى الثوب) وأخرجها فإذا هي بيضاء منيرة: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

إنّ هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والأُخرى مظهر الأمل، فالأُولى تناسب مقام الإنذار، والثانية للبشارة.

غير أنّ فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول وغرق في وحشة عميقة ولكي يحافظ على قدرته الشيطانية التي أحدق بها الخطر بظهور موسى عليه السلام، وكذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه والملأ من حوله في توجيه معاجز موسى ولفت نظرهم عنها، فقد ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

ذلك الإنسان الذي كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفة، وإذا هو الآن يعبر عنه بالعليم.

ومن أجل أن يعبّيء الملأ ويثير حفيظتهم ضد موسى عليه السلام، قال لهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

والغريب في الأمر أنّ فرعون الذي قال هذا الكلام هو الذي كان يقول من قبل: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾. والآن حيث يرى عرشه متزعزعاً ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، ويعدّها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم في خطر.

يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون؟!» إنّها استشارة عاجزة ومن موقف الضعف فحسب.

وبعد المشاورة فيما بينهم التفت الملأ من قوم فرعون إليه و﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾[1]. أي: أمهلهما وابعث رسلك إلى جميع المناطق والأمصار، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

وقالوا: لحسن الحظ إنّ في بلادنا العريضة سحرةً كثيرين، فلابدّ من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السلام.

---

١. «أرجه»: مشتقة من «الإرجاء» ومعناها التأخير وعدم الإستعجال في القضاء.
«حاشرين»: مأخوذة من مادة «الحشر» ومعناه التعبئة والسوق لميدان الحرب وأمثال ذلك.

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا
إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

اجتماع السحرة من كل مكان: في هذه الآيات يُعرض مشهداً آخر من هذه القصة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحرة والبحث عنهم، وكان الوعد المحدد: ﴿**فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ**﴾.

وبتعبير آخر: إنّهم هيأوهم من قبل لمثل هذا اليوم.

وطُلب من الناس الحضور في هذا المشهد: ﴿**وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ**﴾.

وقيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور والاجتماع هو أنّ السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الآلهة وينبغي علينا اتباعهم: ﴿**لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ**﴾. فلابدّ من تهييج الساحة للمساعدة في هزيمة عدو الآلهة إلى الأبد.

كل هذا من جهة، ومن جهة أُخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون: ﴿**فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ**﴾.

وكان فرعون قلقاً مضطرب البال، لأنّه في طريق مسدود، وكان مستعداً لأن يمنح السحرة أقصى الإمتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و﴿**قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ**﴾.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ
إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ
لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ
وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾

حين اتفق السحرة مع فرعون ووعدهم بالأجر والقرب منه، وشدّ من عزمهم، فإنّهم

بدأوا بتهيئة المقدمات ووفروا خلال ماسنحت لهم الفرصة عصيّهم وحبالهم، ويظهر أنّهم صيّروها جوفاء وطلوها بمادة كيميائية كالزئبق ـ مثلاً ـ بحيث تتحرك وتلمع عند شروق الشمس عليها.

وأخيراً كان اليوم الموعود والميقات المعلوم، وانثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخية: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

وأمّا السحرة الغارقون بغرورهم، والذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم في هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين ومؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السلام: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

وهنا ـ كما يبيّن القرآن في الآية (٦٦) من سورة طه ـ تحركت العصيّ كأنّها الأفاعي والثعابين و﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

فتهللت أسارير وجوه الناس ووجه فرعون فرحاً، وأشرق الأمل في عيني فرعون وأتباعه، إلّا أنّ موسى عليه السلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد ويدوم هذا الفصل المثير، فتقدم: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت إلى ثعبان عظيم وبدأت بالتهام وسائل وأدوات السحرة بسرعة بالغة: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[2].

وهنا فر جماعة من مكانهم وبقي آخرون يترقبون نهاية المشهد، وأفواه السحرة فاغرة من الدهشة...

وتبدّل كل شيء، وثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا ـ إلى تلك اللحظة ـ مع فرعون غارقين في الشيطنة، ولأنّهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه، فإنّهم تيقنوا أنّ عصا موسى لم تكن سحراً، بل هي معجزة إلهية كبرى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾.

واقترن هذا العمل العبادي ـ وهو السجود ـ بالقول بلسانهم فـ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ولئلّا يبقى مجال للإبهام والغموض والتردد، ولئلّا يفسر فرعون ذلك تفسيراً آخر فإنّهم قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

---

١. «الحبال»: جمع «حبل» على وزن (طبل) ومعناها واضح؛ و«العصي»: جمع العصا.

٢. «تلقف»: مشتق من «اللقف» على زنه (السقف) ومعناه إمساك الشيء بسرعة، سواء كان ذلك باليد أم الفم، ومعلوم أنّ المراد هنا الإمساك بالفم والإبتلاع.

«يأفكون» مشتق من «الإفك» ومعناه الكذب، وهي إشارة إلى وسائلهم الباطلة.

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوماً معنوياً ويرى من جانب آخر أنّ وجوده وسلطانه في خطر، وخاصة أنّه كان يعرف أيّ تأثير عميق لايمان السحرة في قلوب سائر الناس، ومن الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تذرع بوسيلة جديدة وابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

لقد تربع على عرش الإستبداد سنين طوالاً، كان ترقّبه أن تكون قلوب الناس وأفكارهم مرهونةً به وبأمره، إلّا أنّ فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين أُخريين ليثبت موقعه كما يتصوّر أوّلاً، وليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلةً نياماً.

فاتّهم السحرة أوّلاً بأنّهم تآمروا مع موسى عليه السلام على أهل مصر جميعاً، فقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

إلّا أنّي لا أدعكم تنتصرون في هذه المؤامرة، وسأخنق المؤامرة في مهدها ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إلّا أنّ فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأنّ السحرة قبل لحظة ـ والمؤمنين في هذه اللحظة ـ قد غمر قلوبهم الايمان، بحيث لم يهزّهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرس قاطع واحبطوا خطته و﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

ثم أضافوا بأنّهم واجهوا النبي موسى عليه السلام من قبل بالتكذيب وأذنبوا كثيراً، ولكن مع ذلك فـ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّنا لا نستوحش اليوم من أي شيء، لا من تهديداتك، ولا من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ولا من الصلب على جذوع النخل.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾

في الآيات المتقدمة رأينا كيف أنّ موسى خرج منتصراً من تلك المواجهة وهذه الأُمور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السلام دعوته بين الناس، ويتمّ الحجة عليهم.

ومرّت سنون طوال على هذا المنوال، وموسى عليه السلام يظهر المعاجز تلو المعاجز، ولمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحجة البالغة، وامتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحي على موسى أن يخرج بقومه من مصر، والآيات التالية تجسد هذا المشهد فتقول أوّلاً:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

وفعلاً امتثل موسى ﷺ هذا الأمر، وعبأ بني إسرائيل بعيداً عن أعين أعدائهم، وأمرهم بالتحرك، إلّا أنّ من البديهي أنّ حركة جماعة بهذا الشكل ليس هيناً يسيراً يمكن إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، وكما يحدثنا القرآن عن ذلك أنّ فرعون أرسل رسله وأعوانه إلى المدن لجمع القوات: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾.

ولتعبئة الناس ـ ضمناً ـ وتهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى وقومه، أمر فرعون أن يُعلَن ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾.

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتماً.

«الشرذمة»: في الأصل تعني القلة من الجماعة، كما تعني ما تبقى من الشيء، ويطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أنّ هؤلاء «أي موسى وقومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأنّ فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسد عدم انسجام بني إسرائيل من حيث إعداد الجيش فيهم...

ثم تضيف الآية الأخرى حاكية عن لسان فرعون: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾. فمن يسقي مزارعنا غداً، ومن يخدم في البيوت والقصور غيرهم؟!

ثم إنّا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ ومستعدون جميعاً لمواجهتهم.

ثم يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون وقومه وزوال حكومته، وقيام حكومة بني إسرائيل، فيقول: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.

أجل، ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

عاقبة فرعون وأتباعه الوخيمة: في هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصة موسى وفرعون، وهو كيفية هلاك فرعون وقومه، ونجاة بني إسرائيل وانتصارهم، وكما قرأنا في الآيات المتقدمة فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرين، وهيأ مقداراً كافياً من «القوّة» والجيش.

تحركوا في جوف الليل ليدركوهم بسرعة، فبلغوهم صباحاً كما تقول الآية الأُولى من الآيات محل البحث: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾. فأمامنا بحر خضم متلاطم بالأمواج، ومن ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة... هؤلاء الغاضبون علينا.

وهنا مرّت لحظات عسيرة على بني إسرائيل... لحظات مُرّة لا يمكن وصف مرارتها... ولعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم وفقدوا معنوياتهم وروحياتهم، إلّا أنّ موسى عليه السلام كان مطمئناً هادىء البال، وكان يعرف أنّ وعد الله في هلاك فرعون وقومه ونجاة بني إسرائيل لا يتخلف أبداً ولن يخلف الله وعده رسله...

لذلك التفت إلى بني إسرائيل الفزعين بكمال الإطمئنان والثقة و﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

وفي هذه الحال التي قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، وكانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر الله كما يقول القرآن: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾. فامتثل موسى عليه السلام أمر ربّه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بني إسرائيل، إذا انشقّ البحر ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

«انفلق»: مأخوذ من «الفَلَق» ومعناه الإنشقاق؛ و«فَرَقَ» من مادة «فرْق» على زنة «حلق» ومعناه الإنفصال.

وبتعبير آخر، كما يقول الراغب في مفرداته: إنّ الفرق بين (فلق) و(فرق) هو أنّ الأوّل يشير إلى الإنشقاق (أو الإنشطار) والثاني يشير إلى الإنفصال.

«الطّود»: معناه الجبل العظيم، ووصف الطود بالعظمة في الآية تأكيد آخر على معناه.

إلّا أنّ فرعون وأتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزة الكبرى الواضحة لم يذعنوا للحق، ولم ينزلوا عن مركب غرورهم، فاتبعوا موسى ورهطه ليبلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾.

وهكذا ورد فرعون وقومه البحر أيضاً.

وتقول الآية التالية: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾.

وحين خرج آخر من كان من بني إسرائيل من البحر، ودخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر الله فعادت الأمواج إلى حالتها الأولى.

ويبيّن القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾.

وهكذا إنتهى كل شيء في لحظة واحدة... فالأرقاء أصبحوا أحراراً، وهلك الجبابرة، وانتهت تلك الحضارة المشيدة على دماء المستضعفين، وورث الحكومة والملك المستضعفون بعدهم.

أجل، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فكأنّ في أعينهم عمىً، وفي آذانهم وقراً، وعلى قلوب أقفالاً.

فحيث لا يؤمن فرعون وقومه مع ما رأوا من المشاهد العجيبة، فلا تعجب إذاً ألّا يؤمن بك المشركون ـ يا محمّد ـ ولا تحزن عليهم لعدم إيمانهم.

والتعبير بـ«أكثرهم» إشارة إلى أنّ جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسى والتحقوا بأصحابه.

أمّا آخر آية من هذه الآيات فتشير إلى قدرة الله ورحمته المطلقة واللامتناهية، فتقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فمن عزّته أنّه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفة الباغية أصدر أمره فأهلكها. فيكفي أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون وقومه بالنيل الذي كان أساس حياتهم وثروتهم وقدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه.

ومن رحمته أنّه لا يعجل في الأمر أبداً، بل يمهل سنين طوالاً، ويرسل معاجزه إتماماً للحجة، ومن رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضة الجبابرة الظالمين.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى
يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

تعقّب هذه الآيات على قصة موسى وفرعون المليئة بالدروس لتبيّن قصة إبراهيم ومواجهاته المشركين، وتبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر فتقول: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

ومن بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبيّ العظيم يركّز القرآن الكريم على هذا القسم: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾.

فأجابوه مباشرةً: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾. وهذا التعبير يدلّ على أنّهم يحسّوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافياً أن يجيبوه: نعبد أصناماً، إلّا أنّهم أضافوا هذه العبارة: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

إنّ إبراهيم لما سمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال والإعتراض بشدّة، وقمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم في طريق مغلق، فـ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ * أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾.

إنّ أقلّ ما ينبغي توفره في المعبود هو أن يسمع نداء عابده، وأن ينصره في البلاء، أو يضره عند مخالفة أمره... إلّا أنّ هذه الأصنام ليس فيها ما يدل على أنّ لها أقل إحساس أو شعور أو أدنى تأثير في عواقب الناس.

إلّا أنّ عبدة الأصنام الجهلة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذي يكررونه دائماً، فـ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

وهذا الجواب الذي يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذي استطاعوا أن يردّوا به على إبراهيم ﷺ، وهو جواب دليل بطلانه كامن فيه.

فالتفت إبراهيم مُوبّخاً لهم ومبيناً موقفة منهم و﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ * فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أجل... إنّهم جميعاً أعدائي وأنا معاديهم، ولا أسالمهم أبداً...

ثم يصف إبراهيم الخليل ربّ العالمين ويذكر نعمه المعنوية والمادية، ويقايسها بالأصنام التي لا تسمع الدعاء، ولا تنفع ولا تضرّ، ليتّضح الأمر جليّاً...

فيبدأ بذكر نعمة الخلق والهداية فيقول: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾.

وبعد بيان أولىٰ مراحل الربوبية، وهي الهداية بعد الخلق، يذكر إبراهيم الخليل عليه السلام النعم المادية فيقول: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

ولست مشمولاً بنعمة في حال الصحة فقط، بل في كل حال، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومع أنّ المرض أيضاً قد يكون من الله، إلّا أنّ إبراهيم نسبه إلى نفسه رعاية للأدب في الكلام...

ثم يتجاوز مرحلة الحياة الدنيا إلى مرحلة أوسع منها... إلى الحياة الدائمة في الدار الآخرة، فيقول: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

وحين أرِدُ عرصات يوم القيامة اعلقّ حبل رجائي على كرمه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

وممّا لا شك فيه أنّ الأنبياء معصومون من الذنب، وليس عليهم وزر كي يغفر لهم... إلّا أنّه ـ كما قلنا سابقاً ـ قد تعدّ حسنات الأبرار سيئات المقربين أحياناً، وقد يستغفرون أحياناً من عمل صالح لأنّهم تركوا خيراً منه... فيقال عندئذ في حق أحدهم: ترك الأولى.

فإبراهيم عليه السلام لا يعوّل على أعماله الصالحة، فهي لا شيء بإزاء كرم الله، ولا تقاس بنعم الله المتواترة، بل يعوّل على لطف الله فحسب، وهذه هي آخر مرحلة من مراحل الإنقطاع إلى الله...

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾

دعاء إبراهيم عليه السلام: من هنا تبدأ أدعية إبراهيم الخليل وسؤالاته من الله، فكأنّه بعد أن دعا قومه الضالين نحو الله، يتجه بوجهه نحو الله ويعرض عنهم، فأوّل ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

إنّ إبراهيم عليه السلام يطلب من الله قبل كل شيء المعرفة العميقة الصحيحة المقرونة بالحاكمية، لأنّ أي منهج لا يتحقق دون هذا الأساس.

وبعد هذا الطلب يسأل من الله إلحاقه بالصالحين، وهو إشارة إلى الجوانب العملية، أو كما يصطلح عليها بـ«الحكمة العملية» في مقابل الطلب السابق وهو «الحكمة النظرية»...

وبما أنّه ليس للحكمة حد معين، ولا لصلاح الإنسان حدّ، فهو يطلب ذلك ليبلغ المراتب العليا من العلم والعمل يوماً بعد يوم، حتى وهو في موقع النبوة، وأنّه من أولي العزم.. لا يكتفي بهذه العناوين.

وبعد هذين الطلبين يطلب موضوعاً مهماً آخر بهذه العبارة: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾. أي: اجعلني بحال تذكرني الأجيال الآتية بخير.

فاستجاب الله دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه في الآية (٥٠) من سورة مريم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

ثم ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا، ويتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع فيقول: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

«جنة النعيم» التي تتماوج فيها النعم المعنوية والمادية، النعم التي لا زوال لها ولا اضمحلال... النعم التي لا يمكن أن نتصورها.

إنّ التعبير بالإرث في شأن الجنة إمّا لأنّ معنى الإرث الحصول على الشيء دون مشقة وعناء، أو أنّ ذلك ـ طبقاً لما ورد في بعض الروايات ـ لأنّ كل إنسان له بيت في الجنة وآخر في النار، فإذا دخل النار ورث الآخرون بيته في الجنة.

وفي خامس أدعيته يتوجه نظره إلى عمّه الضالّ، وكما وعده أنّه سيستغفر له، فإنّه يقول في هذا الدعاء: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وأخيراً فإنّ دعاءه السادس من ربّه في شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾. «تخزني»: مأخوذ من مادة «خزي» على زنة (حزب)، وكما يقول الراغب في مفرداته، معناه الذل والإنكسار الروحي الذي يظهر على وجه الإنسان من الحياء المفرط، أو من جهة الآخرين حين يحرجونه ويخجلونه.

وهذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنّه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية والإعتماد على لطف الله العظيم.

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾
وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ
فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾
وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

أُشير في آخر آية من البحث السابق إلى يوم القيامة ومسألة المعاد، أمّا في هذه الآيات فنلحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع «في تلك السوق»، وعاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين والضالين وجنود إبليس، فأوّل ما تبدأ به هذه الآيات هو: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

إنّ هاتين الدعامتين المهمتين في الحياة الدنيا «المال والبنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة.

وبديهي أنّ المراد من المال والبنين هنا ليس هو ما يكون ـ من المال والبنين ـ في مرضاة الله، بل المراد منه الإستناد إلى الأُمور المادّية. فالمراد إذاً هو أنّ هذه الدعامات المادية لا تحلّ معضلاً في ذلك اليوم.

ثم يضيف القرآن في ختام الآية، على سبيل الإستثناء: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وياله من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان والنية الخالصة، كما يحتوي على كل ما يكون من عمل صالح، ولم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح.

ثم يبيّن القرآن الجنة والنار بالنحو التالي فيقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾. أي الضالين.

وهذا الأمر قبل ورود كل من أهل الجنة والنار إليهما، فكل طائفة ترى مكانها من قريب.. فيفرح المؤمنون ويستولي الرعب على الغاوين، وهذا أوّل جزائها هناك.

ثم يتحدث القرآن عن ملامة هؤلاء الضالين، وما يقال لهم من كلمات التوبيخ أو العتاب، فيقول: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. فهل يستطيعون معونتكم في هذه الشدة التي أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر والمعونة، ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[1].

إلّا أنّهم لا يملكون جواباً لهذا السؤال، كما لا يتوقع أحد منهم ذلك... ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾.

كما يقول بعض المفسرين: إنّ كلًا منهم سيُلقى على الآخر يوم القيامة: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

وفي الحقيقة أنّ هذه الفرق الثلاث، الأصنام والعابدين لها وجنود إبليس الدالين على هذا الإنحراف، يساقون جميعاً إلى النار... ولكن بهذه الكيفية... وهي أن تلقى الفرق فرقةً بعد أخرى في النار.

إلّا أنّ الكلام لا يقف عند هذا الحدّ، بل يقع النزاع والجدال بين هذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصمتهم هنا، فيقول: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾.

أجل... إنّ العبدة الضالين الغاوين يقسمون بالله فيقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

المجرمون الذين كانوا سادة مجتمعاتنا ورؤساءنا وكبراءنا، فأضلونا حفظاً لمنافعهم، وجرّونا إلى طريق الشقوة والغواية.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. والخلاصة أنّ الأصنام لا تشفع لنا كما كنّا نتصور ذلك في الدنيا، ولا يتأتى لأي صديق أن يعيننا هنالك.

إلّا أنّهم ما أسرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذ لا جدوى هناك للحسرة ولا مجال للعمل في تلك الدار لجبران ما فات في دنياهم، فيتمنون العودة إلى دار الدنيا... ويقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأخيراً بعد الإنتهاء من هذا القسم من قصّة إبراهيم، يكرر الله آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعباده جميعاً، وهاتان الآيتان وردتا في ختام قصة موسى وفرعون، كما وردتا في

---

١. قد يكون المراد من «ينتصرون» هو أن يطلبوا العون والنصر لأنفسهم أو لغيرهم... أو مجموعهما، لأننا سنلاحظ في الآيات المقبلة أنّ العَبَدة ومعبوديهم يساقون إلى النار.

قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وتكرار هاتين الآيتين، هو للتسرية عن قلب النبي ﷺ وتسليته ومن معه من الصحابة القلة وكذلك المؤمنين في كل عصر ومصر لئلا يستوحشوا في الطريق من قلة أهله وكثرة الأعداء... وليطمئنوا إلى رحمة الله وعزته، كما أنّ هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين، وإشارة إلى أنّه لو وجدوا الفرصة في حياتهم وأمهلهم الله إمهالاً فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته وكرمه.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا
بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾

يتحدث القرآن الكريم بعد الانتهاء ممّا جرى لإبراهيم وقومه الضالين عن قوم نوح عليه السلام حديثاً للعبرة والاتعاظ... فيذكر عنادهم وشدّتهم في موقفهم من نوح عليه السلام وعدم حيائهم وعاقبتهم الأليمة ضمن عدّة آيات... فيقول أوّلاً: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وواضح أنّ قوم نوح إنّما كذبوا نوحاً فحسب... ولكن لما كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكذيباً للمرسلين جميعاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح عليه السلام، الذي سبق أن أشار إليه في كلامه حول إبراهيم وموسى عليهما السلام، فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

والتعبير بكلمة «أخ» تعبير يبيّن منتهى المحبة والعلاقة الحميمة على أساس المساواة، وهو يلهم جميع القادة والأدلاء على طريق الحق أن يراعوا في دعواتهم منتهى المحبة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، ولا يستثقله الناس.

وبعد دعوة نوح قومه إلى التقوى التي هي أساس كل أنواع الهداية والنجاة، يضيف

القرآن فيقول على لسان نوح وهو يخاطب قومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فإنّ إطاعتي من إطاعة الله سبحانه.

ومرّة أُخرى يتمسك نوح عليه السلام بحقانية دعوته، ويأتي بدليل آخر يسقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذي جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته وأمانته، إذ يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

إلّا أنّ المشركين الحمق، حين رأوا سبل ما تذرّعوا به من الحجج الواهية موصدة، تمسكوا بهذه المسألة، فـ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

وصحيح أنّهم كانوا صادقين ومصيبين في أنّ الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلّا أنّ خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصية ومعيارها... إذ كانوا يرون معيار القيم في المال والثروة والألبسة والبيوت والمراكب الغالية والجميلة، وكانوا غافلين عن النقاء والصفاء والتقوى والطهارة وطلب الحق، والصفات العليا للإنسانية الموجودة في الطبقات الفقيرة والقلّة من الأشراف.

إلّا أنّ نوحاً عليه السلام جابهم وردّهم بتعبير متين، وجرّدهم من سلاحهم و﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فما مضى منهم مضى، والمهم هو أنّهم اليوم استجابوا لدعوة النبي، وقالوا له: لبيك، وتوجهوا لبناء شخصياتهم، ومكنوا الحق من أن ينفذ إلى قلوبهم.

وإذا كانوا في ما مضى من الزمن قد عملوا صالحاً أو طالحاً، فلست محاسباً ولا مسؤولاً عنهم آنئذ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

وإنّما عليّ أن أبسط جناحي لجميع طلّاب الحق: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذه العبارة جواب ضمني لطلب هؤلاء المثرين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفة الفقراء من حوله.

ولكن المسؤولية الملقاة على عاتقي هي أن أنذر الناس فحسب ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

فمن سمع إنذاري وعاد إلى الصراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعي كائناً من كان، وفي أي مستوى طبقي ومقام اجتماعي أو مادي.

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾
فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

نجاة نوح وغرق المشركين: كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين في مواجهة نبيّهم نوح ﷺ، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ وهو الإعتماد على القوّة والتهديد بالموت والفناء: ﴿**قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ**﴾.

«الرجم»: مأخوذ من «رجام» على وزن (كتاب) وهو جمع «رجمة» على وزن (لقمة) ومعناها القطعة من الحجر التي توضع على القبر، أو ما يطوف حوله عبدة الأوثان، كما يعني الرجم القذف بالحجارة حتى القتل، كما يأتي أحياناً بمعنى القتل بأيّ شكل كان، لأنّ القتل كان بالحجر سابقاً.

والتعبير بـ«من المرجومين» يدلّ على أنّ الرجم بالحجارة بينهم كان جارياً في شأن المخالفين.

ونوح شكا إلى ربّه أخيراً، وضمن بيان حاله، سأل ربّه أن ينجيّه من قبضة الظالمين، وأن يُبعده عنهم... إذ: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ**﴾.

ثم يلتفت إلى ربّه فيقول: والآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا وأفصل بيني وبينهم: ﴿**فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا**﴾.

«الفتح»: معناه واضح، وهو ما يقابل الغلق ويضاده، وله استعمالان: فتارة يستعمل في القضايا المادية كفتح الباب مثلاً، وتارة يستعمل في القضايا المعنوية كفتح الهمّ ورفع الغم.

ثم يضيف فيقول: ﴿**وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وهنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة الله نوحاً، وإهلاك المكذبين بعاقبة وخيمة مفجعة، إذ يقول: ﴿**فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ**﴾. أي المليء بالناس وانواع الحيوانات: ﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ**﴾. «المشحون»: مأخوذ من مادة «شحن» على وزن «صحن» ومعناه الملء، وقد يستعمل بمعنى التجهيز؛ و«الشحناء» تطلق على العداوة التي تستوعب جميع

جوانب الإنسان، والمراد من «المشحون» هنا هو أنّ ذلك الفلك [= أي السفينة] كان مملوءاً من البشر وجميع الوسائل... ولم يكن فيه أي نقص... أي إنّ الله بعد ما جهز السفينة وأعدّها للحركة، أرسل الطوفان لئلا يبتلى نوح وجميع من في الفلك بأيّ نوع من أنواع الأذى... وهذا بنفسه إحدى نعم الله عليهم.

وفي ختام هذه القصة القصيرة، يقول القرآن ما قاله في ختام قصة موسى وإبراهيم عليهما السلام، فيكرر قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾. أي في ما جرى لنوح عليه السلام ودعوته المستمرة وصبره ونجاته وغرق مخالفيه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ولهذا فلا تحزن يا رسول الله من إعراض المشركين وعنادهم، واستقم كما أُمرت... فإنّ عاقبتك وعاقبة أصحابك عاقبة نوح وأصحابه، وعاقبة الضالين من قومك كعاقبة الضالين من قوم نوح.

﴿وَ﴾ اعلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

فرحمته تقتضي أن يمهلهم ويتمّ عليهم الحجة بإعطاء الفرصة الكافية، وعزته تستلزم أن ينصرك عليهم، وتكون عاقبة أمرهم خسراً.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا
بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ
﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

جنايات عاد وأعمالهم العدوانية: والآن يأتي الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانباً من حياتهم وعاقبتهم، وما فيها من دروس العبر، ضمن ثماني عشرة آية من آياته. فيقول القرآن: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾.

بالرغم من أنّهم كذبوا هوداً فحسب، إلّا أنّه لمّا كانت دعوة هود هي دعوة الأنبياء جميعاً، فكأنّهم كذبوا الأنبياء جميعاً.

وبعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدث القرآن عنهم فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

لقد دعاهم إلى التوحيد والتقوى في منتهى الشفقة والعطف والحرص عليهم، لذلك عبّر عنه القرآن بكلمة «أخوهم».

ثم أضاف قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. وما سبق من حياتي بين ظهرانيكم يدل على هذه الحقيقة، فإنّي لم أخنكم أبداً ولم تجدوا منّي غير الصدق والحق.

ثم يضيف مؤكّداً: لما كنتم تعرفونني جيداً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. لأنّ إطاعتكم إيّاي إطاعة لله سبحانه... ولا تتصوروا بأنّي أدعوكم لأنتفع من وراء دعوتي إيّاكم في حياتي الدنيا وأنال المال والجاه، فلست كذلك. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فجميع النعم والبركات من عنده سبحانه، وإذا أردت شيئاً طلبته منه، فهو ربّ العالمين جميعاً.

والقرآن الكريم يستند في هذا القسم من سيرة «هود» في قومه إلى أربعة أمور على الترتيب:

فالأمر الأوّل: هو محتوى دعوة «هود» الذي يدور حول توحيد الله وتقواه، وقرأنا ذلك بجلاء في ما مضى من الآي.

أمّا الأمور الثلاثة الأخر فيذكرها القرآن حاكياً عن لسان هود في ثوب الإستفهام الإنكاري، فيقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

«الريع»: في الأصل يطلق على المكان المرتفع؛ و«تعبثون»: مأخوذ من «العبث» ومعناه العمل بلا هدف صحيح، ومع ملاحظة كلمة «آية» التي تدل على العلامة، يتّضح معنى العبارة بجلاء، وهو أنّ هؤلاء القوم المثرين، كانوا يبنون على قمم الجبال والمرتفعات الأُخر مباني عالية للظهور والتفاخر على الآخرين، وهذه المباني (كالأبراج وما شاكلها) لم يكن من ورائها أي هدف سوى لفت أنظار الآخرين.

وأمّا الأمر الثالث الذي ذكره القرآن حاكياً على لسان هود منتقداً به قومه، فهو قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

«المصانع»: جمع «مصنع» ومعناه المكان أو البناء الجلل المحكم، والنبي هود لا يعترض عليهم لأنّ لديهم هذه البنايات المريحة الملائمة، بل يريد أن يقول لهم: إنّكم غارقون في أمواج

الدنيا، ومنهمكون بعبادة الزينة والجمال والعمل في القصور حتى نسيتم الدار الآخرة.

في تفسير مجمع البيان روى عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ لكل بناء يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة، إلّا ما لابدّ منه».

ثم ينتقد النبي (هود) قومه على قسوتهم وبطشهم عند النزاع والجدال فيقول: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

يدل هذه الآيات الثلاث أعلاه على أنّ عشق الدنيا كان قد هيمن عليهم، وأغفلهم عن ذكر الله حتى ادعوا الألوهية.

والقسم الثالث من حديث هود مما بيّنه لقومه، هو ذكر نعم الله على عباده ليحرك فيهم ـ عن هذا الطريق ـ الإحساس بالشكر لعلهم يرجعون نحو الله.

وفي هذا الصدد يتبع النبي هود أسلوبي الإجمال والتفصيل، وهما مؤثران في كثير من الأبحاث، فيلتفت نحوهم أوّلاً فيقول: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وبعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم الله عليهم، فيقول: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾.

ثم يضيف بعد ذلك: ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

وهكذا فقد وفر الله لكم سبل الحياة جميعاً، من حيث الأبناء أو القوّة الإنسانية، والزراعة والتدجين ووسائل الحمل والنقل.

وأخيراً، فإنّ هوداً في آخر مقطع من حديثه مع قومه ينذرهم ويهددهم بسوء الحساب وعقاب الله لهم، فيقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وعادة ـ يستعمل لفظ (اليوم العظيم) في القرآن، ويراد منه يوم القيامة العظيم من كل وجه، إلّا أنّه قد يستعمل في القرآن في اليوم الصعب الموحش المؤلم على الأمم. فبناء على هذا قد يكون التعبير بـ«يوم عظيم» في الآية محل البحث، إشارة إلى اليوم الذي ابتلي به المعاندون من قوم هود (عاد) بالعذاب الأليم.

كما يمكن أن يكون إشارة إلى يوم القيامة وعذابه، أو إلى العذابين معاً، فيوم الاعصار يوم عظيم، ويوم القيامة يوم عظيم أيضاً.

---

١. «أمدّ»: مأخوذ من «الإمداد»، ويطلق في الأصل على أمور توضع بعضها بعد بعض بشكل منظم، وحيث إنّ الله يرسل نعمه بشكل منظم إلى عباده استعملت هذه الكلمة هنا أيضاً.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧
وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ
١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾

لا تتعب نفسك في نصحنا: رأينا في الآيات المتقدمة أحاديث النبي هود المحترق القلب شفقةً على قومه المعاندين «عاد» وما حملته هذه الأحاديث من معان غزيرة سامية، والآن ينبغي أن نعرف جواب قومه الجارح وغير المنطقي ولا المعقول، يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿**قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ**﴾. فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك.

أمّا اعتراضك علينا بهذه الأمور فلا محل له من الاعراب: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**﴾.

وليس الأمر كما تقول، فإنّه لا شيء بعد الموت، ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾، لا في هذا العالم، ولا في العالم الآخر.

«الخُلُق»: ـ بضم الخاء واللام ـ معناه العادة والسلوك والأخلاق لأنّ هذه الكلمة جاءت بصيغة الإفراد بمعنى الطبع والسجيّة والعادة الأخلاقية، وهي هنا إشارة إلى الأعمال التي كانت تصدر منهم كعبادة الأصنام، وبناء القصور العالية الجميلة، وحب الذات، والتفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، وكذلك البطش عند الإنتقام أو الجزاء، أي إنّ ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض والانتقاد.

ويبيّن القرآن عاقبة قوم هود الوبيلة فيقول: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ**﴾.

وفي ختام هذه الأحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبّرتين، اللتين تكررتا في نهاية قصص نوح وإبراهيم وموسى ﷺ، فيقول: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً**﴾ على قدرة الله، واستقامة الأنبياء وعاقبة المستكبرين السيئة، ولكن مع ذلك ﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾.

فيمهل إمهالاً كافياً، ويمنح الفرصة، ويبيّن الدلائل الواضحة للمضلين ليهتدوا، إلّا أنّه عند المجازاة والعقاب، وبعد إتمام الحجة يأخذ أخذاً عسيراً لا مفرّ لأحد منه أبداً.

كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٤١) إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ
أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ
وَنَخۡلٍ طَلۡعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَ
أَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ (١٥٢)

القسم الخامس من قصص الأنبياء في هذه السورة، هو قصة «ثمود» الموجزة القصيرة، ونبيّهم «صالح» الذين كانوا يقطنون في «وادي القرى» بين المدينة والشام، وكانت حياتهم مترفة مرفهة.

وبداية القصة هذه مشابهة لبداية قصة عاد (قوم هود) وبداية قصة نوح وقومه، وهي تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

وبعد ذكر هذا الإجمال يفصّل القرآن ما كان بين صلاح وقومه، فيقول: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ثم يقول لهم معرفاً نفسه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وسوابقي معكم شاهد مبين على هذا الأمر ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. إذ لا أريد إلّا رضا الله والخير والسعادة لكم.

ولذلك فأنا لا أطلب عوضاً منكم في تبليغي إيّاكم، ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فأنا أدعوكم له، وأرجو الثواب منه سبحانه.

ثم يضع «صالح» اصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد ويحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾.

وتتصورون أنّ هذه الحياة المادية التي تستغفل الإنسان دائمة له.

وبالأسلوب المتين، أسلوب الإجمال والتفصيل، يشرح النبي صالح لقومه تلك الجملة المغلقة والجملة بقوله: وتحسبون أنكم مخلّدون ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخۡلٍ طَلۡعُهَا هَضِيمٌ﴾[١].

---

١. «الطلع»: مأخوذ من مادة «الطلوع» ويستعمل في ما يكون منه الرطب بعدئذ، وقد يستعمل الطلع في الثمرة

ثم ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المحكمة فيقول: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾.

«الفاره»: مشتق من «فره» ومعناه في الأصل السرور المقرون باللامبالاة وعبادة الهوى.

وبعد ذكر هذه الإنتقادات يتحدث النبي صالح عليه السلام في القسم الثالث من كلامه مع قومه، فيقول: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾. «الإسراف»: هو التجاوز عن حدّ قانون التكوين وقانون التشريع... وأيّ تجاوز عن الحد موجب للفساد والاختلال. بتعبير آخر: إنّ مصدر الفساد هو الإسراف، ونتيجة الإسراف هي الفساد أيضاً.

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ
﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

عناد قوم صالح ولجاجتهم: لقد استمعتم إلى منطق صالح عليه السلام المتين والمحب للخير، مع قومه المضلين ـ في الآيات المتقدمة ـ والآن لنستمع إلى جواب قومه في هذه الآيات.

إنّهم واجهوه بكلام خشن و﴿قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾. فلذلك فقدت عقلك وتتكلم بكلمات غير موزونة ولا معقولة.

ثم بعد هذا كلّه ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. وكل عاقل لا يبيح لنفسه أن يطيع إنساناً مثله ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ لكي نؤمن بك ونتبعك.

«المسحّر»: مشتقة من «السحر» ومعناها المسحور، أي المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أنّ السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل. أجل، إنّهم كانوا يرون بمعيار العقل أن يكون الإنسان متوافقاً مع البيئة والمحيط، ويطبّق نفسه على جميع المفاسد...

الأولى للنخل؛ و«الهضيم»: من مادة «هضم»، وله معان مختلفة، فتارة يراد منه الثمرة الناضجة، وتارة يطلق على الثمر اللين القابل للهضم، وتارة يطلق على المهضوم، وقد يستعمل بمعنى المنظوم المنضد. فإذا كان الطلع في الآية محل البحث بمعنى العذق أوّل طلوعه، فالهضيم معناه المنضود، وإذا كان الطلع أوّل الثمر فالهضيم معناه الناضج اللين اللطيف.

فلو أنّ رجلًا مصلحاً إلهياً دعا الناس للقيام والنهوض بوجه العقائد الفاسدة وإصلاحها، عدّوه ـ بحسب منطقهم ـ مجنوناً «مسحّراً».

إنّ هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزة لا من أجل معرفة الحق، بل تذرعاً بالحجة الواهية، وعلى نبيّهم أن يُتم الحجة عليهم، فاستجاب لهم ـ وبأمر الله ـ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

هذه الناقة لم تكن ناقة كسائر النياق الطبيعية، كانت هذه الناقة بحالة من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل، ومن خصائصها أنّها كانت تشرب ماء الحيّ في يوم، واليوم الآخر لأهل الحي «أو القرية».

وكان على صالح عليه السلام أن يعلمهم أنّ هذه الناقة ناقة عجيبة وخارقة للعادة، وهي آية من آيات عظمة الله المطلقة فعليهم أن يَدَعوها على حالها، وقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وبديهي أنّ المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظة الناس ستؤدّي إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتآمروا على نحر الناقة: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ﴾ [1]. لأنّهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الإلهي.

ولما تجاوز طغيانهم الحدّ، وأثبتوا بأعمالهم أنّهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادة الله ومشيئته أنّ يطهر الأرض من وجودهم الملوّث ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

ويقول القرآن في ختام هذه الحادثة ما قاله في ختام حوادث قوم هود وقوم صالح وقوم نوح وقوم إبراهيم، فيعبّر تعبيراً بليغاً موجزاً يحمل بين ثناياه عاقبة أولئك الظالمين: إنّ في قصة قوم صالح، وفي صبره وتحمله واستقامته ومنطقه القويم من جهة، وعناد قومه وغرورهم وانكارهم للمعجزة البيّنة، والمصير الأسود الذي آلو إليه دروس وعبر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أجل، ليس لأحد أن يغلب ربّه؛ فما فوق قوّته من قوة، وهذه القوة وهذه القدرة العظيمة لا تمنع أن يرحم أولياءه، بل أعداءه أيضاً: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

١. «عقروها»: مأخوذة من مادة «عَقر» ومعناها في الأصل أساس الشيء وجذره، وقد تأتي بمعنى حز الرأس، وتأتي بمعنى قطع الأرجل من الحيوان، وما إلى ذلك.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾

السفلة المعتدون: سادس نبيّ ـ ورد جانب من حياته وحياة قومه المنحرفين في هذه السورة ـ هو لوط ﷺ. يقول القرآن أوّلًا في هذا الصدد: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التي تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ولحن كلماته وقلبه المتحرق لهم، العميق في تودّده إليهم، يدل على أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثم أضاف لوط قائلًا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. فلم تعرفوا عنّي خيانة حتى الآن... وسأرعى الأمانة في إيصال رسالة الله إليكم أبداً... ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. فأنا زعيمكم إلى السعادة والنجاة.

ولا تتصوروا أنّ هذه الدعوة وسيلة اتخذها للحياة والعيش، وأنّ وراءها هدفاً مادياً، كلّا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم يتناول بالنقد أعمالهم القبيحة، وقسماً من انحرافاتهم الأخلاقية... وحيث إنّ أهم نقطة في انحرافاتهم... هي مسألة الانحراف الجنسي، لذلك فإنّه ركّز عليها وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. فتختارون الذكور من بين الناس لاشباع شهواتكم.

أي، إنّكم على الرغم مما خلق الله لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشاً طاهراً هادئاً، إلّا أنّكم تركتم نعمة الله هذه وراءكم، ولوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزي...

ثم أضاف قائلًا: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

فالحاجة والغريزة الطبيعية، سواءً كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافي الشنيع أبداً، وإنّما جرّكم الطغيان والتجاوز، فتلوثتم وخزيتم به...

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ
﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

عاقبة قوم لوط: إنّ قوم لوط الغارقين بالغرور والمتادية بهم رياح الشهوة، بدلاً من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهي، فتدخل مواعظه في قلوبهم ويخلصوا من تلك الأمواج الرهيبة، فإنّهم نهضوا لمواجهته و**﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾**.

إنّ فعل هؤلاء الضالين ـ بلغ بهم أن يعدوا التقوى والتطهر بينهم أكبر عيب، وأن يفخروا بالرجس وعدم الطهارة.

ويستفاد من عبارة **﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾** أنّ هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا أُناساً طاهرين من حيّهم.

إلّا أنّ لوطاً لم يكترث بتهديدهم، وواصل نصحه لهم و**﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾**.

إنّه يريد أن يقول: سأواصل انتقادي إيّاكم... فافعلوا ما شئتم... فأنا لا أترك مواجهة هذه الأعمال القبيحة بالإعتراض والنقد...

والتعبير بـ«من القالين» يدلّ أيضاً على أنّ جماعة كانوا مثل النبي لوط يرفضون هذه الأعمال ويعترضون عليها.

«القالين»: جمع «قال» من مادة «قَلَى» أو «قَلِيَ» (على وزني حَلَقَ وشَرِكَ) ومعناها العداوة الشديدة التي تترك أثرها في قلب الإنسان، وهذا التعبير يكشف عن شدّة تنفّر لوط من أعمالهم.

وأخيراً بدّل الفساد مجتمعهم كله إلى مستنقع عفن... وتمّت الحجة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية.

فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، فقال: **﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾**.

فاستجاب الله دعاءه كما تقول الآية التالية: **﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾**[1]. وهذه العجوز لم تكن سوى زوج النبي لوط التي لم تؤمن به أبداً.

---

١. «الغابر»: من مادة (الغبور) ومعناه الباقي، ومتى ما تحركت جماعة وبقي شخص في المكان فإنّه يدعى (غابراً)، ولهذا السبب سمي التراب الباقي غباراً... والغبرة: الباقي من اللبن في ثدي الحيوان.

أجل، لقد نجّى الله لوطاً والمؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلاً من تلك المدينة ـ أو القرية ـ فترك قومه الغارقين بالفسق والفجور على حالهم، فنزل عذاب الله في الغداة، فتزلزلت بهم الأرض وانهارت عليهم الأبنية والقصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها وهلكوا جميعاً في ديارهم، وقد عبّر القرآن عن كان ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾، ولم يكف ذلك بل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾. وأيّ مطر، إنّه وابل من احجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

والأمطار عادة تمنح الحياة، إلّا أنّ هذا المطر كان موحشاً مهلكاً مخرّباً...

ويستفاد من الآية (٨٢) من سورة هود أنّ قرى قوم لوط ومدنهم قُلب عاليها سافلها أوّلاً، ثم أمطرت بالحجر النضيد المتراكم.

ومرّة أُخرى نواجه في نهاية هذه القصة الجملتين اللتين تكررتا في القصص المشابهة لها في هذه السورة، في شأن خمسة أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وأيّة رحمة أعظم من أنّه لا يعاقب أقواماً فاسقين كقوم لوط فوراً، بل يمهلهم إمهالاً كافياً لعلّهم يهتدون، ويجددوا نظرهم في أعمالهم.

وأيّة رحمة أعظم من أن لا يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان في ألف ألف أُسرة غير صالحة أسرة واحدة صالحة، فإنّه ينجيها منها وينزل العذاب على أُولئك.

وأيّة عزّة أعظم من أن ترى بطرفة عين واحدة ديار الفاسقين قد دُمرت تدميراً ولم يبق منها أي أثر.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

شعيب وأصحاب الأيكة: هذه هي القصة السابعة، والحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء

الواردة في هذه السورة، وهي قصة شعيب ﷺ وقومه المعاندين.

كان هذا النبي يقطن في «مدين»، وهي مدينة تقع جنوب الشامات.

تقول الآية الأُولى من الآيات محل البحث: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

«أيكة»: على وزن (ليلة)، قرية أو أرض معمورة على مقربة من مدين.

ثم يتحدث القرآن إجمالاً عن شعيب ﷺ وعنهم فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

إنّ دعوة شعيب ﷺ انطلقت من النقطة التي ابتدأها سائر الأنبياء، وهي التقوى ومخافة الله التي تعدّ أساس المناهج الإصلاحية والتغييرات الأخلاقية والاجتماعية جمعاء.

ثم أضاف شعيب قائلاً: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. فطاعتكم لي طاعة لله.

واعلموا أنّي أبتغي ثوابه ووجهه، ﴿وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

و«شعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تأريخ حياتهم في هذه السورة، فهو يدعو قومه بعد الدعوة العامّة للتقوى وطاعة الله، إلى إصلاح انحرافاتهم الأخلاقية والاجتماعية وينتقدهم على هذه الانحرافات، وحيث إنّ أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب الاقتصادي، والاستثمار والظلم الفاحش في الأثمان والسلع، والتطفيف في الكيل، لذلك فقد اهتم بهذه المسائل أكثر من غيرها، وقال لهم: ﴿أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

«تبخسوا»: مأخوذة من «البخس» وهو في الأصل النقص ظلماً من حقوق الناس... وقد يأتي أحياناً بمعنى الغش أو التلاعب المنتهي إلى تضييع حقوق الآخرين... فبناء على ما تقدم، فإنّ الجملة الآنفة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لها معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش والتزوير والتضليل، والتلاعب في المعاملات، وغمط حقوق الآخرين.

وأمّا جملة ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ فمعناه واسع أيضاً، إذ يشمل بالإضافة إلى البخس والتطفيف كل ما من شأنه أن يكون سبباً للخسارة وإيذاء الطرف الآخر في المعاملة.

ثم إنّ «شعيباً» في آخر تعلياته ـ في هذا القسم ـ يدعوهم مرد أُخرى إلى تقوى الله فيقول: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

«الجبلة»: مأخوذة من «الجبل» وهو معروف «ما ارتفع من الأرض كثيراً» ويسمى الطود أحياناً، فالجبلة تطلق على الجماعة الكثيرة التي هي كالجبل في العظمة.

قال بعضهم: الجبلة مقدار عددها عشرة آلاف.

كما تطلق الجبلة على الطبيعة والفطرة الإنسانية، لأنّها لا تتغير، كما أنّ الجبل لا يتغير عادةً.

والتعبير المتقدم لعله إشارة إلى أنّ شعيباً يقول: إنّما أدعوكم إلى ترك الظلم والفساد، وأداء حقوق الناس ورعاية العدل، لأنّ ذلك موجود في داخل الفطرة الإنسانية منذ الخلق الأوّل، وأنا جئتكم لإحياء هذه الفطرة.

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

عاقبة الحمقى: لما رأى قوم شعيب الظالمون ـ أنّهم لا يملكون دليلًا ليواجهوا به منطقه المتين، ومن أجل أن يسيروا على نهجهم ويواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التُهم والأكاذيب. فالتهمة الأولى هي ما يلصقها الجبابرة دائماً والمجرمون بالأنبياء، وهي السحر فاتّهموه بها و﴿**قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ**﴾[١].

ثم ما الفارق بينك وبيننا لنتّبعك؟! ولا مزيّة لك علينا، ﴿**وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ**﴾.

وبعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارةً يدعونه (من الكاذبين) ورجلًا انتهازياً، وتارةً يدعونه مجنوناً أو من المسحّرين، وكان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبياً ﴿**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ**﴾. حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من العذاب.

«كِسَف»: جمع «كِسْفَة» على وزن (قطعة)، ومعناها قطعة أيضاً، والمراد من هذه «القطع من السماء» هي قطع الأحجار التي تهوي من السماء.

---

١. «المسحّر»: هو المسحور... أو الذي يقع عليه السحر من قبل السَحَرة لينفذوا في عقله ويبطلوا عمله.

إلّا أنّ شعيباً عليه السلام، وهو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة والكلمات القبيحة وطلبهم عذاب الله، كان جوابه الوحيد لهم أن ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فإذا لم تنفع المواعظ وتمّت الحجة اللازمة، فإنّ عذابه لا مرد له.

إنّ عذاب الله أزف موعده ـ وكما يعبر القرآن عنه في الآية التالية قائلًا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

«الظلة»: في الأصل معناها القطعة من السحاب المظلّل: أي ذي الظل.

إنّ حرّاً شديداً محرقاً حلّ في أرضهم سبعة أيام، ولم يهب نسيم بارد مطلقاً، فإذا قطعة من السحاب تظهر في السماء ـ بعد السبعة أيام ـ وتحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلّوا تحت السحاب من شدّة الحرّ.

وفجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميتة بصوتها المذهل، واحرقتهم بنارها وزلزلت الأرض وهلكوا جميعاً.

وتُختتم القصة هذه بما خُتمت القصص الست السابقة عن أنبياء الله الكرام، إذ يقول القرآن: إنّ في حكاية أصحاب الايكة ودعوة نبيّهم شعيب وعنادهم وتكذيبهم، وبالتالي نزول العذاب على هؤلاء المتكبرين درس وعبرة لمن اعتبر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ومع ذلك كلّه فإنّ الله رحيم ودود يمهلهم لعلّهم يرجعون ويصلحون أنفسهم، فإذا تمادوا في الغي واستوجبوا عذاب الله، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

في ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة ينبغي أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة» وهي أنّ قصص هؤلاء الأنبياء جميعاً جاءت في سور أُخر من القرآن أيضاً، إلّا أنّها لم تعرض بهذا العرض بحيث نجد أنّ بداية دعوتهم منسجمة، كما أنّ نهاياتها منسجمة أيضاً.

وهذا الإنسجام ـ قبل كل شيء ـ يدل على تجلي مفهوم وحدة دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوي منهج واحد وبداية واحدة ونهاية واحدة.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾

عظمة القرآن في كتب السابقين: بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، والعبر الكامنة في تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرّة أُخرى إلى البحث الذي شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن وحقانية هذا الكلام الإلهي المبين، إذ يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لذلك تضيف الآية التالية قائلة: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

ولو كان القرآن لم يُنزله ملك الوحي «الروح الأمين من قِبَل الله» لم يكن بهذا الإشراق والصفاء والخلو من الخرافات والأساطير والأباطيل.

فالروح هي أساس الحياة، والأمانة، هي شرط أصيل في الهداية والقيادة.

أجل، إنّ هذا الروح الأمين نزل بالقرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

إنّ الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرّد شرفاً فكرياً ولملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية واليقظة، والهدف هو التربية وبناء شخصية الإنسان.

ولئلا تبق حجة لأحد ولا عذر، فإنّ القرآن أُنزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

والجدير بالذكر أنّ أحد معاني «عربي» هو ذو الفصاحة والبلاغة؛ وفي هذه الصورة فإنّه ليس المعوّل على لسان العرب، بل الأساس صراحة القرآن ووضوح مفاهيمه.

والآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾.

وخاصة أنّ أوصاف هذا النبي العظيم وأوصاف هذا الكتاب السماوي الخالد، جاءت في توراة موسى ﷺ بحيث أنّ علماء بني إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك. لذا فإنّ القرآن يضيف هنا قائلاً: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وواضح أنّه مع وجود أُولئك العلماء من بني إسرائيل في ذلك المحيط المليء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافاً» واعتباطاً؛ لأنّه كان سيردّ عليه من كل حدب وصوب بالإنكار، وهذا بنفسه دليل على أنّ هذا الموضوع كان جلياً في ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات ـ محل البحث.

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

لو نُزّل القرآن على الأعاجم: في هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الإحتمالية من قبل الكفار وموقفه منها، ويستكمل البحث السابق في نزول القرآن بلسان عربي مبين، فيقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية ويعبد القومية كانوا متعصبين إلى درجة بحيث لو نزل القرآن على غير العرب لما آمن به ورغم أنّ القرآن نزل على عربي شريف من أسرة كريمة، في بيان رائع بليغ وقد بشرت به الكتب السماوية السابقة، وشهد بذلك علماء بني إسرائيل، ومع ذلك كلّه لم يؤمن به الكثير من العرب، فكيف إذا كان نبيّهم ليس فيه أية صفة من الصفات المذكورة.

ثم تضيف الآية لمزيد التأكيد: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

في بيان بليغ وبلسان رجل من بينهم، وهم يعرفونه ويعرفون سيرته وأخلاقه، وبمحتوىً بشرت به الكتب السماوية السابقة. والخلاصة إنّنا نسلكه بجميع هذه الأوصاف في قلوب المجرمين ليكون مقبولاً سهلاً مطبوعاً إلّا أنّ هذه القلوب المرضى تمتنع عن قبوله، فمثله كمثل الطعام الطيب النافع الذي تلفظه المعدة السقيمة.

ولذلك تقول الآية: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. أي: إنّ هؤلاء المجرمين المعاندين، يظلون على حالهم حتى نزول العذاب.

أجل، إنّهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لا شك أنّ المراد من هذا العذاب، هو عذاب الدنيا والبلاء المهلك وعقاب الإستئصال.

لذا فإنّ القرآن يحكي عن حالهم فيقول: إنّهم في هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، ويندمون على أفعالهم، ويتملكهم الخوف من المصير المرعب، ويودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات والايمان بالرسالة الإلهية: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا
يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ
﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَ
مَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

تهمة أخرى للقرآن: حيث إنّ الآيات المتقدمة ختمت بجملة ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ التي يقولها المجرمون عندما يأتيهم العذاب بغتة وهم على أبواب الهلاك، طالبين الإمهال والرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال، فالآيات محل البحث تردّ عليهم عن طريقين:

الأوّل قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

والآخر أنّه: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾. فعلى فرض أنّهم أمهلوا ثانية (ولن يُمهلوا بعد إتمام الحجة عليهم) الا يكون عملهم التمتع والتلذذ بالمواهب المادية فحسب. وهل يعوّضون عمّا فاتهم؟! كلّا أبداً.

وهنا يثار سؤال وهو أنّه مع الإلتفات إلى أنّ الله عالم بمستقبل كل قوم وجماعة، فما الحاجة إلى الإمهال؟

ثم أنّ الأُمم السالفة كذبت أنبياءها واحداً بعد الآخر، فعلام يأتي الأنبياء منذرين ومبشرين؟!

فالقرآن يجيب على هذا السؤال بأنّ ذلك سنة الله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾. فنرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجة وتقديم النصح والموعظة ليتذكروا ويستيقظوا من غفلتهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

ولو كنّا نأخذهم بدون إتمام الحجة، وذلك بإرسال المنذرين والمبشرين ـ من قِبَل الله ـ لكان ظلماً منّا ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

فمن الظلم أن نُهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجة عليهم.

ثم يردّ القرآن على إحدى الذرائع أو التُهم الباطلة من قِبَل اعداء القرآن وهي أنّ النبي مرتبط ببعض الجن، وهو يعلمه هذه الآيات، والحال أنّ القرآن يؤكّد أنّ هذه الآيات هي من «تنزيل ربّ العالمين».

فيضيف هنا قائلاً: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾.

ثم يبيّن جواب هذه التهمة الواهية التي اختلقها الأعداء، فيقول: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾. أي: أنّ محتوى هذا الكتاب العظيم الذي يدعو إلى الحق والطهارة والعدل والتقوى، ونفي كل أنواع الشرك، يدلّ دلالة واضحة على أنّه لا شباهة له بأفكار الشياطين وما يلقونه.

ثم إنّ الشياطين ليست لهم القدرة على ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

فإذا كانت لهم القدرة فينبغي على سائر من كان في محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين

بالشياطين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

ويستفاد من سائر آيات القرآن أنّ الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع من الملائكة، فينقلون ما يدور بين الملائكة من مطالب إلى أوليائهم، إلّا أنّه بظهور نبي الخاتم ﷺ وولادته انقطع استراق السمع تماماً، وزال الإرتباط الخبري بين الشياطين وأوليائهم.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ
﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

وأنذر عشيرتك الأقربين تعقيباً على الأبحاث الواردة في الآيات السابقة في شأن مواقف المشركين من الإسلام والقرآن، فإنّ الله سبحانه يبيّن لنبيّه ـ في الآيات محل البحث ـ منهجه وخطّته في خمسة أوامر، في مواجهة المشركين.

وقبل كل شيء فإنّ الله يدعو النبي ﷺ إلى الإعتقاد التام بالتوحيد؛ التوحيد الذي هو أساس دعوات الأنبياء جميعاً. يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾.

ثم يأمره الله في مرحلة أُخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب في دعوته قائلاً: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

ولا شك أنّه للوصول إلى منهج تغييري ثوري واسع، لابدّ من الابتداء من الحلقات الأدنى والأصغر.

أمّا المرحلة الثالثة، فإنّ الله يوصي النبي في دائرة أوسع فيقول: عليك أن تعامل أتباعك

---

١. «العشيرة»: مشتقة من «العشرة» العدد المعروف [١٠] وحيث إنّ العشرة تعتبر في نفسها عدداً كاملاً، فقد سمي أقرباء الرجل الذين يكمل بهم عشيرة، ولعلّ المعاشرة مأخوذة من هذا المعنى، لأنّها تجعل الناس بصورة مجموعة كاملة.

باللطف والمحبة: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبة واللطف، كما أنّ الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبة منها لها، وتجعلها تحت أجنحتها لتكون مصانةً من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرّق، فكذلك الأمر بالنسبة للنبي إذ أُمر أن يخفض جناحه للمؤمنين الصادقين.

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي أنّ الأعداء لم يقبلوا دعوتك وعصوا أوامرك. فلا تبتئس ولا تحزن: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. أي إذا لم يذعنوا بعد دعوتك إياهم للحق، وواصلوا شركهم وعنادهم، فعليك أن تبيّن موقفك منهم.

وأخيراً فالأمر الالهي الخامس للنبي ﷺ لإكمال مناهجه السابقة، هو: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ذلك الله ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

أجل، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وهكذا تذكر الآيات ثلاث صفات لله بعد وصفه بالعزيز الرحيم وكل منها يمنح الأمل ويشدّ من عزم النبي على مواصلة طريقة، إذ أنّ الله يرى جهوده وأتعابه وحركاته وسكناته، وقيامه وسجوده وركعاته.

ذلك الله الذي يسمع صوته.

الله الذي يعلم حاجاته وطلباته حاجته.

«التقلب»: معناه الحركة والإنتقال من حال إلى حال، وهذا التعبير لعله إشارة إلى سجود النبي ﷺ بين الساجدين في أثناء الصلاة، أو إلى حركة النبي ﷺ وتنقله بين أصحابه وهم مشغولون بالعبادة، وكان يتابع أحوالهم ويسأل عنهم.

وفي المجموع فإنّ هذا التعبير إشارة إلى أنّ الله سبحانه لا يخفى عليه شيء من حالاتك وسعيك، سواءً كانت شخصية فردية، أم كانت مع المؤمنين في صورة جماعية، لتدبير أُمور العباد ولنشر مبدأ الحق.

إنذار الأقربين (حديث يوم الدار): وفقاً لما ورد في التواريخ الإسلامية، أُمر النبي في السنة الثالثة بدعوته الأقربين من عشيرته، فدعا النبي ﷺ «عشيرته» إلى بيت عمّه أبي طالب، وكانوا في ذلك اليوم حوالي أربعين رجلًا.

وبعد أن تناولوا الطعام، قال ﷺ: «يا بني عبد المطّلب، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم بخير الدنيا والآخرة... وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني على أمري هذا، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم عنها غير علي، وكان أصغرهم (سناً)، فقال: «يا نبيّ الله، أنا أكون وزيرك عليه». فأخذ رسول الله ﷺ برقبته، وقال: «إنّ هذا وصييّ وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

هذه الآيات ـ محل البحث ـ هي آخر الآيات من سورة الشعراء، تعود ثانية لتردّ على الإتهام السابق ـ من قبل الأعداء ـ بأنّ القرآن من إلقاء الشياطين، تردهم ببيان أخاذ بليغ مفحم، فتقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. أي الكاذب المذنب، حيث يلقون إليهم ما يسمعونه مع اضافة أكاذيب كثيرة عليه ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[1].

وملخص الكلام أنّ ما تلقيه الشياطين له علائم واضحة، ويمكن معرفته بعلائمه أيضاً. فالشيطان موجود مؤذٍ ومخرب، وما يلقيه يجري في مسير الفساد والتخريب، وأتباعه هم الكذابون المجرمون، وليس شيء من هذه الأمور ينطبق على القرآن، ولا على مبلّغه، وليس فيها أي شبهٍ بهما.

وفي الآية الرابعة ـ من الآيات محل البحث ـ يردّ القرآن على إتهام آخر كان الكفار يرمون به النبي فيدعونه شاعراً، كما في الآية (٥) من سورة الأنبياء: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾. وربّما

١. «أفّاك»: من «الإفك» والإفك هو الكذب الكبير، فمعنى الأفلاك من يكذب كثيراً أكاذيب كبيرة... و«أثيم»: من مادة «إثم» على وزن (إسم) ومعناه في الأصل: العمل الذي يؤخر صاحبه عن الثواب، ويطلق عادة على الذنب، فالأثيم هو المذنب.

دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء في الآية (٣٦) من سورة الصافات: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾.

فالقرآن يردهم هنا ببيان بليغ منطقي، بأنّ منهج النبي يختلف عن منهج الشعراء؛ فالشعراء يتحركون في عالم من الخيال، وهو يتحرك على أرض الواقع والواقعيات، لتنظيم العالم الإنساني.

والشعراء يبحثون عن العيش واللذة والغزل (كما هي الحال بالنسبة لشعراء ذلك العصر في الحجاز خاصة حيث يظهر ذلك من أشعارهم بوضوح).

ولذا فإنّ أتباعهم هم الضالون: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

ثم يضيف القرآن على الجملة آنفة الذكر معقّباً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.

فهم غارقون في أخيلتهم وتشبيهاتهم الشعرية، حتى أنّ القوافي تجرهم إلى هذا الإتجاه أو ذاك، ويهيمون معها في كل واد.

ومتى سخطوا على أحد هجوه هجواً مراً وأنزلوه في شعرهم إلى أسفل السافلين، وإن كان موجوداً سماوياً.

ثم إنّ الشعراء عادةً هم رجال خطابة وجماهير لا أبطال قتال، وكذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإنّ الآية التالية تضيف فتقول عنهم: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

غير أنّ النبي الكريم ﷺ رجل عمل من قرنه إلى قدمه، وقد اعترف بعزمه الراسخ واستقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النبي ﷺ.

ولما كان بين الشعراء أُناس مخلصون هادفون وأهل أعمال لا أقوال، ودعاة نحو الحق والصدق «وإن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلًا يومئذ». فالقرآن من أجل أن لا يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون في شعرهم أهدافاً الهية وإنسانية، ولا يغرقون في الأشعار فيغفلون عن ذكر الله، بل كما يقول القرآن: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وأشعارهم تذكر الناس بالله أيضاً... وإذا ما ظُلموا كان شعرهم انتصاراً للحق ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

وهكذا فقد بيّن القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، وهي الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله كثيراً، والانتصار للحق من بعدما ظلموا، مستعينين بشعرهم في الذب عنه.

وحيث إنّ معظم آيات هذه السورة هو للتسلية عن قلب النبي، والتسرية عنه، وعن المؤمنين القلة في ذلك اليوم في قبال كثرة الأعداء، وحيث إنّ كثيراً من آيات هذه السورة في مقام الدفاع عن النبي ﷺ ضد التهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، وغير اللائقة به، فإنّ السورة تختتم بجملة ذات معنى غزير، وفيها تهديد لأولئك الأعداء الألدّاء، إذ تقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

«نهاية تفسير سورة الشعراء»

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢٧

سورة النّمل

وهي ثلاث وتسعون آية

مكية

محتوى السورة: محتوى هذه السورة ـ بصورة عامة ـ كمحتوى سائر السور المكية، فأكثر إهتمامها ـ من الوجهة الاعتقادية ـ ينصبّ على المبدأ والمعاد.

وأمّا من ناحية المسائل العملية والأخلاقية، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسة أنبياء كرام ومواجهاتهم لأُممهم المنحرفة، لتكون هذه السورة تسلية للمؤمنين القلة بمكة في ذلك اليوم، وفي الوقت ذاته تكون إنذاراً للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم في صفحات تاريخ الظلمة الماضين، فلعلهم يحذرون ويرجعون إلى الرشد.

وأحد خصائص هذه السورة هي بيان قسم مهم من قصة النبي سليمانعليه السلام وملكة سبأ، وكيفية إيمانها بالتوحيد، وكلام الطير ـ كالهدهد، والحشرات كالنمل ـ مع سليمانعليه السلام.

وهذه السورة سمّيت سورة «النمل» لورود ذكر النمل فيها، والعجيب أنّها سمّيت بسورة «سليمان» كما في بعض الروايات.

وتتحدث هذه السورة ضمناً عن علم الله غير المحدود، وهيمنته وسلطانه على كل شيء في عالم الوجود، وحاكميته على عباده... والإلتفات إلى ذلك له أثره الكبير في المسائل التربوية للإنسان.

وتبدأ هذه السورة بالبشرىٰ وتنتهي بالتهديد، فالبشرىٰ للمؤمنين، والتهديد للناس بأنّ الله غير غافل عن أعمالكم.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بسليمان وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلّا الله».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

القرآن مُنزّل من لدن حكيم عليم: نواجه مرّة أُخرى ـ في بداية هذه السورة ـ الحروف المقطعة من القرآن ﴿طس﴾ وبملاحظة أنّ ما بعدها مباشرة هو الكلام عن عظمة القرآن، فيبدو أنّ واحداً من أسرار هذه الحروف هو أنّ هذا الكتاب العظيم والآيات البينات منه، كل ذلك يتألف من حروف بسيطة... وإنّ الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطة كهذه الحروف.

ثم يضيف القرآن قائلاً: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

والإشارة للبعيد بلفظ (تلك) لبيان عظمة هذه الآيات السماوية، والتعبير بـ(المبين) تأكيد على أنّ القرآن واضح بنفسه وموضح للحقائق أيضاً.

وفي الآية التالية وصفان آخران للقرآن إذ تقول: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. لأنّه إذا لم يكن في قلب الإنسان أدنىٰ مرحلة من التقوى والتسليم والايمان بالواقع، فإنّه لا يتجه نحو الحق، ولا يبحث عنه، ولا يفيد من نور هذا الكتاب المبين. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وهكذا فإنّ اعتقاد المؤمنين راسخ في شأن المبدأ والمعاد، وإرتباط متين بالله وخلقه أيضاً... فالأوصاف المتقدمة تشير إلى اعتقادهم الكامل ومنهجهم العملي الجامع.

وتتحدث الآية التالية عن الأشخاص في المقابلة للمؤمنين، وتصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾. أي: حيارىٰ في حياتهم.

فهم يرون الملوّث نقيّاً، والقبيح حسناً، والعيب فخراً، والشقاء سعادةً وانتصاراً.

وهذا التغير في القيم، أو اضطراب المعايير في نظر الإنسان، يؤدّي إلى الحيرة في متاهات الحياة... وهو من أسوأ الحالات التي تصيب الإنسان.

ثم تبيّن الآية التالية نتيجة «تزيين الأعمال» وعاقبة أُولئك الذين شغفوا بها فتقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾. فهم في الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، وسينالون العقاب الصارم في الآخرة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾.

وأمّا الآية الأخيرة ـ من الآيات محل البحث ـ فهي بمثابة إكمال البيانات السابقة في صدد عظمة محتوى القرآن، ومقدمة لقصص الأنبياء التي تبدأ بعدها مباشرة فتقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

وبالرغم من أنّ الحكيم والعليم كلاهما إشارة إلى علم الله سبحانه، إلّا أنّ الحكمة تبيّن الجوانب العملية، والعلم يبيّن الجوانب النظرية... وبتعبير آخر: إنّ العليم يخبر عن علم الله الواسع، والحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم وإنزال القرآن على قلب النبي (محمّد ﷺ).

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ
ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا
مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

موسى يقتبس النور: يجري الكلام في هذه السورة ـ كما أشرنا من قبل ـ بعد بيان أهمية القرآن، عن قصص خمسة أنبياء عظام، وذكر أممهم، والوعد بانتصار المؤمنين وعقاب

الكافرين. فأوّل نبيّ تتحدث عنه هذه السورة، هو موسى عليه السلام أحد الأنبياء «أولي العزم» وتبدأ مباشرة بأهم نقطة من حياته وأكثرها «حسّاسية» وهي لحظة نزول الوحي على قلبه وإشراقه فيه، وتكليم الله إيّاه، إذ تقول الآية: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾[1]. أي رأيت ناراً من بعيد، فامكثوا هنيئة ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2].

في تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السلام يسير بزوجته بنت النبي شعيب عليه السلام في طريق مصر - وفي الصحراء - فهبت ريح باردة، وكانت زوجته (أهله) مقرّباً، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النار لتصطلي المرأة بها، لكن لم يكن في الصحراء أيّ شيء، فلمّا لاحت له النّار من بعيد سُرّ كثيراً، وعلم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضي وآتيكم منها بخبر أو شعلة للتدفئة.

وهكذا فقد ترك موسى أهله في ذلك المكان واتّجه نحو «النار» التي آنسها ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

إنّ المراد من ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ هو موسى نفسه، حيث كان قريباً منها ومن الشجرة الخضراء التي عندها، فكأنّ موسى كان في النار نفسها؛ وأنّ المراد من ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ هم الملائكة المقربون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسة في ذلك الوقت. أو أنّ المراد - على عكس ما ذكرنا آنفاً - فمن في النار: هم الملائكة المقربون، ومن حولها هو موسى عليه السلام.

ومرّة أُخرى نودي موسى بالقول: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وذلك يزول عن موسى عليه السلام كل شك وتردد، وليعلم أنّ الذي يكلمه هو رب العالمين، لا شعلة النار ولا الشجرة، الربّ القوي العزيز الذي لا يغلب ولا يُقهر، والحكيم ذو التدبير في جميع الأُمور.

وحيث إنّ الصدع بالرسالة والبلاغ (وأية رسالة وبلاغ... رسالة إلى جبار مستكبر ظالم

---

١. «آنستُ»: فعل ماض مأخوذ من «الإيناس»، وهو الرؤية المقرونة بالراحة النفسية والسكينة وإنّما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

٢. «الشهاب»: هو النور الذي ينبثق من النّار كالعمود، وكل نور له عمود يدعى شهاباً؛ و«القبس»: شعلة من النّار تنفصل عنها؛ و«تصطلون»: من الاصطلاء وهو الدفء (بالنّار).

كفرعون)، لابدّ له من قوة ظاهرية وباطنية وسند على حقانيّته... فلذا أمر موسى بأن يلقي عصاه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾.

فألقى موسى عصاه، فتبدلت ثعباناً عظيماً، فلمّا رآه موسى يتحرك بسرعة كما تتحرك الحيّات الصغار خاف وولّى هارباً ولم يلتفت إلى الوراء: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

وهنا خوطب موسى مرّة أُخرى أن ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

ومعنى الآية: أن يا موسى إنّك بين يدي خالق الوجود العظيم، والحضور عنده ملازم للأمن المطلق.

إلّا أنّ في الآية التالية استثناءاً للجملة السابقة، حيث ذكره القرآن فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أمّا المعجزة الثانية التي أمر موسى أن يظهرها، فهي اليد البيضاء، إذ تقول الآية: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

والقيد ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ إشارة إلى أنّ بياض اليد ليس من برص ونحوه، بل هو بياض نوراني يلفت النظر، وهو بنفسه كاشف عن إعجاز وأمر خارق للعادة.

ومن أجل أن يظهر الله تعالى عنايته ولطفه لموسى أكثر، وكذلك منح الفرصة للمنحرفين للهداية أكثر، قال لموسى بأنّ معاجزه ليست منحصرة بالمعجزتين الآنفتين، بل ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

ويستفاد من ظاهر الآية أنّ هاتين المعجزتين من مجموع تسع معاجز «آيات» موسى المعروفة.

وأخيراً تعبّأ موسى بأقوى سلاح ـ من المعاجز ـ فجاء إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الحق، كما يصرح القرآن بذلك في آية التالية: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

و معلوم أنّ هذا الإتهام «بالسحر» لم يكن خاصاً بموسى عليه السلام، بل اتخذه المعاندون ذريعة بوجه الأنبياء، ليجعلوه سدّاً في طريق الآخرين، والإتهام بنفسه دليل واضح على عظمة ما يصدر من الأنبياء خارقاً للعادة، بحيث اتّهموه بالسحر.

ومما يلفت النظر أنّ القرآن يضيف في آخر الآية ـ محل البحث ـ قائلاً: إنّ هذا الإتهام لم

يكن لأنّهم كانوا في شك من أمرهم ومترددين فعلاً، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتها، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

ويستفاد من هذا التعبير أنّ الايمان له حقيقة وواقعية غير العلم واليقين، ويمكن أن يقع الكفر جحوداً وإنكاراً بالرغم من العلم بالشيء.

إنّ القرآن يذكر عاقبة فرعون وقومه على أنّه درس من دروس العبرة، في جملة موجزة ذات معنى كبير، مشيراً إلى هلاكهم وغرقهم فيقول: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

حكومة داود وسليمانعليهما السلام: بعد الكلام عن جانب من قصة موسى عليه السلام في هذه السورة، يتحدث القرآن الكريم عن نبيّين آخرين من الأنبياء العظام، وهما «داود» و«سليمان»... لأنّهما كانا من أنبياء بني إسرائيل أيضاً، وما نجده من اختلاف بين تاريخهما وتاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنّهما ـ ونتيجة للإستعداد الفكري وملائمة المحيط الاجتماعي في عهدهما ـ قد وفّقا إلى تأسيس حكومة عظيمة، وأن ينشرا بالإستعانة والإفادة من حكومتهما دين الله، لذلك لا نجد هنا أثراً أو خبراً عمّا عهدناه من أسلوب في تلك الآيات التي كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، وهم يواجهون قومهم المعاندين، وربّما نالوا منهم الأذى والطرد والاخراج من مدنهم وقراهم.. فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماماً.

والطريف، أنّ القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التي هي أساس الحكومة الصالحة القوية، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

إنّ من الواضح أنّ العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل في نفسه علم التوحيد والإعتقادات المذهبية والقوانين الدينية، وكذلك علم القضاء، وجميع العلوم التي ينبغي توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية.

وبعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود وسليمان من ثناء لله: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والذي يجلب النظر هو أنّه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجري الكلام عن «الشكر» مباشرة... ليكون واضحاً أنّ كل نعمة لابدّ لها من شكر، وحقيقة الشكر هو أن يستفاد من النعمة في طريقها الذي خلقت من أجله.

والآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أوّلاً، فتقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.

ثم تضيف الآية حاكية عن لسان سليمان: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وجملة ﴿أُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهي تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامة حكومة الله في ذلك الحين.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

سليمان في وادي النمل: يستفاد من آيات هذه السورة، وآيات سورة سبأ أنّ «حكومة سليمان» لم تكن حكومة مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات والمعاجز المختلفة. وفي الحقيقة فإنّ الله أظهر قدرته في هذه الحكومة وما سخّر لها من قوى. وأوّل ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾.

وكانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك والمسير، ومن أجل المحافظة على النظم، يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. «يوزعون»: من مادة «وزع» على وزن (جمع) ومعناه الحبس والإيقاف، وهذا التعبير متى أُطلق على الجند أو الجيش فيعني إيقاف أوّل الجيش ليلحق به آخره، لكي يحفظ من التشتت والتفرق.

ويستفاد من هذا التعبير أنّ جنود سليمان كانوا كثيرين، كما كانوا يخضعون للنظم والانضباط.

«حشر»: فعل ماض من «الحشر» على وزن (نشر) ومعناه إخراج الجمع من المقرّ، والتحرك نحو الميدان للقتال، وما أشبه ذلك.

إنّ سليمان عليه السلام تحرك بهذا الجيش العظيم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾. فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، كما تقول الآية: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

ويستفاد ضمناً من جملة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنّ عدل سليمان كان ظاهراً وواضحاً حتى عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أنّ سليمان وجنوده لو شعروا والتفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، وإذا وطأوها فإنّما ذلك لعدم توجههم والتفاتهم: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾.

إنّ سليمان توجه نحو الله.. داعياً وشاكراً مستزيداً فضله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[١]. أي، لتكون لي القدرة أن استعمل هذه النعم جميعها في ما أمرتني به وما يرضيك، ولا أنحرف عن طريق الحق ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾. وهو يشير إلى أنّ بقاء هذا الجيش وحكومته وتشكيلاتها الواسعة غير مهم بالنسبة إليه، بل المهم أن يؤدّي عملاً صالحاً يرضي به ربّه.

والطلب الثالث الذي طلبه سليمان من ربّه، كما حكته الآية، هو أن يجعله في زمرة الصالحين، إذ قال: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ
غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي
وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا
وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ
ٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾

قصة الهدهد وملكة سبأ: يشير القرآن في هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من

---

١. «أوزعني»: من مادة «إيزاع» ومعناه «الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق والتعلق، إلّا أنّ أغلب المفسرين إختاروا المعنى الأوّل.

حياة سليمان عليه السلام المدهشة، وما جرى له مع الهدهد وملكة سبأ. فيقول أوّلاً: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾.

وهذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، وهي أنّه كان يراقب وضع البلاد بدقّة، وكان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شيء، حتى لو كان طائراً واحداً.

وما لا شك فيه أنّ المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأنّ القرآن يضيف استمراراً للكلام: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

ومن أجل أن لا يكون حكم سليمان غيابياً، وأن لا يؤثر غياب الهدهد على بقية الطيور، فضلًا عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلًا: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

إنّ سليمان قبل أن يقضي غيابياً ذكر تهديده اللازم في صورة ثبوت التخلف.

وقد برهن «سليمان» ضمناً أنّه ـ حتى بالنسبة للطائر الضعيف ـ يستند في حكمه إلى المنطق والدليل، ولا يعوّل على القوة والقدرة أبداً.

ولكن غيبة الهدهد لم تطل ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ عاد الهدهد وتوجه نحو سليمان: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

إنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

لقد بيّن الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريباً، وأسلوب حكومته.

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد غرق في تفكيره، إلّا أنّ الهدهد لم يمهله طويلًا فأخبره بخبر جديد... خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾. فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس وبذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾. وقد غرقوا في عبادة الأصنام حتى أنّي لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

ثم أضاف الهدهد قائلًا: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

«خبء»: على وزن (صبر) معناها كل شيء خفي مستور، وهي هنا إشارة إلى إحاطة علم الله بغيب السماوات والأرض، أي: لِمَ لا يسجدون لله الذي يعلم غيب السماوات

والأرض وما فيها من أسرار؟!

وأخيراً يختتم الهدهد كلامه هكذا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وهكذا يختتم الهدهد كلامه مستنداً إلى «توحيد العبادة» و«توحيد الربوبية» لله تعالى، مؤكداً نفي كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ
إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ
﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ
﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ
إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ
﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

الملوك مفسدون مخربون: لقد أصغى سليمان عليه السلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام.. وفكّر ملياً، فينبغي أن لا يكتفي بخبر واحد، بل ينبغي التحقيق أكثر في هذا المجال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

سليمان عليه السلام لم يتّهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب.. ولم يصدّق كلامه دون أي دليل... بل جعله أساساً للتحقيق.

وعلى كل حال، فقد كتب كتاباً وجيزاً ذا مغزى عميق، وسلّمه إلى الهدهد وقال له: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

يستفاد من التعبير ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أن يلقي الكتاب عندما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لئلا تعبث به يد النسيان أو الكتمان.

ففتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، واطّلعت على مضمونه، وحيث إنّها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان واسمه، ومحتوى الكتاب يدل على إقدامه وعزمه الشديد في شأن بلدة «سبأ»، لذلك فكّرت ملياً، ولما كانت في مثل هذه المسائل المهمة تستشير من حولها، لذلك

فقد دعتهم وتوجهت إليهم و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾.

وقول الملكة: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ «أي قيم» لعلّه لمحتواه العميق، أو لأنّه بُدىء باسم الله أو لأنّه ختم بإمضاء صحيح.

ثم إنّ «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وبعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها... التفتت إليهم و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾. «أفتوني»: مشتقة من «الفتوى»، معناها في الأصل الحكم الدقيق والصحيح في المسائل الغامضة والصعبة.

«تشهدون»: مأخوذ من مادة «الشهود»، ومعناه الحضور... الحضور المقرون بالتعاون والمشورة.

فالتفت إليها أشراف قومها وأجابوها على استشارتها فـ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

وهكذا فقد أظهروا لها تسليمهم وإذعانهم لأوامرها... كما أبدوا رغبتهم في الاعتماد على القوة والحضور في ميدان الحرب.

ولما رأت الملكة رغبتهم في الحرب خلافاً لميلها الباطني، ومن أجل إطفاء هذا الظمأ وأن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾.

ولمزيد التأكيد أردفت قائلةً: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

إنّ ملكة سبأ التي كانت بنفسها ملكةً، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، وأنّ سيرتهم تتلخص في شيئين:

١ـ الإفساد والتخريب.

٢ـ وإذلال الأعزة...

لأنّهم يفكرون في مصالحهم الشخصية، ولا يكترثون بمصالح الأُمة وعزتها... وهما على طرفي نقيض دائماً.

ثم أضافت الملكة قائلةً: علينا أن نختبر سليمان وأصحابه، لنعرف من هم وما يريدون؟ وهل سليمان نبيّ حقاً أو ملك؟ وهل هو مصلح أو مفسد؟ وهل يذلّ الناس أم يحترمهم ويعزّهم؟

فينبغي أن نرسل شيئاً إليه ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

فالملوك لهم علاقة شديدة بالهدايا، ونقطة الضعف كامنة في هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغالية... فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، وينبغي أن نواجهه بالقوة فنحن أقوياء... وإذا ألحّ على كلامه ولم يكترث بنا فهو نبي، وفي هذه الصورة ينبغي التعامل معه بالحكمة والتعقل.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

لا تخدعوني بالمال: خرج رسل ملكة سبأ بقافلة الهدايا وتركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان «في الشام» ظنّاً منهم أنّ سليمان سيكون مسروراً بمشاهدته هذه الهدايا ويرحب بهم، لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان... فإنّ سليمان ﷺ مضافاً إلى عدم استقباله واكتراثه بتلك الهدايا، ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾.

فما قيمة المال، ازاء مقام النبوة والعلم والهداية والتقوى، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

وهكذا فقد حقّر سليمان ﷺ معيار القيم عندهم، وأوضح لهم أنّ هناك معياراً آخر للقيمة تضمحلّ عنده معايير عبدة الدنيا ولا تساوي شيئاً.

ومن أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق والباطل، قال لرسول ملكة سبأ الخاص: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

لأنّهم لم يذعنوا ـ ويُسلموا ـ للحق... وإنّما قصدوا الخداع والمكر.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

حضور العرش في طرفة عين: وأخيراً عاد رسل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هدايـاهم وأمتعتهم إلى بلدهم، وأخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة مُلك سليمان عليه السلام المعجز وجهازه الحكومي، وكل واحد من هذه الأُمور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد ولا ملكاً كسائر الملوك، بل هو مُرسل من قبل الله حقّاً، وحكومته حكومة إلهية. لذلك قررت الملكة أن تأتي بنفسها مع أشراف قومها إلى سليمان، ويتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر ـ عن أيّ طريق كان ـ إلى سمع سليمان عليه السلام، فعزم على إظهار قدرته العجيبة ـ والملكة وأصحابها في الطريق إليه ـ ليعرفهم قبل كل شيء على إعجازه، ليذعنوا له ويسلّموا لدعوته... لذلك التفت إلى من حوله و﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾.

وهنا أظهر شخصان استعدادهما لإمتثال طلب سليمان عليه السلام، وكان أمر أحدهما عجيباً والآخر أعجب، إذ ﴿**قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾. فهذا الأمر عليّ يسير، ولا أجد فيه مشقّة، كما أنّي لا أخونك أبداً، لأنّي قادر على ذلك ﴿**وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾. «العفريت»: معناه المارد الخبيث.

وجملة ﴿**وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾ المشفوعة بالتأكيدات من عدّة جهات تشر إلى احتمال خيانة هذا العفريت... لذلك فقد أظهر الدفاع عن نفسه بأنّه أمين وفيّ.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلاً صالحاً له علم ببعض ما في الكتاب، ويتحدث عنه القرآن فيقول: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾.

فلما وافق سليمان عليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالإستعانة بقوته المعنوية: ﴿**فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾.

ثم أضاف قائلاً: ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾.

الفرق بين «علم من الكتاب» و«علم الكتاب»: في كتاب ينابيع المودة للقندوزي عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ قال: «ذاك وزير أخي سليمان بن داود عليه السلام». وسألته عن قول الله عزّ وجلّ ﴿**قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ قال: «ذاك أخي عليّ بن أبي طالب».

والإلتفات إلى الفرق بين «علم من الكتاب» الذي يعني (العلم الجزئي) و«علم الكتاب»

الذي يعني (العلم الكلي)، يكشف البون الشاسع بين آصف وعلي عليه السلام.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

نور الإيمان في قلب الملكة: نواجه في هذه الآيات مشهداً آخر، مما جرى بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ فسليمان من أجل أن يختبر عقل ملكة سبأ ودرايتها، ويهيء الجوّ لايمانها بالله، أمر أن يغيروا عرشها وينكّروه فـ ﴿**قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ**﴾. والمراد من جملة ﴿**أَتَهْتَدِي**﴾ هي معرفة عرشها.

﴿**فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ**﴾ إنّ ملكة سبأ أجابت جواباً دقيقاً و﴿**قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ**﴾.

ومع كل ذلك فإنّ ملكة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له من تغييرات... فقالت مباشرة: ﴿**وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**﴾. أي: إذا كان مراد سليمان عليه السلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكي نؤمن به، فإننا كنّا نعرف حقانيته بعلائم أخر... كنّا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجة إلى هذا الأمر.

وهكذا فإنّ سليمان عليه السلام منعها ﴿**وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ بالرغم من ﴿**إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يجري الكلام عن مشهد آخر من هذه القصّة، وهو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

وكان سليمان عليه السلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، وأن يجري الماء

من تحتها، فلما وصلت ملكة سبأ إلى ذلك المكان ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾[١]. فلما رأته ظنته نهراً جارياً فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء وهي متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجاري، وكما يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾[٢].

إلّا أنّ سليمان عليه السلام التفت إليها و﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[٣]. فلا حاجة إلى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

وهنا ينقدح سؤال هام، وهو أنّ سليمان نبي كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق والتزيّن الرائق... والصرح الممرّد والبساط الممهّد.. وصحيح أنّه كان حاكماً مبسوط اليد، إلّا أنّ الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلّا أنّه، ما يمنع أن يُري سليمان ملكة سبأ التي كانت ترى قدرتها وعظمتها بالعرش والتاج والقصر العظيم والزينة.. يريها هذا المشهد لتذعن لأمره، ولتحتقر ما عندها؟! وهذه نقطة انعطاف في حياتها لتعيد النظر في ميزان القيم ومعيار الشخصية.

وبتعبير آخر: إنّ هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقة واسعة، وقبول دين الحق، والوقاية عن الإنفاق المفرط للحرب ـ لم تكن أمراً مسرفاً. ولذلك حين رأت ملكة سبأ هذا المشهد الرائع: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لقد كنت في ما مضى أسجد للشمس وأعبد الأصنام، وكنت غارقة في الزينة والتجميل، وكنت أتصور أنّي أعلى الناس في الدنيا. أمّا الآن فإنّني أفهم أنّني ضعيفة جداً.

ربّاه... أتيت إليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمري، خاضعة عنقي إليك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ
﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

---

١. «صرح»: معناه الفضاء الواسع، وقد يأتي بمعنى البناء العالي والقصر وفي الآية المشار إليها آنفاً معناه ساحة القصر أي فضاءه الواسع ظاهراً.

٢. «اللّجة»: في الأصل مأخوذة من اللجاج، ومعناه الشدة، ثم أطلق على ذهاب الصوت وإيابه في الحنجرة تعبير «لجة». أمّا الأمواج المتلاطمة في البحر فتسمى «لُجة» وهي هنا في الآية بهذا المعنى الأخير.

٣. «الممرّد»: معناه الصافي؛ و«القوارير»: جمع قارورة وهي الزجاجة.

صالح في ثمود: بعد ذكر جانب من قصص موسى وداود وسليمان عليهم السلام فإنّ هذه الآيات تتحدث عن قصة رابع نبي ـ وتبيّن جانباً من حياته مع قومه ـ في هذه السورة، وهي ما جاء عن صالح عليه السلام وقومه «ثمود»، إذ يقول القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

وكما قيل من قبل: إنّ التعبير بـ«أخاهم» الوارد في قصص كثير من الأنبياء، هو إشارة إلى منتهى المحبة والإشفاق من قبل الأنبياء لأممهم، كما أنّ في بعض المواطن إشارة إلى علاقة القربى «الروابط العائلية للأنبياء بأقوامهم».

إنّ جميع دعوة هذا النبي العظيم تلخصت في جملة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. أجل، إنّ عبادة الله هي عصارة كل تعليمات رسل الله تعالى.

ثم يضيف قائلاً: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

فأخذ صالح عليه السلام ينذرهم ويحذرهم من عذاب الله الأليم... إلّا أنّ أولئك لم يستجيبوا له وتمسكوا بعنادهم وطلبوا منه باصرار أن إذا كنت نبيّاً فليحل بنا عذاب الله «وقد صرحت الآية (٧٧) من سورة الأعراف بأنّهم سألوا نبيّهم نزول العذاب»: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

إلّا أنّ صالحاً أجابهم محذراً و﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾.

إنّ عذاب الله إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم ولا يبق مجال للإيمان.

تعالوا واختبروا صدق دعوتي في البعد الإيجابي والأمل في رحمة الله في ظل الإيمان به ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وهذا أمر عجيب حقّاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة.

إنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلاً من أن يصغوا لنصيحة نبيّهم ويستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية وكلمات باطلة... منها أنّهم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾. ولعل تلك السنة كانت سنة قحط وجدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء والمشاكل والعقبات كلها بسبب قدوم هذا النبي وأصحابه.

لكنه ردّ عليهم و﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ فهو الذي يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التي أدّت إلى هذه العقوبات.

في الحقيقة إنّ ذلك اختبار وامتحان إلهي كبير لكم، أجل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

هذه امتحانات وفتن إلهية... هذه إنذارات وتنبيهات لينتبه ـ من فيهم اللياقة من غفلتهم، ويصلحوا انحرافهم ويتجهوا نحو الله.

وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟
تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

تآمر تسعة رهط في وادي القرى: نقرأ هنا قسماً آخر من قصة صالح وقومه، حيث يكمل القسم السابق ويأتي على نهايته، وهو ما يتعلق بالتآمر على قتل صالح من قِبل تسعة «رهط» من المنافقين والكفار، وفشل هذا التآمر في وادي القرى منطقة النبي صالح وقومه.

يقول القرآن في هذا الشأن: **﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾**. «الرهط»: يعني في اللغة الجماعة التي تقلّ عن العشرة أو تقلّ عن الأربعين، فإنّه يتّضح أنّ كلّا من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، وقد اجتمعوا على أمر واحد، وهو الإفساد في الأرض والاخلال بالمجتمع (ونظامه الاجتماعي) ومبادىء العقيدة والأخلاق فيه.

ولا ريب أنّ ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيّق الخناق عليهم، ولذلك تقول الآية التالية في حقّهم: **﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾**.

الطريف أنّ أُولئك كانوا يقسمون بالله، ويعني هذا أنّهم كانوا يعتقدون بالله، مع أنّهم يعبدون الأصنام، وكانوا يبدأون باسمه في المسائل المهمة.

جاء في التواريخ أنّ المؤامرة كانت بهذه الصورة، وهي أنّ جبلًا كان في طرف المدينة وكان فيه غار يتعبّد فيه صالح، وكان يأتيه ليلًا بعض الأحيان يعبد الله فيه ويتضرع إليه،

فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه في الليل، ويحملوا على بيته بعد استشهاده ثم يعودوا إلى بيوتهم، وإذا سئلوا أظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالحادث.

فلما كمنوا في زاوية واختبأوا في ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تهـوي إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم في الحال.

لذلك يقول القرآن في الآية التالية: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم يضيف قائلًا: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وكلمة «مكر» تستعملها العرب في كل حيلة وتفكير للتخلص أو الإهتداء إلى أمر ما.. ولا تختص بالأمور التي تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر وما ينفع.. فإذا نسبت هـذه الكلمة إلى الله فإنّها تعني إحباط المؤامرات الضارة من قبل الآخرين.

ثم يعبّر القرآن عن كيفية هلاكهم وعاقبة أمرهم فـيقول: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا﴾. أجل، لقد أذهبهم ريح عتوّهم وظلمهم، واحترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعاً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

إلّا أنّ الأخضر لم يحترق باليابس، والأبرياء لم يؤخذوا بجرم الأشقياء... بل سلم المتقون ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

انحراف قوم لوط: إنّ النبي الخامس الذي وردت الإشارة إليه في هذه السورة: نبي الله العظيم «لوط». يقول القرآن في الآيتين محل البحث أوّلًا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾. «الفاحشة»: تعني الأعمال السيئة القبيحة، والمراد منها الإنحراف الجنسي وعمل اللواط المخزي.

ثم يضيف القرآن قائلًا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

ولكي يتّضح بأنّ الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلًا: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

تجهلون بالله، وتجهلون هدف الخلق ونواميسه، وتجهلون آثار هـذا الذنب وعـواقـبه الوخيمة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

عندما تعدّ الطهارة عيباً كبيراً: والآن، لنستمع إلى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق «لوط». يقول القرآن: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾**. فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكري والسقوط الأخلاقي البعيد.

جاء في الروايات أنّ لوطاً كان يبلغ قومه حوالي ثلاثين عاماً وينصحهم، إلّا أنّه لم يؤمن به إلّا أسرته وأهله باستثناء زوجته فإنّها كانت من المشركين وعلى عقيدتهم.

بديهي أنّ مثل هؤلاء القوم لا أمل في إصلاحهم في عـالم الدنـيا، فـينبغي أن يـطوى «طومار» حياتهم، لذلك تقول الآية التالية في هـذا الشأن: **﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾**[1].

وبعد أن خرج آل لوط في الموعد المعين «سحر ليلة كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلما أصبح الصباح نزلت عليهم الحجارة من السماء، وتزلزت الأرض بهم، فدفنوا جـميعاً تحت الحجارة والأنقاض، وإلى هذا تشير الآية التالية: **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾**.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث، وبعد بيان ما جرى على لوط وقومه المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النبي الكريم «محمّد ﷺ» ليستنتج ممّا سبق، فيقول له: **﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾**.

الحمد والثناء الخاص لله، لأنّه أهلك أمماً مفسدين كقوم لوط، لئلا تتلوث الأرض من وجودهم.

ثم يضيف قائلاً: **﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾**.

سلام على موسى وصالح ولوط وسليمان وداود، وسلام على جميع الأنبياء والمـرسلين

---

١. «الغابرين»: جمع الغابر ومعناه هنا الباقي من الذاهبين من المكان.

وعباد الله الصالحين، ومن والاهم بإحسان.

ثم يقول: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ
وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَ
ٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

أمع كل هذه الأدلة ما تزالون مشركين: في آخر آية من آيات البحث السابق، أُلقي هذا السؤال الوجيز المتين: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. أمّا في الآيات محل البحث فتفصّل السؤال.. وتوجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين وتحاكمهم، وتكشف دلائل التوحيد في الآيات الخمس في اثني عشر مثلًا.

فالآية الأُولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات والأرض، ونزول الماء من السماء والبركات الناشئة عنه، فتقول: هل أنّ معبوداتكم أفضل ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

«الحدائق»: جمع «الحديقة»، وهي البستان الذي يحيطه الجدار أو الحائط، وله ماء كاف؛ و«البهجة»: معناها الجمال وحسن الظاهر الذي يسر الناظرين.

ويتوجه الخطاب نحو العباد في ختام الآية فيقول: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور وتسقوا الأرض، لكن الذي جعل الحياة في قلب البذرة، وأمر الشمس أن تشرق على الأرض، والماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة

فتكون شجراً، هو الله فحسب.

وبتعبير آخر: فإنّ التوحيد في الخلق يؤدّي إلى «توحيد الخالق»، والتوحيد في الربوبية «توحيد مدبّر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة».

ولذلك فالقرآن يقول في نهاية الآية: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ولكن هؤلاء جهلة عدلوا عن الله وعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [١].

والسؤال الثاني بحث عن موهبة استقرار الأرض وثباتها، وأنّها مقر الإنسان في هذا العالم، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ [٢]. كما تحافظ على القشرة الأرضية من الزلازل، كما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ومانعاً من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

وهكذا فقد ورد في هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد وُلد عن طريق الصدفة العمياء الصمّاء، والمبدأ الفاقد للعقل والحكمة؟! وهل للأصنام تأثير في هذا النظام البديع المثير للدهشة؟!

حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الإدعاء! لذلك يكرر القرآن في ختام الآية هذا السؤال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾. حاش لله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

السؤال الثالث من هذه الأسئلة الخمسة التي تحكي عن محاورة ومحاكمة المعنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصدة، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

أجل، عندما تُغلق جميع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، ويغدو مضطراً حيراناً لا حيلة له، فإنّ الذي يحلّ المعضلة، ويفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو الله لا غير.

وحيث إنّ الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة في أعماق نفوسهم جميعاً، فإنّ المشركين

---

١. قد يكون «يعدلون» من مادة «العدول» أي الإنحراف والرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنّه مادة «عِدْل» على وزن (قِشر) ومعناه المعادل والنظير.. ففي الصورة الأُولى مفهوم الآية أنّهم ينحرفون عن الله الواحد إلى غيره، وفي الصورة الثانية مفهومها أنّهم يجعلون له عديلاً.

٢. «الخلال»: في الأصل معناه الشق بين الشيئين؛ و«الرواسي»: جمع «راسية» وهي الثابتة.

حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم ويتوجهون نحو لطف الله، كما نقرأ في الآية (٦٥) من سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

لذلك تضيف الآية قائلة: إنّه لا ينقذكم من هذه المآزق والشدائد فحسب، بل: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ولكنّكم لا تتعضون بهذه الدلائل.. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ويثير القرآن في السؤال الرابع مسألة الهداية فيقول: هل أنّ الأصنام أفضل، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بواسطة النجوم ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

فالرياح التي تدل على نزول الغيث، وكأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث.

ويخاطب القرآن في ختام الآية المشركين مرّة أُخرى فيقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

ثم يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلاً: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أمّا في آخر آية من الآيات محل البحث، فيثير القرآن السؤال الخامس في شأن المبدأ والمعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير الله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

والمراد من (الرزق السماوي) هو الغيث ونور الشمس وأمثال ذلك، أمّا (الرزق الأرضي) فالنباتات والمواد الغذائية المختلفة التي تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام والمعادن والمواد المختلفة التي يتمتع بها الإنسان في حياته.

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾
بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا
نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

لما كان البحث في آخر الآيات السابقة عن القيامة والبعث، فإنّ الآيات ـ محل البحث ـ

تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أوّلاً على السؤال الذي يثيره المشركون دائماً، وهو قولهم: متى تقوم القيامة؟ ومتى هذا الوعد؟ فتقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

لا شك أنّ علم الغيب ـ ومنه تاريخ وقوع القيامة ـ خاص بالله، إلّا أنّه لا منافاة في أن يجعل الله بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ في الآيتين (٢٦ و٢٧) من سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

ثم يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة وشكهم وجهلهم، فيقول: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

«ادّارك»: في الأصل «تدارك» ومعناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل، فمفهوم جملة ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أنّهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم مما بذلوه من تفكير، وجمعوا المعلومات في هذا الشأن، لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. لأنّ دلائل الآخرة ظاهرة في هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة في فصل الربيع، وإزهار الأشجار وإثمارها مع أنّها كانت في فصل الشتاء جرداء... ومشاهدة عظمة قدرة الخالق في مجموعة الخلق والوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلّا أنّهم كالعُمي الذين لا يبصرون كل شيء.

والآية التالية توجز منطق منكري القيامة والبعث في جملة واحدة، فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾.

مع أنّهم كانوا أوّل الأمر تراباً وخلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثم يرجعون أحياءً بعد أن كانوا تراباً.

ثم يحكي القرآن عما يضيفه المشركون من قول: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، ولكن لم نجد أثراً لهذا الوعد ولن يوجد، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فما هي سوى خرافات وخزعبلات القدماء.

فبناءً على هذا فإنّهم يبدأون من الاستبعاد ثم يجعلونه أساساً للإنكار المطلق.

ويستفاد ـ ضمناً من هذا التعبير ـ أنّهم أرادوا أن يسخروا من كلام النبي في شأن يوم القيامة، ويطعنوا عليه، فيقولوا: إنّ هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير والمراجعة.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم: كان الكلام في الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، واستهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر. ولما كان البحث المنطقي غير مجد لهؤلاء القوم المعاندين والأعداء الألدّاء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافرة على المعاد مما يُرى كل يوم في عالم النباتات وفي عالم الأجنة، وما إلى ذلك، فإنّ الآيات محل البحث بدلاً من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب الله الذي شمل من سبقهم من الكفار، وأنذرتهم بعقابه المخزي... فوجهت الخطاب للنبي ﷺ قائلةً: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

فأنتم تعترفون أنّ هذه الوعود تلقّاها أسلافكم، فلم يكترثوا بها، ولم يروا ضرراً.

وحيث إنّ الرسول ﷺ كان يشفق عليهم لإنكارهم، ويحزن لعنادهم، ويحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصاً على هدايتهم، وكان يواجه مؤامراتهم أيضاً.. فإنّ الآية التالية تسري عن قلب النبي فتقول له: ﴿**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ ولا تقلق من مؤآمراتهم ﴿**وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**﴾.

إلّا أنّ هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلاً من أن يأخذوا إنذار النبي المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه ويسترشدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

وهنا يردّ القرآن على استهزائهم وسخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطباً نبيّه: ﴿**قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ**﴾.

والمراد من العذاب الذي كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى.

كما ويحتمل أنّ المراد منه العقاب العام الذي دفع أخيراً، ببركة وجود النبي إذ كان رحمة للعالمين، والآية (٣٣) من سورة الأنفال شاهدة عليه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

ثم يتحدث القرآن في الآية التالية عن هذه الحقيقة وهي أنّ الله إذا لم يعجل في عقابكم، فذلك بفضله وبرحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافي لإصلاح أنفسهم، فيقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وإذا كانوا يتصورون أنّ تأخير العقاب لعدم علم الله سبحانه لما يدور في خلدهم من نيات سيئة وأفكار ضالة، فهم في غاية الخطأ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[١]. فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم وما يعلنون، والغيب والشهادة عنده سيّان.

ثم يضيف القرآن قائلاً: إنّه ليس علم الله منحصراً بما تكنّ القلوب وما تعلن، بل علمه واسع مطلق. ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ
وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن
تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

كان الكلام في الآيات السابقة عن المبدأ والمعاد، أمّا في الآيات ـ محل البحث ـ فيقع الكلام على مسألة النبوة، وحقانية القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث.

أضف إلى ذلك أنّ الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجهاً للمشركين، وهنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود واختلافاتهم. فتقول الآيات أوّلاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

---

١. «تكنّ»: مأخوذ من كَنّ (على وزن جَنّ)، وهذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء وتحفظ، وهنا كناية عن ما يخطر في قلوب الكفار من خواطر وأفكار عدوانية.

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم في مسائل كثيرة، فقد اختلفوا في شأن مريم وعيسى عليه السلام. وفي شأن النبي الذي بشّرت به «التوراة» من هو؟ كما أنّهم اختلفوا في ما بينهم في كثير من المسائل الدينية والأحكام الشرعية... فجاء القرآن موضحاً هذه الأمور بجلاء.

ولما كانت مواجهة الاختلافات والوقوف بوجهها مدعاة للهدى والرحمة، فإنّ الآية التالية تشير إلى هذا «الأصل الكلي» وتقول: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّه هدى ورحمة من حيث حسم الخلافات ومبارزة الخرافات.

وحيث إنّ جماعة من بني إسرائيل وقفت بوجه القرآن والحقائق الواردة فيه، لأوامر الله، فإنّ الآية التالية تقول في شأنهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذا الكلام إضافة إلى أنّه يبيّن عظمة القرآن، وهو تهديد لبني إسرائيل، فهو في الوقت ذاته تسلية عن قلب النبي وتسرية عنه، لذا فالآية التالية تقول: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

توكّل على الله العزيز الذي لا يغلب، والعليم بكل شيء.. فتوكّل عليه ولا تقلق من المشركين والمعاندين، لأنّه يرعاك و﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: إذا كان القرآن حقاً مبيناً فلماذا خالفوه؟ فالآيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان أولئك لا يذعنون للحق المبين، ولا يؤثر في قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب.. لـ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾.

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق وأرواحهم توّاقة إليه، أمّا إحياء الموتى ـ أو موتى الأحياء ـ لتعصبهم وعنادهم واستمرارهم على الذنب، فلاترهق فكرك ونفسك من أجلهم وحتى لو كانوا احياء فإنّهم صمّ لا يسمعون فلايمكنهم أن يسمعوا صوتك، وخاصة إذا أداروا إليك ظهورهم وابتعدوا عنك، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

كما أنّهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، ولو ببعض العلامات، إلّا أنّهم عمي ﴿وَمَا أَنتَ بِهَـٰدِى الْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾.

وهكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، وآذانهم صمّ موقرة، وأعينهم عمي.

فأنت يا رسول الله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ ويشعرون في أنفسهم بالاذعان للحق.

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا
لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾
حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾

لما كانت الآية السابقة تتحدث عن استعجال الكفار بالعذاب ونزوله، فإنّ الآيات ـ محل البحث ـ تشير إلى بعض الحوادث التي تقع بين يدي القيامة، وتجسد عاقبة المنكرين الوخيمة، فتقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. «الدابّة»: معناها ما يدب ويتحرك. وقد طبق هذا المفهوم في روايات كثيرة على أمير المؤمنين عليه السلام، والروايات الكثيرة في تفسير الآية، تدل على أنّ المراد من «دابّة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفاً، فهو يميز الحق من الباطل والمؤمن من المنافق والكافر.

إنسان يخرج في آخر الزمان قبيل يوم القيامة، وهو بنفسه آية من آيات عظمة الخالق.

ثم تشير الآيات إلى علامة أُخرى من علامات القيامة، فتقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. «الحشر»: معناه إخراج جماعة ما من مقرّها والسير بها نحو ميدان الحرب أو غيره؛ «الفوج»: الجماعة التي تتحرك بسرعة؛ و«يوزعون»: معناه حبس الجماعة وإيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأوّل.

فبناء على هذا يستفاد من مجموع الآية أنّ يوماً سوف سيأتي يحشر الله فيه من كل أُمة جماعة، ويهيؤهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

والكثير من الأعاظم يعتقدون بأنّ هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة وعودة جماعة من الصالحين وجماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقائل هذا الكلام هو الله سبحانه. والمراد من «الآيات» هي المعاجز التي يأتي بها الأنبياء، أو أوامر الله، أو الجميع.

وبديهي أنّ هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أيٍ من هذين السؤالين، لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تضيف قائلة: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾.

وهذا القول أو العذاب دنيوي، إذا فسّرنا الآية بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة[١].

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلمية: مرّة أُخرى تتحدث هذه الآيات عن مسألة المبدأ والمعاد، وآثار عظمة الله، ودلائل قدرته في عالم الوجود، وحوادث القيامة، فتقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. وفي ذلك علائم ودلائل واضحة على قدرة الله وحكمته لمن كان مستعداً للإيمان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والآية التالية تتحدث عن مشاهد القيامة ومقدماتها، فتقول: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾. أي خاضعين.

ويستفاد من مجموع آيات القرآن أنّ النفخ في الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات:

فالمرّة الأُولى يقع النفخ في الصور عند نهاية الدنيا وبين يدي القيامة، وبها يفزع من في السماوات والأرض إلّا من شاء الله.

والثانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، ولعلّ هاتين النفختين واحدة.

والمرّة الثالثة ينفخ في الصور عند البعث وقيام القيامة.. إذ يحيا الموتى جميعاً بهذه إلّا أنّ الظاهر من الآية يدل على أنّ النفخة هنا إشارة إلى النفخة الأُولى التي تقع في نهاية الدنيا.

والآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة الله في هذا العالم الواسع، فتقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

فمن يكون قادراً على كل هذا النظم والإبداع في الخلق، لا ريب في علمه و﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

---

١. و«الرجعة» من عقائد الشيعة المعروفة، وتفسيرها في عبارة موجزة بهذا النحو: بعد ظهور المهدي عليه السلام وبين يدي القيامة، يعود طائفة من المؤمنين الخلّص، وطائفة من الكفار الأشرار إلى هذه الدنيا.. فالطائفة الأُولى تصعد في مدارج الكمال... والطائفة الثانية تنال عقابها الشديد.

إنّ الآية آنفة الذكر من قبيل آيات التوحيد ودلائل عظمة الله في هذه الدنيا، وتشير إلى حركة الأرض التي لا نحس بها، فالآية آنفة الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلمية.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ
وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ
رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ
﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

كان الكلام في الآيات السابقة عن أعمال العباد وعلم الله بها، أمّا الآيات محل البحث فيقع الكلام في مستهلّها عن جزائهم وثواب أعمالهم وأمنهم من فزع يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾.

إنّ معنى الآية واسع كما أنّ الحسنة هنا معناها واسع أيضاً، فهي تشمل الصالحات والأعمال الخالصة، ومن ضمنها الإيمان بالله وبرسوله وولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، التي تعدّ في طليعة الأعمال الحسنة، ولا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحة أُخرى تشملها الآية.

ثم يتحدث القرآن عن الطائفة الأخرى التي تقابل أصحاب الحسنات فتقول: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾.

وليس لهذه الطائفة أيّ توقع غيرها ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

«كُبّت»: مأخوذ من «كبّ» على وزن «جدّ» ومعناه في الأصل إلقاء الشيء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإنّ ذكر «وجوههم» في الآية هو من باب التوكيد.

إنّ أُولئك حين كانوا يواجهون الحقّ يُلوون وجوههم ورؤوسهم، وكانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين... فالآن لابدّ أن يبتلوا بمثل هذا العذاب.

ثم يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله في الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، ويؤكّد له هذه الحقيقة وهي أن يخبر أُولئك المشركين بأنّ عليه أن يؤدّي رسالته ووظيفته، سواءً آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الأُولى من هذه الآيات: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾.

هذه البلدة المقدسة التي يتلخّص كل وجودكم وشرفكم بها.

أجل، أعبد ربّ هذه البلدة المقدسة ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وجعل لها خصائص وأحكاماً

وحرمة، وأموراً أُخر لا تتمتع بها أية بلدة أُخرى في الأرض.

لكن لا تتصوروا أنّ هذه البلدة وحدها لله، بل له كل شي في عالم الوجود ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

والأمر الثاني الذي أمرت به، هو أن أسلم وجهي له ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وهكذا فإنّ الآية بيّنت وظيفتين أساسيتين على النبي وهما (عبادة الواحد الأحد، والتسليم المطلق لأمره).

والآية التالية تبيّن أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أتلوه فأستضيء بنوره، وأنتهل من عذب معينه الذي يهب الحياة، وأن أعول في جميع مناهجي على هديه. أجل، فالقرآن وسيلتي للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، والمواجهة لكل أنواع الشرك والإنحراف والضلال ومكافحتها.

ثم تعقب الآية لتحكي عن لسان الرسول وهو يخاطب قومه: لا تتصوروا أنّكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسي، كما أنّ الله غني عنكم، بل: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾.

وكل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم أُخروية فهي عائدة للمهتدي نفسه والعكس صحيح ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

والأمر الأخير ـ في آخر آية من هذه السورة ـ موجه للنبي أن يحمد الله على هذه النعم الكبرى، ولا سيا نعمة الهداية فيقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

هذا الحمد أو الثناء يعود لنعمة القرآن، كما يعود للهداية أيضاً، ويمكن أن يكون مقدمة للجملة التالية: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

وهذا التعبير إشارة إلى أنّه مع مرور الزمان وتقدم العلم والمعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، ويرفع ستار جديد عنها.. وستعرفون نعم الله وعظمة قدرته وعمق حكمته يوماً بعد يوم.. وإراءة الآيات هذه مستمرة دائماً ولا تنقطع مدى عمر البشر.

إلّا أنّكم إذا واصلتم طريق الخلاف والانحراف، فلن يترككم الله سدى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولا تتصوروا بأنّ الله إذا أخر عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، وأنّها لا تسجل في اللوح المحفوظ.

وجملة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الواردة بنفسها أو مع شيء من التفاوت اليسير في تسع آيات من القرآن جملة موجزة، وهي تهديد ذو معنى عميق، وإنذار لجميع الناس.

«نهاية تفسير سورة النمل»

٢٨

سورة القصص

وهي ثمان وثمانون آية

مكية

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في مكة، وفي ظروف كان المؤمنون في قبضة الأعداء الأقوياء وبين مخالبهم، الأعداء الذين كانوا أكثر عدداً وأشدّ قدرةً وقوةً ونفيراً.

وبما أنّ هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التي كان عليها بنو إسرائيل وهم بين مخالب الفراعنة، فإنّ قسماً من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام والفراعنة.

في بداية السورة يبشر المستضعفين بحكومة الحق والعدل لهم وكسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الإطمئنان والقدرة.

و«القسم الآخر» من هذه السورة يتحدّث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثري الذي كان يعتمد على علمه وثروته، حتى لقي أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود.

احدهما غريق في الماء والآخر دفين في الأرض.

وبين هذين القسمين دروس حيّة وقيّمة من التوحيد والمعاد وأهمية القرآن، وبيان حال المشركين في يوم القيامة، ومسألة الهداية والضلالة، والإجابة على حجج الأفراد الضعاف، وهي «نتيجة» الأوّل و«مقدمة» للقسم الثاني.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ طسم القصص

أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى وكذّب به، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً».

وبديهي أنّ كل هذا الأجر والثواب هو لأُولئك الذين يقرأون ويتفكرون، وعلى ضوء هذه السورة يخططون لحياتهم وعملهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

هذه هي المرّة الرابعة عشرة التي نواجه بها بدايات السورة بالحروف المقطعة في القرآن، وقد تكررت فيها ﴿طسٓمٓ﴾ ثلاث مرات، وهي هنا ـ أي «طسم» ـ ثالث المرات وآخرها.

إنّه يظهر من كثير من الروايات في شأن ﴿طسم﴾ أنّ هذه الحروف إشارات موجزة عن صفات الله سبحانه وتعالى، أو أنّها أماكن مقدسّة، ولكنها في الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التفسير المعروف الذي أكّدنا عليه مراراً، وهو أنّ الله تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقة للجميع، وهي أنّ هذا الكتاب السماوي العظيم الذي هو أساس التغيير الكبير في تأريخ البشرية وحامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانية يتشكّل من أُمور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء...» التي يستطيع أن يتلفظ بها كل صبيّ.

ومن هنا تتجلى عظمة القرآن وأهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التي هي في اختيار الجميع.

ولعل هذا السبب كان داعياً لأن يكون الحديث بعد الحروف المقطعة مباشرةً عن عظمة القرآن، إذ يقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

والقرآن بعد ذكر هذه المقدمة يحكي قصة «فرعون» و«موسى» فيقول: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن

﴿نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ ما ورد هنا خال من كل خرافة وأسطورة، وبعيد عن الأباطيل والأكاذيب، فهي إذن تلاوة مقترنة بالحق والواقعية.

والتعبير بـ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هو تأكيد على هذه الحقيقة، وهي أنّ مؤمني ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين والأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، وهي أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم وتزايدوا عَدداً وعُدداً، وأنّ المؤمنين مهما قلّوا وكانوا تحت ضغط أعدائهم وكانوا ضعافاً بحسب الظاهر، فلا ينبغي أن يهنوا وينكصوا عن طريق الحق، فكل شيء عند الله سهل يسير..

ثم يفصّل القرآن ما أجمله بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

فقد كان عبداً ضعيفاً، وعلى أثر جهله وعدم معرفته أضاع شخصيته ووصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنّه ادّعى الربوبية.

والتعبير بـ«الأرض» إشارة إلى أرض مصر وما حولها.

إنّ فرعون ـ من أجل تقوية قواعده الإستكبارية ـ قد أقدم على عدّة جرائم كبرى، فالجريمة الأولى، أنّه فرّق بين أهل مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

فلا يمكن أن تحكم الأقلية ـ التي لا تُعدّ شيئاً ـ على الأكثرية إلّا بالخطة المعروفة «فرّق تَسُدْ» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و«توحيد الكلمة» ويخافون منها أبداً، ويخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض.

إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتي «الأقباط» و«الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه والراحة، وكانت في أيديهم القصور ودوائر الدولة والحكومة.

و«الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بني إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد والخدم «في قبضة الأقباط» وكانوا محاطين بالفقر والحرمان.

والجريمة الثانية هي استضعافه لجماعة من أهل مصر بشكل دموي سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾.

ولكون ورود جملة ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بعد جملة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ فإنّ مسألة أُخرى تتجلى أمامنا، وهي أنّ الفراعنة اتخذوا خطة لاستضعاف بني إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنو إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة ويحاربوهم، وكانوا يتركون النساء اللاتي لا طاقة لهن على القتال والحرب، ليكبرن ثم يخدمن في بيوتهم.

وفي آخر جملة تأتي الآية بتعبير جامع، وفيه بيان العلة أيضاً فتقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

والتعبير بـ«يذبّح» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبني إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام والأنعام الأخرى، إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء ويحتزون رؤوسهم.

ثم تأتي الآية الأُخرى لتقول: إنّ إرادتنا ومشيئتنا إقتضت احتواء المستضعفين بلطفنا وكرمنا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وأن تشملهم رعايتنا ومواهبنا تكون بيد الحكومة ومقاليد الأمور: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

ويكونون أُولي قوة وقدرة في الأرض ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

فهي بشارة في صدد إنتصار الحق على الباطل والإيمان على الكفر.

وهي بشارة لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة وحكومة العدل وانطواء بساط الظلم والجور.

وحكومة بني إسرائيل وزوال حكومة الفراعنة ما هي إلّا نموذج لتحقق هذه المشيئة الإلهية والمثل الأكمل هو حكومة نبي الأعظم ﷺ وأصحابه بعد ظهور الإسلام.

والمثل الأكبر والأوسع هو ظهور حكومة الحق والعدالة على جميع وجه البسيطة ـ والكرة الأرضية ـ على يد «المهدي» أرواحنا له الفداء.

ومن الطبيعي أنّ حكومة المهدي ﷺ العالمية في آخر الأمر لا تمنع من وجود حكومات إسلامية في معايير محدودة قبلها من قبل المستضعفين ضد المستكبرين، ومتى ما تمّت الظروف والشروط لمثل هذه الحكومات الإسلامية فإنّ وعد الله المحتوم والمشيئة الإلهية سيتحققان في شأنها، ولابدّ أن يكون النصر حليفها بإذن الله.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ
لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ
﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ
وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

في قصر فرعون: من أجل رسم مثل حي لانتصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد في سرد قصة موسى وفرعون. يقول القرآن: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾.

وهذه الآية على إيجازها تشتمل على أمرين ونهيين وبشارتين، وهي خلاصة قصة كبيرة وذات أحداث ومجريات ننقلها بصورة مضغوطة:

كانت سلطة فرعون وحكومته الجائرة قد خططت تخطيطاً واسعاً لذبح «الأطفال» من بني إسرائيل حتى أنّ القوابل [من آل فرعون] كنّ يراقبن النساء الحوامل [من بني إسرائيل]، ومن بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودّة مع أمّ موسى عليه السلام «وكان الحمل خفياً لم يظهر أثره على أمّ موسى» وحين أحسّت أمّ موسى بأنّها مقرب وعلى أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة وأخبرتها بالواقع، وأنّها تحمل جنيناً في بطنها وتوشك أن تضعه، فهي بحاجة ـ هذا اليوم ـ إليها.

وحين ولد موسى عليه السلام سطع نور بهيّ من عينيه فاهتزّت القابلة لهذا النور وطُبع حبّه في قلبها، وأنار جميع زوايا قلبها، فالتفتت القابلة إلى أمّ موسى وقالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعوني بهذا الوليد ولكن ما عسى أن أفعل وقد وقع حبّه الشديد في قلبي، فاهتمي بالمحافظة عليه، وأظنّ أنّ عدوّنا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيراً.

ثم خرجت القابلة من بيت أم موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون وصمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمّها وأخبرتها بأن تتهيأ للأمر، وفي هذه الحالة من الارتباك وهي ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقة وألقته في التنور فإذا بالمأمورين والجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئاً إلّا

التنور المشتعل ناراً.

وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً «الله الذي نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالماً من التنور.

لكن الأم لم تهدأ إذ أنّ الجواسيس يمضون هنا وهناك ويفتشون البيوت.

وفي هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد، فجاءت إلى نجّار مصري «وكان النجار من الأقباط والفراعنة أيضاً» فطلبت منه أن يصنع صندوقاً صغيراً.

والوقت كان فجراً والناس ـ بعد ـ نيام، وفي هذه الحال خرجت أم موسى وفي يديها الصندوق الذي أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل وأرضعت موسى حتى ارتوى، ثم ألقت الصندوق في النيل فتلقفته الأمواج.

ورد في الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضة، وكانت هذه البنت تعاني من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: نتكهن ونتوقع أنّ إنساناً يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، وكان فرعون وزوجه «آسية» في إنتظار هذا «الحادث» وفي يوم من الأيام.. فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟!

ومثّل الصندوق «المجهول» الخفي أمام فرعون، فلما وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، ودخل حبّه في قلوب الجميع، وحين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أكثر فأكثر.

ولنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصة من لسانه. يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

«التقط»: مأخوذة من مادة «التقاط» ومعناها في الأصل الوصول إلى الشيء دون جهد وسعي، وإنّما سميت الأشياء التي يعثر عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضاً..

ثم تختتم الآية بالقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾. وأي خطأ أعظم من أن يحيدوا عن طريق العدل والحق، وأن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم والجور والشرك.

وأي خطأ أعظم أن يذبحوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السلام، ولكن الله سبحانه أودعه في أيديهم وقال لهم: خذوا عدوّكم هذا وربّوه ليكبر عندكم.

ويستفاد من الآية التالية أنّ شجاراً حدث ما بين فرعون وامرأته، ويحتمل أنّ بعض

أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول في هذا الصدد: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

إنّ فرعون وجد في مخايل الطفل والعلائم الأخرى أنّ هذا الطفل من بني إسرائيل، فأراد أن يجري قانون إجرامه عليه. ولكن آسية امرأة فرعون التي لم ترزق ولداً ذكراً، وقفت بوجه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله.

وإذا أضفنا قصة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى ـ على ما قدمناه ـ فسيكون دليلاً آخر يوضح كيفية انتصار آسية في هذه الازمة.

ولكن القرآن ـ بجملة مقتضية وذات مغزى كبير ـ ختم الآية قائلاً: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أجل، إنّهم لم يشعروا أنّ أمر الله النافذ ومشيئته التي لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل في أهم المراكز خطراً... ولا أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئة، ولا يمكن مخالفتها أبداً..

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

عودة موسى إلى حضن أمه: في هذه الآيات تتجسد مشاهد جديدة.. فأم موسى التي قلنا عنها: إنّها ألقت ولدها في أمواج النيل، بحسب ما فصّلنا آنفاً.. اقتحم قلبها طوفان شديد من الهمّ على فراق ولدها، فأوشكت أن تصرخ من أعماقها وتذيع جميع أسرارها، لكن لطف الله تداركها، وكما يعبّر القرآن الكريم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. «الفارغ»: معناه الخالي، والمقصود به هنا أنّ قلب أمّ موسى أصبح خالياً من كل شيء إلّا من ذكر موسى؛ «ربطنا»: من مادة «ربط» ومعناها في الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظاً في مكانه.

والمقصود من «ربط القلب» هنا تقويته.. أي تثبيت قلب أم موسى، لتؤمن بوعد الله

وتتحمل هذا الحادث الكبير.

وعلى أثر لطف الله أحست أمّ موسى بالاطمئنان، ولكنّها أحبت أن تعرف مصير ولدها، ولذلك أمرت أخته أن تتبع أثره وتعرف خبره: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾.

«قصّيه»: مأخوذة من مادة «قصّ» ومعناها البحث عن آثار الشيء، وإنّما سمّيت القصة قصةً لأنّها تحمل في طياتها أخباراً مختلفة يتبع بعضها بعضاً.

فاستجابت «أُخت موسى» لأمر أمّها، وأخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، ورأت صندوقه الذي كان في الماء يتلقفه آل فرعون.. ويقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾.

ولكن أُولئك لم يلتفتوا إلى أنّ أخته تتعقبه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وعلى كل حال، فقد اقتضت مشيئة الله أن يعود هذا الطفل إلى أمّه عاجلاً ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[1].

وطبيعي أنّ الطفل الرضيع حين تمر عليه عدة ساعات فإنّه يجوع ويبكي.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثاً عن مرضع له، والعجيب في الأمر أنّه كان يأبى أثداء المرضعات.

وهذا هو التحريم التكويني من قبل الله تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعاً.

والطفل يبكي وعمال فرعون يدورون به بحثاً عن مرضع حتى صادفوا بنتاً أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

فسرّ بها هؤلاء وجاءوا بأم موسى إلى قصر فرعون، فلمّا شمّ الطفل رائحة أمه التقم ثديها بشغف كبير.

في التفسير الكبير: لما قبل ثديها قال هامان إنّك لأمّه. قالت: لا. قال: فما بالك قبل ثديك من بين النسوة؟ قالت: أيّها الملك إنّي إمرأة طيّبة الريح حلوة اللبن ماشم ريحي صبي إلّا أقبل على ثديي. قالوا: صدقت. فلم يبق أحد من آل فرعون إلّا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

أجل، إنّ الله أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أمّه ليستطيع أن ينهض بوجه

---

١. «المراضع»: جمع «مُرضِع» ومعناها المرأة التي تسقي الطفل لبنها من ثديها.

الأرجاس ومحارب الآثمين.

وتمّ كل شيء بأمر الله: ﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾
وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن
شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

موسى عليه السلام وحماية المظلومين: في هذه الآيات نواجه المرحلة الثالثة من قصة موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون، وفيها مسائل تتعلق ببلوغه، وبعض الأحداث التي شاهدها وهو في مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثم سبب هجرته إلى مدين. تقول الآيات في البداية: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

«أشدّ»: مشتقة من مادة «الشدّة» وهي القوة.

«استوى»: مشتقة من «الاستواء» ومعناها كمال الخلقة واعتدالها.

والمراد بالحكم والعلم هنا ليس النبوة والوحي، بل المقصود من الحكم والعلم هما المعرفة والنظرة الثاقبة والقدرة على القضاء الصحيح وما شابه ذلك، وقد منح الله هذه الأمور لموسى عليه السلام لطهارته وصدقه وأعماله الصالحة.

وعلى كل حال فإنّ موسى ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

يحتمل أنّ هذه المدينة هي عاصمة مصر.

والمقصود من جملة ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ هو أوّل الليل، لأنّ الناس يتركون أعمالهم ويعطلون دكاكينهم ومحلاتهم ابتغاء الراحة والنوم، وجماعة يذهبون للتنزه، وآخرون لأماكن أخرى.. هذه الساعة هي المعبر عنها بساعة الغفلة في بعض الروايات الإسلامية. في معاني الأخبار قال النبي صلى الله عليه وآله: «تنفّلوا في ساعة الغفلة ولو بركعتين خفيفتين فإنّهما تورثان دار الكرامة».

قيل: يا رسول الله ومتى ساعة الغفلة؟ قال: «ما بين المغرب والعشاء».

والحق أنّ هذه الساعة ساعة غفلة وكثيراً ما تحدث الجنايات والفساد والإنحرافات الأخلاقية في مثل هذه لساعة من أوّل الليل.. فلا الناس مشغولون بالكسب والعمل، ولا هم نائمون، بل هي حالة غفلة عمومية تغشى المدينة عادةً في هذه الساعة.

وموسى دخل المدينة، وهنالك واجه مشادّة ونزاعاً، فاقترب من منطقة النزاع ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

والتعبير بـ«شيعته» يدلّ على أنّ موسى قبل أن يبعث كان له أتباع وأنصار وشيعة من بني إسرائيل.

فلما بصر الإسرائيلي بموسى استصرخه، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

فجاءه موسى ﷺ لإستنصاره وتخليصه من عدوّه الظالم.. الذي يقال عنه أنّه كان طباخاً في قصر فرعون، وكان يريد من الإسرائيلي أن يحمل معه الحطب إلى القصر، فضرب موسى هذا العدو بقبضة يده القوية على صدره، فهوىٰ إلى الأرض ميتاً في الحال. تقول الآية: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[1]

ومما لا شك فيه، فإنّ موسى لم يقصد أن يقتل الفرعوني، لذلك فإنّ موسى ﷺ أسف على هذا الأمر: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

فإنّ موسى ﷺ كان يريد أن يبعد الفرعوني عن الرجل الإسرائيلي، وإن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك، لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل.

ثم يتحدث القرآن عن موسى ﷺ فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ومن المسلم به أنّ موسى ﷺ لم يصدر منه ذنب هنا، بل ترك الأولى، فكان ينبغي عليه أن يحتاط لئلا يقع في مشكلة، ولذلك فإنّه استغفر ربّه وطلب منه العون.

لذلك فإنّ موسى ﷺ حين نجا بلطف الله من هذا المأزق: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من عفوك عني وانقاذي من يد الأعداء وجميع ما أنعمت علي منذ بداية حياتي لحدّ الآن ﴿فَلَنْ

---

١. «وكزه»: مأخوذ من «الوكز» ومعناه الضرب بقبضة اليد، وهناك معان أخرى لا تناسب المقام.

أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، ومعيناً للظالمين.

ويريد موسى ﷺ أن يقول: «إنه لا يكون بعد هذا مع فرعون وجماعته أبداً.. بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين..».

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

موسى يتوجه إلى مدين خفية: نواجه في هذه الآيات المقطع الرابع من هذه القصة ذات المحتوى الكبير، حيث إنّ مقتل الفرعوني في مصر انتشر بسرعة، ولعل اسم موسى ﷺ كان مذكوراً من بين بني إسرائيل المشتبه فيهم. لذلك يقول القرآن في بداية هذا المقطع: ﴿**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾[1]. وهو على حال من الترقب والحذر، فوجيء في اليوم التالي بالرجل الإسرائيلي الذي آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبطي آخر وطلب من موسى أن ينصره: ﴿**فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ**﴾[2]. ولكن موسى تعجب منه واستنكر فعله و﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**﴾. إذ تحدث كل يوم نزاعاً ومشادة مع الآخرين.

ولكنّه كان مظلوماً في قبضة الظالمين (وسواء كان مقصراً في المقدمات أم لا) فعلى موسى ﷺ أن يعينه وينصره. ﴿**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا**﴾ صاح ذلك القبطي: ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ**﴾. ويبدو من عملك هذا أنك لست إنساناً منصفاً. ﴿**إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ**

---

١. «يترقب»: مأخوذ من «الترقب»، ومعناه الإنتظار، وموسى هنا في انتظار نتائج هذه الحادثة.

٢. «يستصرخ»: مشتقة من مادة «الإستصراخ»، ومعناها الإستغاثة، ولكنّها في الأصل تعني الصياح أو طلب الصياح من الآخر، وهذا عادة ملازم للإعانة.

ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وهذه العبارة تدلّ بوضوح على أنّ موسى عليه السلام كان في نيّته الإصلاح من قبل، سواءً في قصر فرعون أو خارجه.

ومن جهة أُخرى فإنّ الأخبار وصلت إلى قصر فرعون فأحسّ فرعون ومن معه في القصر أنّ تكرار مثل هذه الحوادث ينذره بالخطر، فعقد جلسة شورى مع وزرائه وانتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسى، وكان في القصر رجل له علاقة بموسى فمضى إليه وأخبره بالمؤامرة.. وكما يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وهذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذي كان يكتم إيمانه ويدعى «حزقيل» وكان من أسرة فرعون.

أمّا موسى عليه السلام فقد تلقّى الخبر من هذا الرجل بجدّية وقبل نصحه ووصيته في مغادرة المدينة، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

وتضرع إلى الله بإخلاص وصفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثمّ قرر موسى عليه السلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التي كانت تقع جنوب الشام وشمال الحجاز، وكانت بعيدة عن سيطرة مصر والفراعنة؛ إلّا أنّه كان لديه في هذا الطريق وعواطفه رأس مال كبير وكثير لا ينفد أبداً، وهو الإيمان بالله والتوكل عليه، لذا لم يكترث بأي شيء وواصل السير.. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

١. «تلقاء»: مصدر أو اسم مكان، ومعناه هنا: الجهة والصوب الذي قصده.

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير: نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصة، وهي قضية ورود موسى عليه السلام إلى مدينة مدين.

قيل: إنّ هذا الشاب الطاهر قطع الطريق في ثمانية أيام، حتى لقي ما لقي من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثرة المشي.

وكان يقتات من نبات الأرض وأوراق الشجر دفعاً لجوعه.

وبدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئاً فشيئاً، وأخذ قلبه يهدأ ويأنس لإقترابه من المدينة. يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾[١].

فحركه هذا المشهد... حفنة من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم.. بينما هناك امرأتان تجلسان في زاوية بعيدة عنهم، وعليهم آثار العفة والشرف، جاء إليهما موسى عليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾[٢].

لم يرق لموسى عليه السلام أن يرى هذا الظلم، فلم يتحمل ذلك كلّه، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم خرج من وطنه.

فقالت البنتان: إنّهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقي هؤلاء الرعاة أغنامهم: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ﴾[٣].

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضي بإرسال بناته للسقي مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

فتأثر موسى عليه السلام من سماعه حديثهما بشدّة، فتقدم وأخذ الدلو وألقاها في البئر.. يقال: إنّ هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلّا أنّ موسى عليه السلام استخرجها بقوته وشكيمته وهمّته بنفسه دون أن يعينه أحد: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أغنامهما.

ولكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير في الطريق والجوع ملأ الدلو وسحبها بنفسه وسقى أغنام المرأتان جميعها.. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

---

١. «تذودان»: مشتقة من «ذود» ومعناها المنع، فهما إذا كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الأخرى.

٢. ما خطبكما: أي ما شأنكما وما شغلكما هنا؟!

٣. «يصدر»: مأخوذ من مادة «صدر» ومعناه الخروج من الماء، و«الرعاء»: جمع راعٍ، وهو سائس الغنم.

أجل.. إنّه متعب وجائع، ولا أحد يعرفه في هذه المدينة. لكن هلمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود، خطوة نحو الله، فتح لموسىٰ فصلاً جديداً، وهيأ له من عالم عجيب من البركات المادية والمعنوية.. ووجد ضالته التي ينبغي أن يبحث عنها سنين طوالاً.

وبداية هذا الفصل عندما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنّها تستحي من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه ﴿**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ**﴾ فلم تزد على أن ﴿**قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾.

فلمع في قلبه إشراقٌ من الأمل، وكأنّه أحس بأن سيواجه رجلاً كبيراً.. رجلاً عارفاً بالحق وغير مستعد أن يترك أي عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب».

تحرك موسى عليه السلام ووصل منزل شعيب، وطبقاً لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلّا أنّ الهواء كان يحرّك ثيابها وربّما انكشف ثوبها عنها، ولكن موسى لما عنده من عفّة وحياء طلب منها أن تمشي خلفه وأن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله وتخبره من أي طريق يمضي إلى دار أبيها شعيب.

دخل موسى عليه السلام منزل شعيب عليه السلام، يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾. فالتفت موسى إلى أنه وجد استاذاً عظيماً.. كما أحسّ شعيب أنّه عثر على تلميذ جدير ولائق.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ
أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ
عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

موسى في دار شعيب: هذا هو المقطع السادس من قصّة حياة موسى عليه السلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، وبعد أن قصّ عليه قصّته، بادرت إحدى بنتي شعيب بالقول: إنّني أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام ورعايتها: و﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ**

ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

فرضي شعيب ﷺ باقتراح إبنته، وتوجه إلى موسى و﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾. ثم أضاف قائلًا: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾.

فلا أريد إيذاءك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

واستجابة لهذا القرار والعقد الذي أنشأه شعيب مع موسى.. وافق موسى و﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾. ثم أردف مضيفاً بالقول: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾. أي سواءٌ قضيت عشر سنين أو ثماني سنين «حجج» فلا عدوان عليّ.

ومن أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى ﷺ الله كفيلًا وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وبهذه البساطة أصبح موسى صهراً لشعيب على إبنته.

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ
مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ
مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ
﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا
فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

الشرارة الأولى للوحي: نصل الآن ـ إلى المقطع السابع ـ من هذه القصة..

لا يعلم أحد ـ بدّقة ـ ما جرى على موسى في سنواته العشر مع شعيب، ولا شك أنّ هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السلام.

ومن البديهي أنّ موسى عليه السلام لا يقنع في قضاء جميع عمره برعي الغنم، وإن كان وجود «شعيب» إلى جانبه يعدّ غنيمة كبرى، فعليه أن ينهض إلى نصرة قومه، وأن يخلصهم من قيود الأسر، وينقذهم من حالة الجهل وعدم المعرفة.

إنّ القرآن يقول في أوّل من آية هذا المقطع: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا**﴾. ثم التفت إلى أهله و﴿**قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾. أي (تتدفؤون).

«آنست»: مشتقة من مادة «إيناس»، ومعناها المشاهدة والرؤية المقترنة بالهدوء والراحة. «جذوة»: هي القطعة من النار.

ويستفاد من قوله ﴿**لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ**﴾ أنّه كان أضاع الطريق، كما يستفاد من جملة ﴿**لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾ أنّ الوقت كان ليلاً بارداً.

﴿**فَلَمَّآ أَتَىٰهَا**﴾. أي أتى النار التي آنسها ورآها، فتعجب موسى من ذلك: ﴿**نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ**﴾.

«الشاطىء»: معناه الساحل؛ و«الوادي»: معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول؛ و«الأيمن»: مشتق من «اليمين» خلاف اليسار، وهو صفة للوادي؛ و«البقعة»: القطعة من الأرض المعروفة الأطراف.

ولا شك أنّ الله سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية في كل شيء، فأوجد في الوادي شجرة ليكلّم موسى.

ومع الإلتفات إلى أنّ موسى عليه السلام سيتحمل مسؤولية عظيمة وثقيلة.. فينبغي أن تكون عنده معاجز عظيمة من قبل الله تعالى مناسبة لمقامه النبوي، وقد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الأولى قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾.

في هذه الحال سمع موسى عليه السلام مرّة أُخرى النداء من الشجرة: ﴿**يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ**﴾.

«الجانّ»: في الأصل معناه الموجود غير المرئي، كما يطلق على الحيات الصغار اسم (جان) أيضاً، لأنّها تعبر بين الأعشاب والأحجار بصورة غير مرئية.

كانت المعجزة الأُولى آية «من الرعب»، ثم أمر أن يظهر المعجزة الثانية وهي آية أُخرى «من ا لنور والأمل» ومجموعها سيكون تركيباً من «الإنذار» و«البشارة» إذ جاءه الأمر: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾. فالبياض الذي يكون على يده للناس لم يكن ناشئاً عن مرض ـ كالبرص ونحوه ـ بل كان نوراً إلهياً جديداً.

لقد هزّت موسى ﷺ مشاهدته لهذه الأمور الخارقة للعادات في الليل المظلم وفي الصحراء الخالية.. ومن أجل أن يهدأ روع موسى من الرهب، فقد أمر أن يضع يده على صدره: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾.

وجاء موسى النداء معقباً: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

هنا تذكر موسى ﷺ حادثة مهمّة وقعت له في حياته بمصر، وهي قتل القبطي، وتعبئة القوىٰ الفرعونية لإلقاء القبض عليه وقتله. لذلك فإنّ موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

وبعد هذا كلّه فإنّي وحيد ولساني غير فصيح، ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾. «أفصح»: مشتقة من «الفصيح» وهو في الأصل كون الشيء خالصاً، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو وزيادة كلمة «الفصيح» أيضاً. و«الردء»: معناه المعين والمساعد.

فأجاب الله دعوته، وطمأنه بإجابة ما طلبه منه و﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ فالسلطة والغلبة لكما في جميع المراحل.

وبشرهما بالنصر والفوز، وأنّه لن يصل إليهما سوء من أولئك؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾. فبهذه الآيات والمعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الاضرار بكما ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

موسى في مواجهة فرعون: نواجه المقطع الثامن من هذه القصة العظيمة.. لقد تلقى موسى ﷺ من ربّه الأمر بأن يصدع بالنبوّة والرسالة في تلك الليلة المظلمة والأرض المقدّسة، فوصل إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حُمّل.. فذهبا معاً إلى فرعون ليبلغاه رسالة الله. يقول القرآن في أوّل آية من هذا المقطع: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى**﴾.

وأنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك، ﴿**وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**﴾.

فواجهوا موسى متوسلين بحربة توسل بها جميع الجبابرة والضالون على طول التاريخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم.. وهي حربة «السحر».

لكن موسى ﷺ أجابهم بلهجة التهديد والوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ**﴾.

إشارة إلى أنّ الله يعلم حالي، وهو مطلع علي بالرغم من اتهامكم إيّاي بالكذب..

ثم بعد هذا، لو كان كلامي كذباً فأنا ظالم و﴿**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ
عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

كيف كان عاقبة الظالمين: نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ المليء بالأحداث والعبر.

فقد شاع خبر إنتصار موسى ﷺ على السحرة في مصر، وموقع الحكومة الفرعونية أصبح في خطر جدي شديد. فيجب صرف أفكار الناس، واشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنية، لإغفال الناس وتحميقهم. وفي هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس

فرعون للتشاور في معالجة الموقف، إذ نقرأ في أوّل آية من هذا المقطع: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

فأنا إلهكم في الأرض.. أمّا إله السماء فلا دليل على وجوده، ولكنّني سأتحقق في الأمر ولا أترك الإحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان وقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾. ثم أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جداً لأصعد عليه واستخبر عن إله موسى. ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

ولمّا بلغ البناء تمامه.. جاء فرعون بنفسه يوماً وصعده بتشريفات خاصة. المعروف أنّه رمى سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل.. فنزل فرعون من أعلى القصر وقال للناس: اذهبوا واطمأنوا فقد قتلت إله موسى.

ومن المسلم به أنّ جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعاً أعمى وأصم، صدّقوا ما قاله فرعون ونشروه في كل مكان، وشغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق.

بعد هذا كلّه يتحدث القرآن عن استكبار فرعون ومن معه، وعدم إذعانهم لمسألتي «المبدأ والمعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام وجنايات بسبب إنكار هذين الأصلين فيقول: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾.

لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون وجنوده؟ يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾. أجل، لقد جعلنا سبب موتهم في مصدر معيشتهم، وجعلنا النيل الذي هو رمز عظمتهم وقوّتهم مقبرةً لهم.

إنّ تعبير «نبذناهم» من مادة «نبذ»، ومعناه رمي الأشياء التي لا قيمة لها وطرحها بعيداً.

ثم، يختتم الآية بالتوجه إلى النبي ﷺ قائلًا: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم يضيف القرآن قائلًا في شأنهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾. فكما أنّهم كانوا في هذه الدنيا أئمّة الضلال، فهم في الآخرة ـ أيضاً ـ أئمة النار، لأنّ ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم.

ولمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم وماهيتهم في الدنيا والآخرة: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي

هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

لعنة الله معناها طردهم من رحمته، ولعنة الملائكة والمؤمنين هي الدعاء عليهم صباحاً ومساءً.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

نصل في هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» وهو القسم الأخير من الآيات التي تتعلق بقصة موسى وما تحمله من معان كبيرة، وهي تتحدث عن نزول الأحكام، والتوراة، أي إنّها تتحدث عن انتهاء الدور السلبي «الطاغوت» وبداية «الدور الإيجابي» والبناء. يبدأ هذا المقطع بالآية التالية: **﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾**.

وفي أنّ المقصود من «القرون الأولى» من هم؟ قال بعض المفسرين: هو إشارة إلى الكفار من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، لأنّه بتقادم الزمان ومضيّه تمحي آثار السابقين.

وقال بعض المفسرين: هو إشارة إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقوام السابقين، لأنّ الله سبحانه آتى موسى كتاب «التوراة» بعد هلاكهم.

ولكنّه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الأُولى في الآية شاملاً لجميع الأقوام.

«البصائر»: جمع «بصيرة» ومعناها الرؤية، والمقصود بها هنا الآيات والدلائل التي تستوجب إنارة قلوب المؤمنين.. و«الهدى» و«الرحمة» أيضاً من لوازم البصيرة.. وعلى أثرها تتيقظ القلوب.

ثم يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة، وهي أنّ ما ذكرناه لك يا رسول الله، في شأن موسى

وفرعون وما جرىٰ بينها بدقائقه، هو في نفسه دليل على حقانيّة القرآن، لأنّك لم تكن «حاضراً» في هذه «الميادين» التي كان يواجه موسى فيها فرعون وقومه، ولم تشهدها بعينيك.. بل هو من الطاف الله عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس.. يقول القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾. أي الأمر بالنبوّة؛ ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

ثم يضيف القرآن: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾. وتقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء وهدايتهم في قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن وبيّنا فيه قصص الماضين ليكون نوراً وهدى للناس.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ [=أي: على أهل مكة] ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[1]. وأوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقة التي تتحدث عن آلاف السنين الماضية.. لتكون عبرة للناس وموعظة للمتقين[2].

وتأكيداً على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. أي: نادينا موسى بأمر النبوة، ولكننا أنزلنا إليك بهذه الأخبار رحمة من الله عليك ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

---

١. «ثاوي»: مشتق من (ثوى) ومعناه الإقامة المقرونة بالإستقرار، ولذا سمّي المستقر والمكان الدائم بالمثوى.

٢. كان بين ظهور موسى عليه السلام وظهور النبي (محمد صلى الله عليه وآله) حدود ألفي عام.

ذريعة للفرار من الحق: حيث إنّ الآيات ـ آنفة الذكر ـ كانت تتحدث عن إرسال النبي ﷺ لينذر قومه، في هذه الآيات يبيّن القرآن ما ترتب من لطف الله على وجود النبي في قومه فيقول: إنّنا وقبل أن نرسل إليهم رسولاً إذا أردنا إنزال العذاب عليهم بسبب ظلمهم وسيئاتهم قالوا: لماذا لم ترسل لنا رسول يبيّن لنا أحكامك لنؤمن به: ﴿**وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، وهو أنّ طريق الحق واضح وبيّن... وكل «عقل» حاكم ببطلان الشرك وعبادة الأصنام.. وقبح كثير من الأعمال التي تقع نتيجة الشرك وعبادة الأصنام ـ كالمظالم وما شاكلها ـ هي من مستقلات حكم العقل.

ثم تتحدث الآيات عن معاذير أولئك، وتشير إلى أنّهم ـ بعد إرسال الرسل ـ لم يكفّوا عن الحيل والذرائع الواهية، واستمروا على طريق الانحراف. فتقول الآية: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ**﴾.

فلم لم تكن عصا موسى في يده؟ ولم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولم لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟ ولِمَ لَمْ... الخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا**﴾. أي: موسى وهارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق ﴿**وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ**﴾.

إنّ مشركي مكة المعاندين كانوا يصرّون على أنّه لِمَ لَمْ يأت النبي ﷺ بمعاجز كمعاجز موسى، ومن جهة أخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه في «التوراة» من علائمه وأوصافه ولا يؤمنون بالقرآن المجيد وآياته العظيمة. لذا يخاطب القرآن النبي محمداً ﷺ ليتحدّاهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

ثم يضيف القرآن: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾. ولكن من أضيع منهم، ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.

ومن الطريف هنا أنّ روايات عديدة تفسّر الآية بأنّ المراد منها من ترك إمامه وقائده

الإلهي واتبع هواه.

وهذه الرّوايات هي من قبيل المصداق البارز. وبتعبير آخر: إنّ الإنسان محتاج لهداية الله... هذه الهداية تارة تنعكس في كتاب الله، وأُخرى في وجود النبي وسنته، وأُخرى في أوصيائه المعصومين، وأُخرى في منطق العقل.

المهم أن يكون الإنسان في خطّ الهداية الإلهية غير متبع لهواه، ليستطيع أن يستضيء بهذه الأنوار.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

سبب النّزول

نقل المفسرون ورواة الأخبار روايات كثيرة ومختلفة في شأن نزول الآيات المتقدمة، والجامع المشترك فيها واحد، وهو إيمان طائفة من علماء اليهود والنصارى والأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهرة ـ بالقرآن ونبي الخاتم ﷺ.

قال سعيد بن جبير نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم «يس والقرآن الحكيم» حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا.

التّفسير

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن: حيث إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهية أمام الحقائق التي يقدّمها القرآن الكريم، فإنّ هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهيّأة لقبول قول الحق. يقول القرآن في هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعاً، ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

إلّا أنّ (اليهود والنصارى) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾. لأنّهم

يرونه منسجماً مع ما ورد في كتبهم السماوية من علامات ودلائل.

ثم يضيف القرآن في وصفهم قائلًا: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾.

ثم يضيف القرآن متحدثاً عنهم: إنّنا مسلمون لا في هذا اليوم فحسب، بل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾.

ثم يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعة التي آمنت بالنبي من غير تقليد أعمى، وإنّما طلباً للحق، فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.

فرّة لإيمانهم بكتابهم السماوي الذي كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه... ومرّة أُخرى لإيمانهم بنبيّ الإسلام العظيم ﷺ النبي الموعود المذكور عندهم في كتبهم السماوية.

ثم يشير القرآن الكريم إلى بعض أعمالهم الصالحة من قبيل «دفع السيئة بالحسنة» و«الإنفاق مما رزقهم الله» و«المرور الكريم باللغو والجاهلين» وكذلك الصبر والإستقامة، وهي خصال أربع ممتازة. حيث يقول في شأنهم القرآن الكريم: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

والخصلة الأُخرى في هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنّهم: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وليس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من كل ما رزقهم الله من العلم والقوى الفكرية والجسميّة والوجاهة الإجتماعية، وجميع هذه الأمور من مواهب الله ورزقه ـ فهم ينفقون منها في سبيل الله.

وآخر صفة ممتازة بيّنها القرآن في شأنهم قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾.

ولم يردّوا الجهل بالجهل واللغو باللغو، بل ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

ثم يضيف القرآن في شأنهم حين يواجهون الجاهلين يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. أجل، هؤلاء العظام هم الذين يستطيعون أن يستوعبوا رسالة الايمان في نفوسهم، والذين بذلوا جهداً وقاوموا أنواع الصعاب ليصلوا إلى معنى «الايمان».

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ
﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا
آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

الهداية بيد الله وحده: إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن طائفتين: طائفة من

مشركي أهل مكة المعاندين، كان رسولﷺ شديد الإصرار على هدايتهم؛ وطائفة من أهل الكتاب والأفراد البعيدين عن مكة، تلقوا هداية الله برحابة صدر، ولم يستوحشوا من الضغوط والعزلة وما إلى ذلك.

فمع الإلتفات إلى كل هذه الأمور، نلاحظ أنّ الآية الأولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فتقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

والمقصود من الهداية ليس «إراءة الطريق»، لأنّ إراءة الطريق هي من وظيفة النبيﷺ، وتشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الايصال للمطلوب والهدف»، والإيصال إلى المطلوب وإلى الهدف هو بيد الله وحده.

إنّ هذه الآية بمثابة التسلية والتثبيت لقلب النبي ليطمئن إلى هذه الحقيقة، وهي إنّه لا إصرار المشركين وعنادهم وإن كانوا من أهل مكة، ولا إيمان أهل الحبشة ونجران وغيرهما أمثال سلمان الفارسي وبحيرا الراهب من دون دليل وسبب.

فعليه أن لا يكترث لعدم إيمان الطائفة الأولى.

وفي الآية الثانية ـ من الآيتين محل البحث ـ يتحدث القرآن الكريم عن طائفة اعترفوا بالإسلام في واقعهم وأيقنت به قلوبهم، إلّا أنّهم لم يظهروا إيمانهم بسبب منافع شخصية وملاحظات ذاتية، حيث يقول: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾.

هذا الكلام لا يقوله إلّا من يستضعف قدرة الله ولا يعرف كيف ينصر الله أولياءه ويخذل أعداءه. لذلك يقول القرآن رداً على مثل هذه المزاعم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1].

الله سبحانه الذي جعل هذه الأرض المالحة والمليئة بالصخور والخالية من الأشجار والأنهار، جعلها حرماً تهفوا إليه القلوب، ويؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، كل ذلك بيد قدرته القاهرة.

كيف لا يكون قادراً على أن يحفظكم من هجوم حفنة من الجاهلين عبّاد الأوثان؟

---

١. «نمكّن»: في الآية بمعنى نجعل، و«يجبى»: مشتق من مادة «جباية»، والجباية معناها الجمع، لذلك يطلق على الحوض الذي يجمع فيه الماء جابية.

فكيف يمكن أن يحرمكم الله منها بعد الإسلام؟

لتكن قلوبكم قوية وآمنوا بما أنزل اليكم فإنّ ربّ الكعبة وربّ مكة معكم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

لا تخدعنكم علائق الدنيا: كان الحديث في الآيات المتقدمة يدور حول ما يدعيه أهل مكة، وقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علينا، وتتكدر حياتنا ويختل وضعنا المعاشي والاقتصادي، وفي هذه الآيات مورد البحث ردّان آخران على كلامهم:

الأوّل: يقول: على فرض أنكم لم تؤمنوا وحييتم في ظل الشرك مرفهين مادياً، ولكن لا تنسوا أن تعتبروا بحياة من قبلكم، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾[1].

أجل، إنّ الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، والبطر أساس الظلم، والظلم يجرّ حياتهم إلى النار... ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

بلى... بقيت بيوتهم خالية خربة متهدمة مظلمة لم يزرها ولم يسكنها أحد إلّا لفترة قليلة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾.

جملة ﴿كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ إشارة إلى أنّ مالكها الحقيقي هو الله سبحانه المالك لكل شيء، وإذا ما أعطى ملكاً «اعتبارياً» لأحد، فإنّه لا يدوم له طويلًا حتى يرثه الله أيضاً.

والآية الثانية جواب عن سؤال مقدر، وهو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك الله الطغاة، فلم لم يهلك المشركين من أهل مكة والحجاز، الذين بلغوا حدّاً عظيماً من الطغيان، ولم يكن إثم ولا جهل إلّا وارتكبوه، ولم لم يعذبهم الله بعذابه الأليم؟

---

١. «بطرت»: مشتقة من «بطر»، ومعناه الطغيان والغرور على أثر وفرة النعم.

يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

أجل... لا يعذب الله قوماً حتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ الله لا يعذبهم، وهو يراقب أعمالهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

والتعبير بـ﴿مَا كُنَّا﴾ أو ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ دليل على أنّ سنة الله الدائمة والأبدية التي كانت ولا زالت، هي أن لا يعذب أحداً إلّا بعد إتمام الحجة الكافية.

وآخر آية من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثاني على أصحاب الحجج الواهية، الذين كانوا يقولون للنبيﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ ويبعدنا العرب من ديارنا، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ممّا عندكم من النعيم الفاني.. إذ إنّ نعم الدنيا تشوبها الأكدار والمشاكل المختلفة، وليس من نعمة مادية خالية من الضرر والخطر أبداً.

إضافة إلى ذلك فإنّ النعم التي عند الله «الباقية» لا تقاس مع النعم الدنيوية الزائلة. فنعم الله ـ إذن ـ خير وأبق.

فبموازنة بسيطة يعرف كل إنسان عاقل أنّه لا ينبغي أن يضحي بنعم الآخرة من أجل نعم الدنيا، ولذلك تختتم الآية بالقول: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ
﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ
إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾

كان الحديث في الآيات المتقدمة عن الذين فضّلوا الكفر على الايمان بسبب منافعهم الشخصية، ورجّحوا الشرك على التوحيد، وفي الآيات التي بين أيدينا يبيّن القرآن حال هذه الجماعة يوم القيامة قبال المؤمنين الصادقين. في بداية هذه الآيات يلقي القرآن سؤالاً يقارن فيه بين المؤمنين والكافرين، ويثير الوجدان ويجعله حكماً فيقول: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ

﴿وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

جملة ﴿هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ إشارة إلى الإحضار في محضر الله يوم القيامة للحساب.

وجملة ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي تكررت في سور مختلفة من القرآن الكريم، إشارة إلى حقارة هذه الحياة بالنسبة للحياة الأخرى، لأنّ كلمة «دنيا» في الأصل مأخوذة من «دنو» ومعناها القرب في المكان أو الزمان أو المنزلة والمقام، ثم توسّع هذا المفهوم ليطلق بلفظ «دنيا» أو «أدنى» على الموجودات الصغيرة التي تحت اليد في مقابل الموجودات الكبيرة، وقد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التي لا قيمة لها في مقابل الأشياء ذات القيمة العالية، وربّما استعمل في القرب في مقابل البعد، وحيث إنّ هذه «الحياة» في مقابل العالم الآخر صغيرة ولا قيمة لها وقريبة أيضاً، فإنّ تسميتها بالحياة الدنيا تسمية مناسبة جدّاً.

ثم يأتي الكلام عن عرصات يوم القيامة ومشاهدها ليجسّده أمام الكفار، مشاهد يقشعر منها البدن حين يتصورها الإنسان، فيقول القرآن: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

فهذا السؤال في الحقيقة فيه نوع من الإهانة والتوبيخ والعقوبة.

ولكنّهم بدلاً من أن يجيبوا بأنفسهم، فإنّ معبوديهم هم الذين يردّون الجواب، ويتبرؤون منهم، ويتنفرون من عبادة المشركين إيّاهم.

ونعرف أنّ معبودات المشركين وآلهتهم على ثلاثة أنواع: فإمّا أن يكونوا أصناماً «وأحجاراً وخشباً» أو من المقدسين كالملائكة والمسيح، وإمّا أن يكونوا من الشياطين والجنّ. فالذين يردّون على السؤال ويجيبون هم النوع الثالث، كما حكى عنهم القرآن: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

وتعقيباً على السؤال عن آلهتهم وعجز المشركين عن الجواب، يطلب أن يدعوهم لنصرتهم ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾[1].

وحيث يعلم المشركون أنّ دعاءهم غير نافع، وأنّ المعبودين «الشركاء» لا يمكن أن يفعلوا شيئاً من شدّة الهلع والوحشة، أو استجابة لأمر الله، يتوجهون إلى الشركاء ويدعونهم كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾.

---

١. التعبير بـ«شركاءكم» مع أنّ هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء الله سبحانه، هو إشارة إلى أنّ هؤلاء الشركاء من صنعكم وهم متعلقون بكم لا بالله.

ومن الواضح أنّه لا أثر لهذا النداء والطلب، ولا يقال لهم «لبيك».. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. فحينئذٍ لا ينفعهم شيء ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾. ويتمنون ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

تعقب الآيات محل البحث، على ما كان في الآيات السابقة في شأن المشركين وما يسألون يوم القيامة. فبعد أن يُسألوا عن شركائهم ومعبوديهم، يسألون عن مواقفهم وما أبدوه من عمل إزاء أنبيائهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ومن المسلم به أنّ هؤلاء «المشركين» لا يملكون جواباً لهذا السؤال. فكل ما يقولون كاشف عن فضيحتهم وشقائهم، حتى أنّ الأنبياء والمرسلين في ذلك اليوم يجيبون ربّهم حين يسألون: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[١].

ما الذي يقوله في ذلك اليوم وفي ذلك المكان عمي القلوب من المشركين؟ لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. أي يسأل بعضهم بعضاً ولا يعرفون جواباً.

وحيث إنّ أُسلوب القرآن هو ترك الأبواب مفتوحة بوجه الكافرين والآثمين دائماً، لعلّهم يتوبون ويرجعون إلى الحق في أي مرحلة كانوا من الإثم، فإنّه يضيف في الآية التي بعدها: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾.

فسبيل النجاة ـ حسب ما يوضحه القرآن ـ يتلخّص في ثلاث جمل هي العودة والتوبة إلى الله، والإيمان، والعمل الصالح، وعاقبتها النجاة والفلاح حتماً.

والآية التي بعدها دليل على نفي الشرك وبطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: ﴿وَرَبُّكَ

---

١. سورة المائدة /١٠٩.

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾.

فالخلق بيده، والتدبير والإختيار بيده أيضاً، وهو ذو الإرادة.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك ويتجهون نحو غير الله؟ لذلك فإنّ الآية تنزه الله عن الشرك وتقول: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أمّا الآية التي بعدها فتتحدث عن علم الله الواسع، وهي تأكيد أو دليل على الإختيار الواسع في الآية السابقة، إذ تقول هذه الآية: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

فإحاطته بكل شيء دليل على اختياره لكل شيء، كما هي ـ ضمناً ـ تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أنّ الله غير مطلع على سرائرهم ونيّاتهم و«مؤامراتهم».

والآية الأخيرة من هذا المقطع، هي نتيجة الحكم، وتوضيح للآيات السابقة في مجال نفي الشرك، وهي ذات أربعة أوصاف من أوصاف الله، وجميعها فرع على خالقيته واختياره.

فالأوّل: أنّه ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند الله فهو من المضلين الخاطئين.

والثاني: أنّ جميع النعم دنيوية كانت أم أخروية هي منه، وهي من لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾.

الثالث: أنّه ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾. فهو الحاكم في هذا العالم، وفي العالم الآخر.

والرابع: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والثواب والعقاب.

فالله الخالق، وهو المطّلع، وهو الحاكم يوم الجزاء، وبيده الحساب والثواب والعقاب.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ
سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ
فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

نعمتا الليل والنهار العظيمتان: هذه الآيات ـ محل البحث ـ تتحدث عن قسم كبير من مواهب الله سبحانه، التي تدل على التوحيد ونفي الشرك من جهة، كما أنّها تكمّل البحث السابق.. وتذكر مثلًا للنعم التي تستوجب الحمد والثناء. ففي الآية الأولى من هذه الآيات إشارة إلى نعمة النهار والنور الذي هو أساس لأيّة حركة، فتقول الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

كما تتحدث الآية الأُخرى عن نعمة الظلمة فتقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أمّا الآية الثالثة فتحكي عن نتيجة النعمة المشار إليها في الآيتين السابقتين فيقول: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

إنّ سعة رحمة الله تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم.

ومرّة أُخرى ـ بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد ونفي الشرك ـ يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الذي أثير في الآيات السابقة ليقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وهذه الآية مكررة في السورة نفسها، إذ وردت بنصّها في الآية (٦٢)، ولعلّ هذا التكرار ناشيء عن السؤال مرتين في يوم القيامة، مرّة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيخجلوا من أنفسهم، ومرّة بصورة عامّة في محضر الشهود، وهو ما أُشير إليه في الآية التي بعدها.. ليخجلوا أيضاً من حضورهم. لذلك تأتي الآية التي بعدها فتقول: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾[١]. أيّها المشركون الضالون.

وحين تنكشف المسائل وتتجلى الأُمور لا تبقى خافية، ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقرينة الآيات الأُخرى في القرآن، إذ أنّ كل نبي شاهد على أُمته، ونبي الخاتم ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء والأُمم.

---

١. التعبير بـ«نزعنا» التي تعني جذب الشيء من مقرّه، هي إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة وأُمّة.

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ
﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا
وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ
مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

الثري الإسرائيلي البخيل: جاء تفصيل قصة موسى عليه السلام العجيبة ومواجهاته ومواقفه مع فرعون في قسم كبير من الآيات السابقة في هذه السورة.. وفي القسم الآخر من آيات هذه السورة، وقع الكلام على مواجهة بني إسرائيل مع رجل ثري منهم يدعى «قارون».

المعروف أنّ «قارون» كان من أرحام موسى وأقاربه (ابن عمه أو ابن خالته) وكان عارفاً بالتوراة، وكان في بداية أمره مع المؤمنين، إلّا أنّ غرور الثروة جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السلام وأماته ميتة ذات عبرة للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك في الآيات التالية. يقول القرآن في شأنه أوّلاً: **﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾**.

وسبب بغيه وظلمه إنّه كان ذا ثروة عظيمة، ولأنّه لم يكن يتمتع بإيمان قوي وشخصية متينة فقد غرّته هذه الثروة الكبيرة وجرّته إلى الانحراف والاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: **﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾**. «المفاتح»: جمع «مفتح» معناه المكان الذي يدخّر فيه الشيء، كالصندوق الذي يحفظ فيه المال، وهو ما يسميه بعض التجار بـ«القاصة». فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير ووفير من الذهب والفضة، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء **﴿أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾**. «تنوأ»: مشتقة من «النوء» ومعناه القيام بمشقّة وثقل، وتستعمل في حمل الأثقال التي لها ثقل ووزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه.

والآن لنرى ما قال بنو إسرائيل لقارون، يقول القرآن في هذا الصدد: **﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾**[1].

---

١. «الفرحين»: جمع الفرح، وتعني من يكون مغروراً على أثر تملكه الشيء، ومتكبراً بطراً منتشياً من ريح النّصر.

ثم يقدمون له أربع نصائح قيّمة أُخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم من قولهم له: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾.

فالنصيحة الأولى قولهم له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾. وهذا إشارة إلى أنّ المال والثروة ليس أمراً سيئاً كما يتصوره بعض المتوهمين، المهم أن تعرف فيم يستعمل المال، وفي أي طريق ينفق.

وكان قارون رجلاً ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة بسبب أمواله الطائلة، ولكن ما الفائدة منها وقد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

والنصيحة الثانية قولهم له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾. والآية تشير إلى مسألة واقعية، وهي أنّ لكل فرد منّا نصيباً من الدنيا، فالأموال التي يصرفها على بدنه وثيابه ليظهر بمظهر لائق هي أموال محدودة، وما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئاً، وعلى الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة... فالإنسان... كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟ وكم يستطيع أن يلبس من الثياب؟ وكم يمكن أن يحوز من المساكن والمراكب؟ وإذا مات وكم يستطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟ فالباقي ـ إذن ـ رضي أم أبى هو من نصيب الآخرين.

وما أجمل قول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة حيث يقول: «يابن آدم ماكسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك».

والنصيحة الثالثة هي: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وبتعبير آخر: كما أنّ الله تفضل عليك وأحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

والنصيحة الرابعة والأخيرة أن لا تغرنّك هذه الأموال والإمكانات المادية فتجرّك إلى الفساد: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وهذا أيضاً حقيقة واقعية أُخرى، إنّ كثيراً من الأثرياء وعلى أثر جنون زيادة المال ـ أحياناً ـ أو طلباً للاستعلاء، يفسدون في المجتمع، فيجرّون إلى الفقر والحرمان، ويحتكرون جميع الأشياء في أيديهم.

والآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغي والظالم الإسرائيلي لجماعته الواعظين له.

فأجابهم قارون بتلك الحالة من الغرور والتكبر الناشئة من ثروته الكبيرة، و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.

هذا لا يتعلق بكم، وليس لكم حق أن ترشدوني إلى كيفية التصرف بمالي.

وهنا يجيب القرآن على قول قارون وأمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

أتقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ ونسيت من كان أكثر منك علماً وأشدّ قوّة وأثرى مالاً، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضة العذاب الإلهي؟!

وفي ختام الآية إنذار ذو معنى كبير آخر لقارون، جاء في غاية الإيجاز: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

بعبارة أُخرى: أنّ العلماء من بني إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم وكان لديه مجال والجواب، لكن بعد إتمام الحجة ونزول العذاب الإلهي، عندئذ لا مجال للتفكير والجواب، فإذا حلّ العذاب الإلهي بساحته فهو الهلاك الحتمي.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

جنون الثروة: المعروف أنّ أصحاب الثروة يبتلون بأنواع الجنون... وواحد منها «جنون عرض الثروة وإظهارها» فهؤلاء يشعرون باللذة عندما يعرضون ثروتهم على الآخرين، فإنّ قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدّ مثلاً بارزاً له، والقرآن يتحدث عنه في جملة موجزة في بعض آياته فيقول: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾. امام قومه من بني اسرائيل.

وجملة «في زينته» ناطق عن هذه الحقيقة، وهي أنّه أظهر جميع قدرته وقوّته ليبدي ما لديه من زينة وثروة.

هنا أصبح الناس طائفتين ـ بحسب العادة فطائفة وهم الأكثرية ـ من عبدة الدنيا ـ أثارهم هذا المشهد، فاهتزّت قلوبهم... ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وأمام هذه الطائفة التي ذكرناها آنفاً طائفة أُخرى من العلماء والمتقين الورعين، فهؤلاء كانوا هناك، وكان لهم موقف آخر من قارون، وكما يعبر عنهم القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. ثم أردفوا مؤكّدين: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

في الدر المنثور عن ابن عباس أنّ قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه وكان يبتغي العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده.

فقال له موسى ﷺ: إنّ الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى. فقال: إنّ موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أُرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنّه فجر بك. قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى ﷺ قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال: نعم. فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربّك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنّك قد زنيت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى ﷺ أنشدتك بالله إلّا ما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتني فإنّهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنّك بريء وأنّك رسول الله.

فخرّ موسى ﷺ ساجداً يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذيهم فغيّبتهم فأوحى الله: «يا موسى سألك عبادي وتضرّعوا إليك فلم تجبهم فو عزّتي لو أنّهم دعوني لأجبتهم»[1].

---

١. الميزان في تفسير القرآن ٨٣/١٦.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

يا للعجب... ففرعون يهوي في ماء النيل... وقارون في أعماق الأرض.

الماء الذي هو سرّ الحياة وأساسها يكون مأموراً بهلاك فرعون، والأرض التي هي مهاد الاطمئنان والدعة تنقلب قبراً لقارون واتباعه. ومن البديهي أنّ قارون لم يكن لوحده في ذلك البيت فقد كان معه أعوانه وندماءه ومن أعانه على ظلمه وطغيانه، وهكذا توغلوا في أعماق الأرض جميعاً. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

أمّا آخر آية ـ محل البحث ـ فتحكي عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، وما شابه ذلك. وإذا هم اليوم يقولون: واهاً له، فإنّ الرزق بيد الله؛ ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾.

لذلك شكروا الله على هذه النعمة وقالوا: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، وعاقبة الغرور والغفلة ونهاية الكفر والشهوة.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

نتيجة حبّ التسلط والفساد في الأرض: بعد البيان المثير لما حدث لثري مستكبر ومتسلط، وهو قارون، تبدأ الآية الأُولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلي لهذا الواقع وهذا الحدث، إذ تقول الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

إنّ ما يكون سبباً لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة في العلو» أي الاستكبار؛ و«الفساد في الأرض» وهما الذنوب.

ويقول القرآن في نهاية الآية: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. و«العاقبة» بمفهومها الواسع هي النتيجة الصالحة، وهي الإنتصار في هذه الدنيا، والجنّة ونعيمها في الدار الأُخرى...

وبعد ذكر هذه الواقعية، وهي أنّ الدار الآخرة ليست لمن يحب السلطة والمستكبرين، بل هي للمتقين المتواضعين وطلبة الحق، تأتي الآية الثانية لتبيّن قانوناً كلّياً وهو مزيج بين العدالة والتفضل، ولتذكر ثواب الإحسان. فتقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾.

وهذه هي مرحلة التفضل، أي أنّ الله سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيّقة. فإذا أراد الإنسان أن يعطي أجر صاحبه فإنّه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلّا أنّ الله قد يضاعف الحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها بمئات الأمثال وربّما بالآلاف، إلّا أنّ أقلّ ما يتفضل الله به على العبد أن يجازيه عشرة أضعاف حسناته، حيث يقول القرآن في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

ثم يعقّب القرآن ليذكر جزاء المسيئين فيقول: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه هي مرحلة العدل الإلهي، لأنّ المسيء لا يجازى إلّا بقدر إساءته، ولا تضاف على إساءته أيّة عقوبة.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل النبي ﷺ بالجحفة في مسيره إلى المدينة، لما هاجر إليها، اشتاق إلى مكة فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: أتشتاق إلى بلدك وهو مولدك؟! فقال: نعم. قال جبرائيل: فإنّ الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. يعني مكة... ونعلم إنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيراً.

---

١. راجع تفسير الميزان، تفسير القرطبي، ومجمع البيان، «التفسير الكبير» للفخر الرازي، وتفاسير غيرها.

فعلى هذا تعدّ الآية آنفة الذكر من الإخبار الإعجازي السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النبي ﷺ إلى مكة بصورة قطعية ودون أيّ قيد وشرط، ولم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهي الكبير.

التفسير

الوعد بعودة النبي إلى حرم الله الآمن: قلنا: إنّ الآية الأولى من هذه الآيات طبقاً لما هو مشهور بين المفسرين نزلت في «الجحفة» في مسير النبي ﷺ، إلى المدينة إذ كان متوجهاً إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرسول»... لكن هذا الحنين والشوق والتعلق بمكة يؤلمه كثيراً، وليس من اليسير عليه الابتعاد عن حرم الله الآمن.

وهنا يشرق في قلبه الطاهر نور الوحي، ويبشّره بالعودة إلى وطنه الذي ألفه فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. فلا تكترث ولا تُذهب نفسك حسرات، فالله الذي أعاد موسى إلى أُمّه هو الذي أرجعه أيضاً إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات في مدين.

هو الله سبحانه الذي يردك إلى مكة بكل قوة وقدرة، ويجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقاً في هذه الأرض المباركة.

ثم يضيف القرآن في خطابه للنبي ﷺ، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علّمه الله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنّ طريق الهداية واضح، وضلالهم بيّن، وهم يتعبون أنفسهم عبثاً. فالله يعرف ذلك جيداً، والقلوب التي تعشق الحق تعرف هذه الحقيقة أيضاً.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن نعمة أُخرى من نعم الله العظيمة على النبي ﷺ فتقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

ثم يضيف القرآن في خطابه للنبي ﷺ أن طالما كنت في هذه النعمة: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومن المسلّم به أنّ النبي ﷺ لم يكن ظهيراً للكافرين أبداً، إلّا أنّ الآية جاءت في مقام التأكيد على النبي ﷺ وبيان المسؤولية للآخرين.

وفي هاتين الآيتين أربعة أوامر من الله لنبيّه ﷺ، وأربعة صفات لله تعالى، وبها يكتمل ما ورد في هذه السورة من أبحاث. يقول أوّلاً: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

إِلَيْكَ﴾. وبالرغم من أنّ النهي موجه إلى الكفار، إلّا أنّ مفهوم الآية عدم تسليم النبي ﷺ أمام صدّ الكافرين، وإحباطهم ومؤامراتهم.

وبهذا الأسلوب يأمر الله النبي ﷺ أن يقف راسخ القدم عند نزول الآيات ولا يتردد في الأمر، وأن يزيل الموانع من قارعة الطريق مهما بلغت، وليَسر نحو هدفه مطمئناً، فإنّ الله حاميه ومعه أبداً.

وبعد هذا الخطاب الذي فيه جنبة نهي، يأتي الخطاب الثاني وفيه سمة إثبات فيقول: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.. فالله الذي خلقك وهو الذي ربّاك ورعاك...

والأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد الله، هو نفي جميع أنواع الشرك وعبادة الأصنام ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

والأمر الرابع تأكيد آخر على نفي جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وهذه الأوامر المتتابعة كل واحد منها يؤكّد الآخر، يوضح أهمية التوحيد في المنهج الإسلامي، إذ بدونه يكون كل عمل زيفاً ووهماً.

وبعد هذه الأوامر الأربعة تأتي أوصاف أربعة لله سبحانه، وهي جميعاً تأكيد على التوحيد أيضاً:

فالأوّل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

والثاني قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

والوصف الثالث: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ والحاكمية في عالمي التشريع والتكوين.

والرابع: أنّ معادنا إليه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والأوصاف الثلاثة الأخيرة يمكن أن تكون دليلًا على إثبات التوحيد وترك جميع أنواع عبادة الأصنام، الذي أشير إليه في الوصف الأوّل.

«نهاية تفسير سورة القصص»

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢٩

سورة العنكبوت

وهي تسع وستون آية

مكية

محتوى السورة: إنّ أبحاث هذه السورة تتلخص في أربعة أقسام:

١ـ في البداية يتحدث عن مسألة «الامتحان»، وموضوع «المنافقين»، وهذان الأمران متلازمان لا يقبلان الإنفكاك.

٢ـ وقسم آخر من هذه السورة هو لتسلية قلب النبيﷺ والمؤمنين القلّة الأوائل، عن طريق بيان جوانب من حياة الأنبياء العظام السابقين، أمثال نوح وإبراهيم ولوط وشعيب﵈ وعواقبهم؛ إذ واجهوا أعداءً ألدّاء أمثال نمرود وطواغيت المال البخلاء.

٣ـ ثم يتحدث عن التوحيد ودلائل الله في عالم خلقه، والمواجهة مع المشركين، ويدعوا الفطرة والوجدان إلى الإحتكام والقضاء الحق.

٤ـ وفي قسم آخر من هذه السورة، ففيه مباحث متنوعة عن عجز الأصنام المصنوعة التي تعبد من دون الله، وعبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، وبيان عظمة القرآن، ودلائل حقانية نبي الخاتم، ولجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، والعمل الصالح، والإحسان إلى الوالدين، وأسلوب مناقشة المخالفين، وما إلى ذلك.

وتسمية السورة هذه بـ«العنكبوت» مأخوذة من الآية (٤١) من هذه السورة، التي تشبّه عبدة الأوثان من دون الله بالعنكبوت، التي تبني بيتها من نسيجها، وهو أوهن البيوت.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين».

وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله من أهل الجنة. لا أستثني فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثماً، وإنّ لهاتين السورتين من الله مكاناً».

ولا شك أنّ محتوى هاتين السورتين الغزير، والدروس العملية المهمة منها في التوحيد، وما إلى ذلك، كلّه كاف لأن يسوق أيّ إنسان ذي لب وفكر وعمل إلى الجنة والخلود فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

نواجه في بداية هذه السورة الحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾ أيضاً.. وقد بيّنا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة[1].

وبعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، وهي مسألة الشدائد والضغوط والامتحان الإلهي فيقول أوّلاً: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2].

ثم يذكر القرآن هذه الحقيقة ـ بعد الآية المتقدمة مباشرة ـ وهي أنّ الامتحان سنة إلهية دائمية جارية في جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ووقعوا أيضاً ـ تحت تأثير ضغوط الأعداء القساة والجهلة المعاندين..

وينبغي أن يكون الأمر كذلك، لأنّه في مقام الإدعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحيةً.. فلابدّ من معرفة قيمة هذه الإدعاءات بالامتحان، وينبغي أن تعرف النيات والسرائر إلى أي مدى تنسجم مع هذه الادعاءات.

---

١. يراجع بداية تفسير سورة البقرة وبداية سورة آل عمران وبداية تفسير سورة الأعراف.

٢. «يفتنون»: مشتق من «الفتنة» وهي في الأصل وضع الذهب في النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثم أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهري ومعنوي.

أجل: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

من البديهي أنّ الله يعرف جميع هذه الأُمور جيداً ـ قبل أن يخلق الإنسان ـ إلّا أنّ المراد من العلم هنا هو ظهور الآثار والشواهد العملية... ومعناه أنّه ينبغي أن يرى علم الله في هذه المجموعة عملياً في الخارج، وأن يكون لها تحقق عيني.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

لا مهرب من سلطان الله: كان الكلام في الآيات السابقة عن امتحان المؤمنين الشامل، والآية الأُولى من الآيات أعلاه تهديد شديد للكفّار والمذنبين، لئلا يتصوروا أنّهم حين يضيّقون على المؤمنين ويضغطون عليهم دون أن يعاقبهم الله فوراً، فإنّ الله غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم، تقول الآية هذه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. فلا ينبغي أن يغرّهم إمهال الله إيّاهم فهو امتحان لهم، كما أنّه فرصة للتوبة والعودة إلى ساحة الله تعالى.

ثم يتحدث القرآن مرّة أُخرى عن سير المؤمنين ومناهجهم، ويقدم النصح لهم، فيقول: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾. فعليه أن يعمل ما في وسعه على امتثال الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، لأنّ الوقت المعين سيأتي حتماً ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾.

ثم إنّ الله سبحانه يسمع أحاديثكم، وهو مطلع على أعمالكم ونيّاتكم... لأنّه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

إنّ «لقاء الله» في يوم القيامة ليس لقاءاً حسيّاً بل نوعاً من الشهود الباطني.

وكما يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان: إنّ المقصود من لقاء الله، هو أنّ العباد يكونون في موقف لا يكون بينهم وبين الله حجاب، لأنّ طبيعة يوم القيامة هي ظهور الحقائق كما يقول القرآن: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾. سورة النور الآية (٢٥).

أمّا الآية التي تليها فهي تعليل لما سبق بيانه في الآية الآنفة، إذ تقول: إنّ على المؤمنين

الذين يرغبون في لقاء الله السعي بما اوتوا من قدرة وقابلية من أجل ذلك فإنّ نتيجة كل ذلك السعي والجهاد وتحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إنّ خطة الامتحان الإلهي هي الجهاد، جهاد النفس وهواها، وجهاد الأعداء الألداء، لحفظ الإيمان والتقوى والطهارة، ونفع ذلك يعود للإنسان...

وآخر آية ـ محل البحث ـ توضيح لما تقدم ذكره في الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

إذن أوّل فائدة كبيرة لهذا الجهاد الكبير (وهو الإيمان والعمل الصالح) هي تكفير الذنوب وسترها على الإنسان، كما أنّ الثواب سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن في نهاية هذه الآية أيضاً: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

«نكفّر»: مشتقة من مادة «تكفير» ومعناها في الأصل التغطية والستر، والمقصود بتغطية الذنوب هنا عفو الله وصفحه.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

سبب النّزول

وردت روايات مختلفة في شأن نزول الآية الآنفة الذكر، ومضمون الجميع واحد وهي أنّ بعض الرجال الذين كانوا في مكة وأسلموا[١]، حين سمعت أُمهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاماً ولا يشربن ماءً حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، وبالرغم من أنّ أية واحدة من هؤلاء الأمهات لم تف بقولها، ورجعت عن إضرابها عن الطعام، إلّا أنّ الآية المتقدمة نزلت لتوضح للجميع أُسلوب المعاملة بين الأبناء والآباء والأُمهات، في مجال الكفر والإيمان.

---

١. ورد في بعض الروايات اسم (سعد بن أبي وقاص) وفي بعضها اسم (عياش بن أبي ربيعة المخزومي).

التّفسير

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين: إنّ واحداً من أهم الامتحانات الإلهية، هي مسألة «التضاد» بين خط الإيمان والتقوى وبين علاقة العاطفية والقرابة.. والقرآن في هذا المجال يوضح وظيفة المسلمين بجلاء. في البداية يتحدث عن قانون كلي يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

إنّ التعبير بـ«الإنسان» هنا يلفت النظر.. فهذا القانون لا يختص بالمؤمنين، بل كل من كان جديراً بأن يحمل اسم الإنسان ينبغي أن يكون عارفاً بحق الأبوين... وأن لا ينسى تكريمهما واحترامهما والإحسان إليهما طيلة عمره.. وإن كان كل ذلك لا يفي بحقوقهما.

بعد ذلك، ومن أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أنّ العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمةً على العلاقة بين الإنسان وربّه وإيمانه، يأتي استثناء صريح ليوضّح هذا الموضوع في الآية، فيقول تعالى: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

جملة ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إشارة إلى عدم منطقية الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحاً واقعاً لكان عليه دليل بيّن.

وبتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشيء فلا ينبغي أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم بطلانه؟ فهذا الاتباع هو اتّباع للجهل، فلو أنّ الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

ثم يضيف تعالى في نهاية الآية: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه الجملة تهديد لأُولئك الذين يسيرون في طريق الشرك، والذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق..

والآية التي بعدها تؤكّد الحقيقة في أُولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتكرر هذا المضمون أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

وأساساً فإنّ عمل الإنسان يترك في الإنسان أثره.. فالعمل الصالح يصبغ الإنسان بلونه ويدخله في زمرة «الصالحين».

كما أنّ العمل السيء يدخله في زمرة «الخاطئين والمسيئين».

إنّ الكلام في الآيات المتقدمة كان عن غفران الذنوب وتكفير السيئات وما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلّا أنّه هنا إشارة عن مقامهم الرفيع الذي هو في نفسه ثواب آخر.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ
وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم
بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

شركاء في الانتصار أمّا في الشدة فلا: حيث إنّ الآيات المتقدمة تحدثت عن المؤمنين الصالحين والمشركين بشكل صريح، في الآيات الأُولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثالث ـ أي المنافقين ـ فيقول القرآن فيهم: **﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾**. فلا يصبرون على الأذى والشدائد، ويحسبون تعذيب المشركين لهم وأذى الناس أنّه عذاب من الله **﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾**. فنحن معكم في هذا الافتخار والفتح.

ترى هل يظنون أنّ الله خفيّ عليه ما في أعماق قلوبهم فلا يعرف نيّاتهم **﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**.

ولعل التعبير بـ«آمنّا» بصيغة الجمع، مع أنّ الجملة التي تليه جاءت بصيغة المفرد، هو من جهة أنّ هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا أنفسهم في صف المؤمنين، فلذلك يقولون «آمنّا» أي آمنّا كسائر الناس الذين آمنوا.

وجملة **﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾** معناه أوذي في سبيل الله، أي إنّهم قد يتعرض لهم العدوّ ـ أحياناً ـ وهم في سبيل الله والإيمان فيؤذيهم.

وفي الآية التالية ـ لمزيد التأكيد ـ يضيف القرآن قائلاً: **﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾**. فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سيكونون في منأى عن علم الله فهم في خطأ كبير جداً.

إنّ التعبير بالمنافقين لها معنى واسع، ويشمل حتى الأفراد ضعاف الإيمان الذين يبدّلون عقيدتهم لأدنى مكروه يصيبهم.

والآية الأخرى بعدها تشير إلى منطق المشركين الخاوي والملتوي، الذي لا يزال موجوداً في طبقات المجتمع الواسعة فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾.

واليوم نرى كثيراً من الخبثاء يقولون للآخرين عند دعوتهم إلى أمر: إن كان فيه ذنب فعلى رقابنا في حين أنّنا نعلم أنّه لا يمكن لأحد أن يتحمل وزر أحد، فالله عادل سبحانه ولا يؤاخذ أحداً بجرم الآخر.

لذلك فإنّ القرآن يقول بصراحة في الجملة التالية: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وبعد ذلك، ومن أجل أن لا يتصور أنّ هؤلاء الدعاة للكفر والشرك وعبادة الأصنام والظلم، لا شيء عليهم من العقاب لهذا العمل، فإنّ القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

وثقل الذنب هذا... هو ثقل ذنب الإغراء والإغواء وحث الآخرين على الذنب، وهو ثقل السنّة التي عبّر عنها النبي ﷺ فقال: «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء»[١].

وتختتم الآية بالقول: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَا ءَايَةً
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا
إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ
مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ
ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

---

١. التفسير الكبير ٢٥/٤٠.

إشارة لقصتي نوح وإبراهيم: لما كان الكلام في البحوث السابقة عن الإمتحانات العامة في الناس، فإنّ الكلام هنا ـ وفي ما بعد ـ يقع على الإمتحانات الشديدة للأنبياء.

تبدأ الآيات أوّلاً بالكلام على أوّل نبي من أولي العزم وهو نوح عليه السلام وتتحدث عنه بعبارات موجزة، لتُجمل قسماً من حياته التي تناسب ـ كثيراً ـ الواقع الراهن للمسلمين ـ آنئذ ـ فتقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

كان نوح مشغولاً ليل نهار بالتبليغ ودعوة قومه إلى توحيد الله ـ فرادى ومجتمعين، مستفيداً من جميع الفرص في هذه المدة الطويلة (أي تسعمائة وخمسين عاماً) يدعوهم إلى الله... ولم يشعر بالتعب والنصب من هذا السعي المتتابع ولم يظهر عليه الضعف والفتور.

ومع كل هذا الجهد الجهيد لم يؤمن به إلّا جماعة قليلة في حدود الثمانين شخصاً كما تنقل التواريخ (أي: بمعدّل نفر واحد لكل اثنتي عشرة سنة).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف والتعب في سبيل الدعوة إلى الحق ومواجهة الانحرافات، لأنّ منهجكم أمام منهج «نوح» سهل للغاية.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبة قوم نوح الظالمين الألدّاء: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

ويضيف القرآن الكريم في الآية الأخرى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ثم يعقّب على قصة نوح وقومه التي وردت بشكل مضغوط، ويأتي بقصة إبراهيم عليه السلام، ثاني الأنبياء الكبار من أولي العزم فيقول: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. إذ ينجيكم من دنياكم الملوّثة بالذنوب والشقاء، وتكون آخرتكم هي السعادة الأبدية.

ثم يذكر إبراهيم عليه السلام أدلة بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ويبيّن في تعابير مختلفة يتضمن كل منها دليلاً على فساد مذهبهم وبطلانه فيقول أوّلاً: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾.

الأصنام التي ليس لها إرادة، ولا عقل، وهي فاقدة لكل شيء، بحيث إنّ شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان».

ثم يتوسع في حديثه ويمضي إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنّها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنّكم تكذبون وتضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

ثم يبيّن الدليل الثالث وهو أنّ عبادتكم لهذه الأوثان إمّا لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم في «الأخرى» وكلا الهدفين باطل... وذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

وأنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو الله، فالذي يتكفل بالرزق هو الله، ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

ولأنّه هو الذي يرزقكم فتوجهوا إليه ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

وإذ كنتم تبتغون الدار الأُخرى فإنّه ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فالأصنام لا تصنع شيئاً هنا ولا هناك.

وبهذا الأدلة الموجزة والواضحة ألجم منطقهم الواهي وأفحمهم.

ثم يلتفت إبراهيم عليه السلام مهدّداً لهم ومبدياً عدم اكتراثه بهم قائلاً: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزي بتكذيبهم والعاقبة الوخيمة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ سواءٌ استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته وبلاغه.

والمقصود بالأمم قبل أُمة إبراهيم عليه السلام، أُمة نوح عليه السلام وما بعده من الأُمم.

والقرآن يترك قصة إبراهيم هنا مؤقتاً، ويكمل البحث الذي كان لدى إبراهيم في صدد التوحيد وبيان رسالته بدليل المعاد، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

أي كيف لا يعرف هؤلاء خلق الله؟ فالذي له القدرة على الإيجاد أوّلاً قادر على إعادته أيضاً.

ويضيف في آخر الآية على سبيل التأكيد: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. لأنّ تجديد الحياة قبال الإيجاد الأوّل يُعدّ أمراً بسيطاً.

وطبيعي أنّ هذا التعبير يناسب منطق الناس وفهمهم، وإلّا فإنّ اليسير والعسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة والمطلقة.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ
﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ
مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا
مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

الآيسون من رحمة الله: هذه الآيات تواصل البحث في المعاد أيضاً، فإنّ القرآن يدعو في الآية الأُولى من هذا المقطع الناس إلى «السير في الآفاق» في مسألة المعاد... في حين أنّ الآية السابقة كانت السمة فيها «السير في الأنفس» أكثر. يقول القرآن: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾. انظروا إلى أنواع الموجودات الحية، والاقوام والأُمم المتنوعة والمختلفة، وكيف أنّ الله تعالى خلقها أولاً، ثم إنّ الله نفسه الذي أوجدها في البداية من العدم قادر أيضاً على إيجادها في الآخرة: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ ولأنّه أثبت قدرته على كل شيء حين خلق الخلق أوّلاً، إذن فـ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فهذه الآية والآية التي قبلها ـ أيضاً ـ أثبتتا بواسطة قدرته الواسعة إمكان المعاد..

«النشأة»: في الأصل، تعني إيجاد الشيء وتربيته، وقد يعبر أحياناً عن الدنيا بالنشأة الأُولى، كما يعبر عن الأخرى بالنشأة الآخرة.

ثم يتعرض القرآن الكريم إلى إحدى المسائل المتعلقة بالمعاد، وهي مسألة الرحمة والعذاب، فيقول: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

ومع أنّ رحمة الله مقدمة على غضبه، إلّا أنّ الآية هنا تبدأ أوّلاً بذكر العذاب ثم الرحمة، لأنّها في مقام التهديد، وما يناسب مقام التهديد هو هذا الأُسلوب.

وإكمالاً لهذا البحث الذي يبيّن أنّ الرحمة والعذاب هما بيد الله والمعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان الله وحكومته ولا يمسّكم عذابه، فأنتم في خطأ كبير... فليس الأمر كذلك: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [١].

وإذا كنتم تتصورون أنّكم تجدون من يدافع عنكم وينصركم هناك، فهذا خطأ محض أيضاً: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وهكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين.. لذلك يقول في الآية التي بعدها بشكل قاطع: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾. ثم يضيف مؤكداً: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمة الله.

---

١. «معجزين»: مشتقة من مادة «عجز»، ومعناها في الأصل التخلّف والتأخر عن الشيء، ولذلك تستعمل هذه الكلمة في الضعف الباعث على التخلف والتأخر؛ «المعجزة»: معناه الذي يجعل الآخر عاجزاً، وحيث إنّ الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد وقدرته، يعجزونه عن ملاحقتهم، لذلك استعملت كلمة «معجز» في هذا الصدد أيضاً.

والمراد بـ«آيات الله» هي جميع الآيات في عالم الوجود والتشريع.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

اسلوب المستكبرين في جوابهم لإبراهيم: والآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضالون لإبراهيم عليه السلام ردّاً على أدلته الثلاثة في مجال التوحيد والنبوة والمعاد؟!

إنّهم ـ قطعاً ـ لم يكن لديهم جواب منطقي وكجميع الأقوياء المستكبرين فقد توسلوا بقدراتهم الشيطانية وأصدروا أمراً بقتله، حيث يصرّح بذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ**﴾.

وأخيراً رُجح الرأي الأوّل، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنار.

وفي هذه الآية الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار سوى هذا المقدار الذي استكملت به الآية الكريمة، وهو ﴿**فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ**﴾.

غير أنّ تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد في سورة الأنبياء الآيات (٦٨ ـ ٧٠) وقد بيّنا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته.

ويضيف القرآن في الختام: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾.

إنّ ابراهيم عليه السلام نجّي من النار بصورة خارقة للعادة وبلطف الله سبحانه، غير أنّه لم يترك أهدافه.. بل نهض بالأمر وازداد همّة وأعطى لأهدافه حرارة أكثر.

ثم توجه إبراهيم إلى المشركين، ﴿**وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى**

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. ولكن هذه المودة والمحبة تتلاشى في الآخرة، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

إنّ عبادة الصنم أو الوثن كانت رمزاً للوحدة لكل قوم ولكل قبيلة، كما تربط بينهم وبين اسلافهم.

ثم بعد هذا كلّه فإنّ سراة الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عبادة الأوثان، وكان هـذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراة والأتباع.

ولكن هذه العلائق والوشائج والإرتباطات الخاوية تتقطع جميعها يوم القيامة.

وفي الآية التي بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط وهجرة إبراهيم، إذ تقول: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾.

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، وكانت له مع إبراهيم علاقة قربى «يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السلام» وحيث إنّ اتّباع شخص عظيم ـ لإبراهيم ـ بمنزلة أفراد أُمة كاملة فـقد تحدث سبحانه ـ خاصةً ـ عن إيمان «لوط» وشخصيته الكبرى المعاصرة لإبـراهـيم عليه السلام، ليتّضح أنّه إذ لم يؤمن الآخرون، فإنّ ذلك ليس مهماً.

ثم تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السلام، فتقول: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فلذلك تحرك ابراهيم عليه السلام وزوجه سارة ـ بمعيّة لوط ـ من بابل إلى أرض الشـام مـهد الأنبياء والتوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعة هناك ويوسع دعوة التوحيد.

وفي آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التي منحها الله لإبراهيم عليه السلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الأُولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق ويعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان والنبوة في بيته وأسرته ويحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

وهما نبيّان كبيران واصل كل منهما السير على منهاج إبراهيم محطم الأصنام.

الموهبة الثانية: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾.

الموهبة الثالثة: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾. فما هو هذا الأجر الذي لم يوجهه القرآن؟ لعلّه إشارة إلى أُمور مختلفة مثل الاسم الحسن، ولسان الصدق والثناء بين جميع الأُمم، لأنّ الأُمم كلها تحترم إبراهيم عليه السلام على أنّه نبي عظيم الشأن، ويفتخرون بوجوده ويسمونه «شيخ

الأنبياء».

الموهبة الرابعة، هي: ﴿وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وهكذا تشكّل هذه المواهب مجموعة كاملة من المفاخر.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

المنحرفون جنسياً: بعد بيان جانب مما جرى لإبراهيم عليه السلام يتحدث القرآن عن قسم من قصة حياة النبي المعاصر لإبراهيم «لوط عليه السلام» فيقول: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. «الفاحشة»: مشتقة من مادة «فَحَشَ» وهي في الأصل تعني كل فعل أو كلام سيء للغاية، والمراد بها هنا الانحراف الجنسي. (اللواط).

لوط عليه السلام هذا النبي العظيم، كشف أخيراً ما في نفسه وقال لقومه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾. أفتريدون أن تقطعوا النسل ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾.

ولا ترعوون عن الأعمال المخزية في مجالسكم العامة ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

«النادي»: مشتق من «النداء» وهو يعني المجلس العام، كما يأتي أحياناً بمعنى مكان التنزّه، لأنّ الأفراد هناك ينادي بعضهم بعضاً وترتفع أصواتهم.

ورد في التواريخ: إنّهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش والإبتذال، أو يضرب أحدهم الآخر على ظهره، أو يلعبون القمار، ويستعملون أنواع الآلات الموسيقية، ويكشفون عوراتهم في مجتمعهم ويغدون عراة... الخ[١].

والآن فلنلاحظ ماذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النبي لوط عليه السلام المنطقية. يقول القرآن: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وهنا لم يكن للوط عليه السلام بدّ إلّا أن يلتفت إلى الله بقلب حزين مهموم... و﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى

---

١. تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾. القوم المنحرفين، المتمادين في الأرض فساداً، والذين تركوا تقواهم وأخلاقهم الإنسانية وألقوا العفة والطهارة خلف ظهورهم، ومزجوا عبادة الأوثان بفسد الأخلاق والظلم، وهددوا نسل الإنسان بالفناء والزوال.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

وهذه هي عاقبة المنحرفين: لقد استجيب دعاء لوط أخيراً، وصدر الأمر من الله تعالى بالعقاب الصارم والشديد لهؤلاء القوم المنحرفين والمفسدين، فمرّ الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التي فيها إبراهيم عليه السلام لأداء رسالة أُخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، وهذه الرسالة التي سبقت العذاب، هي بشارتهم لإبراهيم عليه السلام بالولد: «بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب».

والآيات المتقدمة تذكر أوّلاً قصة مرورهم بإبراهيم عليه السلام فتقول: ﴿**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ**﴾.

والتعبير بـ«هذه القرية» يدل على أنّ مُدن قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السلام.

والتعبير بـ«الظالمين» هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك والفساد الأخلاقي وعدم العفة، وظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين والقوافل التي كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النبي العظيم و﴿**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا**﴾.

فما عسى أن تكون عاقبته؟

إلّا أنّهم أجابوه على الفور: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ فلا تحزن عليه، لأنّنا لا نحرق «الأخضر واليابس» معاً، وخطتنا دقيقة ومحسوبة تماماً... ثم أضافوا: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾.

إنتهىٰ كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، وتوجهوا إلى ديار لوط عليه السلام وقومه، يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

فقد جاؤوا إليه بهيئة فتيان ذي وجوه مليحة، ومجيء أمثال هؤلاء الضيوف في مثل هذا المحيط الملوّث، ربّما كان يجرّ على لوط الوبال.

«سيء»: مشتقة من «ساء» ومعناه سوء الحال؛ و«الذرع»: معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق قلبه وانزعج.

إلّا أنّ الضيوف حين أدركوا عدم إرتياحه كشفوا عن «هويّتهم» وعرفوا أنفسهم ورفعوا عنه الحزن: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾.

وبعد هذا، ولكي تتضح خطة عملهم في شأن عاقبة هؤلاء القوم المنحرفين أكثر، أضافوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

والمراد بـ«القرية» هي «سدوم» من قرى قوم لوط عليه السلام.

والمراد من «الرجز» هنا هو العذاب.

وهنا لم يذكر القرآن كيفية العذاب الأليم، سوى أنّه قال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

إلّا أنّ في سورة هود الآية (٨٢) منها وكذلك سورة الأعراف الآية (٨٤) منها، تفصيلًا في بيان العذاب، وهو أنّه أصابت قراهم في البداية زلزلة شديدة فجعلت عاليها سافلها، ثم أمطرت عليها حجارة من السماء.

❊

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ
وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟
فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن
مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ
فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ
خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

تنوع العذاب للظالمين: بعد بيان قصّة لوط وقومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب وعاد وثمود، وقارون وفرعون، وقد أشير في هذه الآيات ـ محل البحث ـ إلى كل منهم إشارة موجزة «مكثفة» للإستنتاج والعبرة. في البداية تقول الآية: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾.

والتعبير بكلمة «أخاهم»، هو إشارة إلى منتهى محبّة هؤلاء الأنبياء إلى أممهم، وإلى عدم طلبهم السلطة، وبالطبع فإنّ هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضاً.

و«مدين» مدينة واقعة جنوب غربي الأردن، وتدعى اليوم بـ«معان» وهي في شرق خليج العقبة، وكان شعيب عليه السلام وقومه يقطنون فيها.

وشعيب كسائر أنبياء الله العظام، بدأ بالدعوة إلى الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، وهما أساس كل دين وطريقة: ﴿**فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ**﴾.

فالإيمان بالمبدأ يكون سبباً لإحساس الإنسان بأنّ الله يراقبه مراقبةً دقيقةً بشكل دائم ويسجّل أعماله؛ والايمان بالمعاد يذكّر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شيء وكل عمل مهما كان تافهاً...

والمبدأ الثالث هو بمثابة خطّة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الإجتماعية، إذ قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وللفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، وتدمير، وظلم.. الخ.. ويقابله الصلاح والإصلاح، ومفهومها يشمل جميع الخطط البنّاءة.

«تعثوا»: من مادة «عثى» ومعناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما في الأمر أنّ هذا التعبير كثيراً ما يستعمل في الموارد التي تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيداً على هذا المفهوم.

إلّا أنّ تلك الجماعة بدلاً من أن تصغي لمواعظه ونصائحه بآذان القلوب، خالفته ولم تصغ إليه «فكذبوه».

وكان هذا التكذيب سبباً في أن تصيبهم زلزلة شديدة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾. أي مكبوبين على وجوههم ميتين.

«الجاثم»: مشتق من «جثم» ومعناه الجلوس على الركبة والتوقف في مكان ما... ولا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة.. فهذا التعبير إشارة إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا وجثوا على الركب، إلّا أنّ الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم ونزلت عليهم الصاعقة التي تزامنت معها فماتوا.

أمّا الآية التي بعده فتتحدث عن «عاد» و«ثمود» قومي (هود وصالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما، وما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران في آيات عديدة من القرآن، وهما أي قوم هود وقوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾.

ثم تضيف الآية: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ﴾ المتهدمة والتي هي على طريقكم في منطقة الحجر واليمن.

ثم تشير الآية إلى السبب الأصلي لشقائهم وسوء حظّهم، إذ تقول: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وكانت فطرتهم على فطرة الله وتقواه، ولم يأل الأنبياء جهداً في هدايتهم، وبذلوا قدراً كافياً من النصح والإرشاد لهم، لكنّهم حادوا ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

والآية الأُخرى تذكر أسماء ثلاثة من الجبابرة الذين كان كل واحد منهم بارزاً للقدرة الشيطانية، فتقول: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾.

فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور وعبادة «الذات» والأنانية والغفلة.

وفرعون كان مظهر القدرة الإستكبارية المقرونة بالشيطنة.

وأمّا هامان، فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين.

ثم يضيف القرآن: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والدلائل ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. فاعتمد قارون على ثروته وخزائنه وعلمه، واعتمد فرعون وهامان على جيشهما وعلى القدرة العسكرية، وعلى قوّة إعلامهم وتضليلهم لطبقات الناس المغفّلين الجهلة. لكن.. برغم كل ذلك لم يفلحوا ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾.

كلمة «سابقين» تعني من يتقدم ويكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾. أي إنّهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سلطان الله برغم ما كان عندهم من إمكانات، بل أهلكهم الله في اللحظة التي أراد، وأرسلهم إلى ديار الفناء والذلة والخزي.

كما يذكر في الآية التي بعدها: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾.

فإنّه يذكر في هذه الآية بحسب الترتيب أنواع عذابهم فيقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾. «الحاصب»: معناه الاعصار الذي يحمل حصى كثيرة معه.

والمقصود بـ«منهم» هنا هم «عاد» قوم هود.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهذا هو العذاب الذي عذب الله به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين...

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾. وهذا هو عقاب قارون الثري المغرور المستكبر من بني إسرائيل.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾. وهذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون وهامان وجنودهما.

ويبيّن في ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، وهي أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أجل، إنّ عقاب هذه الدنيا والآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح في وجوههم، فالله أكثر عدلاً وأسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم.

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

دعامة واهية كبيت العنكبوت: بيّنت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون والمفسدون الظلمة والأنانيون من مصير وخيم وعاقبة سوداء وعذاب أليم... وبهذه المناسبة، ففي الآيات التي بين أيدينا، يبيّن القرآن الكريم مثالاً بليغاً ومؤثراً يعبدون غير الله ويتخذون من دونه أولياء، وكلّما أمعنا النظر في هذا المثال وفكرنا فيه ملياً انقدحت في أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

والجدير بالذكر، أنّ بيت العنكبوت ونسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، والتدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر.

فلو دققنا النظر في بيوت العنكبوت لرأينا منظراً طريفاً مثل الشمس وأشعتها مستقرةً على قواعد هذا «البناء النسيجي»، وبالطبع فإنّ هذا البيت مناسب للعنكبوت وكاف، ولكنه في المجموع لا يمكن تصور بيت أوهن منه، وهكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين ومعبوديهم، إذ تركوا عبادة الله والتجأوا إلى الأصنام والأحجار والأوثان.

أمّا الآية التالية ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفلة الجهلة.. إذ تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ ولا يخفى على الله شركهم الظاهر ولا شركهم الخفي ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على الإطلاق.

وإذا أمهلهم، فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أنّ قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التي توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجة البالغة لله عليهم، فيهتدي من هو جدير بالهدى.

والآية الثالثة ـ من الآيات محل البحث ـ لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النبي ﷺ في هذه الأمثلة التي ضربها الله، وكانوا يقولون: الله الذي خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟

فيردّ القرآن بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

وفي آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ يضيف القرآن الكريم: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. ليس في عمل الله باطل أو عبث... فإذا التشبيه بالعنكبوت وبيته الخاوي هو أمر محسوب بدقّة، وإذا ما إختار موجوداً صغيراً للتمثيل به فهو لبيان الحق، وإلّا فهو خالق أعظم المجرّات والمنظومات الشمسية وغيرها.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفة من قصص الأمم السابقة وأنبيائهم العظام، يتوجه الخطاب ـ على سبيل تسلية الخاطر، وإراءة الخط الكلي أو الخطوط العامة ـ للنبي ﷺ ويأمره بما ينبغي عليه أن يفعل. فيبدأ أوّلاً بقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾... أي إقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه وتطلبه من العلم والحكمة والنصح، ومعيار معرفة الحق من الباطل.

وبعد بيان هذا الأمر الذي يحمل طابعاً تعليمياً، يأتي الأمر الثاني الذي هو محور أصيل للتربية فيقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.

ثم يبيّن فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[1].

طبيعة الصلاة ـ حيث إنّها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الإعتقاد بالمبدأ والمعاد ـ فإنّها تردع عن الفحشاء والمنكر.

إنّ النهي عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق ؑ قال: «من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته قبلت منه».

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره ومن شأن الصلاة: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة أُخرى في الصلاة، أي أنّ أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلي للنهي عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر الله، وكونه أكبر لأنّه العلة والأساس للصلاة.

وحيث إنّ نيّات الناس، وميزان حضور القلب منهم في الصلاة وسائر العبادات، كل ذلك متفاوت جداً، فإنّ الآية تختتم بالقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾. أي يعلم ما تصنعون

---

١. إنّ الفحشاء هي إشارة للذنوب الكبيرة الخفية، وأمّا المنكر فهو الذنوب الكبيرة الظاهرة، أو أنّ الفحشاء هي الذنوب التي تنتج بغلبة القوى الشهوانية، والمنكر من أثر القوى الغضبية.

من أعمال في الخفاء أو العلن، والنيّات التي في قلوبكم أو الكلمات التي تجري على ألسنتكم.

وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

اتبعوا أحسن الأساليب في البحث والجدال: كان أكثر الكلام في الآيات المتقدمة في كيفية التعامل مع المشركين المعاندين وكان مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجة حاداً، أمّا في هذه الآيات ـ محل البحث ـ فيقع الكلام في شأن مجادلة أهل الكتاب الذين ينبغي أن يكون الكلام معهم لطيفاً، فيقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. «تجادلوا»: مشتق من «جدال» ومعناه في الأصل فتل الحبل وإحكامه، كما تستعمل هذه المفردة في البناء المحكم وما أشبهه، وحين يتناقش اثنان في بحث معين فكل واحد منهما يريد أن يلوي صاحبه عن عقيدته وفكرته.. لذا فقد سمّي هذا النقاش جدالاً.

والمراد من قوله ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ﴾، المناقشات المنطقية.

والتعبير بـ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تعبير جامع يشمل الأساليب والطرق الصحيحة والمناسبة للتباحث أجمع.

فعلى هذا إنّ ألفاظكم ينبغي أن تكون بطريقة مؤدّبة، والكلام ذا مودّة، والمحتوى مستدلّاً، وصوتكم هادئاً غير خشن.

وبالطبع فإنّ هذا الأصل الكلي في البحث والمجادلة الإسلامية، فقد يُعدّ في بعض الموارد ضعفاً، أو يكون الطرف الآخر مغروراً إلى درجة أنّ هذا التعامل الإنساني يزيده جرأة وعدواناً وتكبراً، لذلك فإنّ القرآن يضيف مستثنياً: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾.

وهم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، وكتموا كثيراً من الآيات، لئلا يطلع الناس

على أوصاف النبي محمّدﷺ.

ويختتم الآية بمصداق بارز من «المجادلة بالتي هي أحسن» ويمكنه أن يكون قدوة لأي بحث، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وهذا مثل واحد من المجادلة بالتي هي أحسن التي ينجذب إليها كل من يسمعها، ويدلّ على أنّ الإنسان يجب أن يكون بعيداً عن التحزب أو طلب التفرقة.

والآية الأخرى تؤكّد على الأصول الأربعة التي سبق ذكرها في الآية المتقدمة، فتقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ﴾. أي القرآن.

أجل... نزل هذا القرآن على أساس توحيد المعبود، وتوحيد دعوة جميع الأنبياء إلى الحق، والتسليم دون قيد أو شرط لأمر الله؛ والمجادلة بالتي هي أحسن.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ويعتقدون بصدقه إذ أنّهم وجدوا علائمه في كتبهم، كما أنّ محتواه من حيث الأُصول العامة والكلية منسجم مع كتبهم.

ويضيف القرآن بعدئذ: ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾. أي أهل مكة والمشركون العرب.

ثم يقول القرآن في كفر الطائفتين من اليهود والنصارى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَا إِلَّا الْكَٰفِرُونَ﴾.

ومع الإلتفات إلى أنّ مفهوم الجحود، هو أن يعتقد الإنسان بشيء بقلبه وينكره بلسانه، فإنّ مفهوم الجملة المتقدمة أنّ الكفار يعترفون في قلوبهم بعظمة هذه الآيات، ويرون علامات الصدق عليها، إلّا أنّهم ينكرون ذلك عناداً وتعصباً، وتقليداً أعمى لأسلافهم ولآبائهم، ولحفظ منافعهم الشخصية.

ثم يضيف القرآن مشيراً إلى علامة أُخرى من علائم حقانية دعوة النبيﷺ الجلية والواضحة، وهي تأكيد على محتوى الآية السابقة، فيقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾. وقالوا إنّ ما جاءنا به هذا النبي هو حصيلة مطالعاته لكتب الماضين.

وفي الآية التالية علامة أُخرى أيضاً على حقانية القرآن، إذ تقول: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

والتعبير بـ«الآيات البيّنات» كاشف عن هذه الحقيقة وهي أنّ دلائل حقانية القرآن

تتجلى بنفسها عياناً، وتشرق في أرجائه، فدليلها معها.

ثم بعد هذا كلّه، فإنّ أتباع هذه الآيات وطلابها المشدودة قلوبهم إليها هم أولوا العلم والاطلاع، بالرغم من أن أيديهم خالية وأرجلهم حافية.

وتختتم الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾... لأنّ دليلها واضح، وقد وردت علائمها في الكتب المتقدمة.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ
شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟
بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى
لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

أليس القرآن كافياً في إعجازه: الأشخاص الذين لم يذعنوا ويسلّموا للبيان الاستدلالي والمنطق الذي جاء به القرآن بسبب عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولم يقبلوا بكتاب كالقرآن... تذرّعوا بحجّة أُخرى على سبيل الاستهزاء والسخرية، وهي أنّه لم لا تأت ـ يا محمّد ـ بمعجزة من المعاجز التي جاء بها موسى وعيسى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.

ومن دون شك فإنّ النبي ﷺ كانت لديه معاجز غير القرآن الكريم، إلّا أنّ أُولئك لم يكن قصدهم من وراء كلامهم الحصول على معجزة.

إنّ القرآن، للردّ على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوي الحجج الواهية، يدخل من طريقين: فيقول أوّلاً في خطابه لنبيّه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾. أي قل لأُولئك المعاندين أنّ الله يدري أية معجزة تناسب أي زمان وأي قوم.

ثم يضيف القرآن معقباً أن قل: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

والجواب الآخر هو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، والقرآن بحدّ ذاته أعظم معجزة معنوية...

معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم وعلى الأجيال من بعدهم.

وفي نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد والتوضيح بصورة أجلى، فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. «ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، وهو القرآن.

أجل، إنّ القرآن رحمة «وسيلة» للذكرى والتذكر أيضاً، فهو للمؤمنين الذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقة.

ولعل الفرق بين «الرحمة» و«الذكرى» أنّ القرآن ليس معجزة وذكرى فحسب، بل هو إضافة إلى كل ذلك يحتوي على القوانين التي تمنح الرحمة والمناهج التربوية والإنسانية.

فمثلاً كانت عصى موسى معجزة فحسب، إلّا أنّها لم يكن لها أثر في حياة الناس اليومية، غير أنّ القرآن معجزة، هو في الوقت ذاته منهج كامل الحياة ورحمة أيضاً.

ولما كان كل مدعٍ بحاجة إلى الشاهد، فالقرآن يبيّن في الآية الأخرى أنّ خير شاهد هو الله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

وبديهي أنّه كلّما كان إطلاع الشاهد وشهادته أكثر، فإنّ قيمة الشهادة تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلاً: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

يحتمل أن تكون هذه الشهادة شهادة عملية، لأنّه حين يؤتي الله نبيّه معجزة كبرى كالقرآن، فقدوقع على سند حقانيته وأمضاه.

وإضافةً للشهادة العملية المتقدمة، نقرأ في آيات كثيرة من القرآن شهادة قولية في نبوة النبي ﷺ.

ويمكن أنّ المراد من شهادة الله في الآية هي ما سبق من الوعد والذكر في كتب الله السابقة «كالتوراة والإنجيل» ويعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصورة جيدة.

وتختتم الآية بنحو من الوعيد والتهديد لأولئك الكفار بالله، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وأي خسران أعظم من أن يعطوا جميع قواهم الجسمانية والإمكانات الاجتماعية والفردية في سبيل الإعلام والتبليغ لمذهبهم الوثني وأهملوا ذكر الله، فلم يُعد عليهم هذا إلّا بالضرر والخسران.

أمّا في الآية التالية فإشارة إلى الذريعة الثالثة إذ تقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. إذ يقولون: لو كان عذاب الله حقّاً على الكافرين فلم لا يأتينا؟!

فيجيب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة.

الأوّل: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

وهذا الزمان المعين (الأجل) إنّما هو لهدف أصلي، للإرعواء عن باطلهم وتيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم.

والثاني: إنّ أُولئك الذين يتذرّعون بهذا القول ما يدريهم لعلّ العذاب يأخذهم على حين غرةٍ من أنفسهم ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

وبالرغم من أنّ موعد العذاب معين ومقرّر إلّا أنّ المصلحة تقتضي ألّا يطّلعوا عليه، وأن يأتيهم دون مقدمات، لأنّه لو عرف وقته لكان باعثاً على تجرؤ الكفار والمذنبين وجسارتهم.. وحين يأزف الوعد بالعذاب فإنّهم سيتجهون بالتوبة إلى الله وينيبون إليه.

والحكمة التربوية لمثل هذا العقاب تقتضي أن يكتم موعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسها، ويكون الخوف والإستيحاش منها عاملاً على الردع.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآني الثالث يتبيّن في الآية إذ يقول: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة واقع لا محالة، ومحيط بهم تماماً وسيصيبهم حتماً بحيث إنّ القرآن يذكره بصورة أمر فعليّ (وكأنّ جهنم الآن محيطة بهم).

ويوجد تفسير آخر أكثر دقّةً لهذه الآية، وهو أنّ جهنم محيطة، الآن فعلاً بالكافرين، من جهتين ـ بالمعنى الواقعي للكلمة.

الجهة الأولى: إنّها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم وتلوثهم بالذنب يحترقون بجهنم التي أعدّوها لأنفسهم.

والجهة الثانية: طبقاً لظاهر الآيات في القرآن فإنّ جهنم موجودة فعلاً، فإنّ جهنم موجودة في باطن الدنيا، وبهذا فهي محيطة بهم على نحو الحقيقة.

ثم يضيف القرآن: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا

---

١. «البغتة»: مشتقة من «البغت» ومعناه التحقق المفاجيء وغير المنتظر لأمر.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يمكن أن تكون هذه الآية توضيحاً لإحاطة عذاب جهنم في يوم القيامة بالكفار، ويمكن أن تكون بياناً مستقلًا لذلك العذاب الأليم لهم الذي يحيط بهم اليوم على أثر أعمالهم، وفي غدٍ يتجلى هذا العذاب بوضوح ويكون محسوساً ظاهراً.

أمّا جملة ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التي يظهر أنّ قائلها هو الله تعالى، فهي بالإضافة إلى أنّها نوع من العقوبة النفسية لمثل هؤلاء الأشخاص، فهي كاشفة عن هذه الحقيقة، وهي أنّ عذاب الله ليس إلّا انعكاساً للأعمال التي يقوم بها الإنسان نفسه في النشأة الآخرة.

يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية الأولى في المستضعفين من المؤمنين بمكة أُمروا بالهجرة عنها.

ونزل قوله ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ في جماعة كانوا بمكة يؤذيهم المشركون فأمروا بالهجرة إلى المدينة فقالوا: كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار، ولا غفار ومن يطعمنا ومن يسقينا؟

التّفسير

لابدّ من الهجرة: حيث إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفة من الإسلام والمسلمين، في الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين ومسؤولياتهم قبال المشاكل المختلفة، أي مشاكل أذى الكفار وضغوطهم وقلّة عدد المسلمين وما إلى ذلك. فتقول الآية الأُولى: ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾.

لأنّ الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبداً لله، فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسي

والنهائي مستحيلاً، فلا سبيل عندئذ إلّا الهجرة.

وحيث إنّ البعض بقوا في ديار الشرك، ولم يرغبوا بالهجرة بذريعة أنّهم يخشون الخروج من ديارهم ويخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الأُخرى التي تهددهم... إضافة إلى فراق الأحبّة والمتعلقين والأبناء والأصدقاء، فإنّ القرآن يردّهم بجواب جامع قائلاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

لا تظنوا أنّ الموت نهاية كل شيء، لأنّكم جميعاً ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾... إلى الله العظيم، وإلى نعمه التي لا حدّ لها ولا انتهاء لأمدها.

والآية التالية تبيّن جانباً من هذه النعم فتقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[1].

والامتياز الآخر لغرف الجنة أنّها دائمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

ويضيف القرآن معقباً في ختام الآية: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

والمراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذين يعملون الصالحات المقرونة بإيمانهم، وإن كانت كلمة العاملين مطلقة.

والآية التالية تصف أهمّ ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

إذ يبتعدون عن الزوجة والأولاد والأهل والبيت والأحباب والأصدقاء وكل شيء عزيز عليهم، لكنّهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مرارة الغربة والتهجير عن أوطانهم ويصبرون.

وإذ أمعنا النظر وفكّرنا جيداً رأينا أنّ الصبر والتوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانية، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق والمشاكل، والتوكل هو الهدف والباعث على الحركة في هذا الطريق المديد الملتوي.

وفي آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ جواب لأُولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا وأهلينا، فمن سيطعمنا ويرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا تحزنوا على الرزق ولا تحملوا ثقل الذلة والأسر، فالرازق هو الله، لا لكم فحسب بل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

---

١. «لنبوئنّهم»: من مادة «تبوئة»، معناها إعطاء السكنى للإقامة والبقاء الدائم.

فالقرآن يؤكّد في نهاية الآية قائلاً: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

يسمع كلامكم كلّه، ويعرف لسان حالكم، ولسان حال جميع الدواب، وهو خبير بحاجات الجميع، ولا يخفى على علمه الذي لا حدّ له شيء أبداً.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ
ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ
وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى
ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

الإقرار بالتوحيد في الباطن والشرك في الظاهر: كان الحديث في الآيات السابقة موجّهاً إلى المشركين الذين أدركوا حقانيّة الإسلام، إلّا أنّهم لم يكونوا مستعدين للإيمان والهجرة، خوفاً من انقطاع الرزق عليهم، أمّا في هذه الآيات، فالحديث موجه للنّبيﷺ، وفي الواقع لجميع المؤمنين، وهو يبيّن دلائل التوحيد عن طرق «الخلقة»، و«الربوبيّة»، و«الفطرة»، أي عن ثلاث طرائق متفاوتة، ويريهم أنّ مصيرهم وعاقبة أمرهم بيد الله الذي يجدون آثاره في الآفاق وفي أنفسهم، لا بأيدي الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع.

فتبدأ الآية الأُولى من هذه الآيات محل البحث، مشيرةً إلى خلق السماوات والأرض وتستعين باعتقاداتهم الباطنية... فتقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

لأنّ من المسلم به أنّه لا عبدة الأصنام ولا غيرهم ولا أي أحد آخر يقول: إنّ خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر حفنة من الأحجار والخشب المصنوعة بيد الإنسان.

وبتعبير آخر: لا يشك في «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين في عبادة الخالق، وكانوا يقولون: إنّما نعبد أوثاناً ليقربونا إلى الله زلفى، فهم الوسطاء بيننا وبين الله.

وهم غافلون عن أنّه لا تفصل بين الخالق والمخلوق أيّة فاصلة.

إنّ الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. أي مع هذا المال كيف يعرضون عن عبادة خالقهم ويستبدلونها بعبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب؟!

«يؤفكون»: مشتقة من «إفك» ومعناها إعادة الشيء من صورته الواقعية والحقيقية.

والتعبير بـ«يؤفكون» بصيغة المجهول إشارة إلى أنّهم لا قدرة لهم على التصميم، فكأنّهم منجذبون إلى عبادة الأوثان دون إرادة.

والمراد من تسخير الشمس والقمر النظم التي أقرها الله تعالى، وجعل الشمس والقمر في دائرة هذه النظم في خدمة الإنسان، ومنافعه.

ثم يضيف القرآن تأكيداً لهذا المعنى، وهو أنّ الله خالق الخلق ورازقهم، فيقول: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾. فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس ولا بيد الأصنام.

وإذا كانوا يتصورون أنّ الله قادر، إلّا أنّه غير مطّلع على حالهم، فهذا خطأ كبير لـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وفي المرحلة الثانية يقع الكلام عن «التوحيد الربوبي» ونزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. فهذا هو ما يعتقده عبدة الأصنام في الباطن، ولا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم، فهم يعرفون أنّ الخالق هو الله، وأنّه ربّ العالم ومدبره.

ثم يضيف القرآن مخاطباً نبيّه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. فالحمد والثناء لمن أنعم جميع النعم.

وحيث إنّ أقوال المشركين من جهة، وأعمالهم وأفعالهم وكلماتهم من جهة أخرى، يناقض بعضها بعضاً، فإنّ الآية تختتم بإضافة الجملة التالية: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وإلّا فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض في كلماته، فتارةً يرى أنّ الخالق والرازق والمدبر للعالم هو الله، وتارة يسجد للأوثان التي لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس.

ومن أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنّه يبيّن في الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياساً إلى الحياة الأُخرى الخالدة، في عبارة موجزة ومليئة بالمعاني، فيقول: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. «اللهو»: معناه الإنشغال، أو كل عمل يصرف الإنسان إليه ويشغله عن مسائل الحياة الأساسية. أمّا «اللعب»: فيطلق على الأعمال التي

فيها نوع من النظم الخيالي، والهدف الخيالي أيضاً.

فالقرآن في هذا الصدد يشرح حال الدنيا وحال الآخرة، مبيّناً أنّ الحياة الدنيا هي نوع من الإنشغال واللعب، ثم يطوى كل شيء ويغدو في سلة النسيان.

أمّا الحياة الحقيقية التي الافناء بعدها، فهي الحياة الآخرة فحسب.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدرياً. وهذا التعبير: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ إشارة إلى أنّ الحياة الحقيقية هي في الأُخرى، لا في هذه الدار الدنيا ـ فكأنّ الحياة في الأُخرى تفور من جميع أبعادها، ولا شيء هناك إلّا الحياة.

وبديهي أنّ القرآن لا يريد أن ينسى وينفي مواهب الله في هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الأُخرى قياساً صريحاً وواضحاً... وإضافةً إلى كل ذلك فإنّه ينذر الإنسان لئلا يكون أسيراً لهذه المواهب، بل ينبغي أن يكون أميراً عليها، ولا يؤثرها على القيم الأصيلة أبداً.

وفي المرحلة الثالثة... يتجه القرآن نحو الفطرة والجبلّة الإنسانية، ونحو تجلّي نور التوحيد في أشدّ الأزمات في أعماق روح الإنسان، وضمن مثال بديع جداً وبليغ فيقول: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أجل، إنّ الشدائد والأزمات هي التي تهيء الأرضية لتفتح الاجتماعية «الفطرة» الإنسانية، لأنّ نور التوحيد مخفي في أرواح الناس جميعاً.

إلّا أنّ التعليمات الخاطئة والغفلة والغرور ـ وخاصة عند السلامة ووفور النعمة ـ تلقي عليها أستاراً، غير أنّ طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، وتتجلى نقطة النور آنذاك.

وفي آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ وبعد ذكر جميع هذه الدلائل على التوحيد وعبادة الله، يواجه القرآن المشركين والكفار بتهديد شديد فيقول: إنّ هؤلاء أنكروا آياتنا وكفروا بما رزقناهم من النعم فليتمتعوا بها أياماً قلائل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم وشركهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سبب النّزول

في الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ جماعة من المشركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلّا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلّتنا والعرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنّا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية.

التّفسير

أشارت الآيات ـ التي سبق ذكرها ـ إلى بعض الحجج الواهية للمشركين، وهي أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الايمان ثم هاجرنا معك يا رسول الله، وقد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة، وفي الآيات ـ محل البحث ـ يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾. أي أرض مكة المكرمة.

في حين أنّ العرب كانوا يعيشون في حالة غير آمنة خارج مكة، وكانت قبائلهم مشغولة بالنهب والسلب والغارات، إلّا أنّ هذه الأرض باقية على أمنها ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

فالله المقتدر على أن يجعل في هذا البحر المتلاطم والطوفان المحدق بأرض الحجاز «من الفتن» حرم مكة كالجزيرة الهادئة الآمنة وسط البحر، كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! وكيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة الله العظيمة جلّ وعلا؟ ﴿أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

وبعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهي القرآن إلى هذه النتيجة في الآية التالية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾. لقد قدمنا دلائل واضحة لكم على أنّه لا شيء أحق بالعبادة وأحرى بها من الله، لكنّكم كذبتم على الله، وصنعتم له شركاء بأيديكم.

إنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الإجتماعية، وفي الواقع إنّ المظالم الأُخرى تسترفد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل منها نوع من الشرك.

ولكن اعلموا أنّ عاقبة الشؤم والخزي للمشركين ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وآخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ وهي في الوقت ذاته آخر آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعاً مهماً، وهي عصارة جميع هذه السورة، وتنسجم مع بدايتها. تقول الآية... بالرغم من أنّ المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى الله، من قبيل مشكلة معرفة الحق، ومشكلة وساوس الشياطين من الإنس والجن، ومشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا

يرحمون، ومشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، وهي أنّ الله يمنحكم القوة والاطمئنان قبال المشاكل ويدافع عنكم، تقول الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، ومثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعي وجهاد في سبيل الله ومن أجله، وللوصول إلى الأهداف الإلهية، كل ذلك يصدق عليه ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ سواءً كان في سبيل كسب المعرفة، أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو في إعانة الضعفاء، أو في الإقدام على أي عمل حسن وصالح.

وعلى هذا أنّنا إذا أصبنا بأي نوع من الهزيمة عدم الموفقية، فسبب ذلك وعلته أحد أمرين: إمّا أنا قصّرنا في جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص في العمل.

«نهاية تفسير سورة العنكبوت»

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

٣٠

سورة الرّوم

وهي ستون آية

مكية

محتوى السورة: يمكن تلخيص مضامين هذه السورة في سبعة أقسام:

١ـ التنبؤ بانتصار الروم على الفُرس في معركة تحدث في المستقبل.

٢ـ جانب من طريقة التفكير عند غير المؤمنين وكيفية أحوالهم.

٣ـ قسم مهم من آيات «عظمة الله» في الأرض والسماء، وفي وجود الإنسان.

٤ـ الكلام عن التوحيد «الفطري» بعد بيان دلائله في الآفاق وفي الأنفس لمعرفة الله سبحانه.

٥ـ العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين والمذنبين وتفصيل حالاتهم، وظهور الفساد في الأرض نتيجة لآثامهم وذنوبهم.

٦ـ إشارة إلى مسألة التملك، وحق ذوي القربى، وذم الربا.

٧ـ العودة ـ مرّة أُخرى ـ إلى دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره، والمسائل المتعلقة بالمعاد.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي ﷺ قال: «**ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبّح لله ما بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه وليلته**».

ومن البديهي أنّ من جعل محتوى هذه السورة في روحه وقلبه، وراقب الله في كل لحظة،

فإنّ تقوى الله تملأ قلبه حتى يكون حقيقاً بهذا الأجر والثواب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ
﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ
ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ
عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: غلبت فارس الروم وظهروا عليهم على عهد رسول الله ﷺ وفرح بذلك كفار قريش من حيث إنّ أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب وساء ذلك المسلمين. وكان بيت المقدس لأهل الروم، كالكعبة للمسلمين. فدفعتهم فارس عنه. فنزلت الآيات الآنفة وقالت: لئن غلب الفرس الروم ليأتينّ النصر والغلبة للروم خلال فترة قصيرة، وقد حدّدت الفترة لانتصار الروم على الفرس ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾.

وهذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهة دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوي الذي يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، ومن جهة أُخرى كان فألاً حسناً للمسلمين في مقابل فأل المشركين، حتى أنّ أبابكر ناحب بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء، إن لم تغلب فارس في سبع سنين. فقال رسول الله ﷺ: «**لم فعلت فكل ما دون العشرة بضع**». فكان ظهور فارس على الروم في تسع سنين ثم أظهر الله الروم على فارس زمن الحديبية ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب.

التّفسير

تنبؤ عجيب: هذه السورة ضمن مجموع تسع وعشرين سورة تبدأ بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾. وقد بحثنا مراراً في تفسير هذه الحروف المقطعة وخاصة في بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف. والفارق الوحيد الذي نلاحظه هنا عن بقية السور، ويلفت النظر، هو أنّه خلافاً لكثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، التي يأتي الحديث بعدها على عظمة

القرآن الكريم، بل بحثاً عن اندحار الروم وانتصارهم في المستقبل، ولكن مع التدقيق يتّضح أنّ هذا البحث يتحدث عن عظمة القرآن الكريم أيضاً... لأنّ هذا الخبر الغيبي المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، وعظمة هذا الكتاب السماوي.

يقول القرآن بعد الحروف المقطعة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

والمراد بـ«أدنى الأرض» المكان القريب من بلاد فارس، أي إنّ المعركة وقعت في أقرب نقطة بين الفرس والروم.

ثم يضيف القرآن: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾. وهم أي الروم.

ثم يبيّن الفترة القصيرة من هذه السنين بهذا التعبير: ﴿فِى بِضۡعِ سِنِينَ﴾. والمعلوم أنّ «بضع» ما يكون أقله الثلاث وأكثره التسع.

وإذا أخبر الله عن المستقبل، فلأنّه ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

إنّ هذه العبارة تريد أن توضح هذه اللطيفة، وهي أنّ القادر بالذات والمالك على الإطلاق هو الله، وكل من لديه شيء فهو منه.

ثم يضيف القرآن: أنّه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنّه ستغلب الروم ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

أجل، يفرحون ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

إنّ المسلمين «المؤمنين» فرحوا في ذلك اليوم لجهات متعددة:

١ـ من إنتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنّه ساحة لإنتصار الموحدين على المشركين.

٢ـ من الإنتصار المعنوي لظهور إعجاز القرآن.

٣ـ ومن الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار، ويحتمل أن يكون صلح الحديبية، أو بعض فتوحات المسلمين الأُخر.

ولزيادة التأكيد يضيف أيضاً: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. والسبب في عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم بالله وقدرته، فهم لم يعرفوا الله حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقة، وهي أنّ الله محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل، أو للضعف وعدم القدرة، لكن الله لا يتخلف عن الوعد، لأنّه يعرف عواقب الأُمور، وقدرته فوق كل شيء.

ثم يضيف القرآن معقباً: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

ولو كانوا يعلمون باطن الحياة وواقعها في هذه الدنيا، لكان ذلك كافياً لمعرفة الآخرة، لأنّ التدقيق في هذه الحياة العابرة، يكشف أنّها حلقة من سلسلة طويلة ومرحلة من مسير مديد كبير، كما أنّ التدقيق في مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أنّ الهدف النهائي ليس هو هذه المرحلة من حياة الجنين فحسب، بل هي مقدمة لحياة أوسع.

إعجاز القرآن من جهة علم الغيب: إنّ واحداً من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومثله الواضح في هذه الآيات ـ محل البحث ـ ففي عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن إنتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين.. ويعدّ ذلك وعداً إلهياً غير مكذوب ولا يتخلف أبداً.

ويحدثنا التاريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان... فقد انتصر الروم في حربهم الجديدة على الفرس، واقترن زمان هذا الإنتصار بـ«صلح الحديبية» وطبقاً لرواية أُخرى أنّه كان مقارناً لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون إنتصاراً ملحوظاً على الكفار.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

كان الكلام في آخر آية من البحث السابق عن السطحيين وأصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا والعالم المادي.. وكانوا جاهلين بماوراء الطبيعة ويوم القيامة، أمّا في هذه الآيات ـ محل البحث ـ والآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ والمعاد، فتبدأ هذه الآيات أوّلاً على صورة استفهام فتقول: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي**

أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. أي: لو أنّهم فكروا جيداً ورجعوا إلى عقلهم في الحكم ووجدانهم، لكانوا يطلعون جيداً على هذين الأمرين:

أوّلاً: إنّ العالم خلق على أساس الحق، وتحكمه أنظمة هي دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق وقدرة كاملة.

وثانياً: هذا العالم يمضي إلى الزوال، وحيث إنّ الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثاً، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا.

لذلك يضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾ فينكرون لقاء الله؛ أو إنّهم ينكرون المعاد أصلاً؛ أو إنّهم لا ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» ومخزية تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين.

وحيث إنّ التعبير بـ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كاشف عن أنّ هذه الحياة على كل حال لا تدوم، وهذا إنذار لجميع عبدة الدنيا، فإنّ القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾. أي بالدلائل الواضحات... إلّا أنّهم أهملوا ذلك، ولووا رؤوسهم، ولم يستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب الله الأليم، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أمّا آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ فتبيّن آخر مرحلة من كفرهم فتقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أجل، إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث، فيأكل إيمانه ويعدمه، ويبلغ الأمر حدّاً يكذب الإنسان فيه آيات الله، وأبعد من ذلك أيضاً إذ يحمل الذنب صاحبه على الإستهزاء بالأنبياء، والسخرية بآيات الله، ويبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ ونصيحة أبداً، ولا تؤثر فيه أيّة حكمة وأيّة آية، ولا يبقى طريق سوى أسواط عذاب الله المؤلمة له.

﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

مصير المجرمين ومآلهم يوم القيامة: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن الذين يكذّبون ويستهزؤون بآيات الله، وفي الآيات ـ محل البحث ـ تستكمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بيان جوانب منه، ومآل المجرمين في القيامة. فتبدأ الآيات بالقول: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ويبيّن في هذه الآية استدلال قصير موجز، وذو معنى كبير، على مسألة المعاد، وقد ورد هذا المعنى بعبارة أُخرى في بعض آيات القرآن الأُخرى ومنها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[1].

والآية الأُخرى تجسد حالة المجرمين يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

«يبلس»: مأخوذ من مادة «إبلاس» وتعني في الأصل الغم والحزن المترتبان على أثر شدة اليأس والقنوط.

فيحق للمجرمين أن ييأسوا ويبلسوا في ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان وعمل صالح فيشفع لهم في عرصات المحشر، ولا صديق حميم، ولا مجال للرجوع إلى الدنيا وتدارك ما مضى. لذلك يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا﴾.

فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون الله ويبرأون منها ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

ثم يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس في يوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

---

١. سورة يس /٧٩ ـ ٨١.

«يحبرون»: مأخوذة من مادة «حبر» على زنة «قشر» ومعناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور والفرح التي يظهر أثرها على الوجه أيضاً.

و«الروضة»: معناها المكان الذي تكثر فيه الأشجار والماء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها واخضرارها.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

التسبيح والحمد في جميع الأحوال لله: بعد الأبحاث الكثيرة التي وردت في الآيات السابقة في شأن المبدأ والمعاد، وقسم من ثواب المؤمنين، وجزاء المشركين وعقابهم، ففي الآيات محل البحث يذكر التسبيح والحمد والتقديس والتنزيه لله من جميع أنواع الشرك والنقص والعيب، إذ تقول الآية: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

وعلى هذا فقد ورد في هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح الله:

١ـ بداية الليل ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾.

٢ـ وطلوع الفجر ﴿حِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

٣ـ وعصراً ﴿عَشِيًّا﴾.

٤ـ وعند الزوال ـ في الظهر ـ ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

وفي الآية التالية عودة إلى المعاد، ويرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾. أي: إنّ ميدان «المعاد» وميدان «نهاية الدنيا» المتمثّل أحدهما بخروج «الحي من الميت» والآخر «خروج الميت من الحي» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعاً، ويعود الناس في يوم القيامة إلى الحياة مرّة أُخرى.

أمّا التعبير بـ«يخرج الحي من الميت» المستعمل للأراضي الموات، واضح أنّ الأرض تبدوا ميتة في فصل الشتاء، ولكن في فصل الربيع مع سقوط الغيث واعتدال الهواء، تدبّ

الحركة في الأرض، وهذا ميدان المعاد الذي نراه في هذه الدنيا.

وأمّا مسألة «إخراج الميت من الحي» فهي ليست شيئاً خافياً ولا مستتراً.

وأمّا ما يتعلق بـ«إخراج الحي من الميت» فبالرغم من أنّه من المسلّم به ـ في العصر الحاضر على الأقل ـ أنّه لم يُر في المختبرات والمشاهدات اليومية أنّ موجوداً حيّاً يتولد من موجود ميّت، غير أنّ الثابت علمياً والمسلّم به أنّه كانت الأرض في البداية قطعة ملتهبة من النّار، ولم يوجد عليها أي موجود حي، ثم وفقاً لظروف خاصة لم يكتشفها العلم ـ حتى الآن ـ بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحيّة من مواد لا روح فيها بقفزة كبيرة.

لكن الذي نلمسه وندركه، هو أنّ الموجودات الميتة دائماً تكون جزءاً من الموجودات الحيّة وتكسىٰ ثوب الحياة، فالماء والطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحية، لكنّهما حين يكونان في البدن ويصيران جزءاً منه يتحولان إلى موجود حي وتضاف كريات جديدة وخلايا جديدة إلى كريات البدن وخلاياه.

فعلى هذا يمكن القول بأنّ في نظام الطبيعة دائماً يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وبهذا الدليل فإنّ الله الذي خلق الطبيعة قادر على إحياء الموتى في العالم الآخر.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

آيات الله في الآفاق وفي الأنفس: تحدثت هذه الآيات ـ وبعض الآيات الأخر التي تليها ـ عن طرائف ولطائف من دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره في نظام عالم الوجود، وهي تكمل البحوث السابقة.

ويتحدث القرآن هنا أوّلاً عن خلقة الإنسان التي تعد أوّل موهبة إلهيّة له، وأهمها أيضاً، فيقول: ﴿**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ**﴾.

في هذه الآية إشارة دليلين من أدلة عظمة الله.

الأوّل: خلق الإنسان من التراب، وربّما كان إشارة إلى الخلق الأوّل للإنسان، أي آدمﷺ، أو خلق جميع الناس من التراب، لأنّ المواد الغذائية التي تشكل وجود الإنسان، جميعها من التراب بشكل مباشرة أو غير مباشر.

الثاني: كثرة النسل «الآدمي» وانتشار أبناء «آدم» على سطح المعمورة.

والآية الثانية من الآيات محل البحث تتحدث أيضاً عن قسم آخر من الآيات في الأنفس، التي تمثل مرحلة ما بعد خلق الإنسان، فتقول: ﴿**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا**﴾. أي من جنسكم والغاية هي السكينة الروحية والهدوء النفسي.

وحيث إنّ استمرار العلاقة بين الزوجين خاصة، وبين جميع الناس عامة، يحتاج إلى جذب قلبي وروحاني، فإنّ الآية تعقب على ذلك مضيفة: ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾.

ولمزيد التأكيد تختتم الآية بالقول: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

ومن هنا يمكن الإستنتاج بأنّ الذين يهملون هذه السنّة الإلهية وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلّا أن توجب الظروف الخاصة والضرورة في بقائهم عزّاباً).

أمّا آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ فهي مزيج من آيات الآفاق وآيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء والأرض، فتقول: ﴿**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾.

السماوات بجميع ما فيها من كرات، وبجميع ما فيها من منظومات ومجرّات، السماوات التي مهما حلّق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها ومطالعتها.. وكلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

ثم ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: ﴿**وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ**﴾. لذلك خلق الله الأصوات والألوان واختلاف الألسنة لتنظيم المجتمع البشري.

ويقول القرآن في نهاية الآية الآنفة الذكر: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ**﴾.

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

آيات عظمته ـ مرّة أخرى: تعقيباً على الأبحاث السابقة حول آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، تتحدث هذه الآيات ـ محل البحث ـ حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة.

فتتحدث في البداية عن ظاهرة «النوم» على أنّها ظاهرة مهمة من ظواهر الخلق ومثل بارز من نظام الحكيم الخالق، فتقول: ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ**﴾.

وتختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾.

هذه الموهبة العظيمة تؤدّي إلى أن يحصل جسم الإنسان وروحه على الراحة اللازمة، فيرتفع التعب بطرو النوم الذي بمثابة وقفة لعمل البدن، ونوع من التعطيل له.

ومن المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان وذبل جسمه وانهار بسرعة، ولعجل عليه العجز والشيخوخة.

والآية التي تلتها، والتي تبيّن خامس آية من آيات عظمة الله، تتجه أيضاً إلى «الآيات في الآفاق» وتتحدث عن البرق والرعد والغيث وحياة الأرض بعد موتها، فتقول: ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾.

«الخوف»: مما يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق؛ و«الطمع»: من جهة نزول الغيث الذي ينزل بعد البرق والرعد على هيئة قطر أو مزنة.

وعلى هذا فإنّ البرق السماوي مقدمة لنزول الغيث.

ثم يضيف القرآن معقباً: ﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ**﴾.

ويؤكّد القرآن في نهاية هذه الآية مضيفاً: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ ويفهمون أنّ وراء هذه الخطة المدروسة يداً قادرة تقودها وتهديها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصّماء أبداً.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية أُخرى من الآيات الآفاقية، وذلك عن تدبير نظام السماء والأرض وبقائها ودوامها، إذ تقول: ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ**﴾. أي إنّ خلق السماوات ـ المشار إليه في الآيات السابقة ـ ليس آية وحدة فحسب، بل بقاؤها ودوام نظامها أيضاً آية أُخرى، فهذه الأجرام العظيمة في دورانها المنظّم حول نفسها تحتاج إلى أُمور كثيرة، وأهمّها المحاسبة المعقدة للقوة الجاذبة والدافعة.

وفي نهاية الآية وبالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: ﴿**ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ**﴾.

والتعبير بـ«دعاكم» إشارة إلى أنّه كما أنّ أمراً واحداً منه كاف للتدبير ولنظم العالم، فإنّ دعوة واحدة منه كافية لأن تبعثكم من رقدتكم وتنشركم من قبوركم ليوم القيامة.

وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

المالكية لله وحده: كانت الآيات المتقدمة تتحدث حول توحيد الخالق، وتوحيد الرّب، أمّا الآية الأُولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، وهو توحيد الملك فتقول: ﴿**وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾.

ولأنّهم ملك يده فـ﴿**كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ**﴾ وخاضعون.

أي إنّ زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كله في يده، وهم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة الله، شاؤوا أم أبوا.

والدليل على هذه «المالكية» هو الخالقية والربوبية، فإنّ من خلق الموجودات في البداية وتكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنّه هو المالك الأصلي لها لا سواه.

وحيث إنّ المسائل المرتبطة بالمبدأ والمعاد هي كالنسيج الواحد في انسجامها في سلسلة الآيات الآنفة، والتي ستأتي في ما بعد، ففي الآية التالية يعود القرآن إلى موضوع المعاد، فيقول: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾.

إنّ القرآن يثبت في هذه الآية ـ بأوجز الإستدلال ـ مسألة إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنّكم تعتقدون أنّ بداية الخلق من قبل الله، فعودة الخلق مرّة أُخرى أيسر وأهون من بداية الخلق.

ولكن من الضروري أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»، وهي أنّ التعبير بالهيّن والصعب، هو

من خلال نافذتنا الفكرية، وأمّا بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب والسهل».

وربّما كان لهذا السبب أن عقّب القرآن في ذيل الآية مباشرة بالقول: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

لأنّنا لو تصورنا أي وصف كمالي لأي موجود في السماء والأرض، من علم وقدرة وملك وعظمة وجود وكرم، فصداقه الأتم والأكمل هو عند الله، لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلّا هو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدودة، والجميع لديهم أوصاف عارضة، أمّا أوصاف الله فذاتية، وهو مصدر الكمالات وأساسها.

وتنتهي الآية بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. هو عزيز لا يقهر، إلّا أنّه وفي منتهى قدرته غير المحدودة لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكلّ أفعاله وفق حكمته.

وبعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد والمعاد في الآيات المتقدمة، يتناول القرآن موضوع «نفي الشرك» في مثال بيّن فيقول: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

هذا المثال هو لو كان لديكم ـ أيّها المشركون ـ عبيد ومماليك فـ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾. أي إنّ عبيدكم هؤلاء يشاركونكم في أموالكم وفي ما رزقناكم، بحيث تكونون أنتم وعبيدكم سواء في مالكية هذه الأموال والنعم وتخافون أن يتصرفوا في هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحالة في تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو في الميراث مثلًا... فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا في أموالكم.

فلو كان لكم عبيد وملك يمين «وهو ملك مجازي» لما رضيتم بمثل هذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التي هي ملك حقيقي لله شركاءه، أو تزعمون أنّ بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة الله أو بعض المخلوقات الأخرى كالجن أو الأصنام الحجرية والخشبية شركاءه، ألا ساء ما تحكمون.

والتعبير بـ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يشير إلى هذه اللطيفة، وهي أنّكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد والمماليك، ولا المالكين الواقعيين للمال، لأنّ كل ذلك لله وحده.

ويعقب القرآن في ختام الآية للتأكيد والدقة على مضمون السؤال، فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ

نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثلة الواضحة في حياتكم لتفكروا فيها، ولكيلا تنسبوا لله ـ على الأقل ـ ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم.

غير أنّ هذه الآيات البينات وهذه الأمثلة الواضحة هي لأولي الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، واستوعبت آفاقهم الخرافات والعصبيات، لذلك يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ولذلك فإنّ الله خلّى بينهم وبين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئة، فتاهوا في وادي الضلالة ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

ولا شك أنّ من يتركهم الله ويخلّي بينهم وبين أنفسهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد ومعرفة الله، عن طريق مشاهدة نظام الخلق، وتعقيباً على الآيات الآنفة الذكر، فإنّ الآية الأُولى ـ من هذه الآيات محل البحث ـ تتحدث عن التوحيد الفطري، أي الإستدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية والدرك الضروري والوجداني، إذ يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، لأنّها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. «الوجه»: معناه معروف، وهو مقدم الرأس. والمراد به هنا الوجه الباطني، ووجه القلب والروح؛ وكلمة «أقم»: مشتقة من الإقامة، ومعناه الاستقامة والوقوف بثبات (على قدم راسخة)... وكلمة «حنيف»: مشتقة من «حَنَف»، ومعناها الميل من الباطل نحو الحق، ومن الاعوجاج نحو الاستواء والاستقامة. فعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل والاستواء عن كل انحراف وباطل وخرافة وضلال.

إنّ جملة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وبعدها جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ تأكيدان آخران على مسألة كون الدين فطرياً، وعدم إمكان تغيير هذه الفطرة...

ويضيف القرآن في الآية التالية: ينبغي أن يكون التفاتكم للدين الحنيف والفطري حالة كونكم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ فأصلكم وأساسكم على التوحيد، وينبغي أن تعودوا إليه أيضاً.

«منيبين»: من مادة «إنابة» وهي في الأصل تعني الرجوع المكرر، وتعني هنا الرجوع نحو الله والعودة نحو الفطرة (التوحيدية).

ويعقب على الأمر بالإنابة والعودة إليه، بالأمر بالتقوى، وهي كلمة تجمع معاني أوامر الله ونواهيه، إذ يقول: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي اتقوا مخالفة أوامره.

ثم يؤكّد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾. لأنّ الصلاة في جميع أبعادها، هي أهم منهج لمواجهة الشرك، وأشدّ الوسائل تأثيراً في تقوية أسس التوحيد والإيمان بالله سبحانه.

كما أنّه يؤكّد في نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهي فيقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. لأنّ الشرك أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، فإنّ الله لا يغفره.

وفي آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ يبيّن القرآن واحداً من آثار الشرك وعلائمه في عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا في دينهم على فرق واحزاب كثيرة: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾.

والعجيب في الأمر أنّهم على تضادّهم واختلافهم فإنّ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

أجل، إنّ واحدة من علائم الشرك هي التفرقة، لأنّ المعبودات المختلفة هي منشأ الأساليب المتفاوتة وهي أساس الانفصال والتفرق.

بحث

التوحيد باعث داخلي قوي: كما أنّ الدلائل العقلية والمنطقية توجّه الإنسان، فإنّ في داخله دوافع وموانع أيضاً.. بحيث تعين له الجهة «أحياناً» من حيث يدري أو لا يدري.

وفلسفة وجودها في داخل الإنسان، هي أنّ الإنسان لا يستطيع ـ دائماً ـ أن ينتظر إيعاز العقل والمنطق، لأنّ هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتية» بعض الأحيان.

فمثلًا لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق «لزوم بدل ما يتحلل» ضرورة تناول الطعام.. أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد والتناسل» ضرورة الممارسة الجنسية، وأن يعمل ويتحرك وفق المنطق في كل ذلك، لكان ينبغي أن ينقرض الإنسان ـ قبل هذا الزمان بكثير ـ إلّا أنّ الغريزة الجنسية من جهة وجاذبيتها، والإشتهاء للطعام من جهة

أُخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى. وكلّما كانت الأهداف حياتيةً أكثر وعمومية، كانت هذه «الدوافع» أشدّ وأقوى أيضاً.

لكن ينبغي الإلتفات إلى أنّ هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنية (غير واعية) لا تحتاج إلى وساطة العقل والشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام والجنس دون الحاجة إلى التفكير.

وقد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعي، أي إنّ هذه الدوافع الداخلية تترك أثرها في العقل والتفكير وتدفعه إلى انتخاب الطريق.

وعادة يطلق على النوع الأوّل من هذه الدوافع «الغريزة» وعلى النوع الثاني «الفطرة» (فلاحظوا بدقّة).

عبادة الله والإتجاه نحوه لها مكانه في نفوس جميع الناس، وهو ما يصطلح عليه بـ«الفطرة».

إنّ لدينا دلائل وشواهد مختلفة توضح بجلاء كون «الميل إلى الله» فطرياً، بل تؤكّد هذا الميل في جميع أُصول الدين وأبعاده:

١ـ إنّ دوام الإعتقاد الديني والايمان بالله على إمتداد التاريخ البشري بنفسه دليل على الفطرة، لأنّه إذا كان ذلك على سبيل العادة، لما كانت له جنبة عمومية ولا جنبة دائمية، فهذا العموم وهذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

٢ـ إنّ المشاهدات عياناً في العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاة والمستبدون ـ وأنظمتهم الجائرة من جهود وسعي لمحو الدين وآثاره وعن طرق مختلفة ـ لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين وجذوره من أعماق هذه المجتمعات.

٣ـ الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين وعلماء النفس في مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنّهم يقولون: «إنّ التحقيقات في المجالات النفسية تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الديني». أو بتعبير آخر: «بعد قدسي» أو «رباني» وربّما عدّوا هذا البعد أساساً للأبعاد الثلاثة الأُخرى وهي «البعد العلمي» و«البعد الجمالي» و«البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأنّ البواعث الأساسية للروح البشرية هي هذه:

أ) دافع البحث عن الحقيقة (الشعور العلمي) وهو مصدر أنواع العلوم، والأهداف التحقيقية المستمرة، والمتابعات في معرفة عالم الوجود.

ب) حس «الإحسان والعمل الصالح» الذي يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقية

كالتضحية والإيثار والعدل والشهامة وأمثالها.

ج) الحس «الجمالي»: وهو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل والأدب والمسائل الذوقية، وربّما أصبح مصدر التحول في حياة الفرد أو المجتمع أحياناً.

د) الحس «الديني»، أي الإيمان بمبدأ عال وعبادته واتّباعه.

٤ـ إنّ التجاء الإنسان في الشدائد والمحن إلى قوة خفية وراء الطبيعة، وطلب حل المشاكل والازمات من قبل هذه القوة، هو أيضاً شاهد آخر على أصالة هذا الدافع الباطني والإلهام الفطري، ويمكن ـ بضمها إلى مجموع الشواهد التي ذكرناها آنفاً ـ أنّ توقفنا على مثل هذا الدافع الباطني في داخلنا نحو الله سبحانه.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم
بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ
أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ
رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾

إنّ الآية الأُولى من المقطع الذي بين أيدينا، هي في الحقيقة استدلال وتأكيد على البحث السابق في مجال كون التوحيد فطرياً، وتفتح هذا النور الإلهي عند الشدائد والصعاب، إذ تقول الآية: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

إلّا أنّهم إلى درجة من السطحية والغباء التعصب والتقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث أنّه بمجرد انتهاء المشكلة وهبوب نسيم الرحمة الإلهية... ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

جملة ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ إشارة لطيفة للمعنى التالي، وهو أنّ الأساس في الفطرة هو توحيد الله وعبادته، والشرك أمر عارض، حيث متى ما يئسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان والتوحيد، شاؤوا أم أبوا.

والطريف هنا أنّ «الرحمة» في الآية مسندة إلى «الله»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلّا أنّ الضرّ لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيراً من الإبتلاءات والمشاكل التي تحوطنا هي من نتائج أعمالنا وذنوبنا.

وكلمة «ربّهم» التي تكررت في الآية مرّتين، تؤكّد على أنّ الإنسان

يحسّ بالتدبير الإلهي وربوبية الله على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك والضلال.

أمّا الآية الأُخرى فجاءت بعنوان التهديد لأُولئك المشركين، الذين ينسون ربّهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ وليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ثم يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم والمواهب الدنيوية الفانية. وسوف يرون العاقبة السيئة لذلك: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

والقرآن في الآية الأُخرى يصوغ الكلام في صيغة الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾. «السلطان»: معناه ما يدل على السلطة وينتهي إلى الإنتصار عادةً، ومعناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فهي ترسم طريقة تفكير وروحية هؤلاء الجهلة الاغبياء الذين يقنطون ويحزنون لأقل مصيبة، فتقول: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

في حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر الله عند النعم، ولا يقنطون عند الشدائد والمصيبة، إذ هم يشكرون الله على نعمه، ويرون المصيبة امتحاناً واختباراً، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون ويتّجهون إلى الله تعالى.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية بصورة جيدة أنّ قسماً من المصائب والابتلاءات التي تحل بالإنسان هي ـ على الأقل ـ نتيجة أعماله وذنوبه.

إنّ جملة ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور ونوع من السكر والنشوة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾
فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ
اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا
يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن
يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

الآية الأُولى من الآيات محل البحث تتحدث عن التوحيد والربوبية أيضاً، وانسجاماً مع سياق الآيات السابقة التي كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عند إقبال النعمة عليهم، ويأسهم وقنوطهم عند مواجهتهم الشدائد والبلاء، فإنّها تقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

إنّ العالم هو عالم الأسباب، لكن هذه القاعدة في الوقت ذاته ليست دائمية ولا كلية، إذ يتفق أن نرى أناساً جديرين وجادّين يركضون من هنا وهناك، إلّا أنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، وعلى العكس منهم قد نشاهد أناساً لا يسعون ولا يجدّون وتتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حدب وصوب.

وهذه الاستثناءات كأنّها لبيان أنّ الله بالرغم من جميع ما جعل للأسباب من تأثير، لا ينبغي أن يُنسى في عالم الأسباب، ولا ينبغي للإنسان أن يغفل أنّ وراء هذا العالم يداً قوية أُخرى تديره كيف شاءت.

لذلك يقول القرآن في نهاية الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وحيث إنّ كل نعمة وموهبة ينالها الإنسان تحمّله وظائف ومسؤوليّات وعليه أداؤها، فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنبي ﷺ في الآية التالية قائلاً: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

والتعبير بـ«حقّه» كاشف عن أنّهم شركاء في أموال الإنسان، وإذا دفع المرء شيئاً من ماله إليهم فإنّما يؤدّي حقّهم، وليس له منّ عليهم.

إنّ القرآن يبيّن في نهاية الآية ترغيباً للمحسنين، وشرط القبول ضمناً، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ومع الإلتفات إلى أنّ المراد من ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ ذاته المقدّسة، فإنّ هذه الآية تشير إلى أنّ الإنفاق وإيتاء حقّ الأقارب وأصحاب الحق الآخرين ليس كافياً، بل المهم هو الإخلاص والنية الطاهرة والخالية من أي أنواع الرياء والمنة والتحقير وانتظار الأجر والثواب.

وتشير الآية التالية ـ بمناسبة البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص ـ إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما لله، والآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا، فتقول: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

«الربا»: معناه في الأصل «الزيادة»، وهنا أنّ المراد من الربا هو الهدايا التي يقدمها بعض

الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروة والمال، كي ينالوا منهم أجراً أحسن وأكثر.

وبديهي أنّه في مثل هذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الإعتبار استحقاق الطرف الآخر ولا الجدارة والأولوية، بل كل ما يهدف إليه أن تصل الهدية إلى مكان، تعود على مُهديها بمبلغ أوفر ومن الطبيعي أنّ مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبة» إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية والمعنوية.

فعلى هذا يكون معنى «الربا» في هذه الآية هو «الهدية والعطية»، والمراد من جملة ﴿لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ هو أخذ الأجر الوافر من الناس. ولا شك أنّ أخذ مثل هذه الأجرة ليس حراماً، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلّا أنّه فاقد للقيمة الأخلاقية والمعنوية...

وفي الآية الأخيرة ـ من الآيات محل البحث ـ عودة أُخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، وهي الموضوع الأساس الذي ورد في كثير من آيات هذه السورة... وتصف الآية «الله» بأربعة أوصاف لتكون إشارة للتوحيد ومواجهة الشرك، ودليلًا على المعاد أيضاً فتقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

و من المسلّم به أنّ المشركين لم يكن أيّ منهم يعتقد بأنّ الخلق كان من قِبل الأوثان، أو أنّ أرزاقهم بيد الأوثان والأصنام، أو أنّ نهاية حياتهم بأيدي هذه الأوثان كذلك، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفي، والاستفهام هنا استفهام إنكاري.

إنّ القرآن يقول: عندما يكون الخلق والرزق والموت والحياة بيد الله، فالعبادة ينبغي أن تكون له فقط، ويكشف هذه الحقيقة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهي أنّ المشركين أهانوا كثيراً مقام رب العزة إذ أشركوه في العبادة مع أوثانهم.

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ
ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ
﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

أساس الفساد ومصدره أعمال الناس أنفسهم: كان الكلام في الآيات السابقة عن الشرك، وتعلم أنّ أساس جميع المفاسد هو الغفلة عن أصل التوحيد والتوجه نحو الشرك، لذلك فإنّ القرآن ـ في هذه الآيات محل البحث ـ يتحدث عن ظهور الفساد في الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

والله يريد أن يريهم ما قدموه و﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

والآية الآنفة الذكر تبيّن المعنى الواسع حول إرتباط الفساد بالذنب، الذي لا يختص بأرض «مكة» والحجاز، ولا بعصر النبي ﷺ.

وفي الآية التالية يأمر الله الناس بالسير في الأرض ليروا شواهد كثيرة «حيّة» من مسألة ظهور الفساد في الأرض بسبب المعاصي والذنوب من قبل الناس. ويوصي نبيّه ﷺ أن يأمرهم بذلك، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾.

أجل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، والشرك أساس الفساد والانحراف والضلال.

وحيث إنّ التصور والوعي والإنتباه، ثم العودة والإنابة إلى الله، كل ذلك لا يكون ـ دائماً ـ مفيداً ومؤثراً، ففي الآية التالية يوجه القرآن الخطاب للنبيّ الأكرم ﷺ قائلاً: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾. أي يتفرقون «فريق في الجنّة وفريق في السعير».

ووصف الدين بأنّه «قيّم» مع ملاحظة أنّ «القيّم»: معناه الثابت والقائم، هو إشارة إلى أنّ هذا التوجه المستمر «أو الإقامة» هي للدين.. أي لأنّ الإسلام دين ثابت ومستقيم وذو نظام قائم في الحياة المادية والمعنوية للناس، فلا تمل عنه أبداً، بل أقم وجهك للدين القيم.

وإنّما وجه الخطاب للنبيّ ﷺ ليعرف الآخرون واجبهم ووظيفتهم أيضاً.

والتعبير بـ«يصّدّعون» من مادة «صدع» معناه في الأصل: كسر الإناء، ثم انتقل بالتدريج إلى أي نوع من أنواع التفرق والتشتت، وهنا إشارة إلى انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النيران.

والآية التالية بيان لهذا الإنفصال في يوم القيامة، إذ تقول: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

«يمهدون»: مشتقة من «المهد» وكما يقول الراغب في مفرداته فإنّ معناه السرير المعدّ

للطفل، ثم توسعوا في المعنى فصار المهد والمهاد لكل مكان مهيأ ومعد «وفيه منتهى الدعة والراحة» وقد انتخب هذا التعبير لأهل الجنّة والمؤمنين الصالحين، من هذه الجهة.

ومن الطريف أنّ القرآن اكتفى في شأن الكفار بالتعبير بـ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ولكن بالنسبة للمؤمنين تضيف الآية التالية: أنّ المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم الله من مواهبه وفضله فيقول: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾.

ومن المسلّم به أنّ هذا الفضل لا يشمل الكفار إذ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ
فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قلنا: إنّ في هذه السورة قسماً مهمّاً «يستلفت النظر» من دلائل التوحيد وآيات الله، مبيناً في سبع آيات تبدأ كل منها بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ قرأنا ستّ آيات منها بصورة متتابعة، والآية الأُولى من الآيات أعلاه هي سابع الآيات التي مرّت، وآخرها.

وحيث كان الكلام في الآيات السابقة عن الإيمان والعمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد ـ أيضاً ـ تأكيداً على ذلك. تقول هذه الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾. فهي تمضي سابقةً للغيث في حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم وتربط بينها وتؤلفها وتحملها إلى الأرض اليابسة العطشى، وتغطي صفحة السماء، ومع تغير درجة حرارة الجو تهيء المطر للنزول من هذه الغيوم.

ولذلك فنحن نقرأ في تعقيب الآية قوله تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أجل، إنّ الرياح هي وسيلة لتكاثر النعم العديدة في مجال الزراعة والتدجين، وهي وسيلة للحمل والنقل أيضاً، وأخيراً فهي سبب للإزدهار التجاري.

وفي الآية التالية يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم، في حين أنّ الآية التي بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرّة أُخرى، ولعل وجود هذه الآية بين آيتين تتحدثان عن نعمة هبوب الرياح له جانب اعتراضي.

ولعل ذكر النبوة إلى جانب هذه المسائل، إنّما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ والمعاد.

إنّ الآية تقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. أي المعجزات والدلائل الواضحة والبراهين العقلية، فاستجاب جماعة منهم لهذه الدلائل، ولم يستجب آخرون لها برغم النصائح ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ونصرنا المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبالمجموع تعطي الآية هذا المعنى: «إنّ نصر المؤمنين من المسلّم به هو في عهدتنا وهذا الوعد سنجعله عملياً دون الحاجة إلى نصر من الآخرين».

أمّا الآية الأُخرى فتعود ثانية لذكر نعمة هبوب الرياح فتقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾[١]. أي القطع الصغيرة المتراكمة ثم تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[٢].

ويضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

ثم تأتي الآية الأُخرى بعدها فتقول: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾[٣].

وإنّما يدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون في رحلاتهم وتنقّلهم في الصحراء، ولحياتهم علاقة وصلة قريبة مع هذه القطرات.

---

١. «الكِسَف»: جمع «كسفة» ومعناها القطعة، وهي هنا ـ كما يبدو ـ إشارة إلى القطعات (من الغيوم) المتراكمة بعضها فوق بعض فتجعلها غليظة وشديدة، وذلك حين تكون الغيوم مهيأة لنزول المطر.

٢. «الودق»: على وزن (الحلق)، وتطلق على ذرات الماء الصغيرة كمثل الغبار أحياناً، إذ تتناثر عند نزول الغيث في السماء، كما تطلق على قطرات «المطر» المتفرقة أحياناً.

٣. «مبلس»: مأخوذة من مادة الإبلاس، ومعناها اليأس وعدم الرجاء.

وفي آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ يتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ قائلًا: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

والتعبير بـ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ في شأن المطر هو إشارة الآثار المباركة فيه من جهات مختلفة.

ومع الإلتفات إلى العلاقة بين المبدأ والمعاد في المسائل المختلفة، فإنّ «القرآن» يضيف قائلًا في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

حيث إنّ الكلام كان ـ في الآيات السابقة ـ عن الرياح المباركة التي كانت مبشرات بالغيث والرحمة، ففي أوّل آية من الآيات أعلاه إشارة إلى الرياح المدمّرة والتي تجلب الضرر، إذ يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

أُولئك هم الضعفاء الحمق فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون، وبعد نزوله مستبشرون، وإذا هبت ريح صفراء في بعض الأيام وابتلوا مؤقتاً تراهم يتصارخون وبالكفر يجأرون ويتجرأون.

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمة الله مستبشرون وعليها يشكرون، وعند نزول المصائب والمشاكل تراهم صابرون.

«مصفراً»: مشتقة من «الصُفرة» وهي لون معروف؛ ويعتقد أكثر المفسرين أنّ الضمير في «رأوه» يعود على الشجر والنباتات التي تصفر وذبل على أثر هبوب الرياح المخربة.

وفي الآيتين التاليتين ـ بمناسبة البحث الوارد في الآية السابقة ـ فإنّ الناس يقسمون إلى أربعة طوائف:

١ـ طائفة «الموتى» الذين لا يدركون أيّة حقيقة، وإن كانوا أحياء في الظاهر.

٢ـ وطائفة «الصُم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

٣ـ وطائفة «العمي» الذي حُرموا من رؤية وجه الحق.

٤ـ وأخيراً طائفة المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآية الأُولى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ولذلك لا تؤثر مواعظك في أصحاب القلوب الميتة. وكذلك ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

وتأتي الآية الثانية لبيان بقية الطوائف فتقول: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

إنّ القرآن لديه ما هو أفضل من «الحياة والموت الماديين والجسمانيين» وأفضل من السمع والبصر الظاهريين فلديه نوع اسمى من هذه الحياة والموت والسمع والبصر، وتكمن فيها سعادة الإنسان أو شقاؤه.

وفي آخر آية ـ من الآيات محل البحث ـ يشير القرآن إلى دليل آخر من أدلة التوحيد، وهو دليل الفقر والغنى، ويكمل البحوث التي تدور حول التوحيد في هذه السورة، فيقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾.

كنتم في البداية ضعافاً إلى درجة أنّكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحية الجسمية، أمّا من الناحية الفكرية فمصداقة قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم. لكن ـ قليلًا قليلًا ـ صرتم ذوي رشد وقوة، وصار لكم جسم قوي، وفكر جيد، وعقل مقتدر إدراك واسع. ومع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثم يبدأ بالإنحدار من القمة إلى قعر الوادي، الذي يمثل «مرحلة ضعف الجسم والروح».

هذا التغير والصعود والنزول خير دليل لهذه الحقيقة، وهي أنّه لم تكن القوة من عندكم ولا الضعف، فكل منهما كان من جهة أُخرى.

أمّا آخر جملة في الآية فهي إشارة إلى علم الله الواسع وقدرته المطلقة: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾. وهي بشارة وإنذار في الوقت ذاته، أي إنّ الله مطلع على جميع نيّاتكم، وهو قدير على مجازاتكم وثوابكم.

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ
﴿۵۵﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا
يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿۵٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿۵۷﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ
مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿۵۸﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿۵۹﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا
يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

في هذه الآيات ـ محل البحث ـ يعقب القرآن على البحوث التي كانت حول المبدأ والمعاد أيضاً، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمة، وذلك بتجسيمه حالة المجرمين في ذلك اليوم، إذ يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ في عالم البرزخ. أجل، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ فإنّهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق ومصروفين عنها.

والتعبير بـ«الساعة» عن يوم القيامة هو إمّا لأنّ يوم القيامة يقع في لحظة مفاجئة، أو لأنّه من جهة أنّ أعمال العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ الله سريع الحساب.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالة البرزخ والقيامة فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وتقديم العلم على الايمان هو لأنّ العلم أساس الايمان.

وجملة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ لعلّه إشارة إلى الكتاب التكويني، أو إلى الكتاب السماوي، أو إشارة إليهما معاً، أي كان ـ بأمر الله التكويني والتشريعي ـ مقدّراً أن تلبثوا مثل هذه المدّة في البرزخ، ثم تحشرون في يوم القيامة.

فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون ندمهم ويتوبون ويعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول في هذا الصدد: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

وواحد من أعذارهم أنّهم يلقون تبعات ذنوبهم على أشياخهم في الكفر والنفاق.

وأحياناً يلقون اللوم على الشيطان في تضليلهم وانحرافهم وأنّه وسوس لهم.

وفي الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها في هذه السورة... إذ تقول: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾. لقد ذكرنا فيه الوعد والوعيد، الأمر والنهي، البشارة والإنذار، الآيات الآفاقية والأنفسية، دلائل المبدأ والمعاد والأخبار الغيبية والخلاصة ذكرنا فيه كل شيء يمكن أن يؤثر في نفوس الناس.

وفي الحقيقة، إنّ في القرآن ـ بشكل عام ـ وسورة الروم ـ بشكل خاص ـ حيث نحن الآن في مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل والدروس الموقظة لكل فئة، ولكل طبقة، ولكل جماعة، ولكل فكر وأسلوب.

ومع هذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر في قلوبهم المظلمة السوداء أي من هذه الأمور، لذلك يقول القرآن في شأنهم: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

والتعبير بـ«مبطلون» تعبير جامع يحمل كل معاني الدجل والإفتراء والنسب الكاذبة والفاسدة من قبل المشركين.

والآية التي بعدها تبيّن السبب في مخالفة هذه الطائفة، فتقول: إنّ لجاجة هؤلاء التي لا حدّ لها وعداءهم للحق، إنّما هو لفقدانهم الإحساس والإدراك بسبب كثرة ذنوبهم، ولأنّهم لا يعلمون شيئاً... إذ تقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«يطبع»: مأخوذة من الطبع، ومعناها ختم الشيء، وهي إشارة إلى ما كان يجري في السابق، وهو جار أيضاً اليوم إذ يختم على الشيء كيلا يتصرف به ويُغلق بإحكام، وقد يضعون عليه القفل ويضربون عليه مادة لزجة مختومة بإشارة معينة كما بيّنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشيء إلّا بكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

وكان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التي لا ينفذ إليها النصح، والذين فقدوا الوجدان والعقل والعلم، ولا أمل في هدايتهم.

ومما يسترعي الإنتباه أنّ في الآيات السابقة ذكر العلم أساساً للإيمان، وفي هذه الآية ذُكر الجهل أساساً للكفر وعدم التسليم للحق.

أمّا آخر آية من السورة الروم، فهي تأمر النبي ﷺ أمرين مهمين، وتبشره بشارة كبرى، لتحثه على مواصلة الوقوف والتصدي للمشركين والجاهلين والسفهاء بالاستقامة والصبر.

تقول **أوّلاً**: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر والاستقامة أمام الحوادث المختلفة، وفي مقابل أنواع الأذى والبهتان والمصاعب ﴿فَاصْبِرْ﴾.

لأنّ الصبر والإستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

وليكون النبي ﷺ أكثر اطمئناناً، فإنّ الآية تضيف: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. فقد وعدك والمؤمنين بالنصر، والاستخلاف في الأرض، وغلبة الإسلام على الكفر، والنور على الظلمة، والعلم على الجهل، وسوف يُلبس هذا الوعد ثوب العمل.

وتأمر **ثانياً** بضبط الأعصاب والهدوء وعدم الانحراف في المواجهة الشديدة والمتتابعة، حيث تقول الآية: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

«يستخفّنك»: مشتقة من «الخفة» وهي خلاف الثقل. أي: كن رزيناً قائماً على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد ويحركوك من مكانك، وكن ثابتاً ومواصلاً للمسيرة باطمئنان، إذ أنّهم فاقدوا اليقين، وأنت مركز اليقين والإيمان.

هذه السورة بدأت بوعد إنتصار المؤمنين على الأعداء، وانتهت أيضاً بهذا الوعد، إلّا أنّ شرطها الأساس هو الصبر والاستقامة.

«نهاية تفسير سورة الروم»

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرس

١٦. سورة النحل ٥
١٧. سورة الإسراء ٦١
١٨. سورة الكهف ١١٩
١٩. سورة مريم ١٧١
٢٠. سورة طه ١٩٩
٢١. سورة الأنبياء ٢٣٩
٢٢. سورة الحجّ ٢٧٩
٢٣. سورة المؤمنون ٣١٥
٢٤. سورة النور ٣٤٥
٢٥. سورة الفرقان ٣٨٣
٢٦. سورة الشعراء ٤١٥
٢٧. سورة النمل ٤٦١
٢٨. سورة القصص ٤٩١
٢٩. سورة العنكبوت ٥٣١
٣٠. سورة الروم ٥٦٣

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی